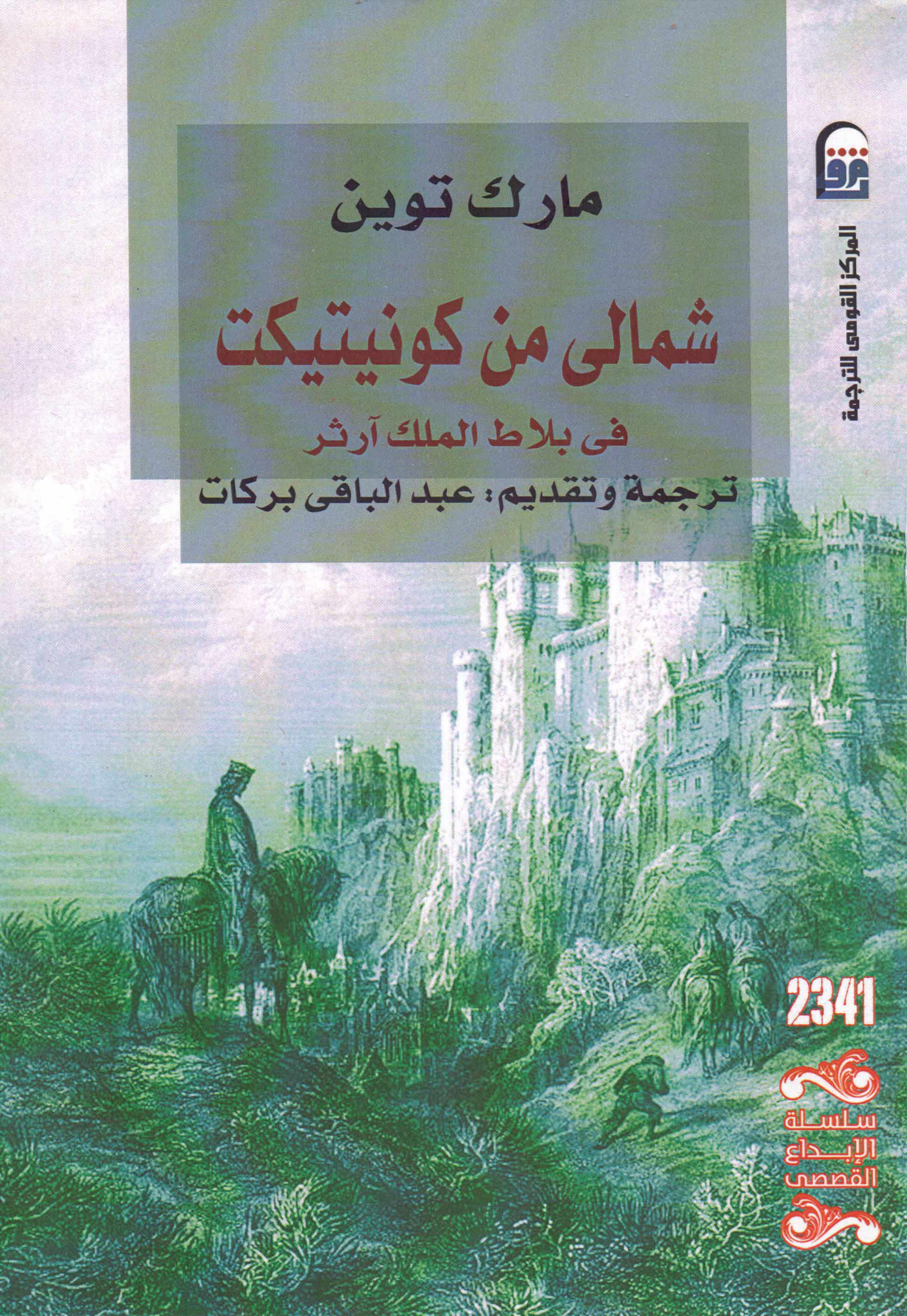

مارك توين
شمالى من كونيتيكت
فى بلاط الملك آرثر
ترجمة وتقديم: عبد الباقى بركات
المركز القومى للترجمة
2341
سلسلة الإبداع القصصى

نذكر لكروميل (1599 - 1653) محاولته الفاشلة، لإقامة جمهوريّة في إنجلترا الملكيّة ، ولا نذكر لهانك مورجان بطل مارك توين في روايتنا هذه، محاولته الفاشلة أيضا رغم ما لاقاه في سبيل ذلك من عنت، وذلك في عهد آرثر الملك خلال القرن السّادس، من أجل القيام بثورة وإعلان قيام الجمهوريّة الأولى في إنجلترا. حدثت المحاولة الأولى في الواقع المعيش، وباءت بالفشل وأعدم كروميل، أمّا الثّانية فخيال صرف ، تفتّق عن ذهن مارك توين، وكان مصير بطله صاحب المحاولة أن أعاده مارك توين إلى قرنه وهو " التّاسع عشر"، ليلقي بدوره حتفه. هناك أسباب كثيرة دفعت مارك توين إلي كتابة هذه الرّواية أهمّها سبب غير مباشر، لم يسلم من عواقبه البطلّ والمؤلّف هو موقف السير والتر سكوت؛ ذلك الكاتب البريطاني العظيم، من الجنوبيين الأمريكان، كما كان يطلق عليهم، في الحرب الأهليّة؛ إذ كان مؤيّدا لهم في البداية، ثمّ سرعان ما تخلّى عنهم، ما دعا مارك توين إلى تسفيهه، والحطّ من كلّ ما أحرزه السير سكوت في الأدب. لم يحطّ توين من شأن السير سكوت فحسب، بل تخيّل قيام الإنجليز بثورة على الملكية، ولولا أنّهم قوم سفهاء لنجحت الثّورة. لم يسلم كائن من قلم توين، حتّى الهوام والبهائم، فما بالك بالبشر!

تصميم الغلاف: هاني الشناوي

شمالى من كونيتيكت فى بلاط الملك آرثر

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2341
- شمالى من كونيتيكت فى بلاط الملك آرثر
- مارك توين
- عبد الباقى بركات
- الطبعة الأولى 2017

هذه ترجمة كتاب:
A Connecticut Yankee in King Arthur's Court
By: Mark Twain

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

شمالى من كونيتيكت فى

بلاط الملك آرثر

تأليف : مارك توين

ترجمة وتقديم : عبد الباقى بركات



2017

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توين، مارك.
شمالي من كونيتيكت في بلاط الملك آرثر تأليف: مارك توين؛ ترجمة وتقديم: عبد الباقي بركات.
ط ١ ـ القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٧
٤٦٤ ص، ٢٤ سم
١ ـ القصص الإنجليزية .
(أ) بركات ، عبد الباقي (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠١٦/١٤٦٠٤
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977-92-0732- 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

استهلال

ينتمى كلّ ما ورد فى هذه القصّة من قوانين وأعراف غير متحضّرة للتّاريخ، كذلك كلّ ما أبرز بشأنها من أحداث متعاقبة. وليس القصد هو الزّعم بوجود هذه الأعراف والتّقاليد فى إنجلترا فى القرن السّادس، بالقطع لا، بل نزعم فحسب أنّه حتّى مع وجودها فى الحياة الإنجليزيّة وفى حضارات أخرى فى أزمنة سالفة فمن الجدير بالاعتبار ألاّ تعدّ فرضية تطبيقها فى تلك الأيّام من قبيل التّشهير بالقرن السّادس أو القدح فيه. وهناك ما يثبت للمرء بالدّليل القاطع أنّه فى ذلك الزّمن البعيد، عندما كان يعجز أحد هذه الأعراف أو القوانين عن سدّ الحاجة المطلوبة، كان البديل المطروح لسدّ هذه الحاجة، قانونا أو عرفا أسوأ منه .

ولم تحسم فى هذا الكتاب مسألة ما إذا كان هناك ما يعرف بحقّ الملوك الإلهى فى الحكم، فهى معضلة بحقّ. فكون الحاكم الفعلى لأمّة من الأمم ينبغى أن يحمل سمات نبيلة وقدرات هائلة لهو من الأمور الثّابتة والتى لا جدال فيها، وكون الربّ وحده دون سواه هو من بيده انتخاب هذا الحاكم معصوما، لهو أيضا من الأمور الثابتة والتى لا جدال فيها، وكون الربّ حريا بهذا الانتخاب، هو أيضا أمر ثابت لا جدال فيه، وبالتبعية، فإن يتولى الربّ ذلك بالفعل، بحسب هذا الزعم، يعدّ نتيجة حتميّة، أعنى أنّه قبل أن يلتقى مؤلّف هذا الكتاب باللّيدى كاستلميني، وببعض من على تلك الشّاكلة من كبار القادة، كان من الصّعوبة بمكان أن يخوض فى هذه القضيّة، وقد ارتأى أنّه من الأفضل اتخاذ منحى آخر فى هذا الكتاب (الذى كان يجب صدوره فى

الخريف)، والمضى من ثم فى طرح وحسم ما يتعلّق بمسألة حقّ الملوك الإلهى فى الحكم فى كتاب غيره. وهو بالطبع ما كان حريّا بأن يحسم وأنا على أيّة حال ليس لدى شاغل بعينه فى الشّتاء القادم.

مارك توين
هارتفورد، ٢١ يوليو ١٨٨٩

تقديم المترجم

نـذكر لكرومويـل (١٥٩٩ - ١٦٥٣) محاولتـه الفاشـلة فى إقامـة جمهوريـة فى إنجلترا الملكية، ولانذكر لهانك مورجان، بطل مارك توين فى هـذه الروايـة، محاولتـه الفاشلة أيضا، فى عهد آرثر الملـك خـلال القـرن الـسادس القيـام بثـورة فى إنجلـترا وإعلان قيام الجمهورية الأولى . حدثت المحاولة الأولى عـلى أرض الواقـع وبـاءت بالفشل وأعدم كرومويل . أما المحاولة الثانية فخيال صرف، كان مـصير صـاحبها أن أعاده مارك توين إلى القرن الذى وفد منه مارك توين . هناك أسباب كثيرة دفعتـه إلى كتابة هذه الرواية، ولها أيضا تداعياتها، حيث لم يسلم من عواقبها كـل مـن البطـل والمؤلف، وإن كانت مصيبة المؤلف أنكى وأشد . أول هـذه الأسـباب، كـان موقـف السير والتر سكوت، الروائى ذائع الصيت، من الحرب بين أهل الشمال وأهل الجنوب فى أمريكا، أو الشماليين والجنوبيين كما كان يحلو للسير والتر تسميتها . كان سكوت مؤيدا فى البداية لأهل الجنوب فى الاستقلال، ثم انقلب عليهم بعد ذلك . ومـن بـين الأسباب الأخرى أن مارك توين دأب باعتباره مؤسـسا لأدب الـسخرية فى أمريكـا، على رشق أى أمة تجاهر بتاريخهـا وعراقتهـا، وأى أمـة متحـضرة، تزهـو بمؤسـساتها العريقة، وبأعرافها وقوانينها، يرشقها بهمزه ولمزه، ويعمل فيها معول تهكماته بغـرض الهدم الكامل، ثم البناء من جديد على أسس حديثة، حتـى وإن كـان مـصير البنـاء فى صورته الجديدة مجهولا، إلا أن الهدم لديه، يأتى فى المقام الأول، على حساب الأعراف والتقاليد مهما رسخت، بل الأدهى من ذلك كله، فتح الباب لحرية العقائـد والأديـان

والمذاهب، على المشاع إلى حد القضاء على ما تأسست عليـه هـذه العقائـد والأديـان ، ولايجدر بنا أن نرميه بإنكارها، ولكننا نقول إنه يرفض الشاذ منها والقائم على البـدع والخرافـات . ونـشير هنـا إلى العـودة إلى كتابـه The Innocent Abroad (رحلـة الحجاج إلى الأرض المقدسة) لنفس المـترجم، لنـرى قـدر تهكمـه بقـوانين وأعـراف وتقاليد تلك الأمم العريقة ، ناهيك عن بعض ما درج عليه النـاس مـن معتقـدات ، وملل ومذاهب، يهاجم فيها القديم مرات ويطرى الحديث بعض الـشىء، ذلـك لـو اعتبره حديثا . كان مارك توين يعشق المخترعات الحديثة التى بشرت بهـا إرهاصـات القرن التاسع عشر، ويباهى بها أمما كثيرة ، لاسيما اختراع الكهرباء ، والبرق والهـاتف والفونوجراف فى أمريكا، وقد خسر من أمواله الكثير وأشرف على الإفـلاس، جـراء شرائه ماكينة جديدة للطباعة ، استحدث فيهـا وسـيلة جديـدة لتجميـع الحـروف ، وسرعان ما تخلفت عن الحداثة بعد اختراع اللينوتيب .

هانك مورجان يعمل رئيس وردية فى مصنع للأسلحة، يتشاجر مـع عامـل فى المصنع، فيدفعه هذا، فيسقط على رأسه، ويغيب عن الوعى، وحين يفيـق، يجـد نفـسه وقد دخل قرنا جديدا غير الذى يعيش فيه، وسط أناس غرباء، ليس من بينهم شـماليا (أمريكيا) واحدا من بنى جلدته، من ولاية كونيتيكـت بأمريكـا . يقـع فى أسر أحـد الفرسان الإنجليز، ويبعث به هذا الفارس إلى قصر الملك آرثر فى كاميلوت، إنجلـترا، أسيرا دون جريرة ، وسجينا بلا موجب . ومن هنا يصب جام غضبه، على إنجلترا أمة وشعبا، وحضارة وتاريخا، وفروسية، ومما رسخ لدى الإنجليز من تقاليـد تـأتى عـلى رأسها مغامرات الفرسان، وهم فخر إنجلترا وراياتها الخفاقة . لايجد مورجـان مفـرا ــ بإسقاطات مارك توين ــ إلا أن ينقل حـضارة القـرن التاسـع عـشر بأدواتهـا، إلى القرن السادس فى عهد آرثر الملك . وأترك للقارئ أن يـستمتع بمتابعـة مغـامرات، لم

يألفها حتى فى الأفـلام ، ناهيـك عـن الروايـات، ودعابـة، ينقطـع نظيرهـا، وتهكـم وسخرية، بدءا من الهجوم والتهكم على النظام الملكى، وانتهاء بالمطالبة بتحرير العبيد من الرق والقضاء عليه .

سافر مارك توين فى أواخر الستينيات من القرن قبل الماضى، فى رحلة سـياحية إلى الأرض المقدسة (فلسطين)على سفينة بخارية، برفقة جماعة ممـن نـشدوا الحـج إلى الأرض المقدسة ، وبها كل المعالم الدينية، الإسلامية منها والمسيحية وما بقى من معـالم لليهود على قلته . عبر توين مع رفاقه الأطلنطـى، مـارا بجبـل طـارق، وزار بعـضهم مواقع مختلفة فى أوربا، كاليونان وإيطاليا وقبرص وإسبانيا، والمغـرب، وعـبروا بكـل سواحل المتوسط انتهاء بمصر، ولم يذكر مارك توين خلال كتابه هذا " رحلة الحجاج إلى الأرض المقدسة"، ولم يأت قط خلال صفحات الكتاب التى تربـو عـلى الـستمائة، على ذكر "إنجلترا"، ولو فى إشارة عابرة . لم نضع أيدينا على السبب الرئيس إلا حـين عرفنا موقفه من الكاتب البريطانى العظيم السير والـتر سـكوت، صـاحب الروائـع الكبيرة فى الأدب الإنجليزى، بسبب موقف الـسير والـتر مـن أهـل الجنـوب وهـم الأمريكان خلال فترة الحرب الأهلية، وتحريـضه لهـم عـلى مقاومـة أهـل الـشمال أى المحتل الإنجليزى ثم انقلابه عليهم بعد ذلك . طالع معى فقرات مـن كتابـه " حيـاة على المسيسبى فى ١١ نوفمبر "١٩٠٠ :

" ثم هاهو السير والتر سكوت، يتقدم إلـيكم بأعاجيبـه، وأحجياتـه الفريـدة، ينتقد هذه الموجة التقدمية، كى تعود من ثم إلى الوراء، ويظل العـالم سـادرا فى حلمـه بالرومانسية والحب والأخيلة الغريبة، وبصور أدبية بائدة ، متدنية فى العقيدة، وبأنظمة حكومات، أخنى عليها الزمن، وسخافات وهراءات، وقادة مزيفين، وبهرج رخيص،

وفرسان محتالين (يقصد مارك توين فرسان العصور الوسطى)، فى مجتمع غاب عنه الفكر، وأصبح أثرا بعد عين ."

هكذا وبسبب موقف السير والتر من الحرب، صب مارك توين جام غضبه، على ملك يعتبره الإنجليز أسطوريا ، وفرسان تجلهم أعراف البلد وتقاليدها ، ناهيك عن شعبها أيما إجلال .

"لقد تجاوز السير والتر ما أحدثه أى كاتب سواه، من أضرار بهذا العالم .عانى جزء كبير من أهل الجنوب من هذه الأضرار ومازالوا، بأكثر مما عانوه منذ أربعين أو خمسين عاما . أصاب السير والتر حضارة القرن التاسع عشر بخلط غريب، حيث مزج بين الأفكار التقدمية فيه ، و الرجعية، بطنطنة بلا موجب، ورومانتيكية فجة، من ماض غشيه الحمق، وأدركه الزوال . ذلك هو السيد والتر، الذى جعل من كل سيد فى الجنوب، إما ميجورا، وجنرالا ، أو كولونيلا أو قاضيا، ذلك قبل بدء الحرب، وهو أيضا من جعل من هؤلاء، مجرد ديكورات للزينة بعدها . إن السيد والتر هو مؤسس المراتب والطبقات الاجتماعية وهو مبتكر توقيرها ، وإجلالها، فكفاكم اتهامات بالعبودية والرق، دون تبنى مساهمات السير والتر فى ذلك وابتكاراته ."

ويقول توين إن السير والتر كان صاحب الفضل الأكبر فى ابتكار الشخصية الجنوبية قبل الحرب، وهو المسئول الأول عن إشعال هذه الحرب . ويقول ربما كان فى ذلك شيء من التهكم بشخص راحل، ولكنه يصر على أنه لولا السير والتر، لما قامت الحرب . كما يشبه تملك الجنوبى للعبيد، بتملك الشمالى لهم والأمران لديه سيان، لايختلف فى ذلك الأمريكى عن الفرنسى عن الإنجليزى . ولا يخفى علينا أن مارك توين كان على رأس كل الحركات المطالبة بإلغاء الرق، إلى الحد الذى جعل الملك

آرثر فى هذه الرواية، يباع عبدا فى سوق الرقيق مع بطلها هانك مورجان . ويذكر توين سوء حال الأدب فى أوائل القرن التاسع عشر ـــ توفى السيروالتر سكوت عام ١٨٣٢ـــ أى قبل هجوم مارك توين بسنوات طوال :انظر إلى رأيه فى الأدب خلال تلك الفترة :

" لو تفحص أحد أدب الجنوب، على مدار أربعين أو خمسين عاما متعاقبة، لوجد كلاما طنانا مرسلا، وبلاغة منمقة، ورومانتيكية فجة، وأغلبه لا يخلو من دعابات سمجة فى كل مناحيه . "

وفى مقال له تحت عنوان " اختفاء الحوار الأدبى ، فى ٢٠ نوفمبر ١٩٠٠، يذيله بهذه الكلمات :

" لحرى بك الانتماء إلى أحد جيلين، كى يدركك الإعجاب بالسير والتر سكوت، فإن كنت فى الثامنة عشر يمكنك قراءة " إيفانهو"، وعليك الانتظار حتى التسعين من عمرك ، لتقرأ بعض أعماله الأخرى، كما يحتاج الأمر من ناقد زاهد دؤوب، العيش أيضا حتى التسعين " ترى معى أن "إيفانهو "، وهى إحدى روائع سير والتر سكوت، لم تسلم بدورها من قلم مارك توين الساخر .

أما القصة التى نحن بصددها، فحدث ولا حرج، إنها تحمل من الإسقاطات والتداعيات فى أحداثها وشخوصها، كالذى تحمله من مفارقات ومغامرات ودعابات. يقوم توين بتحليل الشخصية الإنجليزية فى تلك الفترة، من خلال الحوار ، الذى حاول قدر استطاعته، استخدام لغة القرن السادس فيه، وفيها كثير من الحذف والاختصار، والوقف بغير موجب، فضلا عن استخدام الضمائر والأزمنة ذاتها، وهو ما عهدناه فى أعمال رواد الأدب فى تلك الفترة . يقول مارك توين فى مقدمته: إن

الأعراف والقوانين التى وردت فى هذا الكتاب تاريخية، وتسجل لهذا العهد، أما تطبيقها بحذافيرها، فيحتمل فيه الأخذ والرد . ودليلنا هنا إبرازه الجانب الخير فى الفرسان، بجانب ماصوره من بله تفشى فيهم بالنشأة، وشر ولدوا به ، ولاذنب لهم فيه . لذلك كان على هانك مورجان "الشمالى "، وهو بين ظهرانيهم، السعى الدؤوب إلى إبرائهم من تلك الآفات، واستخدامهم كوكلاء مبيعات، فى أنحاء إنجلترا، ولصق شارات الدعاية لما يروجونه من منتجات على ظاهر دروعهم فى مشاهد هزلية . كما يستعين بهم مستخدمين، فى مكاتب البرق والهاتف أو عمالا فى المصانع التى أنشأها وأقامها، نقلا من حضارة القرن التاسع عشر .

لم يكف مورجان بطل مارك توين، عن السعى للقضاء على الفروسية فى إنجلترا ، وذلك ما كان يباهى به الإنجليز الآخرين فى تلك الفترة وحتى الآن، وإن كانوا قد تخلوا الآن عن لبس الدروع الفولاذية، لكن توين، لم يفلح حتى آخر الرواية فى دفعهم إلى التخلى عنها ولو فكريا ، لأنهم ظلوا يجوبون البلاد بها حين أسند إليهم هانك بطل الرواية مهمة الترويج لمنتجات مصانعه وبيعها . لكن توين يتهكم بالدرع الفولاذى، ويصفه قطعة قطعة، وكان من نصيبه أن فرض عليه لبس الدرع، من قبل آرثر الملك، حتى يكون جديرًا بلقبه الجديد بوصفه فارسا وزعيما، ويخرج للمغامرة وقد وضع عليه هذا الدرع .

إذن كان هم مورجان الأول القضاء على مباريات المبارزة بين الفرسان نهائيا ، بعد أن شاهدهم فى الحلبة، ووجد أنه لايتوفر لديهم الوقت ، حتى لإخلاء قتلاهم من الساحة . وأسفر الأمر فى نهاية الرواية، عن تمسك الفرسان بما جبلوا عليه . وبعد أن قامت حرب ضروس بين الطرفين، واستخدم مورجان الأسلاك الكهربية لصعق

أغلب الفرسان، و يصاب فى النهاية ، إصابة غير قاتلة، ولكنها تقعده فى الفراش، فيظهر ميرلين الساحر ويقول له " لقد انتصرتم، أما النصر فحليفنا اليوم"، فيعود مورجان إلى حيث أتى ، أى إلى القرن الذى أتى منه . نريد أن نذكر هنا أنه رغم انتصار هانك مورجان فى ساحة القتال على الفرسان، فقد هزم على يد الساحر ميرلين، بعد أن تمسك الشعب بملكه ونظامه، وبتراث الفرسان التاريخى الذى يوقره . كما أن التعليم الدينى رغم أهميته فى بناء الأمم لم يتطور، وظل للكنيسة الكاثوليكية اليد الطولى فى الهيمنة على مقدرات الأمة، لكن ما طرأ من تطورات وأحداث بدءا من القرن السادس حتى التاسع عشر، فلم يشأ توين طبعا أن يلفت إليه أبدًا، وإلا أخرجه ذلك من سياق السرد، حيث إن العلاقة لديه كانت بين قرنين اثنين هما، السادس والتاسع عشر . لكن ما نسجله له هنا أنه يؤكد أن الخير كل الخيرهو فى القضاء على الرق، وتحقيق المساواة بين البشر، ونشرالتعليم بكل مناحيه، والقضاء على الإيمان بالخوارق والخرافات .

نرى أيضا أن بطل الرواية هانك مورجان، هو الذي- ظل طوال الرواية - تتمحور حوله الأحداث والشخصيات أو تتقاطع أو تتوازى علاقاتها أو تتداخل. لايعنى ذلك أن كلارنس الفتى - تابعه ومريده- كان مجرد شخصية ثانوية، بل يمكن اعتباره شخصية رئيثانوية، حيث تمر فصول كثيرة من بدء الرواية إلى نهايتها، دون أن يكون له ظهور أساسى، إلا فى مواقف بعينها رغم أهميته فى الرواية . تشبهه فى ذلك بقية الشخصيات مثل، ساندى والملك وميرلين الساحر ، وفرسان المائدة المستديرة ، وعلى رأسهم السير لونسيلوت، وهذه تؤدى أدوارا نظنها فى أجزاء من الرواية رئيسة، وفى الأخرى ثانوية .

يرى بعض النقاد أن مارك توين، قد تجسد فى شخصيات روايته، وفى هانك مورجان تحديدا . ومنهم من رأى أنه حركها جميعا كقطع الماريونيت، فى المواقف والأفكار والمطامح ، وهذه الأخيرة تنبع من مارك توين شخصيا . ذلك أنه عاب فى كتابه "رحلة الحجاج إلى الأرض المقدسة" ، على بروز الكتاب أمام قرائهم بين الفينة والفينة ، بروزا فجا ومباشرا ، و أن من مآثرالأنبياء - حسبما يرى - تبليغ رسالاتهم دون نقل أفكارهم أو آرائهم، و عاب على شكسبير، وغيره من الرواد فى زمانهم، سفورهم علنا أمام قرائهم فى بث الأفكار و الآراء والمعتقدات بصورة فجة، وها قد وقع توين فيما سبق أن أخذ على غيره من مآخذ . ومن جانبنا لا نرى عيبا، فى أن ينقل الكاتب آراءه وما يعتقده أو يومئ إليه ، فى العمل الفنى، من خلال الشخصيات والمواقف والأحداث، ما دام قد بعد عن المباشرة والفجاجة والتدخل المستدام من جانبه .

وهناك من يرى فى الحالة النفسية للشخصيات تناقضا وتضادا، ويأتى هانك مورجان فى مقدمة هؤلاء، فرغم كراهيته للارستقراطية، ومن يمثلها من النبلاء، فقد حاول الانتساب إليهم بالسعى وراء اللقب الذى اكتسبه وهو لقب " الزعيم " ومحاولته ترسيخ هذا اللقب، عند تنفيذه مقترح الملك، بالخروج والسعى خلف المغامرات كما هو دأب الفرسان حتى يكون واحدًا منهم . فى حين يرى آخرون أن تلك حيلة منه كى يتوفر له الاستقرار بينهم، ثم يتحين بعد ذلك الفرصة للقضاء عليهم . وهناك وجهة نظر ثالثة تؤيد وجود ذلك الاضطراب النفسى لدى الشخصية، فيما أسقطه توين على بطله، حتى يجعل منه شخصية إنسانية بكل المقاييس . ويتضح ذلك فى موقفه من الملكة مورجان لى فاى، حين استنكر قسوتها الدامية، فى معاملتها

لخدمها، حتى صغار السن منهم، ولكنه أيـدها فى موقفهـا مـن إعـدام أفـراد فرقتهـا الموسيقية بسبب أدائهم الرديء، بل حفزها على ذلك .

ورد أيضا فى القصة كـره مـارك تـوين للنظـام الملكـى، رغـم صـحبته آرثـر، وخروجه معه متنكرين فى هيئة مزارعين ، تفقدا للرعية، ووصل الأمر بهـما إلى بـيعهما على أنهما عبدان ، وقد أنكر توين فى مقدمته للكتاب، أن يكون قـد طـرح هـذا الأمـر أوحاول تسويته وحسمه . ورغم إلماحه إليه فى أكثر من صفحة فى هذا الكتاب فإنه لم يتراجع البتة عن طرحه وتفنيده فى مقالاته، وفى أعمال أخرى كثيرة له على عكـس مـا ادعى فى تقديمه هذا الكتاب . ومن مظاهر التهكم والسخرية فى الرواية ، نقل مـارك توين كل مظاهر ووسائل الحضارة فى القرن التاسع عشر إلى القرن السادس، من بـرق وبريد وهاتف وكهرباء وديناميت، حتى التعلـيم الـدينى عـلى أسـس حديثـة، لكـن الإنجليز داهنوه بتأييد أفكاره فى البداية ، ثم تخلوا عنه فى النهاية، وخـرج مـن خمـسة وعشرين إلى ثلاثين ألف فارس، ولم يفلح فى شيء صعقهم بالكهرباء ، على أكثـر مـن سياج وضعه هانك فى طـريقهم، لم يفلـح ذلـك فى تخلـيهم عـن مبـدأ الحكـم بـالحق الإلهى، وتقديسه وإبداء الولاء والطاعة ، بل تخلوا عن الثورة وإعلان الجمهورية، بعد موافقتهم عليها ليوم واحد فحسب . استخدم توين فى مواضـع خاصـة مـن الروايـة تعبير " مرحى، سكوت العظيم " Great Scott وأرى فى ذلـك تهكـما بالـسير والـتر سكوت، رغم إمكانية فهمه على نحو آخر يشير إلى المواطن الأسكتلندى، لكن لاحظ أن السير والتر سكوت أسكتلندى بدوره .

تبقى بعد ذلك قضية المتاجرة بالرقيق، التى لايرى توين فارقا فيها بين مواطن إنجليزى، أو فرنـسى، أو أمريكـى، فالكـل تـاجر للرقيـق، والكـل شريـك فى هـذه

التجارة. لقد قاد توين الحركات الاجتماعية و الإنسانية، مطالبا بإلغاء الرق ، ويصل فى الرواية إلى ذروة هذه المطالبات، بسوق آرثر الملك رغم تنكره فى هيئة مزارع إلى سوق الرقيق، وبيعه عبدا، أى أن مصير المتاجرة بالعبيد، سيسفر لامحالة عن سوق الإنجليزى، والأمريكى، والفرنسى ، إلى سوق العبيد، وهو ماحدث بالفعل، ناهيك عن فضحه جلب العبيد الزنوج من أفريقيا إلى أوربا وأمريكا والمتاجرة بهم، ومنهم من قضى نحبه على البواخر وألقى به فى البحر، دون أهله وذويه . لكن الملك على قسوته فى رفضه حتى مناقشة هذا الأمر مع هانك ، حتى أثناء تنكره ، يبرز توين فيه رقة القلب، ولين الجانب فى المواقف الإنسانية، بصعوده أعلى أحد الأكواخ، وحمله فتاة بريئة وإحضارها إلى أمها وبكائه عليها، وذلك بعد أن تسبب إقطاعى فى تشريد أفراد الأسرة ، ما عرضهم لداء الجدرى، واعتقاله إخوتها الثلاثة ، ولكن وياللمفارقة، يطلب الملك بل يحرض على القبض على إخوتها بعد هروبهم ، وإثارتهم حالة من التمرد على الإقطاعى ، فيبين توين أن القوانين التى كان يعمل بها فى تلك الفترة كانت جائرة رغم علم الجمع بذلك ومنهم الملك ذاته .

العجيب أن ردود الفعل الإنجليزية على الكتاب قد انطلقت على مارك توين كالمدافع الهادرة رغم استقبال كل أعماله السابقة بحمده والثناء عليه، حتى صدور هذا الكتاب، وما أدل على ذلك سوى مقال (غير موقع)، صادر بصحيفة الديلى تلجراف، بتاريخ ١٣ يناير ١٨٩٣ نورد منه المقتطف التالى :

" فى هذا الوقت من السنة يتنافس الشعراء والكتاب والفنانون والممثلون، فى ابتكار ما يتلقاه الشباب والكبار من أعمال ومشاهد تعبر عن البطولة والجمال والجلال والطهر والحق، أما مارك توين فقد انفرد بتكريس نفسه، لإبراز أسوأ ما فى تراث

فرسان المائدة المستديرة ، فى عهد الملك آرثر، وإبراز مساوئ الإقطاع، وغفلة وغباء النبلاء، وكراهيتهم للطبقات الأدنى ، وخاصة الطبقة المتوسطة . وقضائهم الساعات فى الدعة والخمول ، وذلك حين يواجهون بالغزوات والمعارك والاضطرابات . ويصور لنا كيف يقوم شمالى زائر لقصر آرثر، بنقل المخترعات الحديثة إلى إنجلترا سرًّا، وقهر أعتى المحاربين، ورد المظالم للفقراء ، وقد يكون وراء هذا مخطط خطير، يؤسس لرسم صورة زائفة للعدالة ."

" إننا نكن كل احترام لمارك توين، وهو الكاتب الذى أثرى الأدب الإنجليزى، بوصفه الطفل بسمات عجيبة ــ توم سوير ــ، وتقديمه فى "الأمير والمعدم" The prince and The pauper صورة حية للحياة فى العصور الوسطى ."

" هذا الكتاب رغم ذلك كله، يسيء إلى ويمس سمعة الملك الأسطورى آرثر، تلك التى أحاطها الكتاب والشعراء بهالة من القداسة، وهذا نتاج سيئ لقلم كاتب ساخر . هناك شيء من الاحتيال المشوب بالتناقض، فى الإتيان بأمريكى من كونيتيكت ليلتقى وجها لوجه بفرسان عدوانيين . إن السخرية فى هذه المجالات والمحاكاة على هذا النسق، ليستا سوى هجاء ينحدر إلى أحط المدارك العقلية، ويستحقان لذلك أن يوضعا فى المكان اللائق بهما حيث يرتدى الزيف أقنعة الحق والجلال ".

"يمكن أن تكشف عن كثير من روح المرح والدعابة لدى كتاب مشاهير، أمثال توماس كارليل، وبراوننج ، ولكن البذاءة تكون فى الحط من قدر المثل العليا والقدوة فى شخص الملك آرثر، وفرسان المائدة المستديرة، بداعى الدعابة والسخرية."

" ولكى تجعل من الواقعى والدينى والبطولى والأسطورى، مادة للسخرية أو الدعابة، فليكن فى إطار المهابة والدماثة والوقار ."

" إن صورة الملك آرثر التى وصلت إلينا فى إطار الأسطورة، ليس من واقع التاريخ، كانت نموذجا للبطولة والفروسية، التى تغلغلت وترسخت فى قلوب أناس العصور الوسطى ".

أتمنى أن أكون قد رسمت إطارا لما بنى عليه مارك توين رؤيته، وصاغه فى هذه الرواية الجميلة التى آمل أن يستمتع بها القارئ الكريم .

(المترجم)

مراجع المقدمة

-Twain (Minni M.Brashear and Robert Rodney)

-The Mark Twain Papers and the projct of the Bancrof

-Library , University Of California Bekerley .

-Mark Twain , Henry Nash Studies .

-Essays by Mark Twain at Quotidianna

-Reviews of new books by Mark Twain , London : Hotton ,

publisher 1870.

-An Essay by Mark Twain adressed, (Sir Walter Scott)

http://www.twainquotes.com

Directory of Mark Twain s maxims,quotations,and various opinions November , 1900)

-An essay / London Telgraph , 1890 January 13.

A blogs : http ://deadwhiteguysslit.blogspot .com/2010/6/

Connecticutyankee/in/kingarthers.html.

إيضـــاح

تصادف لقائى فى حصن ووريك، بذلك الغريب المدهش الذى سأحدثكم عنه. شدتنى إليه أمور ثلاثة : سذاجته المفرطة، وارتباطه العجيب بدرع قديم، وشعورى فى صحبته بالارتياح، للاضطلاع وحده بالحديث. خلصنا كما يميل الودعاء من البشر، إلى ذيل قطيع سهل القياد، و بدأ على الفور يتحدث فى أمور أثارت اهتمامى. بدا خلال حديثه المفعم بالرقة والبهجة والانسيابية، يشرد بعيدا عن هذا الواقع المعيش وهذا الزمان، إلى عصر بعيد موغل فى القدم وبلد قديم راح أدراج النسيان ، فيطوقنى بفتنته تلك ،حتى يتراءى لى أنى أتحرك بين أطياف وظلال وغبرة وثرى زمن عتيق، مقرًا بما خلف هذا الزمن من تقاليد ومقدسات ! وحين أبادره بالحديث عن أصدقائى المقربين أو أعدائى اللدودين أو جيرانى الأقربين، تراه يتحدث عن سير بيديفير، وسير بورس دى جانيس، وسير لونسلوت البحرى، وسير جالاهاد، وكل ألقاب أعضاء المائدة المستديرة ، تلك التى يطبق صيتها الآفاق، وكم بدا لى وهو يواصل حديثه ، كما لو أنه شيخ بحق، قد طعن فى السن وأكل منه الدهر وشرب ! التفت إلى مباشرة وقال، كمن يتحدث فى الطقس، أو فى أى شأن آخر "لابدأنك تعرف بتقمص الأرواح، فهل تعرف بتحول العصور والأجساد ؟ "

ذكرت أننى لم أسمع بذلك . فبدا قليل الاهتمام ، وكأنه الحديث يدور حول الطقس، حتى إنه لم يأبه إن كنت سأجيبه عن ذلك أو العكس . مرت لحظة صمت قصيرة، قطعتها غمغمة دليل سياحى يعمل بالأجر :

" إنه معطف درع قديمة، من القرن السادس، زمن الملك آرثر، وأعضاء المائدة المستديرة ، وقيل إنها تعود إلى الفارس سير ساجرامور لا ديزايروس، وألحظ ذلك الثقب المستدير، الظاهر عبر درع الزرد فى الجانب الأيسر من الصدر، لم يتم التوصل

إلى سبب حدوثه، ويفترض أنه بسبب طلقة من مسدس ، وذلك إثر اختراع الأسلحة النارية ، ربما كان بتدبير من قوات كرومويل ".

فغر صاحبي فاه بابتسامة لاعلاقة لها بالتحضر، بل بها بطل تداوله منذ قرون عديدة، وغمغم بصوت مسموع :

" أدرك تماما أنه لم يعد لديك ماتقول ". وأردف بعد توقف :"وكذلك الحال معي ". وحين بدأت أفيق من الصدمة الكهربائية التي أحدثتها عبارته هذه ،كان قد رحل .

قضيت طوال تلك الليلة ، بجوار مدفأتي في معسكر ووريك الحربي ، أحلم بالأيام الخوالي، والمطر يدق بزخاته النوافذ، والريح تزمجر ، حول الطنف والثنايا، والزوايا . ومن حين لآخركنت أتصفح كتابا رائعا للسير المحنك توماس مالوري، وأنهل من معين مغامراته وأعماله الكبرى التي لاتنضب، وأتنفس أرج ما حوى الكتاب من قدامى المشاهير، ثم أعوذ إلى الحلم. حل أخيرا منتصف الليل ، فقمت بقراءة رواية أخرى، كي أدخل في النعاس، أسردها هنا على سبيل العلم بها :

كيف قام السير لونسلوت بذبح عملاقين ، وتحرير أحد الحصون

"فوجئ أيضا بوجود عملاقين هائلين، أحسن تسليحهما، ووقي رأسيهما، وأمسكا بأيديهما بهراوتين غليظتين. ثبت السير لونسلوت ترسه أمامه، وسدد ضربة قوية عالية للعملاق الأول، فأطاح برأسه بعيدا. وحين شاهد زميله ذلك، طار صوابه وولى مدبرا، هلعا من الضربات الرهيبة، والسير لونسلوت يطارده بكل ما أوتي من قوة، فلحق به وضربه على كتفه، وشطره بسيفه نصفين . اتجه السير لونسلوت بعد ذلك إلى القاعة، فظهرت أمامه ثلاثون سيدة وفتاة، انحنين له، وشكرن

الله وإياه على نجاتهن . وقلن له وذلك لأن هذا ياسيدى هو العام السابع على وقوع أغلبنا فى أسر هؤلاء، وأننا لكسب قوتنا مارسنا العمل فى صناعة كل أنواع القبعات والقمصان الخاصة بالفرسان، وكلنا سليلات أسر كريمة، وقد أسعدنا الزمان بفارس لم يخلق مثله، إنك قمت بما لم ينجزه من قبلك فارس، وسيذكر لك هذا على الدوام، إننا نناشدك إخبارنا باسمك، كى نخبر أصدقاءنا بهوية من كُتب لنا الخلاص على يديه. قال لهن، أيتها السيدات الجميلات، إن اسمى هو سير لونسلوت دو ليك. ثم غادرهن ، وتركهن فى رعاية الله . امتطى فرسه من ثم وارتحل إلى بلاد غريبة قفر ، وعبر أنهارا كثيرة وأودية، وكان دوما فى مواجهة الشر .

و كان من حسن طالعه وصوله فى ساعة متأخرة من الليل، إلى فناء بيت واسع، فوجد ربة بيت عجوز رحبت بإيوائه فى الدار، ووجد هناك حفاوة كبيرة به وبفرسه. وكان أن اصطحبته العجوز إلى حجرة فسيحة تقع بأعلى البوابة كى يخلد إلى الفراش. هناك تجرد السير لونسلوت من سلاحه ووضع عتا ده إلى جانبه، ودخل فى الفراش، و غشيه على الفور الرقاد. تلا ذلك مباشرة قدوم شخص على صهوة جواده . طرق الباب طرقا متلاحقا استيقظ السير لونسلوت من نومه لدى سماعه الطرقات ، وأطل من النافذة فرأى فى ضوء القمر فرسانا ثلاثة ، على صهوات جيادهم قد لحقوا بالطارق، وأسرع الفرسان الثلاثة إلى مهاجمة هذا الطارق بسيوفهم، تحول الفارس إليهم مجددا ليزود عن نفسه. قال السير لونسلوت، حقا علىّ مساعدة ذلك الفارس، فمن الخزى أن يواجه فارس، بمفرده ثلاثة فرسان، فأكون شريكا فى قتله لو حدث . تجهز بعتاده، وتدلى بملاءة من إحدى النوافذ إلى الفرسان الأربعة . قال السير لونسلوت: هلموا إلىّ أيها الفرسان، توقفوا عن قتال هذا الفارس . ترك الثلاثة قتال السير كاى، وتحولوا إلى السير لونسلوت . هناك بدأت معركة ضارية ، حيث هاجم الثلاثة بشراسة، وسددوا للسير لونسلوت الضربات، وتربصوا به الدوائر . تأهب

السير كاى فى الحال لمساعدة السير لونسلوت. فقال له: كلا سيدى، إننى لن أقبل عونا منك، وما دمت أنت الذى يلقى منى العون فدعنى أقاتلهم بمفردى. وجد السير كاى صعوبة شديدة فى تحقيق رغبته، وبذا تنحى جانبا. سرعان ما عاجلهم السير لونسلوت بست ضربات فأوقعهم أرضا .

هتف الثلاثة معا: أيها الفارس، إننا نستسلم لرجل مثلك لايشق له غبار . فرد السير لونسلوت بقوله: لن أقبل استسلامكم لى، وعليكم الاستسلام للسير كاى نائب الأمير، وسوف أبقى على حياتكم على هذا الشرط فحسب. قالوا: أيها الفارس المغوار، نحن نستنكف أن نقدم على ذلك، فقد كنا نطارده حتى وصل هذا المكان، وقد هزمناه بدونك، لذا فإن طلبك استسلامنا له غير مبرر. قال السير لونسلوت: حسنا ، وبناء على ذلك ، فإننى أخيركم بين الحياة والموت، وأمر ذلك يتوقف على ما سوف يقرره السير كاى. عقبوا على ذلك بقولهم: سنفعل ما تنصحنا به ، أيها الفارس النبيل، للظفر بأرواحنا. قال السير لونسلوت: سوف تذهبون فى عيد العنصرة القادم، إلى قصر الملك آرثر، وتمثلون أمام الملكة جينيفر وتطلبون منها العفو والرحمة، وتذكرون لها أن السير كاى، قد أرسلكم إليها لتكونوا أسراها . استيقظ السير لونسلوت فى الصباح الباكر، وترك السير كاى نائما ، وتجهز السير لونسلوت بدرع السير كاى وترسه، ثم ذهب إلى اصطبل الخيل، وأخذ حصانه، وودع مضيفته ثم رحل . استيقظ السير كاى بعد ذلك بقليل، وبحث عن السير لونسلوت، واكتشف أنه قد أخذ درعه وفرسه. أقسم الآن بأننى أدرك جيدا قدر ما سيسبب ذلك من أسى لبعض رجال حاشية الملك آرثر، لأن الفرسان سيجترئون عليه، ظانين أن ذلك هو أنا، وينطلى ذلك عليهم، وأننى سأرتحل فى أمان لوجود درعه وترسه معى. رحل السير كاى مباشرة . وشكر مضيفته.

دق الباب بمجرد أن وضعت الكتاب جانبا، ودخل ضيفى الغريب . قدمت له غليون طباق ومقعدا. ورحبت به. وضيفته بشراب الويسكى الأسكتلندى المعتق، وزدته كأسا أخرى، وتلوتها بأخرى، أملا فى أن يواصل سرد قصته . انطلق وحده بانسيابية وتلقائية، بعد أن حفزته بالكأس الرابعة .

قصة الغريب

أنا مواطن أمريكى . نشأت وترعرت فى هارتفورد، فى ولاية كونيتيكت، فى الريف بأعلى النهر . وبذا أكون واحدا من الشماليين ، عمليا، أجل ، وأظننى أكاد أعدم لين المشاعر، أو بمعنى آخر ، أعدم الميل إلى قرض الأشعار . كان أبى حدادا، وعمى بيطارا، وحذوت فى بدء حياتى حذو كليهما . فذهبت إلى مصنع كولت لإنتاج الأسلحة، وتعلمت مهنتى الأساس، وخبرت كل ما يتعلق بتلك المهنة هناك، تعلمت صنع كل شيء ، البنادق والمسدسات ، والمدافع، والمراجل ، والماكينات ، وكل ما يرتبط بالآلية الموفرة للعمالة . وإننى مندهش لقدرتى على صنع كل ما يحتاجه إنسان، أو كل ما يحتاجه الناس ، لافرق عندى بين شيء وآخر، وإذا لم تكن هناك وسيلة عصرية سريعة لصنع شيء ما، يمكننى ابتكار واحدة، بالسهولة التى أدحرج بها قطعة من جذع شجرة . صرت الآن مديرا للمراقبين فى المصنع، يعمل تحت إدارتى ألفا رجل .

حقا ، إن رجلا كهذا لشديد المراس، لامحالة . يحظى المرء بالكثير من ذلك النوع من التسلية ، حين يعمل تحت إمرته ألفان من الرجال الأشداء ، وبدورى أحظى بذلك . حانت ، أخيرا، اللحظة التى التقيت فيها غريمى، وشربت كأسى . حدث ذلك خلال مشاجرة بالعتلات بينى وبين شخص يدعى هيركوليس . ضربنى على

جانبْ رأسى ضربة ساحقة ، تـصدع منهـا كـل شيء ، وتـسببت فى اقـتلاع مفاصـل جمجمتى، حتى تداخل كل منها فى الآخر(*) .

أظلمت الدنيا بعد ذلك ، ولم أشعر بشيء، ولم أدرك شـيئا البتـة، للحظـة عـلى الأقل .

حين أفقت مجددا رأيتنى جالسا تحت بلوطة، فوق الحشائش، أكاد أتمثل أمـامى منظرا جميلا، وريفا مترامى الأبعاد . لم أكن كلية بمفردى، بل كان هناك شـخص عـلى جواده، يرنو بنظره إلى شخص وكأنه خارج للتو من كتاب مصور . كان يلـبس درعـا حديدية عتيقة الطراز ،من الرأس حتى القـدمين، ويعتمـر خـوذة عـلى رأسـه، أشـبه ببرميل مسامير مشقق سعة الثلاثين جالونا . ولديـه تـرس وسـيف، ورمـح ضـخم، فضلا عن أن حصانه كان مدرعا بدوره، يبرز من جبهته قرن فـولاذى، ويتـدلى فـوق جسده بالكامل، غطاء مزركش من الحرير بلونه الأخضر والأحمـر البـديع ، مـا يـشبه مفرش السرير، يكاد يلامس الأرض .

قال ذلك الشخص :" أتبارز أيها السيد النبيل ؟ "

"أفعل ماذا ؟"

" أن تدخل مبارزة بالأسلحة، دفاعا عن وطن أو امرأة، أو .... "

" ماهذا الذى تدعونى إليه؟ عـد إلى الـسيرك الـذى تعمـل بـه، وإلا أبلغـت عنك"

لم يكن أمام هذا الرجل إلا أن عاد القهقـرى لمـسافة مـائتى يـاردة، ثـم انطلـق باتجاهى بأقصى سرعة، وقد أوشك برميل المسامير على مس عنق جواده، موجها رمحه

(*) اليانكى : الأمريكى ذو الأصول الإنجليزية ، ويطلق على سكان المنطقة الشمالية تحديدا .

الطويل مباشرة إلى الأمام . أدركت أنه كان جادا فيما قال، لـذلك كنت عنـد قدومـه أعتلى إحدى الأشجار .

أعلن الرجل أننى صرت مملوكًا له، وأسير حربته . اضـطلع وحـده بالحجـة وأخذ زمام المبادرة، لذلك ارتأيت أن من الأفضل لى كسب وده . عقـدنا اتفاقـا بـأن أتبعه حيث ذهب، على ألا يمسسنى بضرر فى المقابـل . هبطـت مـن أعـلى الـشجرة ، وبدأنا الرحيل، وسرت بجانب فرسه . سرنا فى الطريق دون مكدر، وسـط فرجـات فى أحراش، وعبورا بجداول لا أستطيع تذكر أنى قد رأيت مثلها من قبل، مـا أدخـل فى نفسى الدهشة والاستغراب، فضلا عن أننا لم نصل بعد إلى سيرك مقـام أو مايـشير إلى وجود سيرك . لـذلك تخليـت عـن فكـرة الـسيرك تلـك، وافترضـته قادمـا مـن بيمارستان. لكننا لم نخلص إلى بيمارستان بالكليـة ، يمكنـك القـول بـأنى قـد أصـبت بارتباك . سألته عن المسافة التى قطعناها من هارتفورد فأجاب بأنه لم يسمع مـن قبـل بهذا المكان، ماجعلنى أظن كذبه، لكنى تركت الأمر يمر دون اعتراض مـن جـانبى . وبعد مرور ساعة من الوقـت، رأينـا بلـدة بعيـدة ترقـد فى حـضن وادٍ مـن الأوديـة بجواره نهر متعرج المسار ، يقع بعيدًا عنه فوق أحد التلال، حصن قـديم ضـخم، ذو أبراج وبريجات ، وكان ذلك أول حصن حقيقى أراه خارج الصور الفوتوغرافية.

قلت مشيرا بيدى :"بوابة الجسر ؟"

وقال:" كاميلوت !"

ظهرت على ضيفى الغريب، علامات النعاس. بدأ يطرق برأسـه ثـم فغـر فـاه ببسمته العتيقة ، المثيرة للشفقة ، و قال :

" أرى أننى لا أستطيع مواصلة الحكى، فهاك كل ماسجلته مكتوبًا هنا ، اقـرأه إن أحببت "

قال ونحن فى غرفة نومه : "بدأت بكتابة اليوميات، وبعد ذلك بسنين، حولتها إلى كتاب . فات على ذلك وقت طويل . "

سلمنى مخطوطه، وأشار إلى المكان الذى يجب أن أبدأ منه القراءة : "ابدأ من هنا فقد قصصت عليك ما سبق من أحداث . غالبه النعاس من ثم، وسمعت صوته متمتما لدى مغادرتى غرفته : "أتمنى لك خلوة طيبة سيدى المهذب "

جلست فى بيتى بجوار المدفأة، وبدأت أتفحص كنزى الثمين . كان الجزء الأول فيه وهو الأضخم، مخطوطا ، اصفر بفعل الزمن . أمعنت النظر فى صفحة بعينها، فوجدتها رقا مطموس المعالم . ظهرت تحت كتابة مطموسة قديمة بخط الشمالى القاص، آثار لطريقة فى الكتابة، تبقى هى الأكثر قدما وغموضا ، وكانت بعبارات وجمل مسجلة باللاتينية : شذرات من قصص الرهبان القدامى واضحة المعالم. انتقلت إلى الموضع الذى أشار مضيفى بأن أبدأ منه القراءة وبدأت أقرأ ، على النحو التالى :

قصة البلدة المفقودة

الفصل الأول

كــــاميـــــلوت

تحدثت إلى نفسى قائلاً :"كاميلوت ،كاميلوت .لايبدو أننى أتذكر أنى سمعت بهذا الاسم من قبل ، يرجح أن يكون اسما لبيمارستان "

كان منظرا من مناظر الصيف الطبيعية، حافلا بالرقة والسكينة ، جميلا كالحلم ، متفردا كيوم الأحد . الجو معبق بأرج الزهور، وطنين الحشرات، وتغريد الطيور، وقد خلا من البشر، والعربات، والحركة والنشاط، والديمومة . بدا الطريق كثير التعـرج، عليه آثار حوافر الدواب، وأثر باهت هنـا أو هنـاك لعجـلات غـائرة فى الحـشائش، عجلات يبدو واضحا أنها ذات إطارات فى حجم كف اليد .

هاهى الآن فتاة تصفر على الطريـق ، برقـة بالغـة ، عمرهـا يقـارب الـسنوات العشر، وقد انساب شعرها الذهبى غزيرًا على كتفيها . لفت حـول رأسـها طوقـا مـن الأشرطة القانية ، لم أر فى حياتى من الزينة أجمل منه . سارت الهـوينى، خليـة البـال، وأفصح عن طويتها وجهها البريء . لم يلتفت إليها رجل السيرك، ولا يبدو حتى أنـه رآها . أما هى، فيبدو أنها لم تعد تحفل من هيئته العجيبة، ما يشير إلى اعتيادها صـورته كل يوم يمر من عمرها . مرت بنـا دون التفـات، كأنهـا تمـر ببقـرتين، ولكنهـا حـين لاحظت وجودى، تبـدل الحـال ! رفعـت يـديها، وثبتـت فى مكانهـا، فـاغرة فاهـا،

واتسعت عيناها فى وجل ورهبة، وصارت صورة من فضول غريب مشوب بالخوف . ظلت هناك محدقة، على حال من فتنة واجفة، وظلت هكذا إلى أن درنا بمنعطف من الأحراش، وحال ذلك دون رؤيتنا إياها مجددا . فوجئت كثيرا بإجفالها منى أنا دون الآخر، حتى لم أستطع تحرى سببا لهذا . لابد أنها اعتبرتنى صورة غير عادية وأن تطلعى إلى محاسنها كان بدوره مربكا لها وفيه استعراض منى لإظهار النخوة أيضا ، وهما أمران مفاجئان لمثلها من صغار السن، كان المكان داعيًا إلى التأمل ، ومضيت على الطريق كمن يسدر فى حلم .

بدأت تبين صور للحركة لدى اقترابنا من البلدة . مررنا على فترات بأكواخ مهجورة، مسقوفة بالقش، تحيط بها حقول صغيرة ورقاع محدودة من البساتين، بدت الغرابة فى طريقة تهذيبها . هناك من البشر أيضا ، من تميزوا بقوة البنية، وطول الشعر وخشونته وشعثه، حيث تدلى على وجوههم، وجعلهم كالبهائم . شاع بين الرجال والنساء ثوب كتانى، أسدل إلى ما تحت الركبة، ونوع بدائى من الخفاف، كما لبس كثيرون منهم ياقة حديدية . كان كل الصغار ، من بنين وبنات مجردين دومًا من الثياب، بدوا لايعون ذلك أو يأبهون به . تفرسنى كل هؤلاء بأعينهم، وتحاوروا فى شأنى ، ثم هرعوا إلى الأكواخ وأتوا بذويهم، ليتعجبوا من مرآى، لكن أحدا منهم لم يلتفت البتة إلى ذلك الآخر، إلا أن يلقوا عليه تحية متواضعة، دون رد لها فى المقابل .

فى البلدة كانت هناك بعض البيوت الضخمة بلا نوافذ ، أقيمت من الحجارة وتفرقت بين العديد من الأكواخ المسقوفة بالتبن ، أما طرقاتها فمجرد أزقة ملتوية، غير معبدة، وجيوش من الكلاب والأطفال العراة، يمارسون اللعب فى الشمس، ويثيرون فى الأنحاء نشاطا، وجلبة، و قنعت الخنازير بالتطواف أو الثبات حيث هى، واسترخت إحداها فى مراغة وسط طريق رئيس ، ترضع صغارها . أتى فى تلك اللحظة من بعيد دوى موسيقات عسكرية، واقترب شيئا فشيئا موكب مهيب ،

سرعان ما تصدر المشهد، بما يحفل به من الخوذات المزينة بالريش، والـدروع اللامعـة، والرايات الخفاقة، وأسرجة الخيل البديعة، والسترات الأنيقة، ونصال الحراب المطلية بماء الذهب . اتخذ الموكب طريقه وسـط روث البهـائم والخنـازير، والـصغار العـراة، والكلاب المنطلقة، والأكواخ البالية، فلحقنا بمؤخره . تبعناه من زقاق متعرج لآخر، وهو لايكف عن الصعود، حتى بلغنـا نهايـة المطـاف مرتفعًـا منسمًا، انتـصب فوقـه الحصن الكبير . أعقب ذلك تبادل نفخ الأبواق الحـاد، وسـماع أصـوات آتيـة مـن خلف الأسوار على إثره حيث تقدم إلى الأمام والخلف جنود مسلحون يرتدون أغطية الدروع المزرودة والخوذات ، مع السلاح المكون من سيف قديم وبلطة على الأكتاف ، تحت رايات خفاقة، فيها صورة فجـة لتنـين منتـصب فوقهـا ، ثـم فتحـت البوابـات الكبيرة على مصاريعها، وهبط الجسر المتحرك، ومضى مقدم الموكب إلى الأمام، تحت حنايا حجرية مكلحة، ونحن نتبعه، ثـم سرعـان مـا وجـدنا أنفـسنا، فى فنـاء ضـخم مرصوفة أرضيته، ترتفع من جنباته الأربع أبـراج وبريجـات، إلى عنـان الـسماء، وقـد تواصل ترجل كل من كانوا حولنا عن الجياد ، كان هناك كثير من الحفاوة والاحتفال، وأناس يجرون هنا وهناك وعرض بالألوان المتحركة المتداخلة مملوء بالمرح، وكلها يثير من البهجة والجلبة والاضطراب الكثير .

الفصل الثانى

قصر الملــك آرثـــــر

انتحيت جانبا فى غفلة الجميع ، حين سنحت الفرصة لى، ومسست كتف رجل عجوز مألوف الوجه ، وقلت له بنبرة ودودة ، تبطن أكثر مما تظهر :

" عفوا أيها الصديق ، أأنت أحد نزلاء هذا البيمارستان ، أم أنك مجرد زائر هنا، أم ماذا ؟ "

تأملنى ببلاهة، و قال :

"عفوا ، أيها السيد المهذب، يتراءى لى ...." قلت : "حـسبك. أظنـك أحد المرضى" .

تركته متأملا ، ومترقبا فى الوقت ذاته قدوم فـارس آخـر سـليم العقـل، علـه يكشف لى عن بعض ما التبس لدى. ظننت فى التو أنى قد عثرت عـلى أحـد هـؤلاء، وبذا انتحيت به جانبا، وهمست فى أذنه :

"هل أستطيع مقابلة المسئول عن الحصن لدقيقة ، دقيقة واحدة ...."

" أرجوك، لاتدعنى "

" أدعك ماذا ؟ "

" اعفنى من هذا الأمر ، لوكان هذا يرضيك . " مضى من ثم يحدثنى بأنه كان يعمل مساعد طاه، ولا يستطيع أن يمسك عن لغو الحديث، إلا أنه كان يجب أن يفعل ذلك فى أوقات أخرى ، وسترتاح نفسه كثيرا لو علم من أين حصلت على هذه الثياب التى أرتديها. لدى مغادرته لى، أشار بيده وذكر أن هناك شخصًا لديه من الوقت ما يحقق مطلبى، ولا ريب فى أن الشخص، كان يبحث عنى بدوره . كان فتى نحيلاً، مرحًا، يرتدى زيـًا ضيقًا برتقالى اللون، كالذى يرتديه راقص أو بهلوان، جعله أشبه بجزرة متفرعة الرأس، أما بقية ملابسه فهى أربطة حريرية زرقاء بغرض التأنق، وطيات مكشكشة، و لديه خصلات شعر طويلة صفراء اللون، كما اعتمر قبعة مريشة، من الساتان أمالها على أذنيه للمباهاة . بدت من نظراته رقة الطبع، ومن مشيته ثقة بالنفس . ظهر ببنية سليمة لاعوج فيها . اقترب منى وتفحصنى فى فضول، تشوبه وقاحة وسخرية . وقال إنه وفد خاصة من أجلى، وأخبرنى بأنه غلام أحد الفرسان .

قلت له "أكمل حديثك، فإنك لم تفه بأكثر من فقرة قصيرة ".كان الأمر يفوق طاقة احتمالى، بل وصل إلى حد حنقى . ومع ذلك لم تتحرك شعرة فيه، وبدا أنه لم يدرك قدر ما يسببه لى من ألم .

بدأ أثناء سيرنا فى التحدث والضحك جذلا ، بشكل صبيانى ،غير آبه بشيء وجعل منا على الفور أشبه بصديقين قديمين ،ثم طرح علىّ كل مايخطر ببال أحد من أسئلة، دارت حول ما أضعه علىّ من ثياب، وجهها لى بصورة متلاحقة، دون أن ينتظر لها جوابا ، وانطلق يتحدث دون انقطاع ،إلى أن باغتنى فى النهاية بأنه من مواليد العام ٥١٣ .

سرت بجسدى برودة شديدة ! توقفت عن السير، وسألته باستكانة :

" لعلنى لم أسمعك جيدا، ردد ماقلت بتؤدة، أى سنة ذكرت ؟"

"٥١٣ ! "

" ٥١٣ ! إنك لاتعى ما تقول . حسبك يافتى، إنى غريب عن المكان ، ولاصاحب لى ، أصدقنى القول ،أأنت سليم العقل ؟ "

رد بالإيجاب .

" ثم أليس هذا ببيمارستان ؟ أقصد مكانا لمعالجة المجانين ؟ "

أجاب بالنفى . فقلت : "لابأس إذن . الأمر إما أننى قد جننت أو أن أمرًا مروعًا قد حدث . أصدقنى القول، أين أنا ؟ "

" فى قصر الملك آرثر ."

تمهلت قليلاً، كى أدع لتلك الفكرة فرصة للعودة إلى حيث أتت، وقلت من ثم: "فى أى سنة نحن الآن، طبقا لمفهومك الغامض ."

" ١٩ يونيو عام ٥٢٨ . "

شعرت بضيق شديد فى صدرى، وقلت متمتما :

"يستحيل علىّ إذن أن أرى مجددا أصدقائى، لأنهم على هذا النحو لن يولدوا قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام "

بدا أننى أصدق الغلام ، ولم أدر سببا لذلك. كان فى داخلى ما يدفعنى إلى تصديقه، ربما تقول إنه الوعى والإدراك. لكن حجتى تنطق بغير ذلك. بدأ عقلى يضطرب من فوره، وهو أمر طبيعى. عجزت عن التوصل إلى كيفية إقناعه، لأننى أدركت أن شهادة البشر لن تفيد فى شيء، وأن عقلى سيشهد بأنهم مجانين، وسيلقى

بأدلتهم فى عرض البحر . لكننى تعثرت فجأة و بالمصادفة البحتة فى أدلة بعينها . كنت أعلم أن الكسوف الكلى الوحيد للشمس، فى النصف الأول من القرن السادس وحدث يوم ٢١ يونيو عام ٥٢٨، حسب تقرير الأرصاد، وبدأ بعد الثانية عشرة ظهرا، بثلاث دقائق . كما كنت أعرف أن كسوفًا كليًا للشمس، لايتوقع حدوثه فى السنة الحالية بالنسة لى أى فى العام ١٨٧٩، لذلك فإننى لو أستطيع الحيلولة دون وقوع قلبى نهبًا للقلق والفضول ، لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط لكشفت يقينا صدق هذا الفتى من عدمه .

وحيث إننى شخص عملى ، ومن مواطنى ولاية كونيتيكت، فقد طرحت الأمر كله جانبا الآن ، ريثما يحين أجله المحدد، وساعته آتية لامحالة، وذلك كى أستطيع التركيز فى أحداث اللحظة الراهنة، وأكون متنبهًا ومتأهبًا لتحقيق أفضل ما تسفر عنه من نتائج. اتخذت سبيل المضى خطوة خطوة، واللعب بما يصلح من أوراق ، حتى لو كان ورقتين متماثلتين ، وورقة أخرى تمثل الولد . توصل تفكيرىّ إلى أمرين لاثالث لهما : لو أن هذا بالفعل هو القرن التاسع عشر، وأننى وسط مجانين، ولا أقوى على الفرار، فربما أكون الآن رئيسا لهذا البيمارستان أو أكون قد كشفت عن الحقيقة الدامغة ، وإن كان الأمر على النقيض، كان ذلك بالفعل هو القرن السادس، حسنا، إننى غير راغب فى تهوين الأمر ، فربما أصبح رئيسا لهذا البلد فى بحر ثلاثة شهور، ووقررت فى نفسى أن أكون المبادر بتخريج أفضل إنسان مثقف فى هذه المملكة ، خلال ألف وثلاثمائة عام فصاعدا . إننى لست ممن لايعرفون قيمة الوقت، وكان لابد بعد هذا القرار ، أن يكون هناك ما يجدر بى عمله، لذلك قلت للغلام:

" كلارنس ، لو تصادف يا بنى أن كان هذا اسمك الحقيقى، إنك الآن ستبادر بإخبارى ببعض الأمور ، إن لم تمانع . ما اسم ذلك الشخص الذى جاء بى إلى هذا المكان ؟ "

" تسأل عن سيدى وسيدك ؟ إنه الفارس النبيل، والأمير العظيم السير كاى، القهرمان، أخو مليكنا بالرضاع "

" رائع، أخبرنى بالمزيد، بكل شيء "

حكى قصة طويلة من هذا الصنف ، ولكن كان أكثر ما شد انتباهى فيها أنه. قال إننى واقع فى أسر السير كاى، وأنه قد جرت العادة على وضعى فى زنزانة، أترك فيها لأعانى حياة البؤس ، حتى يفدينى أحد أصدقائى بفدية، قبل أن يدركنى البلى هناك . أدركت الآن أن الفرصة الأخيرة قد لاحت ، لكننى لن أضيع وقتًا طويلاً فى الهموم، فالوقت من ذهب . أردف الشاب بقوله: إن الانتهاء من طعام العشاء قد أوشك، وإنه بمجرد أن يبدأ الاحتفال والإسراف فى الشراب، سيبادر السير كاى بعرضى أمام الملك آرثر، والبارزين من فرسانه، وهم الجالسون حول المائدة المستديرة، وسينتهز فرصة أسرى للتباهى ، وقد يبالغ فى بعض أمور، ليس من الصواب قيامى بتصحيحها، وعاقبة ذلك إن حدث ستكون وخيمة، وأنه لدى انتهاء هذا العرض سأساق إلى الزنزانة، أما بالنسبة لكلارنس ، فإنه سيتحين فرصة زيارته لى، من وقت لآخر ، ليسرى عنى فى عزلتى، ويعيننى على نقل عبارة أريد أن أبعث بها لأصدقائى .

نقل عبارة لأصدقائى ! شكرته ، حيث ليس أمامى سوى شكره، تلا ذلك مباشرة، قدوم خادم ليبلغنى بأننى مطلوب الآن ، فاقتادنى كلارنس إلى الداخل، وأجلسنى فى أحد الأركان ولم يفارقنى .

لابأس، كان ذلك من المشاهد الغريبة، واللافتة. كان المكان فسيحًا، ومكشوفًا أيضا، أجل، وكان حافلاً بمفارقات صارخة . فقد بلغ من الشموخ مبلغ الذرى، حتى إن تلك الرايات المدلاة من الدعامات المقوسة والعوارض المقامة عاليًا، حلقت فى الأعالى فيما يقارب الشفق ، وهناك بهو، مسيج كل من طرفيه بسور حجرى ، اعتلى

جانبا منه جماعة من الموسيقيين، أما الآخر فشغلته نسوة اكتسين ثيابًا بألوان جذابة ، عُبدت أرضية البهو ببلاط حجرى ضخم، فى شكل مربعات سوداء وبيضاء، طمست بفعل الزمن وكثرة الوطء، وهى فى حاجة إلى الترميم . أما المكان فقد عدم الزخارف بالقطع، عدا أنه علقت على الجدران بعض أعمال الكنفاه كبيرة الحجم، يمكن اعتبارها أعمالاً فنية : تتمثل فى لوحات تصور المعارك الحربية، وجياد على شاكلة ما يصنعه الأطفال من ألعاب ورقية، أو ما يبتكرونه من كعكة الزنجبيل، يمتطيها رجال مدرعون بصفائح رقيقة، صورت الصفائح بفتحات دائرية، حتى إن سترة الرجل، بدت كخرامة البسكويت. كان هناك مستوقد للاستدفاء، وكان من الاتساع بحيث يصلح للتخييم ، أما جوانبه البارزة وغطاؤه المنحوت والمدعم بالحجارة، فقد اتخذت جميعا شكل باب كاتدرائية . وقف بالأسوار رجال الحراسة، بدروع الصدر والخوذات، مسلحين بسلاح وحيد هو المطرد، ثابتين تماما كالتماثيل التى يشبهونها تمام الشبه .

وضعت وسط هذه الساحة العامة، ذات الأقواس والحنايا، مائدة بلوطية، أطلقوا عليها اسم "الدائرة المستديرة ". كانت من الاتساع، ما جعلها أشبه بساحة سيرك، جلس حولها مجموعة من الرجال، تزيوا بثياب زاهية متعددة الألوان، تتعب عين الناظر . اعتمروا جميعا قبعات مريشة، لايحركها أحد إلا حين يتوجه بمفرده لمخاطبة الملك مباشرة ، وقد رفع قبعته قليلا بمجرد أن يبدأ حديثه .

كان الجميع قد انغمسوا كثيرا فى الشراب من قرون ثور كبيرة، لكن بعضهم ظل يلوك الخبز، أو يقرض بأسنانه عظام لحوم البقر . بلغت نسبة الكلاب إلى الحاضرين من البشر الضعف، وجلست هذه فى أوضاع ترقب، حتى يلقى إليها بعظمة غاب عنها اللحم ، فتندفع إليها فرادى وجماعات، ما يسفر عن منافسة بين الكلاب، أضافت إلى المشهد مزيدا من الجلبة والاضطراب، شاركت فيه رؤوس

مقتحمة، وتدافع بين أجساد وذيول، وعاصفة من الهتاف والنباح، ثارت الآن كلها وحالت دون التقاط مضمون أى حديث، لكن الأمر ماكان لينتهى عند هذا الحد، فمباراة الكلاب هى موضوع الإثارة الأكبر ، حيث وقف الرجال من وقت لآخر، لمتابعتها باهتمام، والمراهنة عليها ، ودفع الموسيقيون والسيدات بأنفسهم، إلى ما وراء الحواجز الخاصة بهم للسبب ذاته، وانفجر الكل بين فينة وأخرى فى نوبات من الضحك الصاخب . كان الكلب الفائز فى نهاية المباراة يتمطى بارتياح والعظمة بين فكيه، فيدفع بها مكشرًا عن أنيابه، وملوثًا الأرض بشحمها، ثم يتعاقب عليها خمسون سواه، فيسدر الحاضرون من ثم فى شؤونهم ، ولهوهم السابقين .

اتسم حديث هؤلاء بالكياسة والأدب، ولاحظت حسن إصغائهم وجديتهم، إذا حاورهم إنسان فى أمر من الأمور، أعنى أن يحدث ذلك بين فواصل مباريات الكلاب . وتبين لى أيضا قدر ما يحملون من صبيانية وبراءة ، وهم يروون أكاذيب من أرفع طراز ، ببساطة تحمل على الافتتان والرقة البالغين ، فضلا عن قدر استعدادهم وأريحيتهم عند الإصغاء إلى مزيد من الأكاذيب من الآخرين ، وتصديقها أيضا .يصعب أن نعزو إليهم شيئا من القسوة أو الخوف، كما أن تلقيهم ، لقصص العذاب والبطش كان يحدث باستمتاع واضح كاد ينسينى معنى الهلع .

لم أكن الأسير الوحيد بين الحضور ، بل كان هناك عشرون أسيرا آخرين ، أو يزيد. كان الكثيرون من أولئك البؤساء من ذوى العاهات ، وفاقدى الأطراف والمصابين بجروح قطعية تبعث على الفزع، وقد تشبعت شعورهم ووجوهم بخثار الدم المتجمد المسود . عانوا بالطبع حدة آلام الجسد ، والإنهاك ، والطوى والعطش لامحالة ، وما قدم لهم أحد شيئا يخفف عنهم كالغسل، أو برهم حتى بقليل من غسول لإبلال جروحهم، كما أنك لن تسمع منهم رغم ذلك كله، أنة أو آهة، أو ترى منهم ما يعزى إلى شعور باستياء، أو ميل إلى تذمر .

ألحت على فكرة تقول:"إن هؤلاء الأوغاد، كانوا فى أيـامهم قـد تـصرفوا مـع سواهم بالطريقة ذاتها ، ولكون دورهم قد حان الآن ، فإنهم لايتوقعون معاملة أفضل من هذه، وأن قدرتهم على تحمل ذلك برباطةِ جأش لم تكن ناتجة عن تدريب للعقـل، أو مثابرة ذهنية أوإعمال فكر ، بل عن مجرد دربة للجسد علـى التحمـل . هـؤلاء هـم الهنود البيض .

الفصل الثالث

فرسان المائدة المستديرة

دار حديث المائدة المستديرة فى الأساس، حول أمور شخصية، وروايات مطولة، تحكى عن مغامرات تم خلالها أسر هؤلاء ، وتدور حول من قُتل من أصدقاء الأسرى وذويهم، وحول من جُردوا من جيادهم ودروعهم . لم تكن تلك المغامرات الدموية فى عمومها ــ و بقدر فهمى ــ غارات تشن من أجل الثأر لما وقع من خسائر وأضرار، أو لتسوية نزاعات قديمة ،أو غارات مباغتة سبق أن شنت عليهم ، لم يكن الأمر كذلك ، بل جرت العادة على أن يكونوا الناجزين بين الغرباء، والمبارزين بين أناس لم يسبق أن تعرف أحدهم إلى الآخر ، ووسط من لايرى لذلك العداء سببًا أصيلاً . كنت فى أحيان كثيرة، أرى شابين أجنبيين ، يلتقيان مصادفة، ويقولان فى نفس واحد :" أستطيع التهامك " ويتشاجران على الفور ، بل كنت أتصور دومًا، وما زلت حتى الآن، أن تلك مجرد تصرفات صبيانية، تشبه ما يحدث بين الصغار ، لكن هذين الأبلهين الكبيرين كانا يتماديان فى العداء ، ويفاخران به ، رغم بلوغهما سن الرشد وتخطيهما إياه . هناك أيضا ما يثير الانتباه إلى سذاجة هذه الكائنات البحتة، ما يجعلك تنجذب إليهم وتحبهم. بدا أن المصحة بأكملها قد خلت من عقلاء ــ إن جاز التعبير ــ تتواصل معهم، لكنك بعد وهلة قصيرة لن تلقى بالاً لذلك، لأنك سرعان ما ستدرك أن الأمر لايتطلب وجود عقول فى مجتمع كهذا ، لأن هذا المجتمع، سيفسد هذه العقول لامحالة، بل يعوقها، ويبدد نظامها، وربما سعى إلى محوها من الوجود .

تكاد ترى على كل الوجوه سيماء الرجولة الكاملة، وفى بعضها ملامح الشموخ والنبل، ما يقلل من شأن انتقاداتك القليلة ويخمدها . استكانت أكثر الملامح نبلاً وطهرًا على محيا سيادة من دعوه بالسير جالاهاد، فضلاً عن استرخائها على محيا الملك أيضا، وبدت المهابة والعظمة فى طول قامة ، ومشية "السير لونسلوت رجل البحيرة" الشامخة .

وقع الآن ما أثار اهتمام الجميع . بإشارة من شخص بدا أنه رئيس المراسم فى القصر، حيث نهض ستة أو سبعة من الأسرى وقوفا، وتقدموا معًا ، إلى الأمام وخروا سجدًا، ثم رفعوا أياديهم نحو منصة السيدات، والتمسوا من الملكة، أمرًا بالعفو عنهم. أومأت أكثر من برزن بين تلك الباقة الأنثوية فى مجلسها جمالاً وتأنقا ، أومأت برأسها إشارة بالموافقة، امتثل بين يديها المتحدث باسم الأسرى ورفاقه يسألها إما العفو التام أوتقديم فدية أوالأسر، أو الموت ، وذلك حسبماتختار سموها، وإن ما يفعله الآن ــ كما قال ــ كان بأمر من آسرهم السير كاى القهرمان، بعد أن قهرهم بقواه الفريدة، وبسالته بعد صراع مرير فى ساحة النزال .

تحولت نظرات الدهشة والاستغراب بسرعة من وجه لآخر، فى كل أنحاء القاعة، وخبت بسمة الامتنان من وجه الملكة، لدى ذكر اسم السير كاى، وبدت محبطة . همس الغلام فى أذنى بنبرة وأسلوب يشيان بسخرية فجة ....

" السير كاى، ياإلهى !!، فلتخلعوا علىّ أعظم الألقاب، أيها الأعزاء ، أو فلتسمونى بحارا . لمرتين فى ألف عام، لن تكون مبتكرات البشر غير المقدسة على توافق حتى تخرج لنا مثل هذه الكذبة المهيبة ".

تركزت الأنظارعلى السير كاى وهى تحمل استفسارًا خطيرًا ، لكنه كان مهيأ تماما للحدث . نهض من مكانه، وأشار بيده كما يفعل قهرمان، واحتال للفت الأنظار إليه بشتى الأساليب . ذكر أنه سيعرض القضية فى نقاط محددة طبقا لما جرى من

أحداث، وبأنه سيروى القصة ببساطة وحيادية دون تعليق ، ثم قال: "وإنكم من ثـم إذا رأيتم فيها ما يكشف عن مجـد وسـؤدد، فقـدموهما إلى الأولى بهـما بـين الرجـال، والأقدر على إزاحة ترس ، أو مبارزة بسيف، بين صفوف المقاتلين المسيحيين، هاهوذا الجالس هناك !" وأشار بيده إلى السير لونسلوت . أجل، فهو الذى جاء بهـم، ويعـد ذلك عملاً فذا كبيرًا. أكمل حديثه، عن كيفية سعى السير لونسلوت، الدؤوب خلف المغامرات، حتى فترة قصيرة مضت، وأنه حصد رؤوس سبعة مـن الجبـابرة، بـضربة سيف واحد ة، وحرر مائة واثنتين وأربعين من الأسارى العذراوات ، ومضى يكمـل رحلته ، فوجد (السير كاى) ، يواجه تسعة فرسان غرباء فى معركة خـاسرة بمفـرده فاضطلع وحده (أى السير لونسلوت) بخوض المعركة وهزم التسعة، وفى تلك الليلـة استيقظ السير لونسلوت من نومه خلسة ، ووضع عليه درع السير كاى وأخـذ فـرس السير كاى، وارتحل إلى بلاد بعيدة، وهزم ستة عشر فارسًا فى إحدى المعارك الضارية، وأربعة وثلاثين فى أخرى، وأخذ عهدًا على نفسه بأن يرتحل هؤلاء جميعـا فـضلاً عـن التسعة الأول ، بحلول عيد العنصرة إلى بلاط آرثر ويضعهم بين يدى الملكة جينيفـر، باعتبارهم أسرى للسير كاى الكهرمان، تقديرا لبراعته كفـارس، و قـد حـضر الآن ستة منهم، والبقية بسبيلهم إلى القدوم حال شفائهم من الجراح الخطيرة .

كان لافتا فى الحقيقة أن ترى ابتسام الملكة وتورد وجهها ومـا ارتـسم فيـه مـن الخفر والبهجة ،أجل، وترى اختلاسها نظرات سريعة إلى الـسير لونـسلوت، بـما قـد يتسبب فى إعدامه رميا بالرصاص، لو كان من أهل ولاية أركنساس، فيلقى جزاءه .

أعجب الجميع بشجاعة السير لونسلوت وشهامته، أما أنا فقد أصبت بحـيرة كبيرة، من أن يقدر رجل بمفرده مضطرا إلى قهر وأسر مثل هذا الجمع من البـارعين فى فنون القتال . تحدثت كثيرا فى هذا الأمر مع كلارنـس، فـما كـان مـن هـذا المغفـل الساخر، إلا أن قال:

" لكن السيركاى ، على استعداد الآن لشحن نفسه بزق آخر من الخمر المعتق، لترى الإنجازات و قد تضاعفت .

تطلعت إلى الصبى فى أسى، ورأيت على وجهه سحابة من حزن عميق . تتبعت اتجاه بصره ، فرأيت رجلاً طاعنًا فى السن ذا لحية بيضاء، اكتسى عباءة سوداء فضفاضة، ينهض من مكانه ويقف بجانب المائدة، تحمله ساقان ضعيفتان ، ورأس غزاه الشيب يترنح فى إعياء، ويعاين الجمع بعين دامعة، تنقلت من شخص لآخر . كانت نظرة المعاناة فى وجه الغلام ، هى نفسها البادية على وجوه الحاضرين من الأسرى، نظرة مخلوقات محطمة تدرك أنه يجدر بها أن تتحمل الألم ، ولا تجأر بشكاية.

تنهد الفتى فى أسى : "وا أسفاه ، لسوف تعاد علينا مجددًا ،نفس تلك القصة القديمة المملة، التى حكاها لنا ألف مرة، بنفس العبارات، تلك التى لن يتوقف عن سردها حتى يموت، وهو فى كل مرة يعبأ بزميله الضخم، ويشعر أن طاحونته الدائرة لن تتوقف عن الدوران . رباه ليتنى مت ، ولم أدرك هذا اليوم ! "

" تقصد من ؟ "

" إنه ميرلين، ذلك الساحر والمحتال الكبير، فليحرق فى نار جهنم، لقاء ما تسببه روايته العجيبة من ملل ! لكن أولئك يخشونه، بسبب ما يمتلك من عواصف وبروق وكل ما حوت جهنم من شياطين هى طوع بنانه ورهن إشارته، لقد دأبوا لعدة سنين مضت على إخراج أحشائه، لاسترجاع تلك القصة والخوض فى أوحالها . يرويها دوما ثلاث مرات بالأصالة عن نفسه دافعا إلى الاعتقاد بأنه لعظم شأنه، غاية فى التواضع ، فلتتنزل عليه اللعنات، ولتكن البلية قدره ! صديقى الوفى، أيقظنى لحضور صلاة العشية ".

أرخى الصبى جسده على كتفى، وتظاهر بدخوله فى النعاس . بدأ الشيخ قصته وسرعان ما راح الفتى فى سبات حقيقى، وكذلك فعلت الكـلاب، والقاعـة والخـدم وطابور الحرس . واصل الصوت الممـل سرده الملـول، وعـلا غطـيط خافـت فى كـل الأرجاء ، ساندته أصوات شبيهة بما يصدر من آلات الـنفخ النحاسـية مـن أصـوات رخيمة خفيضة. مالت رؤوس عديـدة فـوق أذرع ممـددة، فى حـين مـال آخـرون إلى الوراء، بأفواه فاغرة عزفت ألحانا متهاوتة، وطن الذباب ولسع من لسع بأريحية، تامـة وخرجت من مئات الجحور، أسراب من الفئران فى هدوء، وانطلقـت هنـا أو هنـاك، ورتعت فى المكان دون حرج من شيء، واعتلى أحدها رأس الملك وجلس كـما يجلـس سنجاب أمسك بيديه قطعة صغيرة من الجبن، يقرضها برفق، ويلقى بالفتات فى وجه الملـك، دون وازع مـن وقـار أو حـشمة . كـان المـشهد مهـدئا ومريحًـا لعـين متعبـة، ونفس منهكة .

وفيما يلى حكاية هذا الشيخ الذى قال :

" هكذا رحل الملك وميرلين معا ، وشقا طريقهما ،حتـى لقيـا ناسـكا، وهـو طبيب بارع عظيم . تفحص الناسك جروحه، وأعطاه مراهم ناجعـة، و بقـى الملـك هناك ثلاثة أيام، و التأمت كل جروحه حيث صار قادرا على السير وركوب الجياد ،ثم رحل . وبينما كانا على الطريق قال آرثر: إننى لاأحمل سـيفا . قـال ميرلـين: لاضرورة لذلك(*)، فإن معى سيفا هو لى ولك . واصلا السير حتـى وصـلا إلى بحـيرة واسـعة مياهها صافية ، رأى آرثر فى وسط البحيرة ذراعا، مكسوة بقماش من نـسيج حريـرى مشغول بالذهب والفضة، ممسكة فى كفها بسيف جميل . قال ميرلين، عجبا، هـاهو ذا السيف الذى تحدثت عنه . رأيا فضلا عن ذلك سيدة تسير على حافـة البحـيرة . قـال

(*) لاعليك .

آرثر، من تلك السيدة ؟ قال ميرلين: تلك سيدة البحيرة، وهناك صخرة فى البحيرة، يقع بها أجمل ما تجدر مشاهدته على وجه الأرض ، ستأتيك السيدة الآن، فاطلب منها صراحة أن تعطيك السيف. سرعان ما أتت السيدة إلى آرثر وحيته، فرد تحيتها . قال آرثر: ماهذا السيف الذى هناك وتلك الذراع الممسكة به على سطح الماء ؟ إننى آمل أن يكون لى، فلست أحمل سيفا . قالت السيدة: مولاى الملك آرثر، إن هذا السيف لى، ولوأنك قدمت لى ما سأطلبه منك على سبيل الهدية ، ستحصل على السيف ، قال آرثر: أقسم بأن ألبى طلبك . قالت السيدة حسنا: امض إلى ذلك القارب الكبير، وقده بنفسك حتى تبلغ السيف، فخذه وغمده ، وسأطلب الهدية وقت أشاء . أسرع آرثر الملك ، وميرلين، فربطا فرسيهما إلى شجرتين، وركبا القارب الكبير، وحين وصلا إلى السيف الذى أمسكت الذراع به ، تناوله آرثر من مقبضه، وأخذه معه . توارت الذراع والكف تحت الماء، ووصل الاثنان إلى البر فركبا فرسيهما وغادرا المكان . رأى السيد آرثر خيمة عظيمة : إلام تشير تلك الخيمة ؟ قال ميرلين: إنها خيمة الفارس ، السير بيللينور، ذلك الذى نازلته مؤخرا، لكنه رحل وليس موجودا بها الآن، فقد وقع فى خصومة مع أحد فرسانك، وهو النبيل إجليم، و تنازلا بالسيف، لكن إجليم هرب، قبل أن يلقى حتفه، فطارده حتى كارليون، وسوف نلقاه قريبا على الطريق العام . قال آرثر: نعم القول، فإننى الآن أحمل سيفا، وسوف أ نازله وأثأر منه . قال ميرلين: سيدى، يجدر بك ألا تفعل، لأن الفارس مطارد ، وقد انهكه النزال، ولن يليق بمقامك الرفيع منازلته، فضلا عن أنه ببساطة لايحمل صفة فارس حقيقى، ومن رأيى أن تتركه لحال سبيله، لأنه سيؤدى لك خدمة جليلة قريبا، وسيحذو أبناؤه حذوه . وأنك ستشهد قريبا، ذلك اليوم الذى تزف إليه شقيقتك. قال آرثر: سأفعل ما تشير به حين ألقاه، حينئذ نظر السير آرثر إلى السيف، وتمنى التوفيق له . قال ميرلين: أيهما تفضل السيف أم الغمد ؟ قال آرثر: أفضل السيف . قال ميرلين: لقد جانبتك الحكمة كثيرا ، حيث يفضل الغمد عشرة سيوف، فحيثما يكون لديك غمد، لا يراق لك دم،

ولن تخدش بجرح، لذلك اجعل الغمد دوما معك . هكذا تتجها صوب كارليون، والتقيا السير بيللينور على جانب الطريق، لكن ميرلين ابتكر سحرا، بحيث أخفى آرثر عن عين بيللينور، فمضى إلى حال سبيله دون أن ينطق بكلمة . قال آرثر: أعجب من أن ذلك الفارس لم يفه بكلمة . قال ميرلين: لم يرك سيدى ، لأنه كان قد رأى أنك لم تخف إلى الرحيل . بلغا كارليون، حيث كان فرسانه يمضون وقتا طيبا . وحين علموا بأسفاره، استغربوا خروجه، فذلك قد يعرض حياته للخطر، لكن مريديه قالوا: إنه من المبهج أن يكونوا تحت إمرة قائد مثله ، يعرض نفسه للمخاطر كدأب بقية الفرسان الأشقياء .

الفصل الرابع

السير الساخر ديناذان

بدا لى أن هذه الأكذوبة الطريفة، قول غاية فى العفوية والجمال، لكن وجه الطرافة فيها أنى لم أسمعها سوى مرة واحدة ، ولاشك أنها كانت مثار بهجة الآخرين حين كانت جديدة .

كان السير داناذان الساخر، أول من استيقظ من نومه ، وسرعان ما أيقظ البقية بدعابة عملية، جد سخيفة . قام بربط بعض كيزان معدنية، بذيل كلب ، ثم أطلقه، فانطلق الكلب فى نوبة اهتياج هنا وهناك، وكل الكلاب الأخرى تنبح خلفه، بصوت مدوٍ، وتتدافع وتدفع كل ما تلقاه فى طريقها وتحدث اضطرابا وضجيجا وهياجا يصم الآذان، أضحك الحضور رجالا ونساء، حتى سالت عبراتهم، وسقط بعضهم من فوق المقاعد ، ومرغوا على الأرض جذلا . بدا الأمر أقرب كثيرا إلى الأعمال الصبيانية. وشرح السير داناذان، الذى كان جد فخورا بعجزه عن التوقف عن الحكى مرات ومرات حتى الملل ، شرح كيف طرأت تلك الفكرة الجهنمية بباله، وأنه كحال أمثاله من الساخرين، انبرى يضحك منها ، حتى بعد أن نسيها الجميع . اغتر كثيرا، إلى الحد الذى جعله يجرى حوارا ، وأيما حوار لما حمل من سخرية . أعتقد أننى لم أسمع فى حياتى من قبل مثل هذا الكم من النكات القديمة المنسية والمستهلكة ، مجتمعة فى سلسلة واحدة . كان بأدائه هذا أسوأ أهل الدعابة، بل أسوأ من مهرج فى سيرك. بدا بقائى هنا وقبل أن أولد بثلاثة عشر قرنا، وسماعى دون انقطاع نكاتا سقيمة سمجة ، نخرها الدود، كان هذا كله أمرا يبعث على الأسى، خاصة أنهاكانت تأتى مصحوبة

بكل أسباب الملل، خاصة لصبى مثلى عمره ثلاثة عشر قرنا ، وكاد ذلك يقنعنى باستحالة ابتكار نكتة جديدة. أضحكت تلك النكات الضاربة فى القدم كل الحاضرين، وهذا ما يفعلونه دائما، لقد لاحظت ذلك فى قرون لاحقة. لم يضحك ذلك كله ،هذا الغر بالطبع ، أعنى الصبى. أجل، ذلك أنه بطبيعته ساخر بحق ، ولم يدع شيئا إلا سخر منه . قال إن معظم نكات داناداان قديمة ، وتحول بقيتها إلى حجارة . قلت "تحجرت هذه كلمة دقيقة، وأعتقد بدورى ، أن الطريقة المثلى لتصنيف أجيال متعاقبة و جليلة من تلك النكات هى بحسب أحقابها الجيولوجية . لكن تلك الفكرة الذكية ذاتها قد أصابت من الفتى موضعًا شاغرًا فى الإدراك، فعلم الجيولوجيا لم يكن قد ظهر بعد . أخطأ فهم الكلمة . وضعت هذا الأمر نصب عينى، وقررت أن أنشر فى البلد مثل هذه العلوم حال كُتب لى النجاة . لا يجديك أن تغض الطرف عما ينفع الناس، بحجة أن السوق لم يكتب لها الرواج بعد .

نهض السير كاى فى هذه اللحظة وبدأ شحن طاحونة الحكى ، وكنت وقودها . حان الآن وقت الجد ، وكنت لها . روى السير كاى، كيف أنه التقانى فى أحد بلاد الهمج النائية ، التى كان أهلها يلبسون ثيابا، لاتختلف عما ارتديته من ثوب مسحور، يجعل صاحبه فى مأمن من أن تطاله أيدى البشر بأذى . فأبطل هو قوة سحر الثوب بالأدعية، وقضى على فرسانى الثلاثة عشر، فى معركة استمرت ثلاث ساعات، ثم أخذنى أسيرًا له، وأبقى على حياتى ، حتى يمكن عرض شخص مثير للفضول مثلى، لإثارة إعجاب الملك والحاشية وتعجبها من أمره. تحدث عنى طوال الوقت بتعبيرات جد رقيقة، مثل "هذا المارد الجبار "، و"الوحش الذى يطال السماء رهبة " ، و"الغول مفترس البشر ذو الأنياب والمخالب " وقد تلقى الجميع كل هذا الهراء بأريحية مطلقة، ولم ينفعلوا بابتسامة أبدًا، أو بدا أنهم قد رأوا محض فرق، بين تلك الشخصيات المحصاة تباعا وبينى . ذكر أننى فى محاولة للإفلات منه، اعتليت شجرة،

بارتفاع مائتى ذراع، فى قفزة واحدة، لكنه أسقطنى بحجر، بحجم بقرة، كان كفيلا بتكسير عظامى، ثم أجبرنى على القسم بالحضور إلى بلاط الملك آرثر، كى ألقى عقوبتى . وانتهى حديثه بالحكم بموتى عند الظهيرة فى اليوم الحادى والعشرين، ذكر العبارة الأخيرة غير آبه بالأمر ، وتوقف قبل أن يذكر يوم الإعدام كى يتثاءب .

الحق أننى أحسست على الفور بهم شديد، كان من الصعب تماما على عقلى الواعى، متابعة جدل يدور حول أفضل الطرق لإعدامى، وإمكانية ما سيثار من الشك لدى البعض حول التحقق من قتلى بسبب ما تحمل ثيابى من قوى سحرية . رغم أن الثوب لم يكن سوى حلة عادية، اشتريتها من أحد حوانيت الثياب الرخيصة، ثمنها خمسة عشر دولارا . ظللت منتبها لتلك الإشارة، لأدرك أن كثيرا من المصطلحات التى استخدمت على نحو مغرق فى الواقعية من جانب هذا الحشد الهائل من سيدات وسادة الطبقة الراقية بالبلاد كان من شأنها أن تجعل أى فرد من قبيلة الكومانش الهندية يحمر خجلا لايكفى لفظ بذاءة أبدا لتوضيح هذه الفكرة . لقد قرأت "توم جونز "، و"رودريك راندوم " وكتب أخرى من هذا القبيل، وأدركت مع ذلك أن سادة وسيدات الطبقة العليا فى إنجلترا ، مازالوا يعدمون أو كادوا يفتقرون إلى دماثة القول ، وما يتضمنه ذلك من سلوك وآداب، وصار ذلك واضحا فى المائة عام الماضية ، وانتهاء بقرننا التاسع عشر ـــ وهو القرن الذى كشف فيه عن حوار غير منضبط ، لما كشف من نماذج من سادة وسيدات بحق، فى مراحل مبكرة من تاريخ إنجلترا ـــ أو فى التاريخ الأوربى ويمكن القول فى هذا السياق إن ذلك شكل مظهرهم . ماذا لو أن السير والتر(*)، بدلا من أن يعبر عن نفسه على ألسنة شخصياته يسمح للشخصيات بأن تعبر هى عن نفسها ؟ كان يجب أن نتلقى من حوارات ريبيكا، وإيفانهو، والسيدة الرقيقة راونا، ما قد يحرج مومسة فى أيامنا هذه .

(*) الكاتب هنا يقصد السير والتر سكوت.

ونجد مع ذلك أنه إذا كان الخروج عن اللياقة عفويا ، تصبح كل الأشياء فى إطار اللياقة . لم تكن رعية الملك آرثر ، تدرك أن ذلك فيه خروج عن اللياقة، أو حدود الأدب، ولدى من رجاحة العقل ما يدفعنى إلى التغاضى عن هذا الأمر .

أصابهم قلق كبير بشأن ثوبى المسحور حتى هدأ روعهم فى النهاية، حين حل ميرلين تلك المعضلة الكأداء عن كواهلهم بإلماحة ذكية منه . سألهم عن سبب تبلدهم، ولماذا لم يطرأ ببالهم أن يجردونى من الثياب . صرت فى نصف دقيقة كملقاط ،مجردا من الثياب ! يصعب على كثيرا استعادة هذا الأمر فى الذاكرة ، حيث كنت الوحيد المجلل بالخزى هناك . ناقشنى كل منهم، دون مبالاة، وكأنهم يخاطبون ثمرة كرنب . كانت الملكة جينفير تتعامل وهذا الأمر بسذاجة كالباقين . قالت: إنها لم تر أحدا من قبل، له ساقان كساقى ، وذلك هو الإطراء الوحيد الذى تلقيته، لو كان هذا إطراءا.

حملت جبرا فى النهاية إلى وجهة ، وحملت ثيابى إلى وجهة أخرى . ألقى بى فى زنزانة ضيقة مظلمة، تقع فى أحد الأبراج المحصنة مع قليل من فتات الطعام، وفراش من القش المعطن، وفئران لاتنتهى صحبتها .

الفصل الخامس

إلهــــــــام

بلغت من الإنهاك ما جعل مخاوفى تتراجع أمام رغبتى فى الرقاد .

وجدتنى حين أفقت، قد استغرقت فى النعاس وقتا طويلا . تبادرت إلى ذهنـى فكرة تقول: " عجبا ، أى حلم غريب هذا ! أظننى استيقظت فى اللحظة المناسبة التـى سبقت إعدامى سواء بالشنق أو الغرق أو الحرق، أو شيء ما ....، سأغفو مجددا حتى تطلق الصافرة، فـأهبط عـلى إثرهـا إلى مـصنع الأسـلحة ، وأسـوى مـا بينـى وبـين هيركيوليس ".

لكننى سمعت فى تلك اللحظة صلصلة خشنة مـن أغـلال صـدئة، وأحزمـة، ووميض ضوء فى عينى، وكلارنس ذلك الفراشة، واقفا أمامى ! صـدمت مـن هـول المفاجأة، وكادت أنفاسى تتوقف .

قلت :" عجبا، ألا تزال هنا ؟ اذهب مع بقية الحلم ! تبدد !"

لكنه ضحك بسخريته المعهودة، وطفق يسخر من مأزقى الرهيب .

قلت مستسلما :" دع الحلم يكتمل إذن، فلست فى عجلة من أمرى ".

"عفوا، أى حلم ؟"

" أى ماذا ؟ عجبا، الحلم بأننى فى قصر آرثر، وهو شخصية لاوجود لها البتـة، وأننى أتحدث إليك، وأنت خيال صرف ".

"عجبت وأيم الحق ! وهل إحراقك غدا أيضا مجرد حلم ؟ هيا أجبني".

كان شعورى بالصدمة مروعا . بدأت أدرك أننى فى موقف بالغ الخطورة ، سواء كان حلما أم حقيقة، حيث عرفت بما لدى من خبرة من خلال ما يحاكى الواقع من أحلام، بأن الحرق حتى الموت، حتى لو ورد فى حلم، فإنه ينأى تماما عن كونه مجرد دعابة، أو شيئا يمكن اتقائه بشتى ما يمكننى ابتكاره من وسائل مشروعة كانت أو غير ذلك .

لذلك قلت مناشدا إياه : " آه ، أيها الفتى الطيب كلارنس ، إنك الوحيد المقرب إلى، لأنك صديقى، أليس كذلك ؟"

لاتتخل عنى، أعنى على إيجاد وسيلة للفرار من هذا المكان ."

" تدبر قولك الآن! الهرب؟ عجبا يارجل، إن كل الدهاليز رهن الحراسة، وبها جنود مدججون بالسلاح " .

" ذلك لايحمل على الشك البتة . ولكن كم عددهم ؟ ليس كبيرا، آمل ذلك ؟"

أجاب بعد لحظة تردد :" إنهم بالعشرات . ما يجعل الرغبة فى الهرب تنتفى لدى المرء . وهناك أسباب أخرى أكثر أهمية من ذلك . "

" أسباب أخرى ؟ ماهى ؟ "

" أجل، يقولون، أوه، إننى لا أجرؤ، لا أجرؤعلى البوح ،حقيقة " .

" لماذا أيها الفتى البائس ، ما الأمر ؟ ما سبب ترددك ؟ ما الذى يقلقك إلى هذا الحد ؟ "

" الأمر يستلزم ذلك ! أريد إخبارك بالفعل ، ولكن ——— "

" هيا، كن شجاعا، تحل بالرجولة، افصح، أيها الفتى الطيب !"

تردد، وتنازعته ، الرغبة فى الإفصاح، والخشية من مغبته، تسلل من الباب ، وذهب يتنصت خارجه، ثم عاد ، واقترب من أذنى بفمه ، وهمس لى بأخباره المروعة، بخشية من يخاطر بارتكاب عمل رهيب ، ونطق بأشياء ،كان مجرد ذكرها يبعث برهبة تفضى إلى موت لامحالة :

" طوق ميرلين بوازع من حقده، هذه الزنزانة بشراك من السحر، حيث لاقبل لمخلوق فى المملكة كلها ، بلغ به اليأس مداه أن يفكر فى اجتياز حدودها معك . يرحمنى الرب الآن، لإفصاحى بذلك ! آه، كن شفوقا بى، والتمس الرحمة لصبى مسكين، يهتم لهمك، لأنك إن غررت بى ،تعرضت للهلاك ! "

ضحكت من أعماق قلبى كما لم أضحك منذ فترة، وهتفت :

"ميرلين يستخدم رقى سحرية ! ميرلين ! ذلك الشيخ الدجال، ذلك الغبى الثرثار ؟ هراء، محض هراء، 'إنه أسوأ ما فى العالم من هراء ! عجبا، يبدو ذلك لى مجرد خرافات تؤدى إلى الجبن، والحمق والصبيانية، والجنون، حتى أــــ أوه ميرلين، أى ملعون هو !"

لكن كلارنس، خر على ركبتيه، قبل أن أبلغ نصف كلامى ، وبدا من شدة الخوف كمن أشرف على الجنون .

" أوه، حذارىّ من ترديد هذه الألفاظ المروعة ! فهذه الجدران، يمكن أن تنهار فوق رؤوسنا فى أى لحظة إن عاودت ترديدها .

هيا استدعها قبل فوات الأوان ."

أوحى لى هذا العرض الغريب بفكرة طيبة، ودفعنى إلى التركيز . لو أن كل شخص هنا، كان يخشى سحر ميرلين المزعوم خشية حقيقية ، شأنهم فى ذلك شأن

كلارنس، فمؤكد أن خبيرا مثلى، حرى بأن يكون من البراعة ما يجعله يبتكر وسيلة ما، تمكنه من التغلب على تلك العقبات . شرعت فى وضع خطة بعد طول تدبر . وقلت: " انهض ولملم شتات نفسك، وتأمل فى عينى . أتعرف سبب ضحكى ؟"

" كلا ــ ولكنى أستحلفك بسيدتنا المباركة، ألا تكرر ذلك " .

" حسنا ، سأخبرك بالسبب . إننى بدورى ساحر " .

" أنت !" تراجع الفتى خطوة إلى الوراء، وحبس أنفاسه للحظة، بعد أن بوغت بما قلت، لكن وجهه كان يحمل ما يشى بأجل آيات الوقار والاحترام . التقطت تلك البادرة، التى بينت لى أن المحتال ليس بحاجة إلى أن يكون ذا صيت داخل هذا المصح العقلى، فالناس مهيأون تماما لتصديق ما يقال لهم، دون حاجة إلى شهرة . أردفت : " إن معرفتى بميرلين تعود إلى سبعمائة عام ، وهوـــــ "

"سبعمائة عاـــــ"

" لاتقاطعنى . لقد مات الرجل وعاد إلى الحياة ثلاث عشرة مرة، وفى كل مرة كان يرحل تحت لقب جديد، سميث، جونز، روبنسون، بيترز، هاسكينز، ميرلين، وكل مرة فيها ينتحل اسما جديدا . عرفته فى مصر منذ ثلاثمائة عام، وعرفته فى الهند منذ خمسمائة عام، وكان دوما فى أى مكان أغشاه يتحامق بصورة أو بأخرى ، فيصيبنى بسأم . إنه لايصيب من السحر إلا القشور، لأنه يلم ببعض الخدع المعروفة بالقدم ، ولا يلم بغير المبادئ الأولية، ولن يلم بغيرها . إنه يصلح تماما للعمل بالأقاليم، فى عروض الليلة الواحدة أو شيء من هذا القبيل، واعلم ياعزيزى، أنه غير جدير بلقب خبير ، ما وجد الساحر الحقيقى . تأمل الآن ياكلارنس، إننى أعتبرك من الآن صديقا، لحا ، و عليك فى المقابل أن تكون وفيا لى . أريدك أن تقدم لى صنيعا، بأن تحمل رسالة إلى الملك، فحواها أننى بدورى ساحر، وأننى الرأس الأكبر لجماعة الحواة، أى زعيم

القبيلة، فضلا عن أننى أريده أن يدرك أننى أدبر فى السر لوقوع هذه المملكة بكارثة عابرة، تقشعر منها الأبدان، و ذلك إذا أصر السير كاى على تحقيق مسعاه ، و أصابنى بأى مكروه . أتنقل هذا إلى الملك بالإنابة عنى ؟"

دخل الفتى المسكين فى حال جعله عاجزا عن إجابة سؤالى . كان من المؤلم أن ترى إنسانا يصل به الرعب، والاضطراب، والوهن إلى هذا الحد . لكنه تعهد بأن يفى بما قلت ، كما طلب منى أن أتعهد المرة تلو الأخرى، بأن أكون صديقا له ما حييت، وألا أتحول ضده، أو أصيبه بأى من أعمال السحر . مضى بعد ذلك خارجا، يتكئ إلى الجدار، كمن يعانى مرضا .

لقد طرأت تلك الفكرة فى ذهنى للتو، فأى غافل كنت ! سيستغرب الفتى حين يستعيد اتزانه، من أن ساحرا عظيما مثلى، اضطر إلى استجداء صبى مثله لإعانته على الفرار من هذا المكان، وسوف يقلب فى الأمر، ويدرك أننى مجرد دجال .

ظللت قلقا لساعة جراء وقوعى فى هذا الخطأ العفوى، ولعنت نفسى بألقاب كثيرة سيئة فى آن . ولكن طرأ ببالى بغتة، أن هذه الدواب، ليست من الحكمة ، حتى تقلب فى أمر كهذا، وقد بين حديثهم جهلهم بمفارقة رأوها بأعينهم . وارتحت كثيرا لهذا الخاطر .

ولكن بمجرد أن يركن المرء فى هذه الدنيا إلى إحساسه بالارتياح ، حتى يعانى شاغلا آخر. رأيت أننى ارتكبت زلة أخرى، بعد أن بعثت بالفتى ، لينذر سادته بوعيد، ،يكشف عن نية لدى فى إحداث مصيبة بالبلد، بمجرد أن تلوح لى الفرصة، وأن هؤلاء الذين لديهم الاستعداد والرغبة ، فى تصديق المعجزات، هم بدورهم الأكثر لهفة لرؤيتى، أعرضها أمامهم ، فماذا لو دعيت لتقديم نموذج لمعجزة حقيقية؟

ثم ماذا لو طلب منك تحديد نوع الكارثة المنتظرة ؟ أجل، لقد أوقعت نفسى فى خطأ جسيم، وحرىّ بى أن أحدد أولا نوع الكارثة، " ماذا أفعل أو أذكر لهم كى أكسب لصالحى بعض الوقت ؟ " عاودنى القلق مجددا ، بل أصابنى أسوأ أنواعه ...... هناك وقع خطى قادمة ! ــ هاهم قادمون . لو تيسرت لى لحظة واحدة للتفكير .... حسنا ، هاقد وجدتها، أشعر الآن بالارتياح .

إنه كسوف الشمس، تصور. طرأ ببالى فى اللحظة الأخيرة، كيف استخدم كولومبوس أو كورتيز، كسوف الشمس حيلة للنجاة ذات مرة ، من بعض المتوحشين، حانت الفرصة لى. يمكننى بدورى الآن استخدام الحيلة نفسها، ولن يشوب ذلك شائبة أو احتيال ، لأنه يجدر بى استخدامها فيما يقارب ألف عام سابقة عليهم كان القادم كلارنس، وقد بدا عليه القهر والقنوط . وقال :

" هرولت بالرسالة إلى مولانا الملك، فأمر بمثولى على الفور بين يديه، حيث لفه الرعب حتى النخاع، وقرر أن يأمر بإطلاق سراحك فورا، وأن توضع فى أبهى الثياب، وتقيم بما يليق بأكابر القوم، لكن ميرلين أتى فى تلك اللحظة وأفسد كل شيء، حيث أقنع الملك، بأنك مختل ، ولا تعرف بما تتحدث به، وأن تهديدك ليس سوى حمق وثرثرة لاطائل من ورائها . طال نقاشهما، لكن ميرلين قال ساخرا فى النهاية : لماذا لم يذكر نوع كارثته الكبرى ؟ إنه لا يقدر على ذلك حقيقة " . أفحم هذا السؤال المباغت الملك فأطبق فاه، ولم يستطع أن يعثر على مايغير به مجرى الحديث، لذا فإنه رغما عنه ، ولاضطراره إلى استخدام الخشونة معك، يرجوك أن تقدر موقفه الصعب، وأن تلم بالظروف ، وتحدد نوع الكارثة، وذلك إذا كنت قد حددت طبيعتها ، وزمن وقوعها . أوه أرى ألا تتأخر كثيرا، فالتأخير فى وقت كهذا، سيضاعف ويزيد من المخاطر المحدقة بك لامحالة . آه، توخ الحكمة ، وحدد نوع الكارثة !" تركت للصمت أن يمتد ، حتى ألم مابدا لى من انطباعات، وقلت :

" كم مضى علىّ أسيرا فى هذا الكهف ؟"

" تم حبسك عشية أمس، والساعة الآن التاسعة صباحا ."

"عجبا ! مؤكد أننى نلت قسطا وافرا من النوم . الوقت الآن ، التاسعة صباحا ! لكأن الوقت الآن يشى بظلمة منتصف الليل مع فارق بسيط ، هذا إذن اليوم العشرون من أيام الشهر ؟"

"أجل، العشرون ".

" وسوف يتم حرقى فى الغد " . ارتعد الصبى .

"فى أى ساعة ؟ "

" فى أول الظهيرة "

" الآن إذن، أخبرك بما ستقول ." توقفت عن الكلام، ووقفت دقيقة صمت رهيب أمام صبى تملكه الهلع، وبدأت بصوت عميق قاطع ومنذر بالويل، علا بنبرة درامية على مراحل مطردة ،حتى بلغت بالصوت ذروة انفعالاتى ، ألقيت الكلمات بطريقة تحمل على الشموخ والرفعة ،كما لم أفعل فى حياتى من قبل :" عد وأخبر الملك بأننى فى تلك الساعة سأغرق العالم كله فى ظلام حالك، وسأحجب الشمس، فلا يرى لضوئها أثر أبدا ، وستصير فواكه الأرض كلها إلى ذبول ، وقد عدمت الضوء والدفء، ويصير أهل الأرض إلى جوع وهلاك حتى آخر إنسان !"

كان على أن أحمل الصبى بنفسى إلى الخارج فقد سقط مغشيا عليه، سلمته للحراس، وعدت أدراجى .

الفصـــل السادس

الكســـــــــوف

سرعان ما بدأ الإدراك وسط الجمود والظلمة، يتزود بالمعرفة . إن مجرد دراية إنسان بواقعة ما يشوبه بعض الغموض، لكنك حين تتوصل إلى إدراك واقعك أنـت ، يصير لهذا الواقع سمته الخاص . فهناك اختلاف كبير بين أن تسمع عن رجل طعن فى صدره ، و أن ترى الحدث بأم عينك. وإدراكى وسط الجمود والظلمـة، بـأننى مقبـل على خطر داهم ، قد اتخذ فى ذاتـه مـضمونًا يـزداد عمقًـا بمرورالوقـت، مـا جعـل الإدراك بتلك الحقيقة يتسلل بوصة بعد أخرى عبر أوردتى، فيملأنى رعبا.

لكن هناك فى شخـصية المـرء وفى أوقـات كهـذه، اسـتعدادا طيبـا، وبمجـرد انخفاض زئبقه البشرى، تعاود قدراته نشاطها بعد ركـود. فترتفـع نبـضات الأمـل، ويبرق معها ومض البهجة، ويصبح المرء فى وضع أفضل يمكنه من أداء مايصبو إليـه لو دعا الأمر. حين استعدت حيويتى، كان ذلك بشق الأنفس. قلت لنفـسى: إن أمـر الكسوف هذا ، يجب أن يكون مؤكدا حتـى تتحقـق لى النجـاة، فأُصـبح بالتـالى أهـم رجال المملكة، وبمجرد صعود زئبقى البشرى إلى قمة الأنبـوب، زالـت عنـى أدران الهموم والوحشة . شعرت بقدر كبير من السعادة، صرت شغوفًا بقدوم الغـد، حيـث صبوت إلى تحقيق ذلك الهدف الكبير، وكسب إعجاب الـشعب، واحترامـه إيـاى ، وأدركت أيضا، قدر ما فى ذلك من دعم لى فيما أقدم عليه من أعمال.

رافق ذلك ما زج بنفسه إلى مؤخر عقلى. فهؤلاء المؤمنـون بـالخوارق، حـين أكشف لهم عن طبيعة كارثتى المزعومة وهم بين شك ويقين ، سينتهى بهـم الأمـر إلى

إبداء الرغبة فى تسوية الأمر معى . بمجرد أن واتتنى هذه الفكرة، سمعت وقع خطى قادمة، وقلت فى نفسى: " لابد أن تتم التسوية بيننا لامحالة. حسنًا، حسنًا ، فإن كان خيرا فنعما هو ، وسوف أتقبله، وإن كان غير ذلك، فحرى بى الإصرار على موقفى، والتصرف فى الأمر بما يستوجب ذلك " .

فتح الباب وظهر جنود مسلحون . قال القائد :

" الخازوق قد أعد من أجلك ،هيا " .

الخازوق ! خارت قواى، وكدت أسقط على الأرض . كان من العسير علىّ التقاط نفس واحد فى لحظة كتلك، فقد انحشرت هذه الكلمة فى حلقى ، وتزايد لهاثى، ولكن بمجرد أن استرددت القدرة على النطق ، قلت :

" لكن هناك خطأ فى الأمر، فتنفيذ الإعدام غدًا "

" تبدل التاريخ ، وقدُم يومًا، هيا، أسرع !"

أسقط فى يدىّ، ولا منجاة لى . أصبت بدوار ، وتخدر جسدى، ولم تعد لدى القدرة على التحكم فيه، تحركت على غير هدىً فى كل اتجاه، كالممسوس، فأمسك بى الجنود، وجرونى معهم إلى خارج الزنزانة، واقتدت عبر شبكة من الدهاليز، وفى النهاية إلى حيث انبلج ضوء النهار القوى، والعالم الفوقى . حين تقدمنا داخل قاعة الحصن الفسيحة والمطوقة من كل الأركان، أصابنى هول، حيث كان الخازوق المقام لإعدامى، والمعد فى وسطها ، أول ما وقعت عليه عيناى ، بالقرب منه كومة حطب وراهب. نهضت الحشود من أماكنها فى أنحاء القاعة الأربعة، صفا بعد الآخر، لتشكل خطوطًا متمايلة، زاخرة بالألوان. جلس الملك والملكة على عرشيهما، وكانا أكثر الشخصيات بروزًا بالطبع .

لم يستغرق الانشغال بهذا كله سوى لحظة واحدة . وانشقت الأرض فى اللحظة التالية، انشقت عـن كلارنـس، ممطـرًا أذنـىّ بأخبـار جديـدة، وعينـاه تـشعان ظفـرًا وانشراحًا. حيث قال :

" لقد دبرت أمر هذا التعديل ! واجهت فى ذلك أيضا مشقة كبـيرة . لكننـى حين كشفت لهم عن الكارثة المتوقعة ولاحظت قدر ما هالهم من رعب، أدركـت أنـه قد حان وقت العمل ! فزعمت بحرفية كبيرة لشخص أو آخـر، بـأن هيمنتـك عـلى الشمس، لن تصل إلى ذروتها حتى الغد، وأن نجـاة الـشمس والعـالم لـن يتحققـا إلا بإعدامك اليوم ، وذلك كى يتبدد سحرك وتبطـل قـواه . فـالإبر الـسحرية الـسميكة والثلمة، ليستا سوى أكذوبة مبهمة، بل هما أدنى أعمال السحر مرتبة، و كان حريًا بك أن تراهم قد صدقوا هذه الأكذوبة وابتلعوها، وسط كل ما يعتريهم من هلع، وكأن فى ذلك خلاصًا من الكارثة بعثت به السماء، حدث ذلك وأنا أضحك فى السر فى تلـك اللحظة، وأراهم وقد خُدعوا بسهولة كبيرة، ثـم وهـم يـشكرون الـرب فى اللحظـة التالية ، ذلك لأنه شاء أن يجعل أضعف مخلوقاته وسيلته فى إنقاذ حياتك .

آه، سرعان ما حلت البهجة !أنت الآن لست بحاجة إلى أن تـصيب الـشمس بضرر كبير، آه، لاتنس ذلك، بربك لاتنساه ! لاتصنع سوى قليل من الظلمة، أقل قدر منها فحسب، احرص على ذلك، ولا تتجاوزه، هذا يكفى . سيدركون أن قولى بعيـد عن الحقيقة، كونى جاهلا كما يتخيلون، ومع سقوط أول الظلال، ستجدهم قد جُنـوا من الرعب، فيطلقون سراحك، ويعلـون شـأنك ! فـامض إلى النـصر الآن ! ولكـن تذكر، آه أيها الصديق الوفى، أتوسل إليك أن تتذكر ضراعتـى، وألا تـصيب الـشمس المباركة بأذى . لأجلى أيها الصديق الصدوق ".

و بسبب ما كنت أعانيه من هم وتعب، صدرت عنى عبارة بـصوت مكتـوم ، مثل أننى سأعفو عن الشمس، فشيعتنى نظرة الفتى بامتنان صـادق عميـق، بحيـث لم يطاوعنى قلبى لإبلاغه كيف أن عفويته الحمقاء، قد أوقعت بى وتسببت فى هلاكى .

حين اقتادنى الجنود إلى داخل القاعة، كان السكون عميقا، حتى إنهم إذا كانوا قد عصبوا عينى ، كان يفترض أن أكون فى عزلة ، بدلا من تطويقى بجدار من أربعة آلاف من البشر . لم يكن متوقعا صدور حراك عن هذه الكتل البشرية، فقد اعتراهم جمود تماثيل من الحجر، وران على كل وجه شحوب من هول الموقف . تواصل هذا الصمت المطبق، أثناء قيادى مكبلاً إلى الخازوق ، وتواصل أيضا وقطع الحطب تكوم بتؤدة وحرص حول كاحلىّ، وركبتىّ، وجسدىّ، ثم توقفت الحركة قليلا، وران صمت أكثر عمقا ، وركع رجل عند قدمى وفى يده مشعلا ملتهبا بالنار، فازداد انفعال الحاضرين المحدقين بأبصارهم ، وقد تركوا مقاعدهم طوعا ودون إدراك، ورفع الراهب يديه فوق رأسى، وعينيه إلى السماء الصافية، وبدأ يردد بعض كلمات باللاتينية، وظل يرددها مرات ومرات للحظة قصيرة، ثم توقف عن ذلك . ترقبت الأمر للحظتين أو ثلاث، و نظرت إلى أعلى، فوجدته متحجرا فى مكانه . نهض الحشد دفعة واحدة، ورنوا إلى السماء بأبصارهم المصوبة كالمدافع، حيث بدأ ما توقعته من كسوف فى الظهور ! عاد النشاط يتدفق فى أوردتى، وعدت إنسانا مجددا ! انتشرت طبقة الظلمة وئيدا، فى قرص الشمس، وتزايد معها رفع معنوياتى، وظل الحشد والراهب يحدقون فى السماء، دون حراك . أدركت أن تلك النظرة المحدقة ، ستتجه إلى، عقب ذلك . وحيثما اتجهت، كنت متأهبًا . كنت فى أحد أكبر ما واجهت من مواقف من قبل، ذراعاى ممدودتين تشيران إلى الشمس. كان لذلك أثر عظيم . من السهل أن ترى الرعب، ينسحب على الحشد كالموج . أطلقت صيحتان، واحدة إثرالأخرى :

" أوقد المشعل !"

" لاتوقده !"

جاءت الصيحة الأولى من ميرلين، والثانية من الملك . قام ميرلين من مكانه ليشعل بنفسه نار المشعل ، حسبما ظننت. قلت :

" ابق مكانك . لو تحرك أحد - حتى الملك - قبل أن أسمح له، سأدمره برعـد وأمحوه ببرق !"

انكمش الجميع فى مقاعدهم امتثالا للأمر، وتوقعت منهم ذلك . تردد ميرلـين لحظة أو اثنتين، عانيت خلالها حالة نفسية عصيبة . جلس من ثم فتنفست الصعداء، لأننى أدركت الآن أننى سيد الموقف . قال الملك :

" كن رحيما، أيها السيد المهذب، ولا تتجاوز فى هذا الأمر الخطير أكثر من ذلك وإلا حلت الكارثة . لقد وصل إلى علمنا أن قدراتك لن تبلغ مداها قبل الغـد ، لكـن .... "

"ألا تظن جلالتك أنها أكذوبة ؟ إنها أكذوبة بالفعل".

أحدث ذلك أثرا كبيرا، حيث رُفعت الأيدى من كل مكان بالضراعة، ووجـه الملك بعاصفة من المناشدة، بحيث أصبح باستطاعتى تـرويج خطتـى بالمقابـل الـذى أريد، مع الإبقاء على أمر الكارثة. كان الملك أكثر استجابة. حيث قال :

" ضع أيها المحترم، ماشئت من شروط، حتى لو تضمن ذلك اقتسام مملكتـى، ولكن أوقف لقاء ذلك وقوع الكارثة، وانقذ الشمس !"

تحقق بذلك هـدفى . سـأظفر بـه فى لحظـة واحـدة، لكننـى لا أسـتطيع وقـف الكسوف، ذلك شيء لايعتريه شك . لذلك طلبت وقتا كى أدبر أمرى . قال الملك:

" كم تستغرق ـــ آه، كم يستغرق ذلك أيها الطيـب ؟ كـن شـفوقا، انظـر، إن الظلمة آخذة فى التزايد لحظة بعد الأخرى. كم تستغرق، زاد فضلك ؟ "

" لن يطول ذلك كثيرا . نصف ساعة ، وربما ساعة ".

ظهرت اعتراضات كثيرة مؤسفة، لكننى لا أستطيع تقصير الوقـت، لأننـى لا أتذكر وقت انتهاء الكسوف . تشتت تفكيرى، وأردت تدبر الأمر . لقد حدث خطأ فى موعد هذا الكسوف والحقيقة ملتبسة على .

إذا كان ماحدث لم يكن لى فى الحسبان ، فكيف يمكننى تحديد ما إذا كنا ، فى القرن السادس أو أننى كنت أحلم فحسب ؟ ياإلهى، لو أننى أستطيع التحقق من ذلك فحسب ! بدا فى الأفق أمل سار . فإذا كان الفتى مصيبا بشأن هذا التاريخ، وأن اليوم هو العشرين من الشهر، فهذا ليس بالقرن السادس. اقتربت من كم الراهب، واستفسرت منه عن هذا اليوم من الشهر .

تشبثت به فقال: إنه اليوم الواحد والعشرون ! شعرت بقشعريرة من هول ما سمعت . ناشدته ألا يكون مخطئا فى هذا، لكنه كان على يقين من أنه يعرف أن اليوم هو الواحد والعشرون من الشهر . هكذا قام الفتى الأبله مجددا بخلط الأمور! فتاريخ اليوم هو التاريخ الصحيح للكسوف ، وقد تأكدت من ذلك حين نظرت إلى المزولة القريبة منى . أجل، إننى الآن فى قصر الملك آرثر، ولعلى أكون قد تحققت من ذلك بقدر استطاعتى.

كانت الظلمة تتزايد تدريجيا، ويزيد معها كدر القوم . قلت فى تلك اللحظة : " قد تدبرت أمرى ، مولاىّ الملك، وسأواصل هذه الظلمة عبرة للناس، وسأنشر هذه العتمة فى العالم، ولكن أمر زوال الشمس إلى الأبد أو إعادة إشراقها ، متروك لك . هذه هى الشروط، بمعنى، أنك ستظل ملكا على مملكتك كلها وتلقى كل دواعى العظمة والشرف ، وهى تلك التى تنعم بها بوصفك ملكا، لكنك ستسند إلىّ وظيفة وزيرك ومستشارك النافذ فى المملكة، وأن تقدم لى لقاء خدماتىّ، واحدا بالمائة من الزيادة الفعلية للدخل، ما يربو على قيمته الحالية، الذى قد أنجح فى تحقيقه للمملكة . وإذا لم أعمل بهذا المقتضى، فلن أطلب من أحد شيئا . أهذا كاف ؟"

علا صوت هادر بالهتاف، فاقه صوت الملك يقول :

" فكوا قيوده، وأطلقوا سراحه ! وليقدم له الجميع التحية، الأعلى منكم منزلة والأدنى، الغنى والفقير، فقد أصبح ساعد الملك الأيمن، ينعم بالسلطة والنفوذ،

ويجلس على الدرجة الأعلى من عرش الملك ! امح الآن هذا الظلام الزاحف، وابعث النور والبهجة مجددا، كى يسعى الجميع إلى مباركتك ".

لكننى قلت :

"أن يجبر إنسان عادى على الافتضاح أمام الناس، فذلك أمر عادى، لكن ما يشين الملك أن يرى أحد وزيره مجردا من الثياب، حيث يجب رؤيته بمنأى عما يشينه".

ذلك لو سمح لى بأن أطلب إعادة ثيابى إلى مجددا ..... "

تدخل الملك قائلا :

"تلك الثياب لاتليق بك، أحضروا ثيابا أخرى ، ألبسوه ثوب أمير " .

نجحت فى مسعاىّ، حيث رغبت أن تبقى الأموركما هى ، حتى يكتمل الكسوف، وإلا أصروا مجددا على أن محو الظلمة فى التو، ولم أكن بالطبع أستطيع ذلك. كان إحضار الثياب يستغرق وقتا، ولم يكن هذا كافيا . لذلك كان على البحث عن مبرر آخر . قلت لهم: إن الأمور ستسير فى مجراها الطبيعى ، حال غير الملك رأيه وندم لبعض الوقت على ما اقترفه وقت انفعاله، وإننى مع ذلك سأدع الظلمة تتزايد لفترة قصيرة، وإذا ثبت الملك بعد فترة ملائمة على موقفه ، فسيتبدد الظلام . لم يقتنع الملك أو سواه، بهذا الاقتراح ، لكن كان حرىّ بىّ أن أبقى على موقفى .

تزايد وقع الظلمة، أكثر فأكثر، فى حين كنت أجد مشقة بالغة فى التعامل مع بشاعة ثياب القرن السادس . كان لابد فى النهاية أن يحل ظلام دامس، فتأوهت الحشود على إثره، إحساسا بالرهبة ، لشعورهم بهواء الليل البارد الغريب يتغلغل عبر المكان، ورؤيتهم ومض النجوم فى السماء ، لقد اكتمل كسوف الشمس فى النهاية، فسررت بذلك، لكن الآخرين استشعروا نذير الكارثة ، وقد بدت أمامهم فى صورتها الطبيعية الكاملة . قلت :

" إن الملك على صمته، باق على تمسكه بما اتفقنا عليه " ثم رفعت يدى، وظللت هكذا للحظة، ثم قلت بضراعة جد رهيبة: " فلترفع السحر، ولتنصرف دون شر ."

لم تأت استجابة إثر ذلك للحظات، وسط الظلام الدامس والصمت الرهيب . ولكن حين دفع إطار الشمس الفضى بنفسه إلى الظهور عقب ذلك بدقيقة أو اثنتين، أطلق الجمع هتافا صاخبا، واندفعوا نحوىّ كسيل منهمر ، ليطوقونى بآيات التبريك والامتنان، ومؤكد أن كلارنس فى ذلك لم يكن آخر الغيث .

الفصل السابع

بــــرج مـــيرلين

عظم شأنى، كونى الآن الرجل الثانى فى المملكة، أمسك بزمام ما هو أبعد من السلطة والنفوذ . أرفل فى ثياب من الديباج والمخمل وأردية من ذهب ، تـصادف لهـا أن تخرج عن الذوق السليم، فضلا عن كونها غير مريحة . لكن التعود سرعان ما جمع بينى وبينها ، بعد خشية من عجزى عن ذلك . عرضوا لى اختيار جناح من عدة غرف فى الحصن، على نحـو مايتوفرللملـك . زينـت بـستائر حريريـة فاقعـة اللـون ، لكـن أرضياتها الحجرية تعرت إلا من قطع صغيرة على هيئة سجاد، ولكنها لا تصلح لهـذا الغرض، كونها من خليط متنافر . أما بالنسبة لوسائل الراحة فالحديث عنهـا يطـول ، فقد عدمت أيا منها. أعنى وسائل الراحة البسيطة، تلك التى تبعث على راحة حقيقية فى العيش . كفتنى تماما تلك المقاعد البلوطيـة الكبـيرة والمزدانـة بنقـوش فجـة، ولا مزيد. افتقر المكان إلى الصابون، والثقاب، والمرايا الزجاجيـة، عـدا واحـدة معدنيـة، بصلابة دلو ماء. ليس ذلك المطلى بمادة الكروم اللامعة، تلك التى ألفتها سنينا، وقـد أدركت الآن أن شغفى بالفن قد أثر ولا شك فى كينونتى ، وصار جزءا منـى . لفنـى الحنين إلى الوطن وأنا أرى مايحيط بى من مظاهر أبهة وزهو بلا روح ، وأتـذكر أنـك فى بيتنا فى إيست هارتفورد ، لاتدخل إحدى الغرف، إلا وتجد لوحـة ملونـة محتفظـة برونقها، أو تجد عبارة " بارك الله دارنا "، مكتوبة بألوان ثلاثة على الباب، وكان لدينا تسع منها فى البهو. لن تجد هنا فى هذه الغرفـة المبهرجـة، مـا يمـت للوحـة تـصويرية بصلة، عدا شىء فى حجم لحاف الفراش ، لاتعرف منسوجا كان أم معقودا، (مرتقا فى

مواضع منه) ولا شيء فيه يحمل اللون المناسب، أو الشكل الصحيح، أما عن النسب، فرافاييل ذاته لم يكن بمقدوره أن يفسدها بمثل هذا القدر رغم براعته فى ذلك، وقد بدت فى تلك الكوابيس، التى يطلقون عليها " اسكتشات قاعة هامبتون الشهيرة ". وكان رافاييل غريب الأطوار . لدينا العديد من لوحاته الملونة ، وفى أحد أعماله ويدعي" سحب شبكة صيد السمك "، ابتكر معجزة خاصة به ، بوضع ثلاثة رجال فى كنو صغير (قارب خفيف) ،لا يستطيع أن يحمل كلبا دون أن تضطرب حركته . وكثيرًا ما أعجبتنى دراسة فن رافاييل، فهو متسم بالجدة ، وغير تقليدى .

خلا الحصن حتى من جرس أو أنبوب للتخاطب عبره . خصص لخدمتى عدد كبير من الخدم، استرخى من بالخدمة منهم فى غرف الانتظار، وكان على إذا رغبت فى استدعاء أحدهم التوجه إليه بنفسى واستدعاؤه. افتقر الحصن إلى غاز للوقود، وإلى شموع، وكان مصدر ما يمكن أن يطلق عليه ضوء، صحنا برونزيا مملوءا نصفه بدهن الخان، وخرقة طافية فوقه . علق العديد منها على الجدران، فقلل من الظلمة وجعلها تبدو أقرب كثيرا إلى القتام . لو أزمعت الخروج فى الليل، حمل لك الخدم تلك المشاعل . لاوجود هنا لكتب، أو أقلام، أوورق ، أو مداد ، أو زجاج فى فجوات يمكن اعتبارها نوافذ، فذلك الشيء ، الزجاج، قليل القيمة حال الافتقار إليه، وعظيم الشأن حال وجوده . لكن كان الأكثر سوءا، هو خلو الحصن من السكر، والقهوة، والشاى والتبغ . أدركت أننى بدورى روبنسون كروزو ، ألقى بى على جزيرة نائية غير مأهولة، بلا رفقة، إلا من بعض الحيوانات الأقل ألفة، فإن رغبت فى مواصلة العيش، فعلى أن أحذو حذو كروزو ، فأخترع وأستنبط وأبتكر، و أتدبر أمورى ، وأعمل عقلىّ ، وأداوم العمل بيدى . لابأس إذن، فذلك يروق لى.

كان هناك فى ما أثار قلقى فى البداية على طول الخط، وهو ذلك الاهتمام الشديد الذى أولانى الجميع به . بدا واضحا أن الأمة بأسرها، قد شاءت أن توجه

أنظارها إلىّ . سرعان ما أشار ذلك إلى أن حادثة الكسوف قد أثارت فى البريطانيين هلعا شديدا ، حتى أنه وقد بلغ ذروته ، كان الشعب على بكرة أبيه فى حال من الهلع يرثى لها، ففاضت الكنائس والصوامع، والأديرة، بابتهالات وعبرات من اعتقد من البؤساء أن نهاية العالم صارت وشيكة . أعقبت ذلك أنباء تفيد بأن صانع هذا الحدث الرهيب هو أحد كبار السحرة المقيم بقصر آرثر، وأنه يستطيع أن يطفئ الشمس وكأنه يطفئ شمعة، و كان بسبيله أن يفعل ذلك حين تخلت عنه الرحمة، و قد أبطل سحره، وهو الآن يعامل ويبجل بالاحترام باعتباره إنسانا لديه وحده القدرة على إنقاذ العالم من الدمار ، وآهليه من الفناء. فإن وضعت فى اعتبارك أن الجميع قد صدقوا ذلك، وليس ذلك فحسب، بل إنهم لم يتصوروا أن يرموه بمجرد شك ، ولو ألممت بفحوى هذا كله لأدركت ببساطة أنه ما من شخص فى بريطانيا بأسرها لم يقطع خمسين ميلا كى يستمتع بمرأىّ .

كنت بالطبع شاغلهم الوحيد، بعد ما تغاضوا عن شواغلهم الأخرى ، وأصبح الملك فجأة هو الشخصية الأدنى أهمية، والأقل شأنا فى نظرهم . بدأت الوفود طوال الأربع والعشرين ساعة، تتقاطر إلىّ ، ولا تنقطع وذلك على مدى أسبوعين . ازدحمت البلدة عن آخرها ، وكذلك قرى الجوار . كان علىّ الخروج فى اليوم إليهم عشرات المرات، لأستعرض نفسى أمام هذه الحشود التى من بينها من يوقروننى ، ومن يخشوننى أيضا . شكل ذلك عبئا كبيرا ، مع طول الوقت و المعاناة، لكن هذا فى المقابل، كان يواكبه تحقيق كم هائل من الشهرة و الترحيب فى آن . أوغر ذلك صدر ميرلين بالضغينة والحسد، وكان ذلك مبلغ غبطتى ورضاى . لكن كان هناك أمر لم أستطع تفسيره ، حيث لم يطلب أحدهم البتة أن أوقع فى مفكرته . تحريت الأمر من كلارنس. حلفنى بجورج أن أوضح له الأمر برمته . ثم أجاب بأنه ليس فى البلد من يعرف القراءة والكتابة، سوى قلة تقدر بعشرات الرهبان . ياللهول . تأمل ذلك !

هناك أيضا ما أثار انشغالىّ إلى حد القلق. فتلك الحشود قد بدأت الآن تصبو إلى أن أصنع أمامها معجزة أخرى، وهذا من جانبهم، أمر طبيعى، كى يستطيعوا أن يحملوا إلى بلادهم البعيدة، دليلا دامغا على رؤيتهم الرجل الذى يستطيع أن يأمر الشمس، بالركض فى السماء، فتطيعه، ما يُعلىّ من شأنهم فى نظر جيرانهم، و يجعلهم موضع حسدهم، بل ليتمكنوا أيضا من ذكر أنهم قد رأوا هذا الرجل بأنفسهم وهو يصنع إحدى المعجزات . ولا عجب فى أن يقطع الناس المسافات للفرجة أيضا . ازداد إلحاحهم كثيرا . كان القمر بسبيله إلى الخسوف، وقد عرفت الساعة والتاريخ، لكن ذلك كان بعيدا عن زمن حدوث خسوف للقمر . أى عامين من الآن . كان يمكن لىّ الآن الإسراع بالإعلان عن حدوثه واغتنام الفرصة، والسوق رائجة له . ولكن ما دعا إلى الأسى ضياع الفرصة ، وتأخر حدوث الخسوف إلى وقت يتساوى فيه الانتفاع به مع عدمه . آه لو أن الموعد قد تأخر شهرا فحسب، لاستغللت ذلك على الفور، ولكننى هكذا وبحسب ما طرأ من أحوال ، سأُعدم وسيلة للخروج من هذا المأزق، لذلك تراجعت عن تلك الفكرة . اكتشف كلارنس عقب ذلك أن العجوز ميرلين، قد انشغل بإشاعة أمر بين القوم . أشاع بينهم أننى دجال وأن عجزىّ عن تحقيق المعجزة، هو السبب الحقيقى وراء فشلى فى تحقيق رغبتهم . أدركت أنه علىّ الآن أن أتصرف، فانشغلت فى الحال بوضع خطة .

بصفتى الحاكم الفعلى للبلاد، ألقيت بميرلين فى السجن، فى الزنزانة نفسها التى سبق أن شغلتها، ولم أقلل من الفئران لمؤانسته . وأصدرت نداء عاما بأننى سأنشغل بأمور الدولة لأسبوعين، وعند نهاية تلك الفترة، سأرتاح فترة قصيرة، ثم أحرق برج ميرلين الحجرى بنيران تهبط عليه من السماء، وليحذر فى الوقت ذاته، كل من يصدق شائعات السوء . كما أننى سأقدم هذه المعجزة فحسب، فإذا لم يقتنعوا بها ويدور أى همس بشأنها، فإننى سأحول الهامسين إلى جياد ينتفع بها . فتنعم البلاد بالهدوء .

كان كلارنس إلى حدما موضع ثقتى، وقد مضينا معا نعمل فى السر . أخبرته أن هذا النوع من المعجزات يحتاج إعدادا جد بسيط ، وأخبرته أن مجرد الإفضاء بشأن هذه الترتيبات لأى شخص ، يعقبه هلاكه المباغت، ما جعله بالغ الحذر .أعددنا سرا بضع عبوات من البارود شديد الانفجار، سعة الواحدة ٨ جالونات، وأشرفت على صناع الأسلحة، أثناء إعدادهم مانعة للصواعق ، وبعض الأسلاك . كان هذا البرج الحجرى القديم بالغ الضخامة، فضلا عن أنه أيضا كان آيلا للسقوط، حيث كان من العصر الرومانى، وعمره أربعمائة عام . وكان أيضا جميل الشكل، مبنيا على الطراز القديم، وقد اكتساه اللبلاب من قاعدته إلى قمته، وكأنه يلبس قميصا لدرع حديدية. انتصب البرج فوق هضبة عزلاء وبدا قريبا من الحصن بحوالى نصف الميل .

أثناء الليل أدخلنا البارود إلى البرج، وقمت بحفر بعض الحجارة من الجنب ، ووارينا البارود فى الجدران ، التى يبلغ سمكها خمسة عشر قدما عند القاعدة . وزعناه على اثنتى عشرة حفرة بمقادير متساوية. كان يمكننا على هذا النحو تدمير برج لندن ذاته، بهذه الشحنات من البارود . حين حلت الليلة الثالثة عشرة قمنا بتركيب مانعة الصواعق ، ووضعناها فى أحد مواضع البارود . تجنب الجميع الاقتراب من هذا المكان، من تاريخ البيان الذى أعلنته ، ولكننى صبيحة اليوم الرابع عشر، رأيت أن الأفضل تحذير الناس، عبر النداء بأن يبتعدوا عنه لمسافة ربع ميل. أضافوا إلى ذلك أنه بأمر منى، وفى وقت محدد خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة سأقوم بصنع المعجزة، لكنى أود قبل ذلك أن أقدم بيانا مقتضبا، عند الرايات المعلقة على أبراج الحصن، لو كان الوقت نهارا، أو على ضوء المشاعل فى نفس المكان نفسه لو كان ليلا.

سقطت أمطار رعدية متواصلة، فى وقت متأخر، ولم أخش كثيرا مغبة وقوعى فى الفشل ، ولم أضطر إلى أن أؤجل الأمر يوما أو اثنين، وأبين للناس، أننى منشغل ببعض أمور الدولة، وأن عليهم الانتظار .

أتانا النهار بشمس مشرقة ، وكان الأول فى صفائه، منذ ثلاثة أسابيع ، وخلوه تقريبا من السحب، وهكذا الحال دوما. ركنـت إلى العزلـة، وتابعـت الطقـس . كـان كلارنس يتردد على من آن لآخر، حيث كانت حالة الهياج العام تتزايد باطراد، والبلد بأسره يحتشد بالكتل البشرية، حتى مدى الرؤية مـن داخـل أسـوار الحـصن . هبـت الريح فى النهاية، وظهرت إحدى السحب، فى المربع الأيمن أيضا ، وذلك مع حلـول الليل تحديدا . لاحظت لفترة قصيرة، أن السحابة البعيدة تسود وتتمدد، ورأيت أنه قد حان وقت خروجى للعلن . أمرت بإشعال حاملات المشاعل، وإخراج ميرلـين مـن السجن وإحضاره إلى . صعدت بعد مرور ربـع سـاعة، إلى الـسور العلـوى، وهنـاك وجدت الملك والحاشية محتشدين ، يحدقون فى الظلمـة باتجـاه بـرج ميرلـين . ازدادت العتمة، حتى انحسر مجال الرؤية، وحيث رسم هـؤلاء - مـع وجـود جـزء مـنهم فى الظل، وجزء آخر فى ضوء النار المنبعثة من المشاعل التـى تعلـو الـرؤوس - رسـموا جميعا مايشكل لوحة كبيرة .

وصل ميرلين معكر المزاج . قلت له :

" رغبت فى حرقى حيا، و ما مسستك بسوء قط ، وكنت مؤخرا تحاول تلويث صيتى المهنى . لذلك سآمر بسقوط النيران وإحراق برجك، ومـن العـدل أن تمـنح لك فرصة واحدة فحسب، لكنك لو ظننت الآن أنك تستطيع إبطال قوايّ السحرية، وتدفع أذى النيران، فتقدم إلى الساحة، وقد حان دورك " .

" أستطيع ذلك، أيها السيد المحترم، وهاأنذا، لا يساورك فى ذلك شك ."

رسم دائرة وهمية، على حجارة السقف، وأشعل فيها حفنة من البارود، بعثت سحابة، نفاذة الرائحة ، فتراجع الجميع إلى الخلف، وبدأوا يشيرون إلى أنفسهم بعلامة الصليب، وقد بدا عليهم القلق . ثم بدأ يغمغم ويشير بيديه فى الهواء . وينفعل تدريجيا إلى حد الهياج، ثم انبرى يحوم بيديه فى الهواء بما يشبه مراوح طاحونة تدور فى الهـواء .

اقترب هبوب العاصفة فى تلك اللحظة تلاعبت هبات الريح بضوء المشاعل، فتمايلت الظلال ، وبدأت زخات المطر فى التساقط، وتحول العالم إلى قتامة قطران حالك السواد، وأصدر البرق وميضا متقطعا . قلت فى نفسى إن مانعة الصواعق ستشحن الآن . صارت كل التدابير وشيكة الوقوع . لذلك قلت :

"لديك الآن ما يكفى من وقت . لقد منحتك كل الفرص، ولم أتدخل فى شيء. يتضح الآن أن سحرك قاصر . ومن حقى وحدى أن أبدأ فى التو ".

أشرت فى الهواء بثلاث إشارات، فحدث انفجار رهيب، وبدأ البرج القديم يتداعى كتلا ضخمة فى الفضاء، يصحبه انفجار بركانى هائل من النيران، حولت الليل إلى نهار، وأظهرت ألف آكر من الكتل البشرية الممتدة، منبطحة على الأرض، فى تداع تام من هول الموقف . الحقيقة أن السماء بقية الأسبوع ظلت تمطر ملاطا وحجارة، بحسب ما وردنا من أنباء، لكننى أظنهم فى ذلك قد أضافوا إلى الحقيقة يومين .

كانت هذه معجزة بكل المقاييس . اختفى أغلب مثيرى الإزعاج من الأهالى لبعض الوقت . ظهرت فى الصباح التالى آلاف من آثار الأقدام فى الوحل، لكنها بدت كلها فى اتجاه واحد، لو أننى أعلنت عن معجزة أخرى، لما استطعت زيادة الجماهير بهذا القدر ، مع الاستعانة بعمدة المدينة .

بارت بضاعة ميرلين . أراد الملك أن يوقف أتعابه، كما أراد أن يتخلص منه، لكننى تدخلت فى الأمر. ذكرت أنه يفيدنا فى قراءة الطقس، وما عداها من أمور بسيطة، وسأعطيه دفعة من آن لآخر ، حين يمسه بالسوء ما يمارسه بالأفنية من سحر متواضع. لم تبق شقفة من برجه ، لكننى أمرت بإعادة بنائه، ونصحته بأن يلتزم حدوده، لكنه أبدى اعتراضا. أما بالنسبة لرد الجميل، فلم يفه بكلمة شكر . فضلا عن أنه رجل صلب الرأى إلى أبعد ما تتخيله، لكنك لا تستطيع أبدا أن تتوقع من رجل بلغ هذا الحد من الصرامة، أن يكون حلو الشمائل .

الفصل الثامن

الـــزعيـــــم

شيء رائع أن تحتل منصبا كبيرا، والأروع أن ترى أن ذلك موضع رضا لدى الناس . زادت حادثة البرج من نفوذى، وجعلتنى شخصا فوق المساءلة. ولو أن أحدهم قبل هذا الحدث كان قد أظهر انتقادا لى عن شيء من حقد، فإن مشاعرهم نحوى قد تبدلت الآن . لم يعثر أحد فى المملكة أيا كان، على سبب يجعله يتدخل فى شئونى .

سرعان ما تعايشت والواقع والظروف المحيطة بى. أما بالنسبة لقضاء الوقت، فإننى اعتدت فى السابق الاستيقاظ مبكرا وملاقاة حلمى بالترحاب ، والإصغاء إلى صافرة مصنع الأسلحة النارية، لكن ذلك الصنف من الأمور أخذ يتلاشى تدريجيا ، وصرت الآن أدرك أننى أعيش بالفعل فى القرن السادس، فى بلاط آرثر، وليس فى مشفى للمختلين عقليا . شعرت بعد ذلك بأننى اعتدت كثيرا الحياة فى القرن السادس، كحياتى فى سواه من القرون، أما عن المقارنة بين الحالين فقارن كما يحلو لك، فأنا لا أستطيع مقايضة القرن السادس بالقرن العشرين . تأمل الفرص المتاحة هنا لرجل العلم، والفكر، والمغامرة والسفر فى مركب شراعى، وأن تعمل لرقى هذا البلد . كان المجال واسعا بحق ، حيث لا أجد هنا منافسا لى أو حتى ظلا لمنافس، أو أعثر على من يمتلك ما لدى من معارف وقدرات، أما عنى والحال كذلك، فأقول ما شأنى أنا بالقرن العشرين؟ كنت سأصبح رئيس وردية فى أحد المصانع، لاشيء غير

ذلك، ويمكننى يوما سحب شبكة صيد ضخمة عبر الشارع، وصيد مائة رجل ممن يفضلوننى .

أى قفزة تلك التي حققتها ! إننى لاأستطيع أن أتوقف عن التفكير فى هذا الأمر والتأمل، كما يفعل مكتشف البترول . ليس ثمة ما يقارب حالتى فى الشبه، سوى حالة يوسف على الأرجح . ويوسف هو الوحيد الذى تجاوزها، حيث لاتتماثل الحالتان كلية . فمن المنطقى أن يوسف كان صاحب براعة فى إدارة الأموال الضخمة ، ولايتقدم عليه أحد ماليا سوى الملك، وكان لابد أن يشيعه بقية الشعب بكثير من الكراهية، فى حين أننى قدمت لشعبى كله معروفا بإنقاذ الشمس من الفناء، وقد نلت صيتا مدويا لهذا السبب .

لم أكن ظلا للملك، بل كنت الجوهر والملك نفسه هوالظل .كنت أتمتع بنفوذ طاغ ولم يكن ذلك لقبا فحسب، كما كانت مثل هذه الأمور عامة، بل كان اللقب لقبا من الصنف الأصلى. وقفت على مشارف ومنطلق الحقبة العظيمة الثانية من تاريخ العالم، أستطيع أن أرى دفق مسار ذلك التسلسل التاريخى، يعمق ويوسع ويزيد من تياراته العاتية متصلا بالقرون البعيدة، ويمكننى الآن متابعة انطلاق أمثالىّ من المغامرين، فى كنف أمجاد عروشه الممتدة، أمثال دى مونت فورتز، جافيستونز ، مورتامرز، فيلليارسيس، وهم قادة المعارك، ووحوش فرنسا قواد الحملات العسكرية، سُمر البشرة، حاملو الصولجان أتباع تشارلز الثانى، ولم يظهر شخص ممن كانوا فى الموكب بقدر حجمى مكتملا. كنت أشعر بتفردى، وأسعد بمعرفة أن تلك الحقيقة ، يستحيل سبر غورها، أو ادعاء الكشف عنها كلها على مدار ثلاثة عشر قرنا ونصف القرن .

أجل، كنت أشارك الملك سلطانه. كانت هناك فى الوقت ذاته سلطة أخرى تبز قليلا سلطتينا معا. إنها سلطة الكنيسة. لن أحيد البتة عن تلك الحقيقة، ولا أقوى على

ذلك، حتى لو رغبت. ولكن دعنا من ذلك ، لأن الأمر سيكتمل وضـوحه حتما فـيما بعد، وفى الوقت المناسب. لم أنزعج من تلك الحقيقة فى البداية، أو أخشى عاقبتها على الأقل .

حقا، إنه بلد غريب، وأناسه غرباء. إنهم أكثر أهل الأرض غرابـة ، وسـذاجة، وعفوية، ولا يختلفون عن الأرانب فى شيء. من المؤسف أن يصغى أحد نشأ وترعـرع فى كنف الحرية الكاملة، إلى مايرددونه عن قناعة وانصياع بشأن ولائهم التام لمليكهم، وللكنيسة والأمراء، وكأنه لاسبيل أمامهم سوى حب وتمجيد ملك وكنيـسة ونـبلاء، فاق ما يبديه العبد من وله وتمجيد لجلاده أو ما يظهره كلب من حب وانصياع لأقوى راكليه ! عجبا عزيزى القارئ.. إن أى صنف من ولاء كهذا، مهما خفت حدته ، وأى لون من الأرستقراطية ، مهما تهذب، لقمين بأن يكون الإهانة ذاتها، لكنك لـو نـشأت وربيت فى كنف نظام كهذا، فيرجح ألا تستنكف بدورك ذلـك، كـما لـن تـصدق مـن يكشف لك عن حقيقته. يكفيك أن تجعل أحدهم يخجل من جنسه، حـين يفكـر فى ذلك النوع من الرغاء ، الراكد دوما فوق عروشها ، دون وجـه مـن حـق أو منطـق، ناهيك عن أصحاب المرتبة السابعة، الذين يمثلون دوما أرستقراطييها، وهى جماعـة من الملوك والنـبلاء ، لـن يحققـوا لهـم كالعـادة سـوى الفاقـة والبـؤس، لـو تركـوا كأخيارهم لجهودهم الذاتية .

كان غالبية البريطانيين من شعب آرثر ، عبيدا يتـسمون بالعفويـة والـسذاجة معا، وأولئك عبيد باللقب، طوقوا أعناقهم بالياقات المنشاة، أما البقية فعبيـد بـالواقع والحقيقة ، لايحملون اللقب، وقد صوروا لأنفسهم أنهم أحرار كبقيـة أهـل الأرض، وأطلقوا على أنفسهم صفة " الحر". الواقع أن الأمة قاطبـة لم تكـن تحيـا لغـير هـدف واحد فحسب ، هو الامتثال للملك والكنيـسة والنـبلاء، وذلـك لكـى يـستعبدوا، وتمتص دماؤهم ، ويذوقوا الفاقة، وليصنعوا فيهم ما شاءوا ، ويجرعوهم البؤس حتى

الثمالة حيث وجب أن يسعدوا، ثم يمضوا عراة حيث كانوا الأحرى بلبس الحرير والتنعم بالدرر النفيسة، وأن يسددوا لهم المكوس ، حيث وجب أن يعفوا من سدادها، وأن يألفوا التعامل فيما بينهم بلغة مسفة وضيعة ، ديدنها النفاق، حيث كان حريا بهم السير مرفوعى الهامة، والإيمان بأنهم سادة هذا العالم . لذلك كله كان ثمار ما يجنونه لقاء أفعالهم هذه، لايعدو الصفع من أولئك والازدراء، وهكذا تجدهم بعد انهيار معنوياتهم، يعتبرون هذا النوع من الاهتمام، تشريفا لهم.

أمر عجيب تلك الأفكار المتوارثة، وهى الأجدر بالبحث والدرس. فأنا مثلا لدى أفكارىّ الخاصة فى هذا الشأن ، ولدى الملك والآخرين أفكارهم. تتدفق تلك الأفكار فى الحالتين فى مسارات عميقة بالية، بفعل الزمن والعادة، ومن يزمع تحويل مسارها بالمنطق والحجة، فلابد أن يكون حائزا فى يده ، عقدا طويل الأجل. ونجد على سبيل المثال أن أولئك قد تعارفوا على أن من لايحملون لقبا أو عراقة فى النسب ، سواء فى ذلك من امتلك منهم قدرات ذاتية عظيمة أو مكتسبات معرفية أوافتقر إليها، تعارفوا فيما بينهم على أن هؤلاء من الكائنات التى لايزيد ما تلقاه من اعتبار عما لدى الحيوانات، والهوام والحشرات، فى حين أن ما توارثته من أفكار، يقول بأن السذج من البشر ممن قنعوا بالتفاخر على غير الحقيقة، بالرتب الرفيعة والألقاب الموروثة، ليسوا بأشخاص أسوياء بل هم أدعى للسخرية. كان النهج الذى سرت عليه فى السابق مختلفا، ولكنه كان نهجا طبيعيا. تعرف كيف يتعامل الحارس والجمهور فى حديقة الحيوانات مع الفيل، لابأس فذلك هو المحك . إن هؤلاء يمتلئون إعجابا بضخامته وقوته الجبارة، ويفاخرون بالحديث عما يمكن أن يصنعه من غرائب ، تتجاوز كثيرا قدراتهم، ويفاخرون بمايمتلكه من قوة، تمكنه من دفع ألف رجل أمامه ، و لكن هل يجعله ذلك واحدا منهم؟ كلا ، ربما يسخر من هذه الفكرة، أكثر أهل الجب تشردا وشعثا. لأنه سيعجز عن فهمها، أو تقبلها أو إدراكها ولو بقدر ضئيل. كنت فى

الحقيقة، لدى الملك والنبلاء والناس قاطبة، حتى عند العبيد والمشردين أنفسهم كنت لدى هؤلاء جميعا أشبه هذا النوع من الأفيال، وحسب. لقد شيعونى بالتوقير، والخشية فى آن، تماما كما يشيع حيوان بالإعجاب والخشية. الحيوان يحظى بالإعجاب، وكذلك كنت، وما حظيت فى ذات الوقت منهم بأى احترام . لم أكن من أصحاب المقام الرفيع، أو أحمل لقبا موروثا، لذلك كنت فى عيون الملك والنبلاء مجرد حثالة، وشيعنى الناس بالإعجاب والرهبة، ولكن دون أن يخلطوا ذلك باحترام يذكر، وكانوا فى ذلك رهن تأثير الأفكار المتوارثة عاجزين عن إدراك شيء سوى رفعة المقام والسيادة، تستطيع هنا التعرف إلى اليد الباطشة، ألا وهى الكنيسة الكاثوليكية . لقد تحولت أمة من البشر فى أقل من قرنين من الزمان أو ثلاثة ، إلى شعب يستحق الرثاء . كان الناس بشرا حقيقيين ، قبل أن تتحقق السيادة فى العالم للكنيسة ، وكانوا مرفوعى الهامة، حيث توفرت للإنسان كرامته، وشجاعته، واستقلاليته، وأن ما امتلكه من رفعة ومكانة حققهما بما أنجزه هو وليس بإرثه . ثم تم للكنيسة الظهور، وكان لها هدف تسعى إليه، فسلكت سبيل الحكمة والحرص، وعرفت أكثر من وسيلة لسلخ قطة أو أمة، فابتكرت "حقوق الملوك الشرعية " ودعمت مؤيديها فى كل مكان ، بإقامة لبنة تلو أخرى، عن طريق التطويب ، والانحراف به عن أهدافه النبيلة، ليكون غطاء لهدف شرير، فلقنت العامة المهانة، والإذعان للسادة، وحب التضحية بالذات، وبشرت العامة بالرضوخ للمهانة ، وبشرت العامة (العامة دوما) بالجلد والمثابرة ، والشعور بالدونية ، والخنوع، وقدمت الصفات الرسمية للطبقات الاجتماعية بالإرث، وقدمت للأرستقراطيات، وعلمت شتى الأمم المسيحية فى بقاع الأرض الانحناء لها، وتوقيرها . ظل ذلك السم يسرى فى دماء المسيحية، حتى القرن الذى شهد ميلادى، ولايزال الفضلاء من عامة الشعب الإنجليزى، قانعين برؤية غير الكفء، يواصل فى قحة احتلال عدد من المناصب ، ومنها قيادة البلاد واعتلاء العرش، حيث لاتسمح له قوانين بلاده الغريبة، بمجرد التطلع إليها، ولم يكن فى

حقيقة الأمر قانعا، بمثل هذه الأوضـاع الغريبـة فحـسب، بـل وصـل بـه الأمـر، إلى التفاخر بوضعه هذا. يتضح من سير الأمور على هذه الوتيرة، أنه ما من شيء يجعلـك تعجز عن تحمله ، لمجرد أنك ولدت فيه وترعرعت فحسب. تسرى تلـك الوصـمة بالطبع فى دماء الأمريكان، ناهيك عن توقيرهم المناصب والألقاب بـالوتيرة نفـسها، لكن ذلك كان قد اختفى تماما عند رحيلى عن أمريكا، بحساب كل الأهداف والنيات على الأقل . أما ما بقى منه فقد انحصر فى أبناء المدن من سادة وسـيدات وإذا تفـشت آفة مجتمعية إلى هذا الحد، يمكننا القول بأنها صارت بلا ضوابط .

ولكن بالعودة إلى منصبىّ غـير المـسبوق ، فى بـلاط الملـك آرثـر، فقـد صرت عملاقا بين أقزام، رجلا بين الصغار، ونابها ذكيا وسط خلـدان عاقلـة، وصرت بـأى قياس فعلى، ذلك الرجل العظيم النافذ، فى العالم البريطانى بأسره، ولكـن بـصورة أو بأخرى وكما هو الحال فى إنجلترا البعيدة عن موطنى الأم، نجد أن أى أيـرل عاقـل ، لديه القدرة على الادعاء بانحداره من سلالة القائم بشئون الملك الدنيا، قد حصل بها على المرتبة الاجتماعية الثانية فى أحياء لندن الفقيرة، كان يفضلنى. شخصية كتلـك فى مملكة آرثر كانت تشيع بالملق وتطالع بعين الوقار من الجميع، حتـى لـو كانـت ميولـه متواضعة تماما شأن عقله، وسلوكياته جد متدنية، كدأب أسلافه . يـستطيع التواجـد فى حضرة الملك أحيانا ، فى حين أعجز أنا عن ذلك . كان يمكننـى بـسهولة اكتـساب لقب، وذلك سيرفعنى درجات فى عين الجميع، ومَن بينـهم الملـك، مـانح اللقـب . لكننى لم أسع له، بل رفضته حين عرض علىّ . لايمكننى الاستمتاع بأشياء كهذه ، مع مالى من توجهات، كما أن ذلك ليس من العدل فى كل الأحوال، لأنه بقدر العـودة إلى الماضى، نجد أن عشيرتنا قد عُدمت دوما ما يشير من أدلة إلى وجود أبناء سفاح فيها . لايسعنى أبدا الإحساس بالارتياح التام ، والمباهاة والاستقرار، إزاء حمـل أى لقـب عدا واحدا ، الشعب وحده هو الجدير بمنحه إياىّ، والشعب هـو المـصدر الـشرعى

الوحيد، وكان ذلك اللقب هو ما تطلعت إلى الظفر به، وقد ظفرت بـه بعـد سنوات طوال من السعى المخلص الدؤوب، وحملته بفخر تام وتسام . خرج هذا اللقب ذات يوم بطريقة عفوية على شفاه حداد فى إحدى القرى ، واعتـبر بـادرة سـارة، وتناقلتـه الأفواه، بصوت يشى بالبهجة والإتفاق ، وذاع فى كل أنحاء المملكـة فى عـشرة أيـام، وأصبح شائعا كلقب الملك. لم أعرف فيها بعد بلقب آخر، سواء خـلال تحـاور النـاس مع بعضهم البعض ، أوأثناء النقاش الجاد بشأن أمور الدولة، فى المجلس الاستـشارى الأعلى. عرف هذا اللقب فى لهجة الخطاب الحديثة بـــ "الـزعيم "، بحـسب اختيـار الشعب . وكان يناسبنى ، ويعتبر من الألقاب العظيمة . قلة من الألقـاب هـى التـى تحمل أداة التعريف " ال" وكان لقبى إحداها . إنك إن بادرت أحـدا بالحـديث عـن الدوق، أو الإيرل، أو الأسقف، فكيف لأحد أن يستطيع معرفة من الذى قـصدت ؟ لكنك إن تحدثت عن الملك أو الملكة أو الزعيم، فالأمر يختلف .

حقيقة إننى أحببت الملك، وإننـى أحترمـه بوصـفه ملكـا، وأحـترم المنـصب، أحترمه على الأقل، قدر احترامى أى منصب رفيع غير مكتسب، ولكنى أطالع الملك والنبلاء بعين الازدراء خفية. إنه يحبنى وكذلك النبلاء، كما يحترم منصبى، ولكن شأن حيوان ، مجرد من لقب مكتسب بالمولـد أولقـب منتحـل، يطـالعوننى بـازدراء ، ولا يفعلونه خفية. إننى لن أسأل عن رأيى فيهم، كما لن يؤاخذوا بدورهم عن رأيهـم فى، وبذلك تعادلت الكفتان، وسويت الحسابات، ورضى الطرفان بالنتيجة .

الفصل التاسع

مباريات المبارزة بين الفرسان

اعتادوا فى كاميلوت إجراء مباريات كبرى للمبارزة بين الفرسان ، أناس يصارعون بعضهم البعض كالثيران على نحو مثير للضحك والإثارة والمتعة، كما كانت فى الوقت نفسه مصحوبة بعض الشيء بالملل، لدى العقل ذى التفكير العملى . كنت رغم ذلك أحضرها جميع لسببين، حيث حرى بالمرء ألا يبدى تحفظا ، إزاء أشياء يعشقها أصدقاؤه وأفراد مجتمعه، لو رغب أن يكون محبوبا، خاصة إذا كان رجل دولة، ومن ناحية ثانية فإننى قد رغبت بوصفى شخصية عامة، مسئولة فى الدولة، أن أبحث أمر هذه المبارزات، وأرى إن كنت أستطيع إضافة جديد إليها يذكرنى ذلك بملاحظة عابرة، هى أن أول مابادرت به فى العمل الرسمى فى عهدى بالإدارة ، خاصة أن ذلك حدث فى أول يوم، كان أن أنشأت مكتبا للاختراع ، لأننى أدركت أن بلدا يخلو من إدارة للاختراع وقوانين منظمة لهذه الإدارة ، يعد سقط متاع، ولن يتمكن من التقدم خطوة إلى الأمام بل سيتعثر فى طريقه أو يتقهقر إلى الخلف .

سارت الأمور على نحو أن تقام مباراة واحدة فى الأسبوع تقريبا، واعتاد الشباب من وقت لآخر دعوتى إليها، أقصد السير لونسلوت والبقية، لكننى كنت أقول لهم قريبا ولا داعى للعجلة، وأن كثيرا من شئون الدولة الرسمية فى حاجة إلى الاهتمام به ووضعه فى نصابه ودفعه إلى الأمام .

كانت هناك مبارزة واحدة تتواصل جولاتها من يوم لآخر، لأكثر من أسبوع يشترك فيها فى حدود الخمسمائة فارس، منذ بدايتها حتى تنتهى. كانوا يحتشدون معا لأسابيع . وفدوا من كل مكان على أطراف البلد، على ظهور الجياد ، وحتى من خارجها، واصطحب الكثير منهم السيدا ت، أتوا جميعا بالدروع وبجيوش من الخدم والحشم . كان كالعادة حشدا بالغ الروعة والتنافر فى آن، وكان سمة من السمات المميزة للبلد والعصر، بطريقة تبعث على تنشط الجسد بالحركة ، وزلاقة الألسنة فى التحاور بشكل عفوى ، و الانطلاق المرح بمنأى عن ضبط السلوكيات . كانت مبارزة وعرضا للفرجة، طوال اليوم ، وكل يوم، يصاحبها الغناء والمقامرة والرقص، والإسراف فى الشراب حتى ينتصف الليل. ينغمسون فى المتعة لوقت طويل ، ولن ترى أبدا آخرين على شاكلتهم. تظهر هذه الحشود من الجميلات، بملاحتهن الغجرية،

قد ترى فارسا مائلا فوق جواده ، وطعنة رمح بسمك كاحلك مخترقة إياه، والدم منه يسيل، و بدلا من أن يغشى عليهن جراء هذا المشهد الدموى ، تراهن يصفقن بأيديهن ، ويلتحمن ببعضهن البعض، ليحظين بمشاهدة أفضل، وفى أحيان قليلة فحسب ترى إحداهن، قد غرقت فى منديلها، وبدت منكسرة الفؤاد لتلفت الأنظار، ويمكنك المراهنة على الضعف، بأن هناك فضيحة وقعت فى مكان ما، وأنها فى خشية من أن يكشف الحاضرون أمرها.

ربما كان فى الضوضاء المنبعثة أثناء الليل وبانتظام مصدر قلق ، لكنني لم أكن ألتفت إليها فى الظروف الراهنة، لأنها حالت بينى وبين سماع وقع سقوط السيقان المقطعة والأذرع على الأرض، ممن فقهدوها فى هذا اليوم . لقد حطم المغالجون المدعون لى منشارا عريضا، صحيح أنه قديم ولكنه يعمل جيدا ، وكسروا المنشار الجديد أيضا، لكننى لم أعر الأمر اهتماما. أما بالنسبة لبلطتى، فلاغرو أنى قررت فى المرة القادمة ، التى أعيرها جراحا ، أن أتخير المجموعة التى تعمل معى.

إننى لم أشاهد هذه المبارزة كل يوم فحسب، لكننى أسندت هذه المهمة لراهب ذكى، من إدارة الآداب العامة والزراعة ، وأمرته بأن يقدم لى تقريرا تفصيليا عن كل جولة فى المباراة، لأن من أهدافى العاجلة ، وحين أعد الناس لذلك إعدادا جيدا، أن أصدر صحيفة . إن أول ما تبادر بفعله فى بلد حديث، أن تقيم مكتبا للاختراع ، ثم تنشئ نظامك التعليمى ، وبعد ذلك تصدر صحيفتك . صحيفة ذات مثالب ، بل تضم الكثير منها فذلك لايهم، فلا تنس أنها تصدر من القبر لتقيل عثار أمة ساكنة بلا حراك . ولايمكنك أن تبعث أمة من الموت دون أن تفعل ذلك، وما من سبيل غيره. لذا فقد احتجت إلى اتخاذ نماذج للأشياء، والبحث عن شيء من المادة التقريرية، كى أتمكن من انتقاد القرن السادس وإبراز عيوبه، حال تطلب الأمر ذلك .

لابأس ، أدى الراهب دوره كاملا . رصد كل التفاصيل، وكان ذلك ناجزا تماما فى الشأن المحلى : تراه حين كان شابا قد احتفظ لنفسه بدفاتر خاصة بقسم العملاء فى كنيسته، وهناك كما تعلم قائمة تفصيلية بالأموال، وكلما استفضت فى التفاصيل، ازدادت البنود لتشمل : الحمالين، والبغال، والشموع، والابتهالات، حيث كل شيء يتم احتسابه بالأرقام، فإذا لم يجلب يتيم الأبوين كثيرا من الوافدين على الكنيسة ، فعليك أن ترفع من قيمة شموعك وتحقق بذلك دخلا كبيرا . وكان لديه من البراعة الكثيرفى مسائل إطراء فارس هنا أو هناك، يرجح أن يكون فى إطرائه دعاية ضمنية له، أعنى ذلك الفارس من أصحاب السطوة، وكان لدى الراهب أيضا قدرة خاصة على المبالغة، لأنه كان يستقبل ناسكا يعيش فى زريبة للخنازير ، ويصنع المعجزات .

افتقر التقرير الصحفى لهذا المترهبن إلى وصف يحفل بالإثارة، بالصياح والارتطام، وكان يحتاج بالتالى إلى وصف حلبة الصراع الحقيقية، لكن سرده كان على النسق القديم ، وكان حلوا طريفا، ينحو إلى البساطة، ويحظى بروائح ونكهات العصر، وهذه المزايا البسيطة كانت عوضا عما شابه من قصور، وهذه نبذة منه :

" ثم تلاقى كل من السير برايان دى لا أيزلس، والسير جرومور جروموسوم، فارسى الحصن ، بكل من السير أجلوفالى والسير تور، وسدد السير تور إلى السير جرومورسوم ضربة قوية فطرحه أرضا ثم دخل الحلبة السير كارادوس صاحب البرج الكئيب، والسير توركوين، فارسا الحصن، لملاقاة كل من السير بيرسيفالى، دى جاليس، والسير لاموراك دى جاليس، وهما شقيقان، فنازل السير بيرسيفالى ، السير كارادوس، وأطاح كل بحربة الآخر من بين ذراعيه ، كما التقى كل من السير توركوين والسير لاموراك ، وسددكل للآخر ضربة قوية، أطاحت بكليهما والجياد على الأرض، وساعد كل الآخر على النهوض، وعادا إلى الركوب مجددا . وتلاقى للنزال كل من السير آرنولد ، والسير جوتير فارسى الحصن، بكل من السير براندايلز ، والسير كاى، وكان نزال هؤلاء الفرسان الأربعة قويا، وقد أطيح بالرماح من الأذرع . ثم أتى من الحصن السير بيرتولوب، ونازل السير ليونيل ، وقد سدد السير بيرتولوب الفارس الأخضر، ضربة قوية إلى السير ليونيل، شقيق السير لونسلوت . راقب هذه المبارزات كلها حكام بارزون، هم الأكثر جدارة وصيتا .ثم سدد السير بليوبيرس رمحه إلى السير جاريث، لكن هذه الضربة أطاحت بالسير بليويريس أرضا . حين رأى السير جاليهودين ذلك، أشار إلى السير جاريث لملاقاته، فضربه السير جاريث ضربة قوية ، أطاحت به أرضا . تناول السير جاليهود رمحا، ليثأر لأخيه، فعاجله السير جاريث بالأسلوب نفسه، وجرد برمح واحد كل من السير ديناداان، وشقيقه السير لاكوت مالى تايلى ، والسير ساجرامور التواق، والسير دودايناس الشرس ، وحين رأى أجويسانس ملك أيرلندا السير جاريث يصيب نجاحا على هذا النحو، تحير فيما يمكن أن يفعله، حيث بدا مخضرا فى لحظة، ومزرقا فى اللحظة التالية عند قدومه . تغير لونه عند كل دورة بها كر وفر، حيث لا يقدر ملك أو فارس على التعرف عليه . نازل بعد ذلك السير أجويسانس ، ملك أيرلندا، السير جاريث، فسدد السير جاريث

له ضربة قوية، أطاحت به وبسرجه عن جواده . دخل كارادوس ، ملك إسكتلندا، فأطاح السير جاريث بالرجل والجواد .

وعاجل بالطريقة نفسها الملك أورينز ، ملك جور. تلاه السير باجدماجوس، فطرحه السير جاريث أرضا طرح فارس وجواد . سدد ميليجانوس بن باجداموس ضربة رمح قوية بارعة للسير جاريث . هتف السير جالاهولت ذلك الأمير النبيل، عاليا فى التو ، أيها الفارس متغير اللون، الآن وقد أبليت، فتأهب لملاقاتى . سمعه السير جاريث، فتناول حربة كبيرة، ثم تبارزا، فسدد الأمير رمحه، لكن السير جاريث عاجله بضربة على الجانب الأيسر من خوذته، فأخذ يترنح يمنة ويسرة ، ثم هوى ولم يتمكن أعوانه من إفاقته . قال الملك : حقيقة إن الفارس متعدد الألوان هذا، لايشق له غبار . لذلك استدعى السير لونسلوت، وأمره بمنازلة هذا الفارس . قال الفارس: مولاى، أشعر أن الأفضل ألا أنازله الآن، فقد بذل جهدا شاقا، وأنه إذا جاء يوم أبلى فيه فارس مغوار بلاء حسنا، فليس من شيم فارس مغوار أن يبدد ما يحمل هذا الفارس من وقار وصيت، بعد أن رأى فارسا قد أدى عملا رائعا، وتصادف أن تكون معركته هنا اليوم، وتصادف أن لقى من الحاضرات إعجابا ، وأننى أرى أنه قد أجهد نفسه، وطوعها فى أداء عمل بطولى، أما أنا فأرى أن يحظى اليوم بالتشريف رغم أنه كان باستطاعتى انتزاعه منه ، ولن أفعل ".

وقع حادث عرضى غير سار فى ذلك اليوم، قمت بحذفه من تقرير الراهب لأسباب رسمية . ستلحظ فى التقرير أن "جيري"، كان يبلى بلاء حسنًا فى النزال . حين أقول "جيري"، أعنى به السير جاريث. أما "جيري" فهو الاسم الذى أطلقته لأدلله به، ويشى ذلك بقدر حبى العميق له، هذا كل ما فى الأمر. لكنه مجرد اسم للتدليل فحسب، ولا ينادى به أحد فى العلن، فما بالك به، وهو أحد النبلاء، و لن يستملح منى كل هذا الود . لابأس فى ذلك ، ولنواصل : جلست فى مقصورتى

الخاصة، والمعدة لى بوصفى نائبا للملك. وفى أثناء ترقب السير دينـادان حلـول دوره لدخول الحلبة، دخل إلى، وجلس وبادرنى بالحديث، حيث اعتـاد الانـضمام ، لأننـى غريب، وأحب هو أن يروج عندى لدعابته، وأغلبها قد بلغ حالـة مـن القـدم تجعـل راويها ينفرد بالضحك منها، فى حين ترى متلقيها وقد غلبه السأم. كنت دوما أتجاوب وسعيه على قدر الاستطاعة، كما كنـت أشـفق عليـه كثـيرا ، بـسبب أنـه أدرك لـسوء طالعى، ألا يحرمنـى سـماع دعابتـه الجـد فريـدة، والمتكـررة فى آن، بـل الأكثـر مقتـا وفجاجة.

نسبت النادرة التى حكاها لى ، إلى كل من وضع قدميه على الأرض الأمريكيـة من أهل الفكاهة ، بدءا من كولومبس ، حتى أرتيموس وارد . وهى تتناول محـاضرا فكها، انهال على جمهور جاهل، بأكثر أنواع النكات تأثيرا على مدى ساعة كاملـة ، ولم يتلق عنها مجرد ابتسامة، وحين هم بالرحيل، تجشم بعض المغفلين الكبار أن شدوا على يده بحرارة، وقالوا له: إن تلك هى أجمل ماسمعوا من دعابات ، كما أنهم " قـد بـذلوا جهدا كبيرا فى الإمساك عن الضحك المباشر فى اجتماع عام ". لم تكن حدوتـة الـسير تستحق أن تسرد يوما، كما أننـى اعتـدت الجلـوس لـسماعها مئـات وآلاف وملايـين وبلايين المرات، وأصدرت خلال ذلك من اللعنات والصيحات الكثير . فمـن يـسعه تأمل قدرشعورى آنئذ، وأنا أصغى لهذا الغبى المغطى بالدرع ، وسـماعه يبـدأ سردهـا مجددا ، فى فجر الرواية القديمة، قبل فجر التاريخ، فى وقت يمكن فيه الإشارة حتـى إلى لاكتينيوس ذاته بـــ"لاكتانتيوس الراحل "، قبل خمـسمائة عـام مـن بـدء الحـرب الصليبية ؟ بمجرد أن فرغ مـن النـادرة جـاء الغـلام يـستدعيه، مـضى ذلـك المقهقـه كالشيطان إلى حال سبيله، مقعقعا ومخشخشا، كقفص شحن معدنى مخلخل ، ولست على دراية بما يزيد عن ذلك من وصف . مضت لحظات قبل أن أسترد وعيى، فتحـت عينى فى اللحظة التى عاجله السير جاريث بضربة موجعة، فوجدتنى بتلقائيـة أدعـو

وأبتهل : وأتمنى من نياط قلبى أن يقتل!" ولكن لسوء الحظ ، وقبل أن أكمل نصف كلماتى ، انطلق فى أعقاب السير ساجرامور"التواق"، فأطلق الآخر صيحة مدوية وهو على عجيزة فرسه، وقد فهم السير ساجرامور إشارتى بالدعاء على أنه المقصود بها .

الحقيقة أنه حينما يتشبث أحد هؤلاء بأمر فى داخله ، يعجز الآخرون فى إزالته من نفسه . أدركت ذلك، واقتصدت فى همسى ، ولم أشأ تفسيرا للأمر . بمجرد أن استرد السير ساجرامور عافيته، أعلمنى بأن هناك بعض ما يوجب التسوية بيننا، وحدد يوما خلال السنوات الثلاث أو الأربع القادمة ، ومكان النزال ، والساحة التى ستدور عليها تسوية الأمر . قلت بأننى متأهب له حين يعود . كان معروفا أنه راحل للبحث عن كأس العشاء الأخير المقدسة. فالشباب يقومون من آن لآخر بمغامرة للبحث عن هذه الكأس. تستغرق رحلتها عدة سنوات. يظلون خلال غيابهم الطويل، يسيحون فى الأرض، بإخلاص و يقظة، مع أنهم جميعا لايعرفون مكان هذه الكأس المقدسة، ولست أظن أن أيا منهم كان يتوقع بالفعل العثور عليها، أو ماذا سيفعل بها لو تم له ذلك . لعلك تقول إن ذلك لمجرد استخدام حق المرور بغرب الشمال فى ذلك العهد. حيث تخرج إرساليات للبحث عن الكأس المقدسة، وتخرج بعثات الإغاثة فى العام التالى لتقفى أثرها. يتسع المجال فى تلك الحملات كثيرا لذيوع الصيت ، ولكن دون تحقيق مغنم مالى . عجبا، هاقد طلبونى للمبارزة، فضحكت رغما عنى .

الفصل العاشر

إرهاصات حضارة

سرعان ما وصلت أخبار التحدى إلى أعضاء المائدة المستديرة ، واستغرق الأمر بالطبع من الجدل الكثير، فأشياء كتلك تشد انتباه الشباب . ارتأى الملك، أنه يجدر بى منذ هذه اللحظة، محاولة القيام برحلة للمغامرة ، لعلى بها أكتسب صيتا ، وأكون أهلا لملاقاة السير ساجرامور، بعد انصرام السنوات القليلة المحددة . اعتذرت عن ذلك فى الوقت الراهن، فتلك الفترة تنتهى بعد ثلاثة أو أربعة أعوام، من الآن، حتى تسير الأمور مسارها الطبيعى وتمر الفترة بهدوء، فأكون مهيأ لذلك الحدث ، وتكون كل الفرص متاحة فى نهاية الفترة التى سيكون السير ساجرامور خلالها، لايزال فى رحلة البحث عن الكأس المقدسة ، وبذا لن يضيع الوقت هباء جراء هذا التأجيل، وأكون قد مضى علىّ فى المنصب ستة أعوام أو سبعة، وأكون قد تيقنت من أن ما وضعته من نظم وآلات ، سيحققان المرجو منهما، ما يمكننى من الحصول على عطلة، دون أن ينتج عن ذلك سوء .

اطمأننت إلى كل ما حققته من إنجاز . شرعت فى إقامة كل أنواع الصناعات فى الخفاء فى أماكن ومنعطفات عزلاء ، لتكون نواة مصانع مستقبلية ضخمة، ومنشآت للحديد والفولاذ تؤسس لحضارة مستقبلية. ضم ذلك خيرة من تمكنت من العثور عليهم من العقول الشابة، وكان لدىّ وكلاء يجوبون البلاد للبحث عن المزيد منها دون انقطاع . قمت من خلال تدريب جماعات من البسطاء ، على يد خبراء، خبراء فى كل مجالات العمل اليدوى، وفى مجال العلوم . مضى ما أقمته من مؤسسات

صغيرة كتلك، يعمل فى سرية وسكينة ، دون أن يكدر عملها مكدر داخل مقارها الريفية البعيدة، حيث لم يكن يسمح لأحد بدخول مواقعها دون تصريح خاص، وذلك لخشيتى من الكنيسة .

بدأت فى إقامة مقر للتدريب، أقمت بعده مباشرة مدارس الأحد، فصار لدى الآن، مؤسسة هائلة تضم عددا من المعاهد متعددة المراحل، تعمل بكامل طاقاتها فى تلك الأماكن، ومنظومة كاملة من الإبراشيات البروتستانتية وكلها كان يشهد نموا وازدهارا . يستطيع أى شخص من خلالها أن يكون مسيحيا على الدرب الذى يرغبه، فله مطلق الحرية فى الاختيار فى هذا المنحى. لكننى أرسيت مناهج دينية عامة ، تدرس فى الكنائس ومدارس الأحد، لايسمح بتلقين شيء منها داخل مقارى التعليمية الأخرى .

كنت أستطيع منح الأولوية لمذهبى الدينى ، ودفع الجميع إلى اتباع المشيخية (البروتستا نتية) دون جهد يذكر، لكن ذلك كان بسبيله إلى أن يخرق ناموس البشر وطبائعهم ، فالرغبات الدينية ، والغرائز، يختلفان لدى العائلة الإنسانية باختلاف ميولهم الحسية ، ولون البشرة والملامح، ويكون الإنسان فى أحسن حالاته السلوكية حين يكتسى رداء العقيدة، الذى يتفق فى اللون والشكل والحجم مع مالدى الفرد من سمات الروحية، وما صور عليه من مقومات جسدية وبنية وقوام ، وذلك علاوة على أننى كنت أخشى وجود كنيسة موحدة، تحقق من النفوذ الكثير، ما لا يمكن تصور حدودا لضخامته، إذا استحوذ عليه من انفرد به، وهذا يحدث دوما، ما يعنى حجرا على حرية البشر، وإصابة الفكر الإنسانى بالشلل .

كانت كل المناجم خاصة ملكية، وهى كثيرة العدد . وكانت تعمل فى السابق بنفس الطرق البدائية التى تدار بها المناجم، بتجاويف محفورة فى الأرض، تستخرج

منها المعادن يدويا فى أجولة جلدية، بنسبة طن فى اليوم، لكننى سرعان ما شرعت فى إدارة المناجم على أساس علمى.

أجل، لقد حققت إنجازا كبيرا منذ أن أقدم السير ساجرامور على تحدىّ إياىّ بالمبارزة .

مرت أربعة أشهرعلى وجه السرعة - ومن ثم ! لن تتصور حقيقة ما تحقق خلالها . فحين توضع سلطة مطلقة فى يد أمينة، تعتبرنموذجا مثاليا ، كما أن حكم الله يعد النموذج الأعلى للسلطة المطلقة . أما سلطة البشر المطلقة على الأرض، فتصبح حكما مثاليا مطلقا حال تشابهت الحالتان ، بمعنى أن يكون الحاكم المطلق هو النموذج الأمثل الوحيد من بنى البشر، وأن تكون مدة بقائه فى الحياة مطلقة . ولكن بما أن هذا الإنسان الأمثل الفانى ، مصيره الموت، وترك سلطاته الفردية فى يد خلف له غير أمين، يكون بذلك حكم الفرد الزائل من أسوأ نظم الحكم، بل أسوأها كلها .

أكدت إنجازاتى ما يمكن للحاكم الفرد أن يفعله، حين تكون موارد المملكة تحت إمرته . لامراء أننى فى بلد الظلمات هذه قد أتيت بحضارة القرن التاسع عشر لتزدهر على عينه ! غاب ذلك عن أنظار العامة، ولكنه تحقق بالفعل، حقيقة دامغة بلا مراء، بل ليعلن عنه على الملأ - لو حُسن طالعى - وكنت قيد الأحياء .

ذلك حدث لاشك أنه جوهرى وملموس، شأنه شأن بركان خامد، يقبع ساكنا وقمته فى السماء قد خلت من الدخان ، لا تبدى ماينبئ بحمم تتصاعد من مراجله . صار الآن عمر الكنائس والمدارس التى أقمتها أربع سنوات ، وأصبحت ورشى الصغيرة التى أقمتها منذ ذلك التاريخ مصانع ضخمة، حيث كان لدى دستة من الأفراد المدربين، قد صاروا الآن ألفا، وكان لدى خبير محنك، صار الآن لدى خمسون خبيرا . وقفت وإصبعى على الزر، أو بالأحرى، متأهبا للضغط عليه، فكان يمكن فى أى لحظة إشاعة النور فى عالم الظلمة . لكننى لن أفعل ذلك بطريقة مباغتة .

فليس ذلك أسلوبى . الناس لايمكنهم تحمل ذلك، فضلا عن أنه كان حريا بىّ اتخاذ الكنيسة الرومانية القديمة ظهيرا لى فى البداية .

الحقيقة أننى كنت طوال الوقت حذرا فى كل ما شرعت فى بنائه. وكان لدى عملاء سريون، يسيحون فى طول البلاد وعرضها لبعض الوقت، بهدف التقليل من شأن تقاليد الفروسية على مراحل قصيرة، والنخر قليلا فى كل ما يحيط بالإيمان بالخرافة والخوارق، وإعداد السبيل تدريجيا لنظام أفضل تدار به الأمور . أدرت ضوئى بقوة شمعة فى المرة الواحدة، وتعمدت السير على هذا النسق .

نشرت بعض فروع للمدارس، فى أنحاء المملكة، و أنجزت إقامة المخطط له . لجأت بمرور الوقت إلى خوض هذا المجال باطراد، ما لم يكن هناك ما أخشاه فى هذا السبيل . وكانت قاعدة ويست بوينت ، سرا من أسرارى الدفينة، بمعنى إقامة أكاديميتى العسكرية . جعلت ذلك سرا لاتقاء شرور الحاسدين، وفعلت الشيء نفسه لدى إقامة أكاديميتى البحرية فى أحد الموانئ البعيدة . ونال كلاهما مبلغ قناعتى .

كان كلارنس قد بلغ الآن ، الواحدة والعشرين من عمره، وكان ذراعى اليمنى ومسئول التنفيذ الأول. كان محببا لدىّ، وكفؤا فى كل ما يسند إليه من أعمال ، ولا يقوى على أن يتراجع عن عمل يقرره . لقد دربته مؤخرا على العمل الصحفى . فقد بدا الوقت مناسبا لبدء العمل فى إنشاء صحيفة، ليست كبيرة الحجم، لكنها صحيفة أسبوعية صغيرة، لتجربة معدل توزيعها على منشآتى المدنية . اعتاد العمل فيها بيسر، حيث كان فى داخله محررا حقيقيا . لقد جمع بالفعل بين شخصيتين فى نسق واحد، كان يتحدث بأسلوب القرن السادس، ويكتب بطريقة القرن التاسع عشر . كان أسلوبه الصحفى، متطورا باضطراد ، وقد بلغ بالفعل فى التصنيف المستوى المعمول به فى ولاية "ألاباما"، وكان يستحيل أن يقال إن ذلك أسلوب محرر أصلا من هذه المنطقة، من حيث المضمون أوالذائقة .

كانت أمامنا انطلاقة كبيرة أخرى . فالهاتف والتلغراف ، كانا باكورة مشاريعنا في هذا المجال . خصص البرق والهاتف للخدمات السرية فحسب، في الوقت الحالي، وكان يجب أن يظلا هكذا، حتى يحين وقت الجهر بهما . كنت أستخدم مجموعة من الرجال على الطريق، يعملون بالليل فحسب . كانوا يقومون بمد أسلاك في الأرض، وكنا نخشى تركيب أعمدة، لأنها ستبدو مثيرة للشك . كان في الأسلاك الأرضية مايفي بالغرض في كلا المشروعين، لأن الأسلاك مغطاة بمادة عازلة ابتكرتها وأدت الغرض. تلقى رجالي أوامري بالانتشار عبر البلد، وتجنب طرقها الرئيسة، ثم يجرون اتصالات بأي المدن الكبيرة، التي كشفت أضواءها عن وجودها ، ثم يتركون فيها خبراء لإدارة العمل . لا يستطيع أحد أن يدلك على طريق الوصول لمكان ما ، حيث لايعرف أحد كيفية الوصول إلى أي مكان، بل يمكن العثور عليه فحسب، بالمصادفة البحتة خلال تجواله بالمكان ، فلا يعيره اهتماما ولا يستفسرعن اسمه . كنا من وقت لآخر نرسل بعثات طبوغرافية، لمسح أراضي المملكة ووضع خريطة لها، لكن الرهبان كانوا يتدخلون دوما ويفتعلون المشاكل . لذلك أوقفنا العمل في هذا المجال في الوقت الراهن، فليس من الحكمة مخاصمة الكنيسة الآن .

أما عن أحوال البلد بوجه عام، فقد كانت على الحال الذي كانت عليه حين وصلت، في كل الأمور تقريبا . لقد أحدثت تغييرات بالفعل ، لكنها تعد طفيفة بالضرورة، كما أنها غير ظاهرة للعيان . أكثر من ذلك أنني تدخلت في نظام الضرائب، بمنأى عن الرسوم التي تدعم الإيرادات الملكية . نظمت تلك، وجعلت احتسابها على أساس فاعل وسليم . فكانت محصلة ذلك زيادة فعلية في الإيرادات بلغت أربعة أضعاف ما كانت عليه ووزعت التكلفة الضريبية توزيعا أكثر عدلا من السابق، فتنفست المملكة كلها الصعداء ، وكان الامتنان والإطراء على إدارتي حارا من الجميع.

جوبهت حينئذ بانتقادات شخصية، لم ألتفت إليها، وما كان لى أن أفعل هذا فى أحسن الأحوال. كان يمكن أن أنفعل لها فى السابق، لكن كـل شيء الآن كـان يـسير سيرا حسنا و يتقدم إلى الأمام . ظل الملك فى الفترة ، الأخيرة يـذكرنى مـرات عديـدة بأن التأجيل الذى طلبته قبل أربع سنوات ، قد انقضى أجله الآن . وكان هـذا تلميحـا بأنه يجدر بى البدء فى القيام برحلة للمغامرة واكتساب الـصيت الكبـير مـا يجعلنـى جديرا بشرف منازلة السير ساجرامور ، الذى لايـزال خـارج الـبلاد فى إثـر الكـأس المقدسة، تقوم فرق الإغاثة بالبحث عنها، والتـى يمكـن العثـور عليهـا فى أى وقـت الآن. لذلك كنت أتوقع ذلك الأمر الطارئ، ولن يكون حضوره بمثابة مفاجأة لى .

الفصل الحادى عشر

الشمالى يبحث عن مغامرة

يستحيل أن تجد بلدا كهذا يضم من هاموا على وجوههم من كلا الجنسين لترويج الأكاذيب. لايكاد يمر شهر، إلا ويصل المدينة أحد هؤلاء، وقد حمل فى العادة قصة تحكى عن أميرة أو سواها، تطلب العون لإنقاذها من أحد الحصون البعيدة، بعد وقوعها فى أسر وغد خارج على القانون، ويكون فى العادة عملاقا. ولعلك عزيزى القارئ تظن الآن أن يطلب الملك بعد سماعه القصة من غريب عن البلدة، ما يؤكد قصته تلك، أجل، كما يطلب ما يشير من قريب أو بعيد إلى مكان الواقعة، وأفضل الطرق المؤدية إليه، ودواليك . لكن أحدا لم يفكر البتة فى أمر جد بسيط وساذج كهذا، كلا البتة ، بل ترى الجميع قد صدقوا، كل مارواه هذا الغريب من أكاذيب. ولم يسأل أحدهم مجرد سؤال على أى نحو أو مضمون . حدث أنه أثناء غيابى ، أن قدم أحد هؤلاء إلى البلدة، و القادم هذه المرة امرأة، روت قصة من الطراز المعتاد . قالت إنها كانت أسيرة فى حصن مروع ، وبرفقتها أربعة وأربعون فتاة جميلة فضلا عن أخريات من الشابات وأغلبهن أميرات، ظللن يعانين الأسر على مدار ستة وعشرين عاما . وكان سادة الحصن ثلاثة أشقاء من العمالقة، لكل منهم أربعة أذرع، وعين واحدة، فى منتصف الجبهة، وهى من الكبر كحبة الفاكهة. لم تذكر طبعا نوع الفاكهة، فعادة ما تكون خارج الحصر .

أتصدق ما حدث ؟ لقد سر الملك ورجال المائدة المستديرة جميعا، بهذه الفرصة الواعدة للشروع فى رحلة للمغامرة . تدافع كل فارس يجلس على المائدة إلى اغتنام الفرصة، وأبدوا توسلاتهم من أجل نيلها، لكن الملك لإغاظتهم وتكديرهم، أسندها إلىّ، رغم أننى لم أطلبها على الإطلاق .

أظهرت غبطتى مجبرا حين جاءنى كلارنس بالبشرى ، ولم يتمكن من سرد أخباره، حيث انبرى يعبر عن بالغ سروره وامتنانه دون توقف، وفرحه لحسن طالعى، وأثنى على الملك بسبب ما قدم لى من صنيع عظيم . لم يستطع أن يحتفظ بثبات ساقيه أو جسده لكنه ظل يرقص رقصة البروتة حول المكان وهو فى قمة الانتشاء .

كنت من ناحيتى أستطيع رمى ما أسديته من عطف نحوه باللعنات، بعد أن من على بهذا، لكننى كظمت غيظى، بدافع احتواء الأمر . بذلت ما وسعنى لإبداء غبطتى. قلت: إننى بحق أشعر بالسعادة . وهذا فى جانب منه صحيح ، فقد كنت فى سعادة من تجز فروة رأسه !

حسنا، لحرىٌ بالمرء أن يحول الأمور إلى الأفضل، ولا يضيع وقتا فى قلق لاطائل من ورائه، بل يبدأ العمل من فوره، ويقلب فيما يمكن فعله . تعلم أنه فى الأكاذيب ما هو غث وما هو سمين وعلى البحث فى الأخير ، لذلك أرسلت فى طلب الفتاة فأتت . كانت على قدر كبير من الملاحة ، ومن الرقة والتواضع، لكن إذا كانت السمات لاتفيد فى شيء، فقد كانت تفتقر إلى سمت السيدة راقية . قلت لها :

" عزيزتى، هل استفسروا منك عن أمور بعينها ؟ "

قالت إن ذلك لم يحدث .

" حسنا، لم أتوقع تعرضك لذلك ، لكنى ظننت أننى يمكن أن أوجه السؤال لأستيقن فذلك ما نشأت عليه . أما الآن فلا يجدر بك أن تغضبى لو ذكرتك بأنه ما

دمنا لانعرفك جيدا، فإنه يجدر بنا المضي بتؤدة بعض الشيء . لعلك بالطبع على صواب فيما ذكرت، وآمل ذلك، لكن ليس من الصواب أن نصدق ذلك على الفور . إنك تتفهمين الأمر . لقد أخذت على عاتقى أن أستفسر منك عن بعض الأشياء، فأجيبى عنها بصراحة وصدق، ولا تخشى من شيء. أين تعيشين، ومتى كنت بموطنك؟"

" فى بلدة مودر . سيدى المبجل " .

" بلدة مودر . لا أذكر أنى سمعت بها من قبل . هل تقيمين حيث يقيم والداك؟"

" الأمر كما تذكر، لكن ذلك صحيح لو أنهما على قيد الحياة، فقد مضى على عدة سنين، وأنا أسيرة فى الحصن ".

" أسمك، من فضلك ؟"

" أحمل ، زاد فضلك، لقب الآنسة أليساند لا كارتلويز . "

" ألك صلة صداقة بأحد هنا؟"

" لاينحو الأمر هذا المنحى، سيدى المبجل، فقدومى هنا كان للمرة الأولى ."

" هل معك أية رسائل أو مستندات، أو أدلة، تثبت صحة كلامك وتؤكده ؟ "

"كلا، يقينا، وما السبب الذى يدعونى إلى حملها ، ألا أملك لسانا ينطق، ثم ألا أذكر كل مالدى؟"

" ولكن هناك اختلافا، كما تعلمين بين قولك هذا وقول سواك ".

" اختلاف ؟ على أى نحو ؟ أخشى أننى لا أفهم ؟ "

"لاتفهمين ؟ أيابلد الــــ .. لماذا، تأملي .. أتـرين .. لمـاذا ، ياللإسـكتلندى العظيم ،ألا تفهمين أمرا بسيطا كهـذا ؟ ألا يمكنـك إدراك الاخـتلاف بـين .. لمـاذا تبدين على هذا النحو من البراءة والغباء ؟ "

" أنا ؟ الحقيقة أننى لا أعرف شيئا عن هذا وتلك مشيئة الله " .

"أجل ، أجل، أظن أن هذا الأمر يتعلق بمدى رحابتها . لاعليك، فأنا أبـدو فى الظاهر منفعلا، لكن الأمر غير ذلك. لنغير الموضوع إذن. أمـا بـشأن هـذا الحـصن ، الذى يضم خمسا وأربعين أميرة، ويديره ثلاثة من العمالقـة، أخبرينـى أيـن يقـع هـذا الحرملك ؟

"حرملك ؟ "

"الحصن كما تعرفين، أين يقع الحصن ؟ "

" أوه، أما بشأن الحصن فإنه ضخم، ثابت الأركان ، حلـو الـصورة، ويقـع فى بلدة نائية . أجل ، على مسافة فراسخ كثيرة " .

"كم عددها ؟ "

"آه ، أيها المبجل، إنها مـن الكثـرة بحيـث يـصعب تحديـدها، يطـوى بعـضها بعضا، وكونها كلها على هيئة واحدة، ومشربة باللون نفسه، فإن أحدا

لايمكنه إفادتك عن الفارق بين فرسخ وآخر، أو عن كيفية إحصائها عدا أن

كلا منها ينفصل عن الآخر ، لتدرك تماما أن الله يفعل هذا ، لكونه يفوق قدرة البشر ، لأنك سترى أن ... "

" آه، حسبك، حسبك، لاعليك بالمسافة، أين يقع الحصن ؟ فى أى وجهـة مـن هذا المكان ؟"

" بلى سيدى، زاد فضلك، لاوجهة له من هذا المكان، فذلك الطريق ، ليس مستقيما، لكنه كثير الانعطاف، لذا فلا وجهة تؤدى مباشرة إلى المكان الذى يقمن به، لكنه أحيانا ما يكون تحت تلك السماء وليس سواها ، ذلك أنك لو ظننته باتجاه الشرق، ومضيت فى هذا الاتجاه، سترى أن جادة هذا الطريق تنعطف على نفسها مجددا على هيئة نصف دائرة، ويتكرر هذا الشيء العجيب مجددا مرة تلو الأخرى، وسيحزنك أن تدرك ما يحمل العقل من غرور، لتجد أنك تعارض وتعترض دون مبرر على مشيئته، بأنه لم يجعل لهذا الحصن اتجاها محددا من مكان ما، عدا أن تلك مشيئته وحده، و هو إذا لم يرض بذلك ، لمحا كل ما على الأرض من حصون وطرق مستقيمة. جاعلا إياها خلاء بلقعا، ومحذرا خلقه بأن ما يشاء يكون ، وما لم يشأ لم .. "

"أوه، هذا واضح وضوح القمر، فلنسترح الآن، و لاعليك بشأن الطرق المستقيمة ، لاعليك، إننى أعتذر، أقدم كل آيات الاعتذار، فأنا اليوم منحرف المزاج ، فلا تؤاخذينى حين أناجى نفسى، فتلك عادة قديمة، قديمة، عادة سيئة، يصعب التخلص منها حين يصاب المرء بسوء هضم جراء تناوله طعاما ..

كان يختمر إلى الأبد ، وقبل أن يولد، يا للبلد الطيب . لاقبل لامرئ بأن يحفظ عمل وظائف جسده بانتظام ، وقد اعتاد تناول دجاج وثاب، عمره ثلاثة عشر قرنا من الزمان . ولكن لاعليك، لا تأبهى بالأمر ، دعينا ...... ألديك مايعرف بخريطة لتلك المنطقة المحيطة بكم ؟ فالخريطة الجيدة سرعان .. "

" ربما كان ذلك نمط من الأشياء أحضره الملحدون معهم من أعالى البحيرات الكبرى، وهو يقلى فى الزيت وتضاف إليه بصلة وملح، أليس .... "

"ماذا ، خريطة ؟ عم تتحدثين ؟ ألا تعرفين الخريطة ؟ حسبك، حسبك ، لاعليك، لاتشرحي شيئا، لاتشرحيه، فلست أحب الشروح، لأنها تثير فى الأشياء ضبابية، بحيث لايمكنك معرفة ما تتحدثين به . وداعا ، عزيزتي، يوم طيب، وإلى اللقاء، أرها طريق الخروج، ياكلارنس " .

ها قد وضح الآن السبب فى عدم استفسار هؤلاء الأغبياء ، من أولئك الكذابين عن تفاصيل رواياتهم . ربما تكون الفتاة مصيبة فى بعض ما قالته، لكننى لا أصدق أن بإمكانك استخراج ما بداخلها ، كما تستخرج السوائل هيدروليكيا، أو تستخرجه حتى بطريقة بدائية عن طرق النفخ، فالأمر يتطلب ديناميتا . العجيب أن يصغى الملك وفرسانه من النبلاء إليها، رغم غبائها الشديد ، كأنها تحاكى الإنجيل، فتكون كمن يفرض رأيا على الجماعة كلها . وتأمل ما يتقربون به من وسائل غاية فى السهولة إلى هذه الحاشية، فعابرة السبيل الغوىّ هذه، لم تجد أدنى عقبة فى الوصول إلى الملك، داخل قصره، وكأنها تدخل دارا عادية، على عهدىّ بموطنى الأم . سر الملك حقيقة برؤيتها، وسر لسماع روايتها ، وبما تحلت به من جرأة فى السرد ، ورحب بها كما يرحب محقق بحث جنائى بجثة .

عاد كلارنس بمجرد الفراغ من تأملاتى . أشرت إلى النتيجة العقيمة لجهودى مع الفتاة وهى أننى لم أتوصل إلى نقطة واحدة تمكننى من العثور على مكان الحصن . بدا الشاب مستغربا بعض الشيء أو حائرا أو شيئا من هذا القبيل، وبدا وكأنه يسائل نفسه، عن سبب ما وجهته إلى الفتاة من استفسارات .

قلت له :" عجبا لسؤالك، ألم أكن أرغب فى معرفة مكان الحصن، ماذا قصدت غير ذلك ؟ "

" مه ، من اليسير، عزمقامك، إدراك أنه يمكن للمرء ببساطة الإجابة عن ذلك، إنها سترافقك ، كدأب الجميع ، سترافقك فى الرحلة ".

" ترافقنى، هذا هراء . "

" لكنها سترحل حقيقة .سترحل معك . وسوف ترى . "

"ماذا ؟ تجوب معى حول التلال ونخوض الأحراش، وحدنا، هكذا وأنا أكاد أشرف على الزواج ؟ ذلك يبعث على الخزى. تأمل ما ستبدو عليه الأمور . "

عجبى لهذا الوجه اللطيف الماثل أمامى ! كان الفتى شغوفا بمعرفة كل ما يحيط بهذا الأمر من أهمية . استحلفته بالكتمان ، وهمست له باسمها " باس فلاناجان ". بدا محبطا، وقال إنه لايذكر هذه الكونتيسة . كم بدا طبيعيا، أن يمنحها لقبا من باب اللياقة. استفسر عن محل إقامتها .

" فى أقصى الشرق " لُمت نفسى وسكت ، وارتبكت بعض الشىء ، ثم قلت " لاعليك الآن، سأخبرك بهذا الأمر فيما بعد ".

"أيمكن أن يراها ؟ أأجعله يلتقى بها يوما ما ؟"

من السهل أن تعد بشيء - إنها ألف وثلاثمائة عام أو نحو ذلك - ثم إنه جد شغوف، لذلك رددت عليه بالإيجاب . لكننى تحسرت، فالأمر يتجاوز إرادتى . لم يكن أسفى فى موضعه لأنها لم تكن قد ولدت بعد . لكننا رأينا، ألا نجادل فى الأمر، حيث نشعر به، نشعر به فحسب .

دار الحديث بشأن رحلتى فى ذلك اليوم ، وتلك الليلة، وكان الشباب يعاملوننى على نحو ممتاز، ويعلون من شأنى، وبدا أنهم قد نسوا ما لديهم من شواغل، بل وصل الأمر إلى إبداء قلقهم علىّ، بشأن القبض على أولئك العتاة، وفك أسر العذراوات الكبيرات ، وكأنهم المنوط بهم هذا الأمر . أجل ، فإنهم أبناء بحق، لكنهم مجرد أبناء ، هذا كل ما فى الأمر . كما أنهم لم يقدموا لى نقاطا محددة حول كيفية الوصول إلى العمالقة، وكيفية القبض عليهم، وأخبرونى بكل مبطلات السحر،

وأعطونى مراهم وأشياء بسيطة أخرى لتطبيب الجروح . لكن لم يحدث لأحدهم أن شغل نفسه بأننى لو كنت ساحرا عظيما كما أدعى، فالأمر لايتطلب الاستعانة بمراهم، أو إرشادات، أو مبطلات للسحر، أو للرماح والدروع فى أقل القليل ، فى غزو من أى نوع، حتى لو كان مواجهة تنين يطلق الحمم أولقاء شياطين من قعر جهنم، فلندع من أطاردهم من أعداء يرزحون فى البؤس ، ومجرمين عاديين من أهل المستوطنات القديمة، يلقون مصيرهم المحتوم على يدى .

كان علىّ تناول إفطارى فى وقت مبكر، وبدء الرحيل عند الفجر، وذلك هو الأسلوب المعتاد، لكننى قضيت وقتا كثيبا فى التعامل والدرع الخاصة بى ، وأخرنى هذا عن السفر بعض الشيء. كان مجرد ارتدائه يبعث على الملل، ويحتاج إلى إجراءات عديدة . عليك أولا أن تلف طبقة أو اثنتين من حرام حول جسدك، ليكون نوعا من الوقاء ، وحتى يحتفظ المعدن ببرودته ، وترتدى من ثم، أكمامك وقميص درع الزرد، وصنع هذا من حلقات فولاذية صغيرة محبكة ببعضها البعض، ومحصلة ذلك قميص شديد المرونة، بحيث لو ألقيته على الأرض تكدس فى كومة أشبه بشبكة صيد مبللة، وهو من الثقل بحيث يعد أكثر تلك الأقمشة التى يصنع منها قمصانا للنوم إثارة للضجر، وكثيرون يستخدمونه أيضا لهذا الغرض - منهم جباة ضرائب، ومصلحون ، وصغار الملوك من ذوى الألقاب المعيبة، وأنواع أخرى من البشر، ثم تنتعل حذاءك المكون من فردتين - أشبه بقاربين مسطحين تعلوهما أربطة تطوقهما بأطواق فولاذية رقيقة، ثم تثبت مهمازيك المنفرين فى كاحليك . يعقب ذلك إحكام درع الساق من إبزيم على ساقيك ، ثم وضع درع الفخذ على فخذيك، يليها درع الظهر ودرع الصدر، ليتنابك إحساس بالضيق، تشد بعد ذلك تنورة قصيرة إلى الصدار الحديدى، بحمالات فولاذية عريضة مشبكة، تتدلى من الأمام، لكنها من الخلف مزودة بسلسلة زنبركية، تمكنك من الجلوس، و لايطرأ على دلو الفحم المقلوب هذا أى تعديلات ، فى الشكل

أو فى طريقة اللبس، أو لداعى تجفيف اليدين، يلى ذلك وضع السيف فى النطاق، وتوصيل أنبوب إخراج الغازات فوق ذراعيك بوصلات، ثم وضع القفازات الحديدية فى الكفين، ومصيدة الفئران فوق رأسك، ملحقا بها قطعة من شبك فولاذى مدلاة بظاهر عنقك، وها أنت ذا، مقيدا كشمعة فى قالب . لا مجال للرقص بطبيعة الحال . حسنا، فإنسان يقد على هذا النحو، لأشبه بثمرة بندق لاتستحق مجرد كسرها، فالثمرة جد ضئيلة، حين تستخرجها، مقارنة بمحارة .

أعاننى الفتية، وإلا لما استطعت ارتداءه . بمجرد أن فرغنا ، دخل السير بيديفير، فأدركت أننى لم أنتق فى الحقيقة أفضل الوسائل المناسبة لرحلة طويلة . كم بدا مهيبا، من حيث طول القامة والعرض والضخامة . اعتمر خوذة فولاذية مخروطية الشكل ، وصلت إلى أذنيه فحسب ، وأما مقدم الخوذة فكان ذا واق فولاذى ضيق فحسب ، امتد حتى شفته العلياالحماية أنفه، أما بقيته بدءا من العنق حتى الكاحل ، فكانت درعا زردية و سراويل وخلافه . لكن معظم أجزائه قد توارى تحت زيه الخارجى وهو تلك الدرع المزرودة كما سبق أن ذكرت، أما ما علق مباشرة بكتفيه حتى كاحليه ، ومن خاصرته حتى عجيزته، من الأمام والخلف، فكان مقسما كى يمكنه الركوب ، ثم وليسمح للتنورة بالتدلى على كل جانب . كان بسبيله إلى الرحيل للبحث عن الكأس المقدسة، وكان ذلك الدرع بالتالى مناسبا لهذه المهمة . كان على أن أنتبه إلى ذلك المعطف الأيرلندى الفضفاض، لكن أوان التأخير فات الآن . أشرقت الشمس للتو، وحضر الملك والحاشية، لرؤيتى قبل السفر وتوديعى، فصار من غير اللائق بى التباطؤ أكثر من ذلك . لن يكون لك قبل امتطاء صهوة فرسك بمفردك، ولو حاولت ذلك لفشلت ، إلا أنهم يحملونك إليها حملا، كما يحمل المصاب بضربة شمس، إلى حانوت للعقاقير، ثم يضعونك فوق الجواد ، ويعينونك على الجلوس فوقه مشدود القامة ، ويثبتون قدميك فى الركاب، فتشعر خلال ذلك كله بغرابة

شديدة، وحنق، وتشعر كمن، بوغت بزيجة أوصعق ببرق، أو بشيء من هذا القبيـل، ولم يتنبه من فوره إلى ما جرى له ، لأنه كان مخدرا بعض الشيء ، ولم يستعد قدرته على السير بعد . أقاموا عمود السارية الذى يطلقون عليه حربة ، فى جرابها بجانب ساقىّ اليسرى ، فقبضت عليها بيدى، وعلقوا ترسى فى النهاية حول رقبتى، فـصرت عـلى أهبة الاستعداد للرحيل ، وخوض البحر اللجى . عاملنى الجميـع قـدر اسـتطاعتهم معاملة حسنة ، وقدمت لى وصيفة الشرف كأس الـوداع بنفـسها . لم يبـق الآن شيء ، سوى أن تجلس هذه الآنسة خلفى على السرج فى مكان ركوب المرأة خلف الفـارس، وهو ما حدث بالفعل ، حيث طوقتنى بذراع أو نحو ذلك كى أبدأ التحرك .

هكذا مضينا، وأرسل الجميع تحيات الوداع، ولوحوا بمناديلهم، أو خوذاتهم . و كل من التقيناهم، سائرين على التلال أو عبر القرية، يشيعوننا بالاحترام، عدا بعض الصغار المشردين، على الأطراف . حيث قالوا:

" أوه، ياله من أضحوكة " ثم رمونا بالوحل .

أرى من خلال خبرتى ، أن الصبية كلهـم سـواء فى كـل الأعـمار . لايـوقرون شيئا، ولا يأبهون بشيء أو بأحد . يقولون للنبى " امض، يا أصـلع الـرأس " وبـذلك يحجبون سبيله القويم بعتمة الجهالة، رمونى بكآبة وازدراء رهيبين، من طراز يعود إلى القرون الوسطى، وأذكر رؤيتى إياهم يتصرفون بنفس طريقة إدارة بوكنان للقرصنة، وقد كنت هناك أمد يد العون . للنبى قدراته على تحمل المشاق، والتصالح مـع فتيتـه، أما أنا فكنت أرغب فى النزول من فوق الجواد، ومصالحة ذاتى ، لكن ذلك لن يفيـد، لأننى لن أستطيع الركوب بمفردى مجددا. أمقت وطنا يخلو من رافعة للأثقال .

الفصل الثانى عشر

عـــذاب بـطـــىء

لم يمض وقت طويل حتى أصبحنا فى الريف . بدت تلك السهول المنبسطة فى أوائل نضرة الخريف، وبرودة البكور أكثر جمالا وبهجة . رأينا من فوق قمـم الـتلال أودية خضراء جميلة، تترامى من تحتنا، وتتوسطها نهيرات متعرجـة المـسار ، وغيـاض متفرقة من الأشجار هنا أو هناك، وتوزعت أشجار البلوط الـضخمة ، مـن حولهـا، ملقية بقطع قاتمة من الظلال، ورأينـا خلـف الأوديـة، سلاسـل مـن الـتلال، بزرقـة السديم، ممتدة بعيدا فى مشهد طبيعى ملفـت، يتجـه نحـو الأفـق، وظهـر فـيها بينهـا فواصل واسعة ، مرقطة بلون أبيض قاتم أو رمادى على قمة بـارزة فى الأفـق، عرفنـا أنها الحصن . عبرنا مروجا سهلية فسيحة، تسطع بحبات الندى، وتحركنا كطيفـين، لا يحدث وقع خطانا أصواتا على سطح التربة الوثير، وسرنا حالمين عبر فرجات فى غلالة من الضوء الأخضر، استمد لونه من صفحة أوراق الشجر الغارقة فى ضياء الـشمس الساطعة فوق الرؤوس ، وتجرى بالقرب منا نهيرات هـى الأصـفى والأبـرد، تمـضى مرجة، هامسة لصخورها البارزة بالقيل والقال، فينتج ذلـك مـا يـشبه لحنـا هامـسا، مريحا للأذن، لقد خلفنا العالم وراءنا فى لحظات، وخضنا فى أعماق غابة كبـيرة وقـور، تغشاها العتمة، حيث هرعت كائناتها البرية لاختلاس النظر، وسرعان مـا انطلقـت، وتوارت قبل أن تتمكن عين من التقاطها، فى المكان الذى صدرت منه الجلبة، وحيث خرجت طيور البكور مقرنة عملها بالغناء، فترى سنجابا هناك، وطرقا ودمدمة خفية

لهوام على جذع شجرة في مكان ناء، ثم عزلة لاسبيل إلى اختراقها وسط الأحراش، وسرعان ما انتقلنا إلى ضوء النهار الساطع .

كنا نجد أنفسنا، في المرة الثالثة ، والرابعة أو الخامسة التى شاء أن ننتقل فيها إلى ضوء النهار، نجد أنفسنا في مكان ما، وقد مضى على الشروق ساعتان أو أكثر ، وليس بالبهجة نفسها التى كان عليها ما سبقه من أماكن ، فقد بدأت الحرارة تزداد . وبدا ذلك بدرجة لافتة، وأمامنا طريق طويل خلا من فيء، علينا أن نقطعه. ومن الغريب أن تزداد سوءا أمور بسيطة كتلك، وأن يتضاعف سوءها مرة واحدة ما إن تبدأ . أشياء لم أكن ألقى لها بالا في البداية، بدأت الآن أتنبه لها وزاد هتمامي بها بمرورالوقت . ففى المرات العشر الأولى أو الثلاث عشر، التى كنت في حاجة إلى استعمال منديلى، لم أبد ضجرا بذلك ، بل تقبلت الأمر ، وقلت لاعليك، ذلك غير ذى بال، وتغاضيت عن الانشغال به. لكن الأمر الآن يختلف ، حيث ازدادت رغبتى في استعماله بمرور الوقت، فأصبح الأمر لدىّ يحمل على الكدر والإزعاج والملل دون انقطاع، وذلك مع كل لحظة تمر، ولم أعد أقوى على التغاضى عنه، وتعكر مزاجى في النهاية ، وقلت فليشنق ذلك الذى يجهز درعا دون جيوب . تذكر أن منديلى داخل خوذتى ، بصحبة أشياء أخرى، لكن الخوذة كانت من الصنف الذى لاتستطيع خلعه بنفسك . لم يكن يخطر ذلك الأمر ببالى حين وضعته داخلها، والحقيقة أننى لم أكن أعرف بما سيحدث. ظننت أن هذا بصفة خاصة سيكون مكانا ملائما. أما الآن فإن فكرة وضعه في هذا المكان لقربه وسهولة تناوله مع تعذر الوصول إليه، جعل الأمور أسوأ، وأعسر على الاحتمال. أجل، فالشيء الذى تعجز عن بلوغه، هو الشيء الذى أنت راغب فيه ، والكل يعرف ذلك. الحقيقة أن هذا الأمر قد شغلنى عما سواه، استغرقنى بالكلية، وجعلنى أركز في خوذتى، واستمر الأمر على هذا النحو ونحن نطوى الطريق ميلا بعد ميل، والمنديل يداعب مخيلتى، ولا يغيب عن بالى، وكان من المؤلم المفجع أن

تتقاطر حبات العرق المالح إلى عينى دون توقف، ولا طاقة لى بتحملهـا. يبـدو الأمـر بسيطا حين يسجل على الورق، لكنه لم يكن كذلك على الإطلاق، فتلك مأساة حقيقية بكل المقاييس. ولست أدعى ذلك إذا لم يكن هذا الأمر واقعا بالفعل. قـررت والحـال هكذا أن أحمل فى المرة القادمة حقيبة يد نسائية صـغيرة، ولـيكن مـا يكـون ، وليقـل الجميع مايقولون . ربما ظن أولئك المتأنقون بالحديد ، من أعضاء المائدة المستديرة، أن هذا أمر معيب، وربما أقاموا الدنيا بسببه ولم يقعدوها . أما أنـا فـأقول بالأصـالة عـن نفسى، وفر لى الراحة أولا ثم ابحث عن المظهر لاحقـا. هكـذا سرنـا وئيـدا، وئيـدا، نخوض من آن لآخر أرضا ترابية، تتحول إلى سحب مـن الغبـار، فيتـسلل الغبـار إلى أنفى، ويجعلنى أسعل و أنتحب ، وأذكر أشياء يعيبنى ذكرها، ولا أنكر أنى ذكرتهـا ، فلست أفضل الآخرين . يبدو أننا لن نتمكن من الالتقاء بأحـد فى بريطانيـا الموحـشة هذه، حتى لو كان عربيدا، ، فلقائى به والحال هكذا يصبح أمـرا طيبـا، لأنـه فى أقـل القليـل يحمـل منـديلا. لاشـاغل لأغلـب الفرسـان سـوى الاحتفـاظ بـدروعهم ، فلأحصل على منديله، ويمكنه الاحتفاظ بدرعه كاملة.

كان الجو فى هذا الوقت يزداد سخونة . ترى الشمس تسقط بمرور الوقت على الحديد فتزيد حرارته .

والحقيقة أنك حين تشعر بالسخونة فى حال كتلك، لابد أن تستثار مـن أبـسط الأشياء. أحدثت قعقعة لدى تقدمىّ خطوة واحدة ، أشبه بصوت مطبقية الـصحون، فأحسست بكدر، وبدا أننى لن أقوى على تحمل خشخشة وطرق الترس، تارة حـول صدرى، وأخرى بمحيط رقبتى، ولو تعثرت فى سيرى، صرت مفاصلى واستجارت، بالصورة المضجرة التى تحدثها عربة يد، وحيث إننا لم نخرج نفسا يذكر بخطى كتلك، فإننى كنت كمن يشوى فى ذلك الموقد، ذلك فضلا عن أنك كلما تباطـأت فى سـيرك، أُثقل كاهلك بالحديد، وبدا كأنك تحمل مزيدا من الأطنان مع كل خطوة سير. عليـك

أن تنقل رمحك من يد لأخرى، وتحوله من قدم إلى قدم، بعد أن فاض الكيل بك ، لحمله فى يد واحدة فترة طويلة.

تعلم حقيقة أنك حين، تتصبب أنهار من العرق كتلك ، فلابد أن يحين الوقت الذى تكون فيه بحاجة إلى حك جسدك، وأنت داخل الدرع، ويداك خارجه ، وليس بينهما سوى الحديد . ليس ذلك بالأمر الهين، فليصدر الحديد ما شاء له من أصوات، بدءا من مكان بعينه، و يتحول إلى مكان آخر يليه ثالث ودواليك، ثم ينتشر، ويتسع انتشاره ، فيشغل المكان كله فى النهاية ، ولا يقوى أحد على تصور ما بك، أو يقدر ما تشعر به من كدر. حين يصل الأمر إلى الأسوأ، ويفيض بى الكيل، تدخل ذبابة بين الحواجز الحديدية، وتستقر فوق أنفى، حيث الوقاء محكما. أو معطلا، فلا أستطيع بلوغ مقدم الخوذة ، بل أمكننى هز رأسى المنصهرة فحسب، ومعها الذبابة من ثم، حسنا، فأنت تعرف مسلك الذباب الثابت ، غير العابئ بالهزات سوى انتقاله من الأنف إلى الشفة، ومن الشفة إلى الأذن وإحداث الطنين ثم الطنين داخل المكان، ويبقى فى المكان يخف ويلدغ، بطريقة لاقبل لمحبط مثلى على تحمل مزيد منها. هكذا استسلمت للأمر، وطلبت من أليساند أن ترفع غطاء الخوذة، وأن تريحنى من هذه الذبابة . أخرجت منها كل الأشياء الضرورية، وملأتها بالمياه، وارتويت بدورى، ثم انتصبت واقفا فصبت البقية داخل الدرع . لن يستطيع امرؤ تخيل قدر انتعاشى فى تلك اللحظة . واصلت ساندى إحضار الماء وصبه حتى أغرقتنى ، فشعرت براحة تامة .

كان هناك ما يدعو إلى الراحة والسكينة . لكن لا شيء فى هذه الحياة يبلغ الكمال فى أى عصر . أشعلت غليونا، ونفثت ما طاب من تبغ ليس من خامة أصلية ، بل كان صنفا من لحاء الصفصاف المجفف يستخدمه الهنود . كانت مستلزمات الرفاهية تلك مصونة ومحفوظة داخل الخوذة، وإننى أحوزها الآن ولكن دون ثقاب.

تدريجيا وبينما الوقت يمر بطيئا، طرأ ببالى حقيقة مزعجة ، ما زاد من همومى . حيث لاقبل للابس الدرع المبتدئ، بامتطاء جواده دون عون من آخر، ودعم كبير . لم

تكنساندى لتفى وحدها بالغرض، ولم تكفنى مؤونة ذلك فى كل الأحوال، و كان علينا ترقب القادم على الطريق. ترقبا صامتا، مقبولا فى حالنا هذا، فالعقل مشغول بالفكر، وفى حاجة إلى فرصة لإعماله. عمدت إلى التفكير فى مغزى دأب العقلاء أو أنصاف العقلاء من هؤلاء على تعلم ارتداء الدرع ، رغم علمهم بصعوبته ، والمغزى من دأبهم على لبسه بهذه الطريقة ، وذلك لأجيال وأجيال ، بعد أن تبين أن ما عانيته اليوم، ظلوا يتحملون عذاباته طوال حياتهم . رغبت فى مناقشة هذا الأمر، فضلا عن أننى وددت الخروج من هذه التجربة بوسيلة لإصلاح ذلك السوء، وحث الناس على التخلى تماما عن ذلك الأسلوب الغبى، ولكن التفكير هنا لامحل له من الإعراب فى ظروف كهذه . وقد رأيت ساندى، لاطاقة لها الآن بإعمال الفكر . إنها إنسانة طيبة القلب، على السجية، لكنها ثرثارة، وأشبه بطاحونة لاتتوقف، محدثة طنينا فى رأسك لايختلف عن طنين الكراجات وعربات الكارو فى المدن . ولو وضعت لها سدادة لهان الأمر، لكنك لن تقوى على كف هذا النوع من البشر عن ذلك، بكتم أنفاسهم ، لأن الثرثرة لاسبيل طوال اليوم إلى إيقافها، وربما تعتقد يقينا بأنه عن قريب قد يطرأ على الطاحونة عطل ما، ولكن هيهات ، فالطاحونة لاتتوقف عن العمل ، لأنها فى غير ما حاجة إلى التخفيف من سرعة الكلام ، وهى قادرة على الطحن، والضخ، والخض، والطنين بالأسبوع ، دون توقف للراحة أو التقاط الأنفاس . والنتيجة لاشيء سوى قبض الريح، فليس فى جعبتها أفكار من أى نوع ، سوى ما فى جعبة الضباب . هى ثرثارة بحق، أعنى أنها مجرد فك، وطق حنك، وكلام لاأول له ولا آخر، وثغاء لايتوقف، ولا يدانيها فى ذلك أحد . لم ألتفت إلى طاحونتها فى ذلك الصباح بسبب ما كنت أعانيه من قلق ، وما يؤرق من أمور أخرى . ولكننى أجبرت أكثر من مرة فى أوقات الظهيرة، على قول :

"رويدك بنيتى، فالطريقة التى تستنفدين بها هواء البلاد، ستجعل المملكة مضطرة إلى استيراد ه فى الغد، ولا طا قة لخزانة الدولة بذلك ".

الفصل الثالث عشر

بشـــــر أحـــــرار

أجل، كم كان غريبا، أن ينعم المرء بالراحة فترة وجيزة، سبقتها بقليل ، فترة عانيت فيها وعثاء السفر وعذابه، فيا لهذا الأمن والسكينة و الراحة من عطاء سماوى، وسط هذه الظلة المنعزلة، بجوار هذا النهير الرقراق، تمكنت والحال هكذا ، من الاستمتاع بأكبر قدر من الراحة وقتا طويلا، أصب خلاله غرفة من الماء، فى درعى، من آن لآخر، و فى الحقيقة أننى كنت رغم ذلك أشعر فى نفسى بكدر، حيث لم يتيسر لى أن أشعل غليونى من ناحية، رغم أننى أقمت مصنعا للثقاب، فقد نسيت أن آتى معى ببعضه، ولأننا من جهة أخرى لم يكن لدينا ما نأكله. كان هناك نموذج آخر لقصر نظر صبيانى لدى هؤلاء البشر ، وفى هذا العصر. فقد ركن لابسو الدروع منهم إلى المصادفة البحتة فى حصولهم على الطعام خلال سفرهم ، فربما وصم أحدهم بالعار حال فكر فى أن يعلق فى رمحه سلة بها شطائر. ليس من بين فرسان المائدة المستديرة، من لايفضل الموت على ضبطه ،حاملا مثل هذا الشيء، على ساريته. ليس فى الوجود، حكمة أفضل من تلك . كنت قد انتويت، تهريب زوج من الشطائر داخل خوذتى، لكننى جوبهت بالرفض، وكان على أن أقدم اعتذارا جراء ذلك، وأن ألقى بهما على جانب الطريق ، ليلتقطهما كلب .

اقترب الليل، مع هبوب العاصفة، وسرعان ما حل الظلام. كان لابد بالطبع من إقامة مخيم، وجدت مأوى طيب للآنسة تحت صخرة، فسرت لذلك بعض الشيء،

وعثرت على مأوى آخر لى . لكننى اضطررت إلى البقاء فى الدرع، لأننى لم أستطع خلعها بمفردى، كما أنني لن أتمكن من جعل أليساند تعيننى على ذلك، وسيبدو الأمر وكأننى أتجرد من ثيابى أمام الناس. لكن الأمر لن يصل حقيقة إلى هذا الحد، لأننى ألبس ثيابى كاملة تحت الدرع، لكننى لن أستطيع التخلص من مساوئ ما نشأوا عليه فى مجرد طفرة، فقد أدركت أننى حال خلعت هذا المعطف المعدنى المغطى لدرع الزرد، فعلىّ أن أستحى من نفسى.

حدث تحول فى الطقس بقدوم العاصفة ، وكلما اشتدت ، واشتد معها هطول المطر، صار الجو أكثر برودة .

سرعان ما أخذ البق والذباب والدود ، وأشياء أخرى، يتجمع ويزحف فى محيط الخوذة المشبعة بالماء، بغرض الاستدفاء، وبينما أحسن بعضها التصرف والتمس الدفء بين ملابسى فركن إلى الهدوء، كانت الغالبية من صنف ديدنه الإزعاج والقلق، ولم يلزم مكانه البتة، بل مضى يجوب المكان ويبحث خفية، عن شىء لا يعرفه، وأخص بذلك النمل، الذى مضى فى موكب رهيب، مدغدغا، على مدار الساعة، وهذا النوع من الكائنات سأمتنع مستقبلا عن مشاركته فى الفراش. أنصح من يمر بنفس الظروف ، بعدم التململ والتبرم، فهذا يثير انتباه كل أنواع الهوام، ويوقظ رغبة أولها وآخرها فى التنبه لاستطلاع مايحدث، ما يجعل الأمور أسوأ مما كانت ذى قبل، ويزيد من شجبك ولعنك أيضا، لو وسعك ذلك. لكن المرء ربما يموت إذا لم يتململ ويتلوى، ويحتمل ألا يختلف اختيارك أحد المسلكين عن اختيار الآخر ، فلا مجال هنا للاختيار. كنت حتى بعد أن صرت كتلة صماء ، قادرا على تمييز أثر الدغدغة، كجثمان يتعرض لصدمة كهربائية، و قلت فى نفسى: إننى لن ألبس درعا بعد هذه الرحلة .

تعرضت خلال تلك الساعات المضنية للتجمد، رغم أننى أعانى ما يمكن أن تتخيله من نار متقدة، بسبب تدافع ذلك الجيش الزاحف، حتى ظل السؤال العسير

نفسه، يتردد أكثر من مرة فى رأسى المتعبة على النحو التالى : كيف يتحمل الناس هذه الدرع المزرية ؟ وكيف تدبروا تحمل ارتدائها طوال هذه الأجيال؟ وكيف يمكنهم النوم بالليل، لمواجهة هذا العذاب الأليم فى اليوم التالى ؟

وحين حل الصباح أخيرا وجدتنى فى حال يرثى لها : اعتلال فى الجسد ، وميل إلى الرقاد ، بسبب الحاجة إلى النوم، وشعور بالضنى جراء البرم فى مكان واحد ، وسغب جراء صوم طويل، وتوق إلى التحمم، وإلى التخلص من الهوام، بعد أن هدنى التهاب المفاصل . كيف يتفق هذا مع نبيل بالنشأة، وأرستقراطيا باللقب، فضلا عن الآنسة آليساند لا كارتلويز ؟ عجبت لحيويتها شأن سنجاب، ثم ترقد رقاد الموتى، أما بشأن التحمم ، فيحتمل ألا تكون هى أو أى من نبلاء هذا البلد قد فعلوه فى حياتهم من قبل، لذا فهى لم تشعر بلهفة إليه ، وقياسا بالمعايير الحديثة فإن هؤلاء البشر ليسوا سوى ضوار مستأنسة ، فهذه السيدة النبيلة لم تبد تلهفا لطعام الإفطار ، وهذا أيضا مما توسم به الضوارى.

اعتاد أولئك البريطانيون فى رحلاتهم فترات الصيام الطويل ، وخبروا كيفية احتمالها، وكيفية تهيئة تحمل مواجهة ما يحتمل من صوم قبل بدئها ، منتهجين أسلوب الهنود الحمر، و نبات الأنانكوندا فى جنوب أمريكا. تحركنا قبل طلوع الشمس، ساندى تركب الفرس ، وأنا أعرج خلفها على قدمى. صادفنا بعد مرور نصف ساعة، جمع من البؤساء، قد تجمعوا لإصلاح ما أشير إلى أنه طريق . كانوا فى نظرى من الضعة ما جعلهم أشبه بالبهائم، وحين عرضت مشاركتهم طعام الإفطار، شعروا بإطراء كبير، وأحسوا أن ذلك تواضع منى جد كبير، حتى إنهم لم يصدقوا فى البداية أننى جاد فى طلبى . لوت سيدتى شفتها امتعاضا ، وانسحبت إلى ركن ركين ، وقالت على مسمع منهم بأنها ستضع فى اعتبارها من الآن تناول الطعام مع غيرهم من المواشى ، فتسببت تلك العبارة فى إحراج البؤساء بعض الشيء، ولم يشعروا جرائها

بإهانة أو انزعاج ، لأنها ليست على هذا النحو. إلا أنهم ليسوا عبيدا أو رعاعا، وإنهم لسخرية القانون والعبارة أحرار. سبعة أعشار الأحرار من مواطنى القطر ومن قاربهم فى المنزلة والطبقة الاجتماعية كانوا من صغار المزارعين المستقلين ذاتيا، والحرفيين ..إلخ، بمعنى أنهم يمثلون الشعب، الشعب الأصيل، وأولئك أصحاب النفع الحقيقى للبلاد ، أو من يستحقون البقاء فى البلاد، والأحق بالتقدير الفعلى ، وإن تجاهلهم يعد استبعادا للشعب وإبقاء على من فيها من الحثالة وما دونهم، ممثلين فى الملك والنبلاء والأرستقراطيين، والإمعات، والكسالى، ممن خبروا بالسليقة فنون الهدم والفناء، ومما لايرجى من ورائهم فائدة أو نفع فى أى مجال خلاق . وبدلا من أن تحتل هذه الأقلية المراوغة مكانها فى ذيل الركب، تقدموه مرفوعى الهامة ، خفاقى الراية، بعد أن جعلوا من أنفسهم قادة الأمة، وقد قبلت تلك الأغلبية الصامتة هذا الأمر زمنا طويلا، حتى اعتبر فى نهاية المطاف حقا مكتسبا لامرية فيه، ليس ذلك فحسب ، بل آمنت بأن ماسلكته هو الصواب والواجب . ذكر الرهبان لآبائهم ولأنفسهم أن هذه الأحوال الهزلية هى قضاء الله وقدره، هكذا دون أن يتنبهوا إلى أن الله تعالى قد نهى عن الركون إلى الهزل، خاصة أن هؤلاء البسطاء قد أسقطوا الأمر من حسابهم ، وركنوا تماما إلى راحة البال .

كان لحديث هؤلاء البؤساء وقع غريب على أذن أمريكى سابق . فهم أحرار ولكنهم لايستطيعون ترك أراضى سيدهم أو مطرانهم دون إذن منه، ولا يستطيعون إعداد خبزهم بأنفسهم . بل يلزم الحصول على برهم وخبزهم المعد فى طاحونة هذا السيد ، ومخبزه، وسداد قيمة إعداده وخبزه كاملا ، كما لا يمكنهم التصرف فى قطعة واحدة من ممتلكاتهم بالبيع، دون سداد نسبة معتبرة من قيمة البيع، أو شراء قطعة مملوكة لآخر، دون إعطاء السيد أو المطران حلوانا نقديا من قيمة الشراء، وكان عليهم حصاد محصول هذا أو ذاك مجانا ، وأن يكونوا دوما رهن إشارة منه، تاركين محصولهم

فى نفس الوقت، نهبا للضياع وعرضة للعواصف. وكان عليهم أن يتركوه ليزرع فى حقولهم أشجار الفاكهة، ويبتلعوا نقمتهم، حين يخوض جامعو الفواكه بأقدامهم فى زروعهم المحيطة بأشجاره دون وجل ، وأن عليهم كظم حنقهم، حين يخوض بالخيل فى أراضيهم رفاقه للصيد، مبددين نتاج جهدهم الدؤوب طوال العام. كما كان لايسمح لهم بتربية الحمام، وحين تحط أسراب من حمام الإقطاعى فوق محاصيلهم، لا يجب أن يستثيرهم ذلك فى شيء، أو يقتلوا طيرا منها ، فعاقبة ذلك عليهم وخيمة، وحين يتم جمع المحصول فى نهاية المطاف، ويحضر موكب من اللصوص ، لفرض ابتزازهم على المزارع، ترى الكنيسة قد بادرت باقتطاع عشره السمين، يليها موفد الملك فيقتطع العشرين، ويقوم أهل سيدنا بغزوة كبرى فيأتون على البقية الباقية من المحصول ، ويبقى بعد هذا كله أن يتصرف الحر الذليل فى ذلك النذر اليسير المتبقى فى مخزن غلاله، وهنا تبدأ مشاكله ، فهناك ضرائب ورسوم لانهاية لها، تفرض على هذا الحر المعدم والمستقل رأيا وسلوكا، ولا يفرض منها شيء على بارونه الإقطاعى، أو مطرانه، ناهيك عن أصحاب الشرف من النبلاء، أو الكنيسة النهمة ، وإذا كان البارون سيأوى إلى فراشه خالى البال، فعلى الحر أن يبقى واقفا بعد عمله طوال النهار، ليلهب بالسوط ظهر البرك كى تلتزم الضفادع الهدوء، أما إذا قامت ابنة الحر بـ... ، ولكن لاعليكم ، فهذا الفعل الشائن من قبل حكومة الملك ليس صالحا للنشر، وأخيرا فإنه إذا زاد إحباط الحر بسبب مايعانيه من عذابات، ووجد حياته لاتحتمل فى مثل هذه الظروف ، فضحى بها وفر إلى الموت أملا فى الرحمة ومنجاة له ، لعنته الكنيسة العطوف إلى الأبد ، وواراه القانون الرحيم فى الليل على قارعة الطريق، وقد اخترق خازوق عنقه ، وصادر سيده البارون أو المطران كل ما يملكه، وأخرج أرملته وأيتامه من البيت .

احتشد هؤلاء الأحرار فى الصباح الباكر، للعمل فى إصلاح طريق سيدهم الإقطاعى، أو المطران، ثلاثة أيام عمل للفرد، بدءا من رب الأسرة ، ثم الابن ، ثلاثة أيام لكل منهم دون مقابل، ويضاف يوم أو نحو ذلك إلى الخدم . عجبا ، وكأننا نقرأ عن فرنسا والفرنسيين، قبل الثورة التاريخية المباركة، التى تخطت ذلك النظام الساذج، بألف عام فى واحدة من أطول الموجات دموية، وقد بدأت بتسوية ذلك الدين الدموى القديم، بنسبة نصف قطرة دم مقابل برميل كبير، كان قد سفك من أولئك البشر جراء التعذيب البطيء، فى مسلسل دموى رهيب، على مدار عشرة قرون، لايتصور حدوث ما وقع خلالها من ظلم وعار وبؤس ، إلا فى الجحيم . كان هناك "عهدان للإرهاب " إذا كان لنا أن نتذكر ونعتبر : القتل فى الأول كان بولع شديد، أما الثانى فكان القتل فيه بلا رحمة أو شفقة ، وانتهى العهد الأول فى شهور فحسب، أما الثانى فاستغرق ألف عام، شهد الأول مقتل ألف شخص، وشهد الآخر عشرة ملايين، أما شعورنا بالهلع فسيتركز كله فى أهوال الإرهاب الأقصر زمنا، إن جاز التعبير، ولكن، ماشأن هول الموت بفأس، إذا ما قورن بهول موت بطيء، جراء الجوع والبرد والمهانة ، والوحشية ، واليأس ؟ وما شأن موت سريع بصاعقة رعدية، مقارنا بموت بشع بالحرق فوق خازوق ؟ فالمقبرة فى مدينة من المدن يمكن أن تمتلئ بتوابيت ذلك الرعب قصير المدة، الذى ألفنا كثيرا أن نرجف منه ، ونتألم لحدوثه، لكن فرنسا كلها تمكنت بشق الأنفس من ضم نعوش ، احتشدت بذلك الإرهاب الحقيقى والأقدم تاريخيا ، ذلك الرعب الرهيب والمرير، حيث لاقبل لأحد منا بإدراك كنه ما فيه من هول وما يتطلب من رثاء .

كان هؤلاء الذين يزعمون التحرر، ويشاركوننى إفطارهم وحديثهم، يكنون لمليكهم وكنيستهم ونبلائهم وقارا مذلا ، بالقدر الذى يحبه خصمهم اللدود . كان هناك ماينطوى فى هذا الأمر على سخرية مسفة . سألتهم لوأنهم افترضوا وجود أمة ،

لكل امرئ فيها حق التصويت، فتختـار أسرة واحـدة ، يظـل أحفادهـا يحكمونهـا إلى الأبد، سواء كانوا جديرين بذلك أم كانوا بلهاء، مع استثناء كل الأسر الأخرى، بما فى ذلك أسرة المصوت، ثم تختار أيضا مائة أسرة معروفة ترتقى أعلى المناصب، وتـزود بالألقاب الرفيعة والامتيازات القابلة للتوريث، وتستثنى من ذلك بقية أسر الأمة، بما فى ذلك أسرة المصوت.

بدوا جميعا وكأن الأمر لايعنيهم فى شيء ، وقالوا لى إنهم على غير علم به، حتى إنهم لم يفكروا فى ذلك من قبل ، ولم يطرأ ببالهم أن شعبا يمكنه أن يكون على الصورة التى تجعل كل فرد، يستطيع أن يوجه نقدا للحكومة . قلت إننى رأيت من هذه الأمـم من سيبقى على هذا الدأب ، حتى يمتلك كنيسة رسمية . بدوا مجددا غير آبهين بالأمر فى البداية. لكن أحدهم رفع رأسـه إلىّ فى التـو وطلـب منـى أن أوضـح مجـددا ذلـك الطرح، وأن أوضحه بتؤدة، حتى يسهل إدراكه . فعلت ذلك، ففهم الفكـرة سريعـا ، ثم ألقى بقبضته وقال إنه لايصدق بوجود أمة لدى كل فرد فيهـا صـوت للاقـتراع، يمكن أن تسقط طواعية فى الحضيض والوحل لأى سـبب ، ويعتـبر جرمـا استلاب إرادة أمة وحق الاختيار فيها، بل يعد أشنع أنواع الجرائم .

قلت فى نفسى :

"هذا يحمل كل سمات الرجل ، و لو دعمت بمثـل هـذا النـوع مـن الرجـال، لصنعت سبقا فى تحقيق رفاهية الأمة، وسعيت إلى التأكيد عـلى أننـى مـواطن مخلـص وذلك بإحداث تغيير شامل، فى جهازها الحكومى " .

لك أن تتخيل أن إخلاصى هذا كان بمثابة انتمائى للـوطن، لا إلى مؤسـساته أو أصحاب المناصب العليا. فالوطن هو الأصل والجوهر والخلود، وهو الجدير بالرعاية والسهر، أما الولاء للمؤسسات، فعرض زائل، لأنها مجرد ثوب معرض للـبلى، وقـد أصبح هذا الثوب مسملا، ولم يعد سببا لمنفعة البشر، يحمى الجسد مـن بـرد الـشتاء،

والمرض والهلاك . إن انتهاءك لمجرد أسمال مهترئة ، وتأييدك إياها ، وتوقيرك لها ، والموت فى سبيلها، هو انتهاء أحمق، بهيمى بالكلية، يعود إلى الملكية، وهى صنيعته ، فدعها تنعم به، فأنا مواطن من كونيتيكت، التى ينص دستورها، على أن " كل القوى السياسية راسخة فى يد الشعب، وكل الحكومات الحرة تقوم على ما لديه من سلطات، فتشكل للعمل فى خدمته، وأن للشعب فى كل الأوقات حقا مطلقا لامرية فيه، فى تغيير هيكل حكومته، بالطريقة التى يعتقد أفراد الشعب أنها تحقق لهم النفع العام ".

فى ظل تلك الحقائق الدامغة يعد خائنا من يعتقد بفساد الأشكال السياسية فى دولة ديموقراطية ، ولذلك يؤثر السلامة ، على المطالبة بنظام جديد .

لعله الشخص الوحيد الذى يظن أنه يرى هذا الفساد دون أن يفنده ، حيث من واجبه الدفع فى الاتجاه الذى يريد ، ومن واجب الآخرين أن يتصدوا له ، مالم يروا غيرالذى يراه .

ها أنذا، أحيا فى بلد اقتصر حق اختيار أسلوب الحكم فيه على ستة أشخاص من بين كل ألف فرد من مواطنيه . أما تعبير أولئك التسعمائة والأربعة والتسعين الآخرين، عن عدم رضائهم عن حكم الفرد، والمطالبة بتغييره، قد يجعل الستة يرعدون فى صوت واحد، بأن هذه خيانة وعارا مشينا أو خروجا على مبادئ الأمة القويمة . أصبحت إن جاز التعبير، عضوا مساهما فى إحدى الشركات التى مولها وقام بأداء الأعمال فيها ، الأعضاء التسعمائة والأربعة والتسعون فردا، فى حين اختار الستة الباقون أنفسهم مجلسا مستداما للإدارة، وحصلوا على كل الأرباح القابلة للتوزيع . تبين لى أن ما يحتاجه أولئك الغفل التسعمائة والأربعة والتسعون ، هو وضع نظام جديد للتعامل . ربما كان أفضل ما يتلاءم والجانب المزعج فى شخصيتى، التخلى عن منصب قائد الدفة، وإعلان العصيان المدنى وتحويله إلى ثورة ، لكننى أعلم أن من

سعى إلى إشعالها من أتباع جاك كيد ووات تيلـور، دون أن يتحقـق أولا وقبـل كـل شيء، مما يملكه من وسائل حتى يبلغ مرحلة الثورة، سيواجه الفـشل ، ولامحالـة . لم أعتد الفشل مطلقا، حتى لو قلت ذلك بنفسي . سـبب ذلـك أن النظـام الـذى ظـل لبعض الوقت يتشكل فى ذهنى، كان من طراز يختلف تماما، عن أسلوب كيد ــ تيلور. لذا فإنى لم آت على ذكر ثورة أو عصيان مـدنى كـى آكـل القديـد الموضـوع أمـامى ، بصحبة رهط من أغنام البشر، تمت إهانتهم وتجهيلهم، بل انتحيـت بهـذا الـشخص جانبا ، وتحدثت معه فى أمر مختلف. حين انتهيت من الحديث، طلبت أن يمدنى بقليل من مداد من أوردته، وكتبت بقطعة نقد فضية، فوق قطعة من لحاء الشجر...

ضمه إلى مصنع الرجال....

أعطيتها إياه ، وقلت :

"خذ هذه إلى القصر فى كاميلوت، وسلمها ليـد أميـاس لى بوليـت، وهـو مـن أدعوه كلارنس، وسيقوم باللازم . "

قال الرجل وقد زال عن وجهه بعض الحماس :

"أهو راهب ،إذن ؟ "

" راهب ـــ كيف؟ ألم أقل لك إنه لاقبـل لعبـد للكنيـسة، أو رقيـق للبابـا أو المطران، بدخول مصنعى ؟ ألم أقل إنك لن تستطيع الدخول ، ما لم يكن معتقـدك أيـا كان، شأنا خاصا بك ؟ "

" عفوا ، هذا صحيح، وذلك مبلغ غبطتى، حيـث لا أحـب ، بعـد أن ثـار فى نفسى شك رهيب، سماع وجود هذا الراهب هناك " .

"قلت إنه ليس براهب ." بدا الرجل متشككا فى الأمر " . قال :

" أهو ليس براهب ويمكنه القراءة فى آن ؟ "

" إنه ليس براهب رغم استطاعته القراءة ـ أجل ، والكتابة أيضا . وقد علمته ذلك بنفسى " . صفا وجه الرجل .

" وذلك أول ما ستبادر بتعلمه فى المصنع.... "

" أنا؟ لايسعنى شق قلبى فى سبيل تعلم هذه الحرفة . مرجى ، سأكون عبدا لك . و.. "

" كلا، لن تكون، لن تكون عبدا لأحد . هيا خذ أسرتك وامض فى طريقك . إن سيدك المطران سيصادر ما لديك من أملاك على قلتها ، ولكن لاعليك، فكلارنس سيصلح كل شيء . "

الفصل الرابع عشر

أزود عنـــك سيدى

سددت عن إفطارى هذا ثلاثة بنسات، وذلك أيضا ثمن باهظ ، حيث يمكـن لعشرة أفراد تناول إفطارهم بهذا المبلغ ، لكننى شعرت فى تلـك اللحظـة بالارتيـاح ، فقد اعتدت الإنفاق ببذخ ، ثم إن هؤلاء لم تكن لديهم رغبة فى تقاضى ثمن لطعـامى ، رغم قلته بحسب ماتوفر لديهم من زاد وزواد ، لذلك كان من آيات الامتنان أن أؤكد تقديرى وعرفانى الكبيرين، بما تركت لهم من مال وفير، ربما كان إنفاق المال على هذا النحو أنفع كثيرا من بقائه فى خوذتى، وبما أن هذه البنـسات قـد سـكت مـن حديـد، وليست خفيفة الوزن ، فإن نصف الدولار الخاص بى ، يعادل فى رأيى حمـلا ثقـيلا . صحيح أن ما أنفقته يعد بحساب تلك الأيام مبلغا كبـيرا ، لكـن كـان لـذلك سـبب بعينه، هو أننى لم أكن أعلم بالضبط ما يعادل نسب القيمة فى الأشياء ، حتى إننى بعد بقائى فى بريطانيا مدة طويلة، لم أستطع مطلقا إدراك أن بنسا واحـدا فى أرض آرثـر، ودولارين فى كونيتيكت، كانا يتساويان فى القيمة، ويمكنك القول إنهما مجـرد تـوأمين من حيث قوتهما الشرائية . ولو أن سفرى من كاميلوت قد تأخر بضعة أيام لأمكننـى السداد لهؤلاء بالعملات النقدية الجديدة الرائعة، وكنت سأسر لـذلك كثـيرا ،كـما أن مشاعرهم جراء ذلك لم تكن لتقل عن مشاعرى. استخدمت فى السوق كل العملات الأمريكيــة، حيــث إنــه فى خــلال أســبوع أو اثنــين مــن الآن، ســتتدفق الــسنتات، والنيكلات، والدايمات، وأرباع وأنصاف الدولارات، والنزر اليـسير مـن العمـلات الذهبية، ستتدفق أنهارا، فى عروق اقتصاد المملكة، و قد تطلعـت لرؤيـة هـذه الـدماء الجديدة تنعش حياتها .

أصر الفلاحون على تقديم ما أعد مقابلا لسخائى معهم ، سـواء قبلـت أم لا، فسمحت لهم بتقديم قداحة من صوان وفولاذ، وسرعـان مـا وضـعونا أنـا وسـاندى بكل أريحية على صهوة فرسنا، فأسرعت بإشعال غليـونى . ومـع خـروج أولى نفثاتـه عبر حواجز خوذتى، أسرع هؤلاء بالانطلاق صوب الأحراش، وسقطت ساندى من خلفى واصطدمت بالأرض بصوت مكتوم . ظنوا أننى واحد ممن سمعوا عنهم كثيرا من الفرسان والدجالين ، تنين يتجشأ النار شعرت بقلق بالغ جراء دفـع أولئـك إلى المخاطرة بالدخول فى المنطقة المذكورة . وقلت لهم من ثم إن ذلك ليس سـوى عمـل من السحر ، لايضر أحدا، سوى أعدائى . وتعهدت ويدى فوق صدرى بأن كل مـن لايشعر بعداوة تجاهى فليتقدم ويمر من أمامى، وسيرون أن من يبقى منهم فى مكانـه سيلقى لامحالة حتفه . تقدم الجميع على وجه السرعة، دون أن تسجل إصابات، فلـم يكن لدى أحدهم فضول، يدفعه إلى البقاء فى مكانه ليرى عاقبة بقائه.

أزجيت بعض الوقت مع هؤلاء الصغار الكبار، أزلت خلالـه مخـاوفهم، وقـد فتنوا بأعاجيب ما صنعت من ألعاب نارية رهيبة ، حتى تمسكوا ببقائى هنـاك ، لنفـث غليونين، قبل أن يسمحوا لى بالرحيل . لم يضع التأخير كله هباء فقد اسـتهلك ذلـك الوقت فى دفع ساندى إلى اعتياد هذه البدعة الجديدة ، وتعليمها كيفية التآلف وإياها . لقد أسكتت أيضا طاحونة الكلام التى تديرها، واستغرق ذلك فترة معقولة . ولكن من بين ما طرأ من منافع أيضا، أننى تعلمـت شـيئا جديـدا . ذلـك أننـى صرت الآن مستعدا تماما لملاقاة أى عملاق أو مارق . بقينا تلك الليلة بصحبة ناسك متعبد، وقد حانت الفرصة لى قرب منتصف ظهيرة اليـوم التـالى . عبرنـا خـلال سـيرنا بمرجـة شاسعة، تقع على طريق مختصرة . استغرقت تماما فى تأملى، لا أسمع ما حولى، أو أراه، إلا وقطعت ساندى على أفكارى ،مباغتة إياى بعبارة كانت قد بدأت بها ذلك الصباح مصحوبة بنحيب:

" أزود عنك سيدى ! هناك خطر محدق بك!"

انسلت هابطة من فوق الفرس، وهرعت لمسافة قصيرة ثم توقفت . استطلعت الأمر فرأيت بعيدا فى ظل شجرة، ستة فرسان مسلحين، برفقتهم حاملو دروعهم، ودار على الفور هرج بينهم وربط لأحزمة السروج بغرض الركوب . كان غليونى معدا ، وسوف يكون جاهزا للاشتعال ، ما لم أكن هائما فى أفكارى عن كيفية محو الظلم عن هذا البلد، وإعادة الحقوق المسلوبة لأهله وللبشرية ، دون أن أثير حفيظة أحد . أشعلته فى الحال وسحبت نفثة كبيرة من الدخان المكتوم ، فى اللحظة التى تقدموا فيها . لم يكن أحدهم يتحلى بشهامة الفارس، الذى كثيرا ما قرأنا عنه فى الكتب : ذلك الوغد المتحذلق الذى يتقدم بمفرده فى حين يقف الآخرون لمشاهدة نزال متكافئ، لم يحدث ، بل أتوا جميعا دفعة واحدة، كتلة واحدة، بوقع منتظم ، أتوا أشبه بوابل من طلقات مدفع، محنيى الرؤوس، وقد تطاير ريش الخوذات إلى الوراء، والرماح موجهة للأمام . كان المشهد بديعا رائعا، فى عين من اعتلى شجرة. جعلت رمحى فى وضع الثبات وانتظرت، وتزايد نبض قلبى، حتى صارت تلك الموجة الحديدية، على وشك الانقضاض، أطلقت من ثم عمودا من الدخان الأبيض من خلال فتحات خوذتى. فاتك أن ترى الموجة وقد صارت بددا، متفرقة فى كل اتجاه. وكان هذا المشهد أروع من سابقه .

لكن أولئك توقفوا على بعد ثلاثمائة ياردة، ما أقلقنى. تداعت معنوياتى، وغشينى الخوف، ورأيت أنى هالك لامحالة . لكن ساندى توجهت ، وكادت تبدى فصاحة، لكننى منعتها من ذلك، وقلت لها إن سحرى قد بطل، بصورة أو أخرى، وإن عليها الركوب، بأقصى سرعة، وعلينا أن ننجو بأرواحنا. لم تفعل، بل تأبت. قالت: إن سحرى قد عاق أولئك الفرسان، ولم تعد لديهم القدرة على امتطاء الجياد، انتظر، لسوف يتساقطون الآن من فوق سروجهم ، ويمكننا بعد ذلك الاستيلاء على جيادهم وعتادهم . لم أستطع أن أخيب ظن تلك البراءة الواثقة. لذلك قلت إن خطأ ما قد

حدث، لأن مفرقعاتى دوما حين تقتل أحدا ، فإنها تفعل ذلك من فورها ، وهؤلاء لن يموتوا هكذا، هناك خطأ ما قد أصاب أسلحتى لا أستطيع التوصل إلى سبب لحدوثه، ولكن يجب أن نسرع ونرحل عن المكان . لأن هؤلاء سيعاودون مهاجمتنا فى لحظة.
ضحكت ساندى وقالت :

" يوم سعيد سيدى، فهم ليسوا من ذلك الصنف ! إن السير لونسيلوت سينتهى من حربه مع التنين، وسينزل عليهم ،ثم يكر عليهم المرة تلو الأخرى، حتى يهزمهم ويقطع شأفتهم ، وسيفعل ذلك أيضا السير بيليانور، والسير أجلوفالى، والسير كارادوس، وربما آخرون، لكن لا أحد سواهم سيخاطر بذلك ، فدع الكسول يخبر بما سيفعله الكسول. وواعجبا لأولئك المهمومين ، أتظن أنهم لم ينالوا كفايتهم، ورغم ذلك هم فى حاجة إلى المزيد ؟ "

"حسنا فماذا ينتظرون إذن، لماذا لم يرحلوا ؟ لن يعوقهم أحدعن الرحيل . ياللعجب ، إننى على استعداد للسماح لمن يرغب منهم فى الرحيل بأن يرحل . وأنا على يقين من ذلك "

" يرحلون، هكذا ؟ أوه، طب نفسا. فهم لايحلمون بذلك البتة . إنهم يترقبون تسليمهم ".

" ويحا، أهذا بالفعل كما تقولون ينهى المسألة ؟ لو كانوا يرغبون فى ذلك فلم لايفعلون ؟"

" يودون ذلك كثيرا، لكنك تدرك كيف تقدر تلك الأفاعى الأمور، إنك لن تدفعهم إلى لوم أنفسهم . إنهم يخشون الاقتراب ".

" لابأس إذن، هبى أننى ذهبت إليهم بدلا من ذلك ، و—— "

" آه، اعلم جيدا أنهم لن يتقبلوا ذهابك إليهم . سأذهب أنا . "

مـضت إلـيهم بالفعـل . كانـت بارعـة فى الهجـوم . وكـان عـلى بـدورى اعتبارهامهمة مشكوك فى نجاحها. رأيت الفرسان يفـرون فى التـو ، وسـاندى قادمـة تجاهى . شعرت بالارتياح. رأيت أنها قد أخفقت بصورة ما فى كـسب الجولـة الأولى، أقصد فى الثرثرة ، وإلا لطال لقاؤها بهم. لكن الأمر قد انتهى بخـير، وبـشكل يثـير الإعجاب حقيقة. قالت إنها حين ذكرت لأولئك أننى " الزعيم "، أصـابهم ذلـك فى مقتل : وقالت بالحرف إنهم " أصيبوا بذعر شـديد ، وهلـع " وكـانوا عـلى اسـتعداد للاستجابة لطلباتها جميعا. لذا طلبت منهم أن يقسموا بالقدوم ، إلى قصر آرثـر خـلال يومين ، وتسليم أنفسهم، بالجياد والعتـاد ، وأن يـصبحوا مـن الآن فـصاعدا أسراى، ويكونوا رهن أمرى. فيالروعة ما أنجزت به أداء المهمة ، بما يفوق ما كنت أزمع فعله! إنها شخصية من طراز رفيع .

الفصل الخامس عشر

حكـــاية ســـاندى

قلت ونحن راكبان" هكذا أصبحت مالكا لبعض الفرسان، من كان يـصل بـه الظن بأننى سأعيش حتى أعد قائمة ممتلكات من هذا النوع . سأعجز عن بحث كيفية التصرف فيهم، إذا لم أبعهم باليانصيب . ساندى، كم عددهم ؟ "

" سبعة، زاد فضل سيدى، وذلك فضلا عن حاملى العتاد . "

" غنم لابأس به . من هم ؟ أين مألفهم ؟"

" مألفهم ؟"

"أجل ، أين يعيشون ؟ "

" هه، لم أفهم جيدا ما عنيته ، سأخبرك فيما بعد "

قالت وهى مستغرقة فى التأمل ، والعبارات تجرى على لسانها عذبـة رقيقـة : مألفهم ــ مألفهم أين مألف ــ أين مألفهم، آه ، أجل ، أين مألفهم . هـذه العبـارة فى حقيقة الأمر، ذات وقع ورونق، ومصوغة على نحو رائع . سأرددها من وقت لآخـر، فى خلواتى، لعله يتصادف وأتعلمها بتلك الطريقة . أين مألفهم . هكذا ! كما أننى فى الحقيقة أتلعثم فى نطقها ـــ "

"لاتنسى رعاة البقر ياساندى . "

"رعاة البقر ؟"

"أجل، الفرسان، كما تعرفين . إنك ستحدثينني عنهم . تذكرى، كان ذلك منذ فترة وجيزة . كان قولا بالمجاز، واللعبة تقتضى ذلك . "

"لعبة ..."

" أجل، أجل، أجل ! اضربى الكرة، أقصد هيا أجر إحصاءاتك، ولا تشتطى فى انفعالاتك فتضطرب مشاعرك . أخبرينى عن الفرسان ."

" سأحكى ، سأحكى بكل روية ، هكذا رحل الاثنان وخاضا فى الأحراش الشاسعة، ثم ...."

" ياللإسكتلندى العظيم ! "

تأمل ، سرعان ما أدركت خطأى . تركت لها العنان، وهذا خطأ فى ذاته ، ذلك أنها تستطيع الخوض فى أمور كتلك لثلاثين عاما دون توقف . بدأت بوجه عام دون تمهيد، وانتهت دون نتيجة تذكر، و لو قاطعتها، لحدث شيئان، إما أن تواصل السرد دون تعليق، أو ترد بكلمتين، وإما أن تبدأ من حيث انتهت وتردد الجملة مجددا. هكذا، لم تأت مقاطعتى إياها بنفع أبدا، ورغم ذلك فقد كان جديرا بى أن أقاطعها، وأقاطعها مرات عدة، لأنجو بنفسى، فربما يلقى المرء حتفه، لو ترك لحنها الرتيب ينهال عليه طوال اليوم .

قلت فى أسى: " ياللإسكتلندى العظيم "، فعاودت الكرة، وبدأت القصة من البداية " وهكذا ارتحل الاثنان ،وخاضا فى الغابة الشاسعة، و..."

" أى اثنين ؟"

" السير جاوينى والسير أووينى. وصلا هكذا إلى أحد أديرة الرهبان، فلاقا ترحيبا بوفادهما. حضرا فى الصباح القداس فى الدير، وواصلا السفر من ثم حتى أتيا

غابة شاسعة، انتبه السير جاوينى إلى واد بقرب برج صغير، به اثنتا عشرة فتاة مليحة، وفارسان مسلحان على فرسين كبيرين، والفتيات يرحن ويجئن بقرب شجرة . انتبه السير جاوينى إلى ترس أبيض ، معلق على شجرة ، كانت الفتيات ترمينه بالبصق كلما مررن به، وتقذفنه بالوحل ..."

" حسبك، ساندى، إننى إذا لم أكن قد رأيت من قبل مثل هذا الشيء فى هذا البلد لما صدقته، لكننى رأيته بأم عينى، ويمكننى الآن رؤية تلك المخلوقات ، يتوالى عبورها أمام ذلك الترس، وتتصرف حياله بالطريقة نفسها . ومؤكد أن النسوة هنا يتصرفن وكأنهن ممسوسات . أجل، أعنى بذلك فضلياتك أيضا، أفضل الأصناف المنتقاة فى المجتمع . إن أقل عاملة استقبال على جهاز الهاتف يمكنها من مسافة عشرة آلاف ميل من الأسلاك الممتدة، أن تعلم أدب اللياقة، والصبر والتواضع، والأخلاقيات، لأرفع دوقة فى بلاد آرثر ".

"عاملة استقبال ؟ "

" أجل، ولكن لاتطلبى منى توضيح هذا الأمر، إنها صنف جديد من فتيات، لاوجود لهن هنا ، يحتد المرء عليهن ، إذا ارتكبن أدنى خطأ، ولا يجد فى ذلك ما يشعره بحرج، أوخجل من نفسه، طوال ألف وثلاثمائة عام، إنه سلوك معيب مزر، والحقيقة أنه لاسبيل لرجل متحضر القيام به ،ومع ذلك فأنا ...، حسنا .... أنا نفسى، لو كان لى أن أعترف ..."

" ربما تكون هى .... "

"لاعليك ، لاعليك، أقول لك إننى لا أستطيع حتى إخبارك بشأنها ، وبذا تتفهمين الأمر ".

" هذا صحيح ، وهو شاغلك. ثم مضى السيرجاوينى والسير أووينى إليهن وألقيا عليهن التحية، وسألاهن عن سبب امتعاضهن من الترس. قالت الفتيات: سنخبركما ، أيها السيدان ، إن تلك الترس البيضاء يملكها فارس فى البلدة، معروف بالشهامة، ولكنه يكره كل الفاضلات ، وسيدات النخبة فى المجتمع ، ولهذا السبب، نرمى هذا الترس بالازدراء. قال السير جاوينى: من السوء أن يزدرى فارس كل الفاضلات من الطبقة الراقية ، قد يكون ذلك لعلة ما، وربما كان يحب بعض الفضليات فى أماكن أخرى، فيصير بذلك محبوبا ، ويكون على الشهامة التى تذكرون ... "

" شهم .. أجل، ساندى ، فذلك ما يحببن فى الرجل. أما رجل الفكر، فلا يخطر لهن ببال . توم سايرز ، جون هينان، جون ل.سوليفان، آسف لأنك فى واد آخر ولست معى . كان يمكن وساقيك تحت المائدة المستديرة، و لقب "سيد " يتصدر ألقابك خلال أربع وعشرين ساعة، و يمكنك اكتساب صفة جديدة مما تخلع على الحرائر من الأميرات ودوقات البلاط، فى الأربع والعشرين ساعة التالية . و هذا فى الحقيقة يعد نموذجا لأدب اللياقة فى بلاط قبائل الكومانش . وما من زوجة فيه إلا وهى مهيأة تماما، لأن تطيح بكل شيء ، كى ترحل إلى هندى أحمر، يربط حبلا ضخما حول خصره، معلقا به أجزاء من فراء رؤوس البشر ، وتلك علامة النصر."

"قال السير جاوينى: وهذا الرجل بالشهامة التى تذكرن . ماًاسمه إذن ؟ قلن، اسمه مارهوس ، يا سيدى، ابن أيرلندا ابن الملك ... "

" تقصدين ابن ملك أيرلندا، اللقب الآخر لايعنى شيئا . انتبهى الآن ، وركزى جيدا، علينا الآن أن نتخطى هذا الأخدود ....، إننا على الطريق الصحيح . هذا الفرس أحق بالعمل فى سيرك ، إنه سابقَ أوانه ".

" قال السير أووينى: أعرف ذلك جيدا ، إنه فارس لايشق له غبار، كأى فارس على قيد الحياة ..."

"على قيد الحياة . عيبك الوحيد فى هذا العالم ياساندى ، أنك طيف ضارب فى القدم .لكن لاعليك من هذا ".

" لأننى رأيته ذات مرة يثبت جدارة حيث احتشد الفرسان ، ولم يستطع أحـد أن يتصدى له حينئذ . قال السير جاوينى : سيداتى، أتظنن أنكن ملومات عن الـذى حدث ، حيث من المفترض أنه وقد علق ذلك الترس هناك، لأن غيبتـه لـن تطـول ، ويمكن لأولئك الفرسان منازلته حينئذ على ظهور الجياد ، فيزداد إعجابكن به، لأننى لن أتحمل ازدراء ترس فارس بعد. غادرهن بعد ذلك بفـترة وجيـزة كـل مـن الـسير أووينى والسير جاوينى، فما كـان مـنهما إلا أن شـاهدا الـسير مـارهوس، قادمـا عـلى جواده، متجها نحوهما مباشرة . وحين رأت الفتيات الاثنتا عـشر الـسير مـارهوس ، أسرعن بالفرار داخل البرج وهن فى حالة من الاضطراب، حتى سقط بعـضهن أثنـاء الفرار . تصدى له بالترس أحد فرسان البرج ، وصاح بصوت عال: ادفع عن نفسك، أيها السير مارهوس. وانطلق الفارسان معا حتى كـسر الفـارس حربتـه فـوق الـسير مارهوس، فسدد السير مارهوس له ضربة قوية، كسرت عنقه وظهر جواده ..."

" حسنا، ذلك هو المحك فى مواقف كتلك ، يفنى خلالها كثير من الجياد "

" ظهر فى تلك اللحظـة الفـارس الآخـر مـن الـبرج ، وانطلـق نحـو الـسير مارهوس، التقى الاثنان بحماس مفرط ، وسرعـان مـا سـقط فـارس الـبرج الثـانى، وفرسه إثر ضربة قوية، سقط بلا حراك ... "

" وضاع فرس آخر ،أقول لك إن تلك عادة يجب القـضاء عليهـا . لا أدرى سببا لتأييد تلك الأمور وتشجيعها من قبـل أنـاس يتمتعـون ولـو بقـدر ضـئيل مـن المشاعر".

* * * * *

" هكذا انطلق الفارسان بتلقائية كبيرة ..."

أدركت فى تلك اللحظة ، أننى رحت فى سبات عميق، وفاتنى من القصة فصل كامل، لكننى لم أفه بشيء. علمت أن الفارس الأيرلندى، كان يمر بورطة مع الضيوف فى هذا الوقت، وانتهى الأمر هكذا .

" حيث سدد السير جاوينى ضربة رهيبة للسير مارهوس، حولت حربته إلى قطع صغيرة على الترس، ثم ضربه السير مارهوس ضربة رهيبة أطاحت بالرجل والفرس على الأرض ، وقد جرح السير أووينى فى جنبه الأيسر "

" حقا ساندى، أولئك القدامى، كانوا أناسا جد بسطاء، حصيلتهم اللغوية محدودة ، ونتيجة ذلك أن صفات الأشياء لديهم كانت تعانى قصورا فى التنوع فهم يبذلون جهدا جبارا ليبلغوا آفاق الواقع ولم يكن ذلك كافيا لعرض التفاصيل الغريبة ، وهذا يلقى عليهم ظلالا خاصة من الرتابة ، فالواقع أن نزالهم كله سواء، رجلان يقابل أحدهما الآخر فى المبارزة بعشوائية كبيرة، وكلمة عشوائية هذه لابأس بها لتوضيح المسألة، كلفظ محرقة ، واختلاس، وحق انتفاع بممتلكات الغير ، ومئات من المفردات الأخرى !

ولكن عجبا ! إن على المرء التمييز - يتقابلان بعشوائية كبيرة، والرمح فى مستوى الصدر، فيتهشم ترس أحدهما ، فى حين يسقط الآخر فارسا وفرسا، فوق ذيل الفرس فتنكسر عنقه، ثم ينتخب اثنان آخران، ويتكرر ذلك بلا نهاية، حتى يستنفد العتاد كله، وحين تأتين إلى حصر النتائج، لاتستطيعين تمييز مباراة عن أخرى، أوتمييز الفائز بها، أما بشأن كونها صورة من الواقع، لمعركة ضروس حامية، فهذا هراء ! عجبت لها من صورة يلفها الصمت والشحوب، لمجرد أشباح تتعارك فى الضباب . رباه، ما الذى يخرج به هذا المصطلح العقيم من ذلك المشهد العظيم ؟ـ كحرق روما فى عهد نيرون مثلا . عجيب ألا يذكر فيه غير تلك العبارة " احترقت مدينة لاتحمل

تأمينا على الحريق ، أو حطم صبى نافذة، أو حطم رجل إطفاء عنقه ! عجيب، إنها ليست لوحة تصويرية !"

أظن أن ذلك كان أقرب كثيرا إلى محاضرة، و ذلك لم يقلق ساندى، ولم يحرك ساكنا فيها، حيث تصاعد بخارها مجددا بثبات ، بمجرد أن رفعت عنه الغطاء :

" اتجه السير مارهوس بفرسه، نحو جاوينى مسددا إليه حربته ، وحين أدرك السير جاوينى ذلك ،تمترس، ووجه الاثنان حربتيهما إلى الأمام ، وأطلقا لفرسيهما العنان، فسدد كل للآخر ضربة قوية، فى منتصف ترسه، لكن حربة السير جاوينى ، انكسرت "

" عرفت أن ذلك سيحدث. "

" لكن السير مارهوس أمسك بحربته ، فى حين انبطح السيرجاوينى وفرسه على الأرض " .

" تماما .. وانقصم ظهره . "

" نهض السير جاوينى من مكانه بيسر، واستل سيفه، ووقف على قدميه، وتقدما كل نحو الآخر بثبات، ووجه كل للآخر ضربة بسيفه فتحول ترساهما إلى قطع متناثرة فى الهواء، واصطدم كل من غطاءى الدرعين و الخوذتين ، وأصاب كل الآخر بجروح . لكن السير جاوينى، حين جاوز الوقت التاسعة، وخلال ثلاث ساعات، عاد أكثر قوة وبأسا ، وازداد زخمه كثيرا . لاحظ السير مارهوس ذلك كله وتعجب كثيرا مما صارت عليه قوته، وهكذا أصاب كل الآخر بجرح عابر، وحين حلت الظهيرة "

نقلنى وقع ذلك التراشق الرتيب، إلى مشاهد وأصوات استرجعتها من عهد صباى :

" استراحة أخرى ! عشر دقائق لتناول المرطبات .... أيها المحصل، سأدق الجرس قبل تحرك القطار بدقيقتين، ركاب طريق الشاطئ عودوا، لو تفضلتم إلى أماكنكم فى العربة الأخيرة، فهذه العربة لن تتجاوز المحطة القادمة، تفااااح، برتقاااال، مووووز، شطااااااااا ئر ، فشاااار ! "

" جاوز الوقت بعد الظهيرة، واقترب حلول المساء، وخارت قوى السير جاوينى ،وانهارت بمرور الوقت، ولم يعد لديه قدرة على التحمل، فى حين أخذت قوة السير مارهوس تتعاظم، "

" فأحكم طبعا لبس درعه، رغم أن أحدهما لم يكن ليعر لهذا الأمر البسيط انتباها " .

" ومن ثم، قال السير مارهوس، سيدى الفارس ، لقد أدركت بالفعل أنك أحد فرسان العصر الأشداء، وأنك رجل رائع ذو بأس، لم أواجه مثله من قبل، أما قد خارت قواك الآن ، و لم يعد نزالنا متكافئا، لذا فإن من المحرج أن أصيبك بأذى، لأننى أشعر بأنك تعانى ضعفا عابرا . قال السير جوواينى، ها، أيها الفارس النبيل، إنك تردد ما انتويت قوله . ثم خلعا خوذتيهما، وقبل كل الآخر، وأقسما معا على أن يكونا على المحبة رفيقين " .

لكننى كنت قد افتقدت خيطا فى السرد، ورحت فى نعاس ، متأملا فى أن ما يدعو إلى الأسف ، أن رجالا على هذا القدر من القوة، تلك القوة التى تمكنهم من الوقوف ، وقد طوقوا بحديد أثقل كاهلهم على نحو مضجر ، وتصبب منهم العرق ، ثم يوجه كل للآخر الضرب والركل والسحق، لست ساعات متصلة، ما كان يحق لهم أن يولدوا، مالم يوجهوا تلك القوة فى أعمال مفيدة . خذ الحمار نموذجا يمتلك ذلك النوع من القوة ، يوظفها فى أغراض مفيدة، ينتفع بها هذا العالم لأنه حمار، لكن السيد النبيل لاينفع أحدا لأنه غبى . إنهم خليط من البشر لايأتى من ورائهم نفع البتة ،كما

أنهم لن يسعوا إلى تحقيقه من الأساس . ورغم ذلك فإنك حين ترتكب مجرد خطأ، تقوم الدنيا ولا تدرى ما يترتب على ذلك من آثار .

حين انتبهت من نعاسي وبدأت أصغي، أدركت أن فصلا آخر قد فاتنى ، وأن آليساند، قد خاضت كثيرا فى الحديث عن بنى جلدتها :

" رحلا من ثم، ووصلا إلى واد عميق، مملوء بالحجارة، فشاهدا جدولا رقراقا، وعلى مقربة يقع مصدر النهر ، نبع جميل، جلست عنده فتيات ثلاث . قال السير مارهوس: لم يطرق هذه البلدة فارس، مذ آمنت بالنصرانية ، لكنه وجد مغامرات عجيبة "

"آليساند، هذه ليست صيغة مناسبة للحوار . السير مارهوس ابن أيرلندا ابن الملك، يتحدث هنا كالآخرين، وعليك أن تصوغي حديثه بلهجة أيرلندية، أو تعطيه سمة تميزه عمن سواه على الأقل، وبهذا يمكن للمرء تحديد شخصيته، بمجرد أن يبدأ الحديث، دون حتى أن يذكر لقبه، وتلك وسيلة شائعة فى الأدب، يعرفها كبار الكتاب. عليك أن تجعليه يتحدث هكذا ــ بهذرمة ، فيقول مهذرما : لم يطرق هذه البلدة فارس مذ تنصرت ، ولكنه وجد مغامرات عجيبة.. وسترين أن ذلك أفضل كثيرا ".

"قال مهذرما لم يطرق هذه البلدة فارس البتة، لكنه وجد مغامرات عجيبة . حقا سيدى المبجل، هذا يفى بالغرض، ولكن يصعب كثيرا ترديده، مع أنه ليس ثقيلا على اللسان ، بل إن سرعته تزداد مع كثرة ترديده . توجها من ثم نحو الفتيات، وحيا كل الآخر، وكانت أكبرهن تطوق رأسها بإكليل من ذهب، وعمرها ستون شتاء أو يزيد "

"الفتاة ؟ "

" أجل سيدى العزيز، وكان لون شعرها تحت التاج أبيض، و.."

"طاقم أسنان من مادة السيلولويد، بتسعة دولارات، فضلا عن أنه ليس من النوع المحكم ، فهو يعلو ويهبط حين تتناول طعامك كنافذة مشربية ، وينطلق إلى خارج فيك أثناء ضحكك " .

" أما الفتاة الثانية فتبلغ الثلاثين عاما، تطوق رأسها بعقد من الذهب، و الثالثة لا تزيد على الخمسة عشر . "

غشيتنى من الأفكار موجتان متلاطمتان ، وتلاشى الصوت تماما من سمعى !

خمسة عشر عاما .. يالفؤادى المنفطر ! أوه ، حبيبتى الضائعة ! ضاعت ربيبة الجمال والرقة فى هذه السن الصغيرة ، وهى كل عالمى، التى لن أراها بعد الآن ! كم أعادنى التفكير فيها، عبر بحار الذاكرة اللجية، إلى زمن غامض مبهم، زمن جميل، يبعد عنا مئات القرون ،حيث اعتدت الاستيقاظ، فى ساعات صيف صحوة، من الحلم بها، لأردد: " مرحبا، سنترال " ، مجرد سماع صوتها الحبيب، يجيبنى بدلال : "مرحبا، هانك " كان ذلك بمثابة لحن الأفلاك الذى يشنف أذنى الوالهة به . كانت تتقاضى ثلاثة دولارات فى الأسبوع ، وكانت تستحقها .

لم أستطع مجاراة ساندى فى حديثها عن هوية فرساننا الواقعين فى الأسر الآن، أعنى أنها حين تخوض مضطرة فى الحديث عن هوياتهم، كنت أفقد تركيزى، وتتشتت أفكارى ، وأشعر بالحزن . لم ألحظ خلال سردها القصة ، وفى لمحات خاطفة منها ، ألتقطها هنا أو هناك، ومن آن لآخر، لم ألحظ على نحو ملتبس، سوى أن كلا من أولئك الفرسان الثلاثة ، قد اصطحب خلفه فتاة من بينهن ، على ظهر جواده، وارتحل أحدهم شمالا، والثانى شرقا، والثالث جنوبا، سعيا وراء المغامرة، ثم الالتقاء معا

وتبادل الأكاذيب فيما بينهم ، بعد عام ويوم . بعد عام ويـوم ، وبـدون أمتعـة . ذلـك نموذج من تلك العفوية المتفشية فى أهل البلدة .

الشمس الآن بسبيلها للغروب . شهدت فترة قريبـة مـن الثالثـة بعـد الظهـر، مبادرة آليساند إياى بالحديث عن هوية رعاة البقر، و قطعـت فى هـذا شـوطا كبـيرا ، يحسب لها . لا شك أنها فى يوم ما ستحقق إنجازا آخر ، لكنهـا ليـست مـستغربة أنهـا حققته.

كنا بسبيلنا للاقتراب من حصن مقـام عـلى ربـوة عاليـة، تبـين لنـا ضـخامته ومتانته، وشموخ بنيته ، تغطت أبراجه الرمادية، وأسـواره عـلى نحـو فـاتن بالعـاج ، وتشبعت كتلته المهيبة بكاملها بضياء ألقت به الشمس الغاربة . كان ذلك أضـخم مـا رأينا من حصون، لذلك ظننت أن هذا هو الـذى نبحـث عنـه، لكـن سـاندى ردت بالنفى . لم تكن تعرف مالكه، وذكرت أنها مرت به مرور الكرام، وهى فى الطريق إلى كاميلوت .

الفصل السادس عشر

مــورجــان لا فــاى

لو صح أمر رحلات الفرسان فى مهام قصيرة ، لما اعتبرت كل الحصون أماكن تقصد بغرض الوفادة . الأمر فى الحقيقة أن رحلة الفرسان فى مهام قصيرة ليست لشخوص يمكن تصديقهم، ذلك إذا ما قيست بمعايير حقيقية حديثة، ولكنها قيست بمعايير زمانهم، وأن معرفتك حقيقتها،كان طبقا لهذا القياس. يكون الأمر غاية فى البساطة ، لو أنك أجريت حسبا يقدر بسبعة وتسعين بالمائة، فتكون الحقيقة فى النسبة المتبقية . الآن وبعد إجراء هذه الحسبة ، تظل الحقيقة فى أننى إذا تمكنت من اكتشاف شيء ما عن أحد هذه الحصون، قبل أن أطرق بابه، أعنى النداء على الحراس، فذلك أفضل السبل. لذلك سررت حين رأيت من بعيد، فارسا يدور بمنعطف الطريق الهابط من هذا الحصن .

حين تقاربنا ، رأيته يعتمر خوذة مريشة، وبدا وقد شذ عن عادة لبس الفولاذ، لكنه حمل سهاتًا تزيد على ذلك غرابة، بارتدائه زيا محكما صلبا، يشبه رداء الفرسان الفضفاض الذى يلبس فوق الدرع ، وكان على رغم ذلك أن أضحك من غفلتى، حين صرت أكثر قربا منه، وقراءتى هذه الشارة المعلقة على ثوبه الفضفاض :

" صابون بيرسيمون .. يستعمله كل أفراد الطبقة الراقية "

تلك كانت فكرة بسيطة من بنات أفكارى، تضمنت مقاصد كبيرة و متعددة، بهدف التقدم نحو رقى هذه الأمة وتحضرها . كان ذلك فى المقام الأول ، يعد ضربة

مباغتة موجهة لهذا الهراء المسمى برحلة الفارس بهدف المغامرة ، مع أن أحـدا لم يكـن ليشك فى الأمر سواى . بدأت العمل بعدد مـن هـؤلاء الفرسـان - أكثـرهم تأنقـا - وزودت كلا بلوحتى إعلانات، تحمل شعارا أو سواه، ورأيـت أنـه مـع زيـادة عـدد هؤلاء فى وقت قريب ، سيبدو مظهرهم سخيفا ، ومن ثم، يكون من لا يحمل لوحـة إعلانات حتى من لابسى الدروع الأغبياء ، سيبدو هو الآخر مدعاة للسخرية، لأنـه سيشذ عن المظهر السائد.

يأتى بعد ذلك أن هؤلاء المبعوثين ، وعلى نحو تدريجى، ودون إثـارة شـك أو لفت نظر، سيقدمون نموذجا للتأنق والنظافة بين النبلاء ، فى مراحله الأولية وينتقل ذلك منهم إلى الناس، هذا لو ظل الرهبان على صمتهم .

يقلل هذا من دور الكنيسة، أعنى أنه يعدمجرد خطوة فى سبيل نحقيق الهـدف . يأتى بعد ذلك دور التعليم، تليه الحرية ، يبدأ من ثم تداعى دور الكنيسة، و قد رسخ فى يقينى، أن أى كنيسة رسمية تابعة للحكومة تعد جرما رئيسا، وحظيرة للعبيد، ولن يعترينى فى هذا السبيل أدنى تردد، بل سأعمل على مهاجمتها بعنف بشتى الوسائل، أو بأى سلاح ناجع يحقق الإضرار بها . ومن العجيب ، أنه فى سالف عهـدى بالحيـاة - ومنذ قرون بعيدة لم تكن قد تمخضت بعد فى رحـم الزمـان - كـان كبـار الـسن مـن الإنجليز ، ممن تصوروا نشأتهم فى بلد حر- بلـد حـر يحظـى بتمثيـل نقـابى، ومعيـار لتحديد قدرات الأفراد مازال يمارس دوره - كانوا حجر عثـرة أمـام حريـة البـشر ، وقد لوثت ضمائرهم بدعمهم النظام الملكى القائم .

تعلم مندوبى، كيفية إبرازه الشارات اللامعة فـوق معطفـه الفـضفاض ، وقـد طليت بماء الذهب البديع وكانت الفكرة طيبة، وقد ا ستطعت إقنـاع الملـك بوضـع شارة الإعلانات، لإبراز محاسن هذا الجمال البربرى، وكان على هـؤلاء الظهـور بهـذه الشارات، والتعريف بمادة الصابون للوردات وسيدات الطبقة الراقية، وأنه إن بدا على

حضرات السادة والسيدات أى توجس منه ، فليجربوه فى كلب . كانت الخطوة التالية التى يقوم بها المندوب، جمع أفراد الأسرة معا، ثم تجربة الصابون فى شخصه، و عليه ألا يتوقف عن التجربة، حتى لو خاب أمله، كى يتمكن من إقناع النبلاء بأن الصابون غير ضار، وإذا بقى لديهم ظل من شك، فعليه أن يمسك بتلابيب ناسك، فالأحراش مملوءة بمن يطلقون على أنفسهم نساكا، وأولئك يصدقهم الناس. فقداستهم لا يشوبها شك، فضلا عن أنهم صانعو معجزات، ويقف الجميع منهم موقف الرهبة . فإذا احتمل الناسك مشقة الاغتسال، ولم يقنع ذلك أحد الدوق ، فاتركه وامض إلى حال سبيلك .

حينما تغلب أحد مندوبى على فارس مغامر على الطريق، غمروه بالماء، وحين استرد وعيه، استحلفوه بالذهاب والحصول على شارة إعلانات، والترويج للصابون، والتزام جادة التحضر مادام حيا. تزايد العاملون فى هذا المجال عقب ذلك تدريجيا، وواكب ذلك انتشار الإصلاح. وحقق مصنع الصابون تقدما منذ البداية . كنت فى البداية أعمل فيه بيدى، وصار لى الآن خمسة عشر عاملا، و العمل فيه يدور ليلا ونهارا، وقد أعقب ذلك ما يؤكد أن الملك قد أصيب لدى سماعه بهذا بحال من الدهشة واللهاث ، وذكر أنه يستغرب قدرته على تحمل هذا الأمر، أما السير لونسلوت، فلم يكن أمامه، سوى اللعان والتجول فوق السقف وأسفله، مع أنى أخبرته بأن المكان هناك أسوأ من أى مكان آخر ، لكنه قال إنه فى حاجة إلى مزيد من الهواء الطلق، وظل يشكو دون انقطاع من أن أيا من القصور لا يصلح مصنعا للصابون، وقال إنه إذا تطلب الأمر إقامته فى بيت أحدهم ، فسوف تصب عليه اللعنات، ما لم يقدم على الانتحار. كان من بين الحضور سيدات أيضا، لكن أولئك لا يعنيهن هذا فى شيء ، لأنهن يلقين اللعنات أمام الصغار، لوطاب مزاجهن وكان العمل يدور فى المصنع على قدم وساق .

كان اسم هذا المندوب الفارس، لاكوت ميلى تايلى، ذكر أن هذا الحصن مقر لمورجان لافاى، شقيقة الملك آرثر ، وزوجة ملك أورينز، وهى مملكة تعادل مقاطعة كولومبيا فى الحجم، يسعك أن تقف أوسطها و تلقى حجرا فيبلغ المملكة المجاورة . كان الملوك وممالكهم من الكثافة فى بريطانيا كما هو حال فلسطين أيام يوشع حيث كان على الناس الرقاد مقرفصي السيقان ، لأنهم لايستطيعون مدها دون أن يسمح لهم.

أصيب لاكوت بخيبة أمل كبيرة، بل حقق فى حملته هنا فشلا ذريعا . لم يروج لقطعة واحدة رغم سعيه بكل حيل الصنعة، حتى إنه قام بغسل ناسك، لكن الناسك مات. حقق ذلك بالفعل فشلا ذريعا، لأن هذا الناسك البوهيمى ربما اعتبر الآن من الشهداء وسيدرج ضمن مشاهير القديسين فى روما . وهكذاوقع هذا البائس لاكوت ميلى تايلى أسير أحزانه، وانفطر قلبه أسى. فانفطر قلبى له ، ولجأت لمواساته وتطييب خاطره . قلت له :

"تذرع بالصبر يابنى، فما حدث ليس نهاية المطاف . وما دام لدى كل منا عقل يفكر، فلا مجال للانكسار ،بل الانتصار فحسب . تأمل كيف سنحول ما بدا كارثة فى مجال الترويج الإعلانى، بإعلان عن منتجنا من الصابون، هو الأضخم بين ما فكرنا فيه من قبل : إعلان سيحول هزيمة جبل واشنطون إلى نصر ماترهورن . سنضع على شارة إعلانك عبارة " يستعمله الصفوة " فما صدى ذلك لديك ؟ "

" نعم الفكرة فى الحقيقة "

حسنا على المرء أن يعترف أنه بالنسبة لكونه إعلانا صغيرا متواضعا من سطر واحد ، فهو رائع . بهذا زالت أحزان الجائل المسكين .

كان شجاعا، أدى فى بواكيره أعمالا بطولية وقامت شهرته الكبيرة على وقائع رحلة مغامرة كرحلتى هذه، ورافقته خلالها فتاة تدعى ميلديسانت ، معروفة بثرثرتها

دون توقف، شأن ساندى، رغم اختلافهما فى الأسلوب، فلسان الأولى يزبد سبابا وترهات، بينما ألحان ساندى تفيض عذوبة وانطلاقا . عرفت قصته جيدا، وأدركت بالتالى كنه ذلك الود البادى فى محياه أثناء توديعه إياى، فقد ظن أننى كنت أكابد أو قاتا قاسية عصيبة فى مغامرتى.

تحاورت وساندى ونحن فى الطريق، ذكرت لى أن لاكوت صادفه سوء الحظ منذ بدء الرحلة، لأن حمق الملك قد أطاح به منذ اليوم الأول، وفى حالات كتلك كان لابد أن ترحل الفتاة إلى جانب المنتصر ، لكن ميليديسانت لم تفعل ذلك، وأصرت بعد ذلك على البقاء مع لاكوت، بعد كل مالاقى من هزائم . قلت لها: ولكن هبى أن المنتصر، قد رفض التفريط فى غنمه ؟ ذكرت أن ذلك لن يجدى فى شيء، فهذا حقه . قالت: إنه لايستطيع الرفض لأنه غير معمول به . أبديت ملاحظة فى هذا الأمر، بأنه لو بلغت ألحان ساندى يوما حد الاضجار ، لسمحت لفارس ما بأن يهزمنى، كى ترحل معه .

أوقفنا الحراس مباشرة، عند أسوار الحصن، وسمح لنا بالدخول بعد أخذ ورد . ليس لدى ما يسر حكيه بشأن تلك الزيارة . لكن ذلك لم يكن مخيبا للآمال، لأننى قد عرفت السيدة لى فاى بالصيت ، ولم أتوقع من ذلك خيرا. فهى محاطة بالرهبة فى المملكة كلها لأنها جعلت الجميع يصدقون أنها ساحرة لايشق لها غبار، بما لديها من أساليب ملتوية شتى، وغرائز شيطانية . وهى معبأة حتى الرموش بحقد دفين . كل تاريخها موصوم بالجرم، و القتل شائع ضمن جرائمها. ازداد فضولى لرؤيتها إلى أقصى حد، كشوقى لرؤية شيطان . أدهشتنى ملاحتها وفشلت الأفكار الشريرة فى وسمها بالنفور، وفشل الزمن فى التأثير على بشرتها الشيطانية ، بأية تجاعيد، أو إفساد ما تتمتع به من نضارة ظاهرة . لقد نجحت فى أن تجعل من نفسها ابنة أورينز الكبرى، ويمكن أن تكون قد أخطأت فى أن تجعل من نفسها شقيقة لابنها .

بمجرد مرورنا مباشرة من بوابات الحصن، أمرنا بالمثول بين يديها . كان ملـك أورينز حاضرا، وقد بدا رجلا مسنا رقيق الحواشى، يتحلى بالسكينة ، وكـذلك الابـن الفولاذى ، السير أووينى .

كان مثارا لاهتمامى بالطبع، بسبب رواية قديمة عنه تقول إنه بارز يوما ثلاثين فارسا فى إحـدى معاركـه ، وأيـضا بـسبب رحلتـه، برفقـة الـسير جـاوينى، والـسير مارهوس، الذى كثيرا ما شـيبتنى سـاندى بـه. لكـن مورجـان كانـت مثـار الاهـتمام الرئيس، فهى الشخصية الأبرز هنا، وهى رأس هذه الأسرة المدبر، وكان ذلـك جليـا الآن . أمرتنا بـالجلوس، وبـدأت مـن ثـم وبأسـلوب بـالغ الرقـة واللباقـة توجـه لى الاستفسارات. عجبت أن تكون أشبه بطائر، أو آلة نفـخ موسـيقية، أو بـشيء مبـادر بالحديث. أحسست عن قناعة بأن هذه المرأة بالـضرورة قـد أسيء فهمهـا، أو رميـت بالبهتان. تحدثت بنبرة لم ينقطع تهدجها، ثم سرعان ما أتى غلام صغير متأنق، يتهادى فى حركة انسيابية، بلباس أشبه بقوس قزح، أتى بشيء وضع على صينية مـن الـذهب، وركع مقدما ذلك الشيء لها، وهو يبـالغ فى إظهـار رشـاقته، فحـدث أن فقـد توازنـه وسقط برفق أمام ركبتيها. فغرزت فيه خنجرا، كما يطعن أحدهم فأرا !

سقط الطفل المسكين فجأة على الأرض، وتلوت أطرافه الرقيقـة، وقـد عـانى نوبة ألم حاد، ثم لقى حتفه. أطلق الملك صيحة عفوية "أووـــ ه "، تـأثرا بـما حـدث. رمقته بنظرة قطعت صيحته فى الحال ، كى لايتبعها أخرى. مضى السير أووينى بإشارة من أمه، إلى صالة المراهنات، ودعا بعـض الخـدم، فى حـين انـبرت "المـدام" تواصـل حديثها العذب .

أدركت أنها ربة أسرة ممتازة، لأنها خلال الفترة التى تحدثت فيها ،كانت ترقـب الخدم بطرف عينها، كى تتأكد من عدم ارتكابهم أخطاء أثناء تعاملهم والجثمان ونقله إلى الخارج، وقد أتوا بمناشف لم تستعمل من قبـل، فأرسـلت فى طلـب نـوع آخـر،

وحين انتهوا من مسح الأرضية وتجفيفها، أشارت لدى خروجهم إلى مزقة بها نقاط قرمزية أغفلوا رؤيتها. بدا واضحا لى أن لاكوت ميلى تايلى قد فشل فى سرده، فى الوصول لفهم سيدة القصر . عجبا، كم كانت نبرة حديثها أكثر جلاء ووضوحا، بحيث أسكتت كل من سواها بحديث ساقه هذا الظرف العرضى.

واصلت مورجان لافاى حديثها العذب كالسابق . إنها امرأة عجيبة . وأى نظرة غريبة تلك التى توجهها لتأنيب أولئك الخدم، فتراهم يجفلون منها ويرتعدون، كمن أصيبوا بهلع من برق آت من سحابة .

كان يمكن أن أمتلك بدورى تلك العادة. وقع ذلك للشيخ المسكين، برير أورينز، فقدكان دوما يبلغ الحافة الهارية لشعوره بالهلع ، ولم يحدث مرة أن التفتت إليه إلا وأجفل منها .

ألقيت أثناء حديثى إليها بعبارة إطراء بالملك آرثر، غافلا قدر كراهية هذه المرأة لشقيقها. كان هذا الإطراء البسيط كافيا لهبوب العاصفة واستدعاء الحرس، وقولها:

"سوقوا هذين الوغدين إلى السجن "

اخترقت سمعى هذه العبارة، فسجونها معروفة للجميع . لم يطرأ ببالى ما أنطق به، أو أفعله. لكن الأمر لم يكن كذلك مع ساندى . فبمجرد أن وضع الحارس يده على، نهضت ساندى من مكانها، وقالت بهدوء الواثق:

"ياألطاف الله، أترغب أن يحيق بك الهلاك، أيها الأخرق ؟ إنه الزعيم ! "

أثارت تلك الفكرة الصائبة إعجابى ! هكذا، برغم أنها لم تطرأ لى ببال. حيث نشأت خجولا ، عند وقوعى فى المآزق، وليس فى كل الأحوال، وهذا أحدها. وضح أثرذلك على "المدام". صفا محياها، واستعادت بسمتها، وقدرتها على المداهنة والإقناع،

ولكنها رغم ذلك لم تكن قادرة على مواربة ما كان يعتمل فى داخلها من رهبة كبيرة . قالت :

" عجبا لم تفعل تابعتك سوى ما يرضيك ! وكأن من وهب ما لدى من قدرات يمكنه أن يردد نفس الذى قلت عن شخص سحق الساحر ميرلين، وماهذا بهراء . كنت بما لدى من قوى سحرية، أتوقع قدومك ، وقد تعرفت عليك بمجرد ولوجك هذا المكان . وما فعلت سوى مزحة بسيطة بقصد مباغتتك بإحدى ألعابك السحرية، غير شاكة بأنك ستحرق الحراس بنار خفية، وتحولهم إلى رماد فى المكان، وذلك بصنعك معجزة تفوق قدراتى ، رغم أننى كثيرا ما تقت لرؤية إحداها " .

كان الحراس أقل توقا لذلك، وسرعان ماغادروا المكان، بمجرد صدور الأمر إليهم .

الفصل السابع عشر

مـأدبـــة مـلـكيـــة

لاشك فى أن سيدة القصر بعد أن لاحظت ما بى من سـكينة وهـدوء، ظنـت أننى قد خدعت بما قدمت من اعتذار، فزال عنها الخوف، وسرعان ما ألحت على بأن أقدم عرضا من عروضى وأقتل شخصا، حتى صار فى الأمـر مـا يحـرج . ومـع ذلـك تنفست الصعداء، حيث قطعت حديثها الدعوة للصلاة . سأوجه دعوتى هذه للنبلاء فحسب، وهى أنه رغم ما رسخ فيهم مـن طغيـان وبطـش، وسـلب ونهـب، وفـساد أخلاقى، فهم باقون على دينهم ومتعصبون له . ما مـن شيء يحـول بيـنهم وبـين أداء الطاعات، التى فرضتها الكنيسة ، بإخلاص وانتظام . رأيت أكثر من مرة نبيلا لحظـة تفوقه فى مبارزة على خصمه، أن توقف للصلاة قبل أن يقطع رقبته ، ورأيت أكثر مـن مرة نبيلا بعد أن يكمن لخصمه ويقتله، إلا خلا بنفسه لأقرب ضريـح وقـدم خاشـعا آيات الشكر، دون انتظار لحمل الجثمان . ليس فى الوجود أجمل وأحـلى مـن بينفينوتـو سيلليني، ذلك الراهب الزاهد عن الدنيا وما فيهـا، والـذى جـاء بعـد ذلـك بعـشرة قرون. لقد حضر كل النبلاء البريطانيين وعائلاتهم ، صلوات الصباح والمساء يوميـا ، فى كنائسهم الخاصة الصغيرة، فضلا عن أن أدناهم قدرا يرافقـون عـائلاتهم للتعبـد خمس أو ست مرات فى اليوم . ويعود مردود ذلك كله إلى الكنيـسة . ورغـم أننـى لا أحمل ودا لتلك الكنيسة الكاثوليكية، فقد اضطررت إلى التصريح به . مـا كنـت أجـد نفسى مضطرا إلى ترديد قول : "ما عسى هذا البلد أن يفعل دون الكنيسة؟"

تناولنا الغداء بعد الصلاة، فى قاعة المآدب الكبرى، حيث أضيئت بمئات من الأنابيب التى تضخ الشمع السائل، وكان كل شىء من الجمال والسرف والأبهة الجمة، ما يليق بمنزلة المضيفين . نصبت على منصة فى صدر القاعة، طاولة للملك والملكة، وابنهما الأمير أووينى . تمتد منها إلى داخل القاعة مائدة الضيوف، جلس عليها الزوار من النبلاء وكبار أفراد العائلة من كلا الجنسين، والمقيمون فى القصر ، وعددهم الفعلى واحد وستون فردا ، وجلس خلف الضيوف، موظفو القصر الصغار، فضلا عن مرؤوسيهم المباشرين، وعددهم مائة وثمانية عشر فردا من الجلوس، وكثير من الخدم بأزيائهم الخاصة كانوا وقوفا، خلف مقاعدهم ، أو يخدمون كل حسب ما كلف به . كان المظهر بالغ الروعة. بدأت افتتاحية الحفل فرقة بآلات نحاسية، ونفير وقيثار، وأشياء مرعبة أخرى ، ما بدا أنه النسخة الأولى غير المنقحة من ألحان أو أصول الندب والعويل، المعروف فى القرون المتأخرة باسم " فى المستقبل القريب ". كان اللحن طريفا وكان حريا بأن يعاد أكثر من مرة ، ولكن ولسبب أو آخر ، أمرت الملكة بأن يشنق مؤلفه بعد الفراغ من الطعام .

بعد عزف الموسيقى، أطال الراهب الواقف خلف المائدة الملكية ، صلاة المائدة المهيبة ، بلغة لاتينية واضحة. انطلقت من مواضعها جماعة منتظمة من السقاة، فى عجلة وهرولة وحمل أشياء أوجلبها، وبدأ التهام الطعام الفخيم ، ساد الصمت المكان كله، وانهمك الجميع فى العمل . شقت صفوف من هبر اللحم وتلاحمت فى تناغم رائع، وشابه صوت الهبر طنين آلات خفية مكتوم . استمرت الفوضى لساعة ونصف الساعة، وكان هلاك الأساسيات، أمرا لايوصف. لم يبق من ملمح المأدبة الرئيس - وهو خنزير برى ضخم كان ممددا فى بدايتها فى مهابة وشموخ - لم يبق منه سوى مايشبه تنورة فضفاضة، وهو نموذج حى لما حدث مع كل أصناف الطعام الأخرى .

بدأ الإسراف فى الشراب مع تناول الفطائر المحلاة، ومن ثم تبادل الحوار ودواليك . اختفى جالون من الخمر بعد الآخر ، وكذلك شراب الميد المخمر، وارتوى الكل من كلا الجنسين، وسعدوا وأفعموا بهجة وسرورا، وضج الجميع من ثم بالصخب. حكى الرجال مايحبب للسمع من نوادر ، لم ينفعل لها أحد، وحين تلوح حبكة النادرة، ينطلق الجميع فى ضحك صاخب يرج الأحراش . سايرت النسوة ذلك بروايات تاريخية بعينها تجعل كلاً من مارجريت ملكة نافارى، وإليزابيث الأولى ملكة إنجلترا تتواريان خلف منديليهما حياء، لكن لاتتوارى إحداهن هنا ، بل يضحكن فحسب ، ويمكنك الزعم بإطالتهن الضحك. كان الكهان فى كثيرمن روايات الرعب هم أبطالها الجواسر، لكن ذلك لايثير قسيس القصر، فقد اندمج مع الآخرين فى الضحك فضلا عن أنه ترنم بصوت أجش - حين دعى إلى ذلك - بأنشودة جسورة لم تختلف عما أنشد فى تلك الليلة .

نال التعب من الجميع بحلول منتصف الليل ، وألموا بكثرة الضحك، وأسكرهم الشراب ،كالعادة، فانبرت دموع بعضهم تسيل ، وأبدى البعض الآخر مشاعر أرق، واندمج آخرون فى مرح صاخب ، ومال البعض إلى المشاكسة، فى حين ترنح البعض تحت المائدة فاقدى الوعى . كان المشهد الأسوأ لدى السيدات يتعلق بالدوقة المليحة الشابة، والتى كانت تشهد الليلة عيد زواجها ، حيث كانت فى ذاتها مشهدا لافتا بحق، وكان حريا بمن رقى مكانتها فى عهد النظام القديم الضائع والمأسوف عليه ، المبادرة بالجلوس، بما يليق بابنة حاكم أورليانز الشابة، إلى المأدبة الشهيرة التى حملت منها إلى فراشها، وهى تهرف بالكلمات، وقد أثملها الشراب، وغابت عن الوعى .

حدث بغتة، وخلال لحظات بدا الراهب رافعا يديه، فانحنى الواعون، بترقب وقور، لصلاة الشكر التالية، وظهرت تحت حنية الباب البعيد فى أقصى الصالة، سيدة

مسنة مشيبة الرأس، مقوسة الظهر، تتوكأ على عكاز خشبى، ورفعت العصا وأشارت بها نحو الملكة وقالت :

" عليك غضب الله ولعنته، يا امرأة لاتعرف معنى الرحمة، يامن ذبحت حفيدى البريء، فأسكنت الوحشة قلب امرأة مسنة، عدمت سواه، وكان الصديق والولد ومناط الراحة والسكينة لى فى هذا العالم !"

أشار كل الحاضرين بوجل شديد ، إلى أنفسهم بعلامة الصليب، فاللعنة عند هؤلاء شيء رهيب ، لكن الملكة نهضت من مكانها، ونذر السوء فى عينيها ، وأصدرت هذا الأمر الصارم :

" اقبضوا عليها ! وضعوها فوق خازوق !"

غادر الحراس أماكنهم لتنفيذ الأمر. وكان من الخزى أن يرى المرء شيئا بهذه الوحشية . ما عسى المرء أن يفعل ؟ رمتنى ساندى بنظرة، عرفت منها أن لديها إلهاما آخر ، قلت:

" افعلى ما تشائين "

نهضت من مكانها ، والتفتت إلى الملكة فى لحظة . أشارت إلى ، وقالت :

" سيدتى، إنه يقول إن هذا لايصح . ألغ الأمر، وإلا أباد الحصن على من فيه، ليصبح أثرا بعد عين !"

اللعنة، أى اقتراح مجنون هذا الذى ألقى على كاهل المرء به ! ماذا إذا الملكة :

لكن شعورى بالرعب تلاشى، وزال الهلع، لأن الملكة انهارت، ولم تبد مقاومة تذكر، بل أشارت من فورها بوقف ما أمرت به ثم تداعت إلى مقعدها . اعتدلت فى

جلستها عند بلوغه . وكذلك الكثير. نهض الجمع ، وألقوا بالمراسم التقليدية أدراج الرياح ، واندفعوا نحو الباب كالرعاع، لتنقلب من تدافعهم المقاعد ، وتتكسر الأوانى الفخارية، ويزاحم بعضهم البعض، دفعا بالأكتاف لشق طريقهم إلى الخارج بصعوبة جمة، بعد أن شغل الجميع كل سبل الخروج، وكل ذلك قبل أن أبدل رأيى، وأحيل الحصن بنفخة واحدة إلى ساحات معتمة من الأرض البوار . لا بأس ولا تثريب فى ذلك، لأنهم جمع من المصدقين بالخوارق، والكل يدرك ذلك.

كانت الملكة من الرعب والانكسار حتى أنها تراجعت عن أمرها بشنق الملحن دون أن تبادرباستشارتى، فأسفت لحالها، وكان سيشعر أى شخص آخر بمشاعرى نفسها، لأنها كانت تعانى فى هذا الأمر الأمرين، لذلك رغبت الميل إلى الاعتدال ، بعد أن زالت الرغبة لدى فى الوصول بالأمور إلى نهاياتها الدموية . قلبت الأمر مليا ، وخلصت إلى أن يؤمر الموسيقيون، فى حضورنا بعزف مقطوعة "فى المستقبل القريب " مجددا، ففعلوا ما أمروا به . أيقنت أنها كانت على صواب، وأعطيتها الإذن بشنق أفراد الفرقة عن بكرة أبيهم . كان للتخلى عن الصرامة بعض الشىء من جانبى ، أثره الطيب على الملكة. يستفيد رجل الدولة قليلا من ممارسة السلطة التحكمية التى يمارسها لابسوالدروع، فى كل ما يشاركون فيه من مناسبات ، لأن تراجعه يجرح كبرياء مرؤوسيه، و ينحو بالتالى إلى تراجع سلطته . فالتنازل البسيط من آن لآخر، يعد سياسة حكيمة ما لم يتسبب فى أذى لأحد .

عاد الآن للملكة رونقها ، وبدت سعيدة بكل المقاييس، وبدأ عقارها مجددا يأتى مفعوله تلقائيا، فجعلها تستعيد زخمها مجددا . أقصد أنه أعاد إليها نبرة صوتها اللحنية، وطلاقة لسانها، فأى محدثة بارعة هى ! لست بالذى يشير إلى أن الوقت الآن متأخر، وأننى متعب ويغالبنى النعاس. وددت الذهاب إلى الفراش، حين تتاح لى الفرصة . وعلى الآن تحمل ذلك حتى النهاية، فلاسبيل أمامى غير ذلك . هكذا

تواصل تردد رنين نبرتها، فى هدأة الحصن الرهيبة، حتى أتى صوت قادم من أسفلنا، من مكان بعيد غائر فى العمق، أشبه بصراخ مكتوم، ينم عن ألم رهيب تخدر له جسدى، فتوقفت الملكة عن الحديث وأشرقت عيناها بالبهجة، وأحنت رأسها كطير يطرق إصغاء. شق الصوت طريقه مجددا عبر السكون.

قلت: "ما الخطب؟"

" تلك نفس عنيدة، ومثابرة حقا. مر على ذلك ساعات الآن."

" مم تعانى؟ ".

"من أداة التعذيب. هيا - سأريك مشهدا رهيبا. إنه لا ينطق بالسر حتى الآن. وسوف تراه يمزق إربا ".

يالها من رقطاء ناعمة، فضلا عن بالغ سكينتها ورباطة جأشها، فى حين كانت أوتار ساقى السفلية تؤلمنى، مجاراة لما يعانيه الرجل من آلام. سرنا خلف حراس يلبسون الدروع، ويحملون المشاعل، عبر دهاليز لها رجع صدى، وهبطنا درجا حجريا رطبا مشبعا بقطرات الماء، يفوح بالعطن، ودهور من ليلة حبيسة — فى رحلة طويلة باردة ملتبسة، لم يقصر منها أو يبثها بالبهجة، حديث الساحرة عن هذا المعذب المسكين، وما ارتكب من جرم. كان قد اتهم من واش مجهول الهوية، بقتل مهر تابع للخاصة الملكية، قلت:

"ياصاحبة السمو، إن شهادة الواشى باطلة، ومن العدل مواجهة مقدم الدعوى بالمتهم ".

" لم يخطر ذلك ببالى، وذلك لايحمل أى قدر من الأهمية. وإننى لن أقدم على ذلك، لأن المدعى كان قد وفد فى الليل وعلى وجهه قناع، وأبلغ الحارس بالأمر، ثم رحل عن المكان من فوره، لذلك لم يتعرف عليه الحارس ".

" وهل هذا المجهول ، هو الوحيد الذى رأى قتل المهر ؟ "

" عجبا، لم يشهد القتل أحد، سوى أن هذا المجهول ، قد رأى هذا الخسيس الوقح ، يقف بالقرب من المكان الذى يرقد فيه المهر، فجاء بدافع الولاء وأبلغ عنه الحارس " .

" أكان المجهول قريبا من المهر أيضا، ألا يحتمل أن يكون هو القاتل ؟ يبدو أن دافع الولاء لديه من خلف قناع، يثيرحوله مجرد ظل من شك على الأقل . ولكن ما دافع جلالتك فى تعذيب هذا السجين ؟ وأين الدليل ؟ "

" وهو بدوره لن يعترف، فيواجه بالتالى حكم الإعدام . أهدر القانون حياته بسبب جرمه، وأننى أرى يقينا أن يواجه القصاص ! لكن ما يشغل بالى ، أن أسمح بقتله دون اعترافه بالذنب ، أو خلاصه من جرمه . كلا، لقد ارتكبت حماقة تدخلنى جهنم، لمنحه فرصة كافية ".

" لكن هبى، صاحبة الجلالة ، أنه لم يعترف ؟"

"سنبحث الأمر آنئذ. إننى أعذبه عذابا شديدا ، وهو لا يقر بجرمه، ربما يبين ذلك أنه ليس لديه ما يعترف به، أتسلم جدلا بأن هذا كاف ؟

وأننى لن أرمى باللعان بسبب رجل ، يمسك عن الاعتراف، لأنه ليس لديه ما يعترف به، وبذلك أكون فى مأمن من ذلك ."

كانت تلك إشارة إلى إصابة هذا العصر بجنون مزمن. لم تجد محاججتها شيئا. ولا مجال لجدال بثقافة التعصب، التى يبلونها، كما يبلى الموج الجرف، ولا تختلف ثقافتها عن الآخرين. يعجز أكثر العقول فطنة فى هذا البلد عن إدراك عوار موقفها.

دخلنا غرفة التعذيب، فرأيت ما لن يغيب عن بالى، وإن كنت آمل نسيانه فى العاجل القريب . يرقد شاب فارع القامة، مجردا من الثياب، ملقى على ظهره فوق قفص، قيد معصماه وكاحلاه بحبال مشدودة إلى آلة تدار باليد من كل طرف . بدا عليه شحوب تام، وتلوت معالم وجهه ووسمت بألم التعذيب. تساقطت قطرات العرق من جبهته. انحنى على كل جانب منه راهب ، فى حين وقف الجلاد جانبا، وثبت الحراس فى أماكنهم، وانتصبت المشاعل الداخنة، فى تجاويف عبر الجدران، وانزوت فى ركن الحجرة شابة هزيلة، جعد الكرب قسمات وجهها، وفى عينيها نظرة استسلام وخضوع، وفى حجرها يرقد طفل رضيع راح فى سبات عميق . بمجرد أن عبرنا عتبة الباب، خف الجلاد لإدارة آلته، التى انتزعت صرخة ،أطلقها السجين والمرأة فى آن، لكنى هتفت به أن توقف، فأرخى الحبل، ولم ينتظر الجلاد ليتبين هوية المتحدث. لم أكن لأدع هذا الرعب يستمر، فمجرد رؤيته، ربما كانت تودى بى. طلبت من الملكة أن تسمح بإخلاء المكان، والسماح لى بالانفراد بالسجين للحديث معه ، وحين أبدت اعتراضا، قلت لها بصوت خفيض، بأننى لا أريد إثارة مشكلة أمام الخدم، ولكنه حرى بى اتباع الوسيلة التى أرغبها، فأنا نائب الملك آرثر، والمتحدث باسمه . أدركت من جانبها ضرورة التراجع، كما طلبت منها أن تعرف هؤلاء بهويتى ، وتتركنى بعد ذلك . اعترضت فى البداية ، لكنها أذعنت للأمر، حتى أنها تجاوزت معى بأكثر مما عنيت بطلبه، وتبين أن رغبتها فى البقاء كانت لدعمى بسلطانها فحسب، لكنها قالت:

" ستفعلون كل ما يطلبه هذا السيد . إنه الزعيم " .

كان لهذه العبارة يقينا وقع السحر عليهم ، وتستطيع أن تدرك ذلك من تململ هؤلاء الجبناء وبرمهم . اصطف حراس الملكة، ورحل الجميع عن المكان، بصحبة حاملى المشاعل، وأثاروا أصداء فى أنفاق الكهف، بوقع أقدامهم المستمر والمنتظم . خلصت السجين من آلة التعذيب، وأرقدته على الفراش، وطببت جروحه بالمطهرات، وسقيته نبيذا . زحفت المرأة نحونا لتتبين ما يحدث بشغف وحنان،

يصاحبها خشية وتردد، كمن يخشى نفورا وصدا، وحاولت على استحياء مس جبهة الرجل، وسرعان ما ارتدت إلى الوراء، وبدا عليها الهلع، حين التفت إليها عفويا فى مشهد مثير للشفقة.

"يالهى، أمسكى بشعره كما يحلو لك يافتاة . افعلى مايحلو لك ولا تأبهى لوجودى . . " عجبت لعرفان الحيوان الوديع فى عينيها، حين يدرك منك حنوا نحوه وشفقة به . نحت الطفل جانبا، وانحنت على الفور بوجنتها نحو الرجل ، ويدها تداعب شعره، ودموع الفرح تسيل منها . استعاد الرجل عافيته، وبدأ يلاطف بنظراته زوجته، و كان ذلك ما تمكن من القيام به. رأيت أننى قد أستطيع الآن إخلاء الخدم تماما، ففعلت، أخليته إلا منى والعائلة . قلت من ثم :

" الآن ياصديقى ،أطلعنى على أمرك ، فقد علمته من الطرف الآخر " .

حرك الرجل رأسه بما يعنى الرفض . لكن المرأة بدت منشرحة، و تبدى لى رضاؤها بأى اقتراح . أضفت :

" أتعرفنى ؟"

"أجل ، فإنك شهير فى كل ممالك آرثر " .

" لو كان صيتى قد بلغك على نحو صحيح طيب، فإنت فى حل من أن تتكلم."

تدخلت المرأة باهتمام :

"آه ،سيدى المهذب، حثه على ذلك ! فإنك تستطيع . آه ، إنه يعانى الكثير، يعانى من أجلى، من أجلى ! كيف يمكننى تحمل ذلك ؟ فليتنى أراه يموت، ميتة سريعة رحيمة، آه، هوجو، لا أقوى على تحمل هذا المصاب ."

ثم هوت على قدمى تندب وتنتحب ، وتناشدنى دون توقف، فيم تناشدنى ؟ إنها تناشدنى قتل الرجل؟ لم أستطع مطلقا تحمل أمر كهذا . لكن هوجو قاطعها قائلا:

" اهدئى ! إنك لاتدركين معنى ما تطلبينه . أأحرم من أحب من الظفر بميتة رقيقة ؟ وددت لو عرفتنى جيدا ".

قلت: " حسنا، لايمكننى التوصل إلى نتيجة، لقد صار الآمر ملغزا الآن "

" أه، سيدى العزيز، لامفر من دفعه إلى الكلام ! تأمل قدر ما يسبب هذا العذاب من ألم لى ! أوه، إنه لايريد النطق بشيء ! مع أن السكينة والإبلال، يكمنان فى ميتة سريعة ، مباركة "

" بماذا تهرفين؟ إنه سوف يخرج من هنا حرا معافى البدن، ولن يموت " .

تهلل وجه الرجل، واندفعت المرأة نحوى، فى شعور مباغت بالبهجة، وهتفت:

"هاقد نجا، هذه كلمة الملك، بلسان خادم الملك ! الملك آرثر، الذى توزن كلمته بالذهب " .

"حسنا، أتعتقدين إذن أنه بعد هذا كله يمكن الوثوق بى . لم لم تفعلى ذلك فى السابق ؟"

"و من ذايرتاب ؟ لست أنا، أو هى ".

" حسنا، لماذا إذن لم تخبرنى بقصتك ؟"

" إنك لم تعد بشيء ، وإلا اختلف الأمر ".

" أدرك ذلك، أدركه ..... وإننى أيضا أعتقد بعد ذلك كله بأنى لست ملما بالأمر . لقد تحملت أنت العذاب ، ورفضت الاعتراف، وهذا يوضح تماما لمن يحمل أقل قدر من الذكاء، بأنه ليس لديك ما تعترف به "

" يا إلهى، أنا ؟ كيف هذا ؟ أنا قاتل المهر !"

" أنت ؟ أوه، ياإلهى، فى ذلك خلط رهيب للأمور "

" يا إلهى، توسلت إليه على ركبتى، لكى يعترف ،ولكن "

" أنت ! هكذا الأمر يزداد غموضا . وما السبب الذى يجعلك تفعلين ذلك ؟ "

" ربما يؤدى الاعتراف إلى موته، ميتة سريعة، ويرفع عنه كل هذا العذاب الأليم".

"حسنا .. أجل، فهناك مبرر لطلبك . لكنه لم يكن يرغب ميتة سريعة ."

"هو ؟ عجبا، مؤكد أنه كان يرغب فى ذلك ".

" لابأس ، فلماذا إذن لم يعترف ؟"

"آه، سيدى الحبيب ، أفعل ذلك وأترك زوجتى والصغير دون مأوى أو مأكل".

" آه، أى قلب قد من ذهب ، إننى أدرك الأمر الآن ! فالقانون الصارم ينص على الاستيلاء على ممتلكات المذنب ، ويترك زوجته والأيتام نهبا للفقر . يمكنهم تعذيبك حتى الموت ، ولكن دون تهمة أو اعتراف ، ولا يمكنهم سرقة زوجتك وطفلك . إنك تصمد أمامهم صمود الرجال، وأنت أيتها الزوجة والمرأة الوفية، كان يمكنك شراء عتقه من التعذيب، مهما كلفك هذا من موت بطيء وفاقة — لابأس، فإن أمرا كهذا مثلا يجبر المرء على التفكير فيما يستطيع جنسك أن يفعله، حين يصل الأمر إلى التضحية بالذات . سأضمكما للعمل فى مستعمرتى، سوف تروقكما الحياة هناك، إنه مصنع سأحول فيه تلك الكائنات الآلية الوضيعة إلى بشر.

الفصـــل الثامن عشر

فى سجــون الملكـــــة

حسنا ، لقد سويت الأمر برمته، وأعدت الرجل إلى بيته . كنت أتوق إلى وضع الجلاد فى آلة التعذيب، ليس لبراعته فى وظيفة توقيع الالآم بالجسد أو وقفها ــ فمن المؤكد ألا يعيبه أداؤه عمله على الوجه الصحيح ــ بـل لأرد لـه إسرافـه فى اسـتعمال القسوة مع تلك المرأة الشابة، وإيلامها بطرق أخرى . أخبرنى الرهبان بهذا ، وكان من فرط حماسهم رغبتهم الشديدة فى إنزال العقاب بـه . كـان شيء مـن هـذا النـوع مـن الرفض يطرأ من آن لآخر ، أقصد فى سلسلة متعاقبة، تبين أن الرهبـان ليـسوا جميعـا كذابين ، ويتسمون بالأنانية، لكن كثرة منهم ، بل حتى الغالبية، ممن سـعوا فى الأرض بين أفراد البشر العاديين ، اتسموا بالصدق والاستقامة، ومنهم من تفـانوا فى التقليـل من معاناة البشر وما يواجهونه فى الحياة من عقبات وصعاب . الحاصل، أن هذا الأمر لا قبل لى به ، لذا فقد كان من النادر أن انفعـل لـه ، وإذ حـدث لايكـون إلا لـدقائق معدودة ، فليس من طبعى الاهتمام كثيرًا بأشياء لاقبل لى بمعالجتها . لكـن الرغبـة فى ذلك تنعدم لدى ، لأن فى ذلك ما يدفع الناس إلى بقـاء انـصياعهم لكنيـسة الدولـة . حيث حرى بالمرء أن يؤمن لامحالة بعقيدة ما ، لكننى أرى أن تقسيم هذه العقيدة إلى أربعين طائفة حرة، لتراقب كل الأخـرى، هـو الأسـلوب نفـسه المتبـع فى الولايـات المتحدة خلال فترة وجودى بها . ومن السوء تركيز الـسلطة فى أداة سياسـية واحـدة، وكنيسة الدولة مجرد أداة سياسية ، أنشئت لغرض الاحتضان والتدليل، وبقيـت لهـذا الغرض ، فهى خصم لحرية البشر، كما تفعل من السوء ما لا قبـل لأحـد بـه، فى شـق

الصفوف، والتشرذم . ليس ذلك من الشريعة أو الدين فى شيء، وتلك وجهة نظرى ، ورأيى الشخصى، وأنا مجرد فرد، فرد عادى، وهذا الأمر منوط بالبابا فحسب بحثه ، وليس بمن أعلى أو أدنى مرتبة .

الحقيقة أننى لم أقو على شد الجلاد على آلة التعذيب ، أو بحث شكاية الرهبان الوحيدة منه. إن الرجل يستحق العقاب بطريقة أو بأخرى، ولذا فصلته من عمله ، وجعلته قائدا للفرقة الموسيقية، حتى يكون أول من يعدم ، توسل إلى أيما توسل، وقال إنه لاقبل له باللعب على الآلات الموسيقية ، وهى حجة مقبولة، ولكنها جد ضعيفة، حيث يجهل أهل المدينة كلها كيفية العزف عليها .

ثارت الملكة فى صباح اليوم التالى ثورة شديدة، حين اكتشفت أنها لن تستطيع إزهاق روح هوجو ، أو الاستيلاء على ممتلكاته. لكننى أخبرتها بأنه حرى بها أن تتحمل هذه المحنة، لأن مسئوليتها عن حياة هذا الرجل وممتلكاته مكفولة ولا خلاف عليها، إلا أن هناك ظروفا طارئة ، لذا فإننى بالنيابة عن الملك آرثر، قد عفوت عنه. لقد خاض المهر فى أرض هذا الرجل، وقد قتله فى فورة انفعال لحظى ، ليس بهدف الظفر به، وقد حمله إلى الخاصة الملكية ، بأمل استحالة الكشف عن الفاعل . تبا لها، لم أستطع إقناعها، بأن انفعال اللحظة، يعد ظرفا مخففا فى جريمة قتل إحدى الطرائد، أو الأشخاص، فكففت عن ذلك، وتركتها مقطبة الجبين . ظننت أننى سأوضح الأمر حين أشير إلى أن انفعالها اللحظى، فى حادثة قتل الغلام، قد خفف من ذلك الجرم . قالت مستغربة :

"جرم ! عم تتحدث ! عفوا ، أى جرم ! إننى سأدفع عنه الفدية أيها الرجل!"

عجبا، لاطائل من تشويش ذهنى وإياها . إنها الثقافة، والثقافة هى المحك، الثقافة هى كل شيء للإنسان . إننا نتحدث عن الطبيعة، ياله من حمق، ليس هناك شيء يحمل اسم الطبيعة، فما نطلقه على هذا الاسم الخادع ليس إلا إرثا وثقافة، إننا لانملك

أفكارا تنبع من ذواتنا ، ولا آراء تخصنا، لقد نقلت جميعها إلينـا، و بثـت فينـا، فـذلك الذى تأصل فينا، والذى يتساوى أن يكون قابلا للتصديق بالنـسبة لنـا أو العكـس، يمكن إخفاؤه أومواراته فلا وزن له. وكل ما عدا ذلك هو ذرات أسهم فى وجودهـا، وورثناها عن أجيال متعاقبة تعـود لملايـين الـسنين، تعـود لعهـد آدم وسـلالته أو إلى جندب أو قرد تطور عنه جنسنا تطورا مضنيا عقيما لاطائل من ورائه . أمـا بالنـسبة لى فكل ما أفكر فيه فى هذه الرحلة الطويلة المضنية، أن التنقل المحزن بين عوالم سرمدية هو استطلاع ومعايشة حياة تتسم بالطهر والنقاء والسمو، بكل ما يحمل ذلك الانتقال من تواضع ، وأن بقاء ذرة ميكروسكوبية واحدة بداخلى، يعد تأصـيلا لى ، عـسى أن تهبط بقية الذرات فى قعرجهنم فتلقى ترحيبا هناك، و ذلك كل مايشغلنى .

كلا ، وتبا لها ، فإن عقلها سليم و لاتعدم الـذكاء، لكنهـا ثقافتهـا هـى سـبب غبائها، تلك وجهة نظر قادمة من عديد من القرون اللاحقة . أن تقتل غلامـا صـغيرا ليس بجرم، هذا هو الحق لديها، وقـد شـعرت جـراء هـذا بالارتيـاح ، غـير مدركـة لوقوعها فى الإثم. تلك ثمرة أجيال جرى توجيهها باعتقاد معيب ولا سبيل لدحضه، مفاده أن قانون الشريعة قد أجاز لها أن قتل أحـد رعاياهـا وقـتما شـاءت ، حـق مـن حقوقها الشرعية الكاملة .

حسنا، جدير بنا منح الشيطان حقه كاملا . لقد استحقت الإطراء فى أمر واحد فحسب ، حاولت التعبير عنه ، ولكن الكلمات توقفت فى حلقى . إنها تمتلك حق قتل الصبى، لكنها لم تكن مـن الحكمـة فى التعهـد بفدائـه . ذلـك قـانون وضـع لـبعض الآخرين من البشر ، وليس لها . لقد أدركت يقينا، أنها بفداء الغلام بالمال ، إنما تؤدى عملا عظيما يتسم بالبر ، وعلى أن أقر بصراحة تامة، بما يتلاءم وهذا الموقف، لكنى لا أقوى على ذلك، لأن فمى قد تأبى على . لا أستطيع التوقف عـن تخيـل، تلـك الجـدة البائسة، كسيرة الفؤاد، وهذا الكائن الصغير الوديـع يرقـد مـضرجا فى دمائـه ، وقـد ارتبطت دماؤه الزكية بما لديه من أبهة متواضعة وخيلاء. فكيف تفتديه بالمـال ؟ ولمـن

تقدمه؟ هكذا يتضح تماما، أن تلك المرأة، وقد وصلت ثقافتها فى الحياة إلى هذا المستوى المتواضع ، تستحق الإطراء والثناء، وأرانى بدورى ، وحسب ثقافتى، عاجزا عن النطق بها . كان أفضل ما يمكننى عمله، إن جاز التعبير، الإستعانة فى إطرائها بمصدر خارجى، والمؤسف أنه ، مصدر أصيل:

" سيدتى، إن شعبك فى هذا الشأن سوف يثنى عليك " .

هذا صحيح ، لكننى قصدت بذلك أن أقوم بشنقها ذات يوم ، لو قدر لى العيش. كانت بعض تلك القوانين بالغة السوء، و كلها لاتصلح . يمكن للسيد قتل عبده دون سبب، بدافع الازدراء أوالغل، أو تزجية الوقت، كما اعتدنا رؤية صاحب سلطان يفعل ذلك بعبده، أو بالأحرى بأى إنسان. يمكن لسيد من السادة قتل شخص آخر من العامة، ثم يفتديه بالمال أو عينا. يمكن للنبيل قتل نبيل آخر، دون فدية، وذلك بنص القانون، ولكن يدرج ذلك فى قضايا الأخذ بالثأر، حيث يمكن لأى شخص منهم ، قتل الآخر، عدا أن يقوم بذلك شخص من العامة أو عبد ، فهذان لايتمتعان بأى امتيازات، ولو أقدما على القتل فتلك جريمة، والقانون لايبيح القتل . يعجل بنهاية القاتل، وعائلته أيضا، إقدامه على قتل شخص ينتسب إلى الطبقة الراقية . وإذا قام أحد العامة بخدش لايفضى إلى موت أو ضرر ، إزاء من يحمل من النبلاء لقب "صاحب السمو "، فإن جزاءه من جنس العمل ، حيث يجر فى أسمال ويمزق إربا بالجياد ، ويحضر الجميع لمشاهدة العرض، فيتبادلون القفشات، ويقضون وقتا طيبا، أما سلوك بعض الحضور من ذوى الحظوة فيتسم بالصفاقة ولا يصلح للنشر ، ويشبه فى ذلك ما ينشره كازانوفا المضحك فى كتابه الخاص بتمزيق أوصال غريمه الخسيس الرعديد ، لويس الخامس عشر .

لقد عانيت الكثير فى هذا المكان المروع خلال الفترة تلك ، ما رغبنى فى الرحيل، لكننى لم أقو على ذلك، فقد انشغل ذهنى بما جعل ضميرى لايكف عن

إيلامى، وحال بينى وبين النسيان . لو قدر لى إعادة صنع بشر ، سأجعل منه إنسانا معدوم الضمير . فالضمير أكثرالمكدرات ارتباطا بالبشر، ومع أنه يقينا يحمل من الخير الكثير، فإن هذا ليس بكاف على المدى البعيد، وسيكون من الأفضل كثيرا أن يحمل خيرا أقل وارتياحا أكبر. لايزال هذا رأيى، وأنا مجرد فرد، أما الآخرون فمع قلة خبرتهم ، فإن الأمر يختلف لديهم ، ولهم الحق فى إبداء آرائهم . أما أنا فمتمسك برأيى هذا، وقد ظللت أراعى ضميرى لسنوات عدة، وأعلم أنه كان أكثر مدعاة للقلق والإزعاج من أى شيء اعتدته. أفترض بداية أننى فزت به، إذ إننا نفوز بها لدينا من أشياء ، ولكن من الحمق أن ندرك الأمر على هذا النحو. فإذا تفحصنا المسألة بطريقة مغايرة، أدركنا قدر ما تحمل من سخف ، حيث إنه إذا كنت أمتلك سندانا للأذن، فهل يعنى ذلك أننى ظفرت به ؟ كلا بالطبع . ولكنك حين تقلب الأمر، لن تجد فارقا حقيقيا بين الضمير وسندان الأذن، وأقصد من حيث الشعورالراحة، وقد لاحظت ذلك فى مناسبات كثيرة. ثم إنه يمكنك تحليل السندان بالأحماض، حين لاتكون لديك قدرة على تحمله ، لكنك لاقبل لك بالتخلص من الضمير، لأننى لاأزال على الأقل أجهل وسيلة يمكن بها كف ضمير عن العمل.

كان هناك ما وددت عمله قبل رحيلى، لكنه أمر مكدر ، آثرت ألا أقدم عليه. الحقيقة، ظل هذا الشيء شاغلا لى طوال الصباح . كان يمكننى الإفصاح عنه للملك الشيخ، ولكن ماجدوى الإفصاح ؟ إنه بركان خامد، كان نشطا فى زمانه، لكن ناره قد خبت، خلال هذه الفترة الطويلة، وصار الآن مجرد كومة عظيمة من الرماد، رقيقة بحق، وملائمة تماما لإنجاز مهمتى، دون شك، لكنه عصية على الاستخدام. لم يكن لهذا الذى يدعى " ملكا " جدوى تذكر، فالملكة صاحبة الأمر والنهى هنا. إنها فيزوفيسية(*). يمكنها كسب مودتك بطهى سرب من العصافير لكنها قد تبادر بعد ذلك إلى انتهاز هذه الفرصة السانحة لتطلق نيرانها وتحرق مدينة المدن.

(*) نسبة إلى بركان فيزوفيوس .

رغم ذلك، فكرت فى الأمر مليا ،كما يحدث فى الغالب حين تتوقع الأسوأ، فتكون النتيجة فى النهاية، على غير هذا القدر من السوء. هكذا حزمت أمرى ، وعرضت المسألة أمام صاحبة الجلالة. ذكرت أننى أصدرت عفوا عاما عن سجناء كاميلوت والحصون المحيطة به، وإننى بموافقة منها أرغب فى فحص مجموعتها النادرة أو طرفها البديعة، أو على الأصح، أسراها فى السجون. قاومت مطلبى فى البداية ، وكنت أتوقع ذلك . لكنها رضخت فى النهاية، وتوقعت ذلك أيضا ، ولكن ليس وجه السرعة. قضى هذا الأمر على ما بى من قلق. أمرت بإحضار حراسها ومعهم المشاعل، ومضينا رأسا إلى داخل الزنازين. كانت تقع أسفل أساسات الحصن ، وهى فجوات صغيرة محفورة فى الصخر الجلمود . انعدم الضوء ببعض هذه الزنازن بالكلية. كانت داخل إحداها امرأة، جلست على الأرض ، فى أسمال قذرة، لاتجب سؤالا أو تنبس بكلمة، بل نظرت إلينا، مرة أو اثنتين فحسب، عبر خيوط شعرها المتشابكة، وكأنها تتبين، ما طرأ بالمكان، من أصوات وصور هدمت حلمها الضبابى، المبهم، الذى صار لايفارقها البتة. جلست بعد ذلك محنية الظهر ، لاتبالى بشيء، وقد شبكت أصابعها المغطاة بطبقة من التف فى حجرها، ولم تصدر عنها بعد ذلك أى حركة أو إشارة . بدا فى الظاهر، فى الظاهر فحسب، أن هذه البائسة المعذبة، وهى فى خريف العمر ، تقبع فى المكان منذ تسع سنوات، ودخلته فى سن الثامنة عشرة . كانت من عامة الشعب، وأرسل بها إلى هنا فى ليلة عرسها، السير برويس سانت بيتى، وهو إقطاعى يقيم بالجوار ، وكان أبوها يعمل لديه، وقد قال الإقطاعى فى شأنها إنها ترفض حقه الشرعى، فضلا عن أنها تقابل العنف بالعنف، وأنها قد أراقت نصف مكيال من دمه المحرم إراقته. تدخل الزوج الشاب عندما وصل الأمر إلى هذا الحد، ظنا منه أن حياة عروسه فى خطر، ودفع بالنبيل إلى فناء البيت ، وسط الحضور المهنئين متواضعى الحال الذين أصيبوا بالهلع جراء ذلك ، وتركه هناك ، وقد أخذ من هذه المعاملة الغريبة، وزاد حقده على العريس وعروسه. طلب الإقطاعى المذكور ، الذى انحصر تفكيره فى

زنزانة السجن، طلب من الملكة أن تتولى أمر هذين المجرمين، فوضع الاثنان فى سجنها منذ ذلك الحين، ولم يكن قد مضى على جرمها هذا ساعة واحدة، ولم ير أحدهما الآخر منذ تلك اللحظة . أصبحا من ضآلة الحجم كضفدعين فى صخرة واحدة، بعد أن أمضيا تسع سنوات عجاف كئيبة، يفصل بينهما خمسون قدما، ورغم ذلك لايعرف أحدهما ماإذا كان الآخر على قيد الحياة من عدمه .

كان سؤالها طوال السنوات الأولى، مشفوعا بالتوسلات والعبرات، ما قد يحرك الحجر من فوره، لكن القلوب لم تقد من الحجارة ،كان فحوى السؤال : " أما زال يعيش ؟ " " أما زالت على قيد الحياة ؟" لكنهما لم يظفرا بجواب، ولم يعد السؤال بعد ذلك يتردد مرة ، أو أخرى .

أردت رؤية الرجل بعدما عرفت ذلك كله . بدا فى الستين من عمره ، وهو الذى لم يتعد الرابعة والثلاثين من العمر . جلس فوق كتلة مربعة من الحجر، مطأطئ الرأس، واضعا كفيه على ركبتيه، وقد تدلى شعره الطويل أمام وجهه كهداب، وكان يغمغم بصوت خفيض . رفع ذقنه ورمقنا بتراخ، ينم عن طول تبلد ، كما كانت عيناه تطرفان لخفوت ومض المشعل، ثم أرخى رأسه، وعاد إلى الغمغمة مجددا ، ولم يعد يلقى بالا بنا . كان هناك من الشواهد الكئيبة، ما يثير لواعج الأسى ، فقد ظهرت بمعصميه وكاحليه ندوب، وجروح ملساء قديمة، وقد ربطت إلى الحجر الذى جلس عليه سلسلة ملحقة بأغلال وقيود، لكن هذه الأشياء قد ألقيت على الأرض حسبما اتفق، وران عليها صدأ كثيف . لم يعد هناك حاجة لاستخدام القيود، بعد توقف السجين عن الحركة .

لم أقو على مساعدة الرجل على النهوض من الأرض، قلت إنه يمكننا حمله إليها، فينظر إلى العروس التى كانت يوما أجمل ما لديه فى هذه الحياة، وكانت له اللؤلؤة والجسد الذى قد من قطرات الندى، والرونق الذى صنعته الطبيعة بإتقان

معجز ، فعيناها ليستا ككل العيون، وصوتها يختلف عن كل الأصوات، ونضرتها، وجمالها الغض الأخاذ، وملاحتها، ما جعلها تنتسب بالكلية إلى كائنات من الخيال ، وذلك ماارتآه هو ، وليس الآخرين . ربما يحرك مرآها الآن دماءه الراكدة، مرآها ــــ

لكن ذلك كان مخيبا للظنون . جلسا معا على الأرض ونظر كل إلى وجه الآخر لفترة قصيرة بإبهام واضح، بشيء من فضول عفوى واهن، ثم غض كل طرفه عن الآخر، و أرخيا بصريهما، لتدرك أنهما شردا مجددا، شردا إلى أرض الأحلام القصية ، والظلال التى لانعلم عنها شيئا .

طلبت إطلاق سراحهما، وإيفادهما إلى أقرانهما . لم تظهر الملكة ميلا إلى الموافقة، ليس لأنها أحست فى ذلك وازعا شخصيا ، لكنها اعتقدت أن ذلك لايعنى سوى التقليل من شأن السير بريوس سانس بيتى. لذلك أكدت لها أنه إذا رأى أنه لايستطيع تقبل الأمر ، فإننى أستطيع التعامل وإياه حتى يقبل .

أطلقت سراح سبعة وأربعين سجينا، خارج شقوق الفئران تلك وتركت واحدا فحسب فى الأسر، وهو أحد السادة الإقطاعيين، وقد قام بقتل سيد آخر يمت للملكة بصلة قرابة . كمن الأول للثانى لقتله، لكن هذا الأخير قد تمكن منه وذبحه . لم أبقه مع ذلك فى السجن لهذا السبب، ولكن بسبب تعمده تدميرالبئر العمومية الوحيدة، فى إحدى القرى الفقيرة . أقسمت الملكة على شنقه لقتله قريبها، لكننى لم أسمح بذلك، بل ذكرت لها أننى سأترك لها أمر ذبحه لتدميره البئر، لذلك قررت الأخذ بهذا الاقتراح، فهو خير من لاشيء .

عجبت لتلك التهم البسيطة التى اعتقل بها أولئك السبعة والأربعين ! سجن البعض دون تهم محددة، بل لتهدئة غضب البعض، ليست الملكة من بينهم على الإطلاق، ولكنهم أصدقاؤها . كان ما ارتكبه أحدث السجناء من جرم، مجرد إبداء رأيه فى أمر ما، وقوله إنه يعتقد بأن البشر جميعا سواسية، وأن أحدهم لايختلف عن

الآخر فى شيء، باستثناء ما يلبس من ثياب . قال إنه رأى أنك لو جردت أفـراد الأمـة كلُهم من ثيابهم ودفعت بينهم بغريب، لن يستطيع أحد تمييز الملك من طبيب مدع، أو يفرق بين دوق و موظف فى فندق . يتبين من هـذا أنـه لم يـزل هنـاك مـن لم تتحـول قدراته العقلية، إلى شعور بالبلادة بفعل التنشئة الخاطئة . سرعان ما أطلقت سراحـه ، وبعثت به للعمل فى المصنع .

كانت بعض الزنازن المنحوتة فى الصخر الـصلد تقـع مبـاشرة خلـف واجهـة الجرف، وفى كل منها شق طولي نافذ إلى الخارج ليكشف ضوء النهار، فيكون للسجين بصيص ضوء يأتيه من الشمس المباركة ليهدئ من روعه . بلغت حالة هؤلاء البؤساء حدا كبيرا من السوء، كل على حدة . يمكن للسجين من خـلال هـذا الثقـب المعـتم، والمشرئب بأعلى الجدار الضخم فى الصخرة من الداخل، يمكنه اختلاس النظر عـبره لرؤية بيته الواقع على مرمى البصر فى الوادى، وقد بقى رجل عـلى هـذه الحـال اثنـين وعشرين عاما، يتطلع إلى بيته فى لهفة وشوق، عبر ذلك الثقب . يمكنه رؤية الأضـواء بداخله موقدة بالليل، ويرى فى النهار أشخاصـا فى غـدو ورواح، مـن بيـنهم لاشـك زوجته وأطفاله، مع أنه لا يستطيع تمييزهم، من تلك المسافة . لاحظ على مدار السنين أفراحا تقام هناك، وجرب أن يشاركهم البهجة، وكان فى حيرة مـن كنهـا أحفـلات زفاف، أم مناسـبات أخـرى . ورأى الجنـائز فـانفطر قلبـه حزنـا . اسـتطاع أن يميـز التابوت ، لكنه لم يستطع تقدير حجمه، وعجز عن معرفة ما إذا كان التابوت لطفـل من أطفاله أو لزوجته. كان يستطيع رؤية مـا يـشير إلى موكـب جنـائزى ، يـسير فيـه الرهبان والمشيعون فى وقار، ويحملون جميعـا معهـم الـسر . لقـد خلـف وراءه خمـسة أطفال وزوجة، و رأى فى الأعوام التسعة عشر، خروج خمس جنائز، ولم يقترب شكل إحداها من الحد الذى يمكنه من الحكم على أن المتوفى أحد خـدم البيـت ، لقـد فقـد خمسة من كنوزه إذن ، ولابد أن واحدا منهم باق على قيد الحياة، كنزا واحـدا مجهـول

الهوية الآن، ولكن أيهم ؟ أهى الزوجة أم أحد الأبناء ؟ ظل ذلـك الـسؤال يؤرقـه، بالليل والنهار، فى الـسبات واليقظـة. الحقيقـة أن تركيـز اهتمامـك فى شيء وتعلقـك بنصف شعاع من ضوء، وأسرك فى زنزانة، يثبتك كثيرا ، ويحفظ عقلك مـن الـضياع. ظل هذا الرجل بحالة طيبة حتى اللحظة . انتهى بمرور الوقت من سرد قصته المؤلمة، وكنت فى الحالة الذهنية نفسها التى يمكنك بدورك أن تمـر بهـا، لـو أن لـديك نـسبة معقولة من فضول ، أو بالأحرى، أننى كنت متحرقا مثله لمعرفة أى من أفـراد العائلـة لايزال على قيد الحياة، لذلك اصطحبته إلى بيته بنفسى، وكـم كـان الأمـر يحمـل عـلى المباغتة والحيرة، طوفان وسيل منهمر من مشاعر طاغية بالغبطة، وشلالات نياجرا من دموع الفرح، وأقسم بجورج أننا عثرنا على السيدة التى بلغت الخمسين كأنها فى ريعان الشباب، وصار الأطفال رجالا ونساء، وقد تزوج البعض ، ومارس حياته الزوجيـة، ولم يمت منهم أحد ! وقد لفقت الملكة أمر تلك الجنازات لتحرق قلبه، بـسبب مـا فى قلبها من نوازع للشر، وبـسبب كراهيتهـا لـه، وكانـت فكـرة عبقريـة ، فقـد تركـت حساب تلك الجنازات مفتوحا، لتستنفد ما لدى هذا الكهل من قدرة على التخمين .

لكن تلك القدرة فى رأيى لم تهلك البتة . لقد كرهته مورجان لافاى من صـميم قلبها، ولم تخف مشاعرها تجاهه . كان قد تورط فى جرم، نـتج عـن غـير قـصد منـه ، وليس عن فساد . حيث ذكر أن لون شعرها أحمر . لابأس فى ذلك فلون شعرها أحمـر بالفعل، ولكن لم يكن من اللائق به أن يذكر ذلك . فإذا شغل أصحاب الشعر الأحمر منصبا رفيعا ، فشعرهم ليس بأحمر، بل أحمر مائل إلى القتامة.

تصور أنه كـان مـن بـين هـؤلاء الـسبعة والأربعـين سـجينا، خمـسة، لم تعـد أسماؤهـم، أو تواريخ حبسهم، أو جرائمهم ذاتها، معروفة بعد !

كانوا أربعة رجال وامرأة ، صاروا الآن شيوخا محنيى الظهور ، مجعدى البشرة ، فاقدى العقول، لقد نسوا بدورهم تلك التفاصيل منذ زمن طويل، وما لديهم فى كل

الأحوال ، من أفكار مشوشة عن ماضيهم، كان غير محدد المعالم، ولم يكن هناك ما كرروا ترديده مرتين فى اليوم نفسه . تعاقب عليهم رهبان ، مهمتهم أداء الصلوات اليومية مع المساجين، وتذكيرهم بأن الله قد قدر لهم البقاء هناك، لحكمة أو لأخرى، ويعلمونهم أن الصبر، والهوان ، والخنوع للظالم، هو مايحب الله أن يراه فى أفراد الطبقة الأدنى، وكان لدى هؤلاء الرهبان روايات قديمة، حول هذا الحطام من الشيوخ البؤساء، ولا شيء لديهم سوى تلك الروايات، فهى لا تتضمن المزيد، وقد خلت من الأسماء ، ومما ارتكب من جرائم ، غير معروف منها سوى مدد الحبس . حتى مع الاستعانة بالروايات، كان الشيء المؤكد الوحيد ، هو أن الخمسة لم ير أحدهم ضوء النهار لخمسة وثلاثين عاما، ولا يمكن تخمين كم طالت العزلة بالفعل . لم يعرف الملك أو الملكة ، شيئا عن تلك الكائنات البائسة، عدا أنهم ورثوا إياهم كما يورث المتاع، مع إرث العرش، من حكم سابق . لم ينقل شيئا من تاريخهم مع هوياتهم ، وبذا اعتبرهم الوارثون بلا قيمة تذكر ولم يعيروهم أى التفات . قلت للملكة:

" لماذا إذن لاتطلقين سراحهم ؟"

كان السؤال ملغزا ،حيث إنها لا تعرف سببا لذلك، ولم يرد هذا الأمر ببالها أبدا . لذلك كانت تحزر القصة الحقيقية، للمتوقع قدومهم إلى سجن الحصن، دون أن تعرف بها . بدا واضحا لدى الآن، أن هؤلاء المساجين كانوا بحسب ثقافتها، مجرد متاع، لا أكثر من ذلك ولا أقل . والحقيقة أننا حين نرث متاعا، لايطرأ ببالنا أن نتخلص منه، حتى لو كان فى نظرنا قليل القيمة .

حين أطلقت سراح هذا الركب، يسيح فى العالم الفسيح، فى ضوء نهار ما بعد الظهيرة، عصبت فى البداية عيونهم، رأفة بهم، لطول ما لم تعتد عيونهم الضوء، وكانوا مشهدا يستحق التمعن .. . مشهدا لمجرد هياكل عظمية، أو لأشباح ناحلة، أو

عفاريت مثيرة للشفقة والأسى، فالجميع هم أكثر من أنعم الله والكنيسة على الملكية من أبناء شرعيين .غمغمت طواعية:

" أود لو صورتهم "

ترى أمامك ذلك النوع من البشر الذين لايعترفون مطلقا بأنهم لايعرفون معنى لما يجد من كلمات طنانة.

إنهم كلما ازدادوا جهلا، زاد إحساسك بالشفقة نحوهم، حتى إنك تتظاهر بأنك لن تطلق النار فوق رؤوسهم. كانت الملكة تنتمى إلى هذا الفصيل، حيث تحول دوما أخطاءها الساذجة ، إلى الأكثر سذاجة بمحاولة إضفاء المنطق . ترددت لحظة، ثم أسفر وجهها عن إدراك مباغت وقالت: إنها ستفعل ذلك إكراما لى .

قلت فى نفسى :هى؟ وما الذى يجعلها ملمة بالتصوير الفوتوغرافى ؟ لكن الوقت لم يكن يسمح بالتفكير فى الأمر .حين تطلعت حولى، وجدتها تتقدم الركب ، وفى يدها بلطة .

مؤكد أن مورجان لافاى شخصية جد غريبة . رأيت أنواعا كثيرة من النسوة فى زمانى، لكنها تأتى على القمة فى هذا السياق. وبالقدر ما فاقت هى تلك السلسلة المنتقاة. لم تكن تعرف عن تصوير موكب بأكثر مما يعرفه أى حصان، ومع أن الشك يساورنى ، فقد صارت مثله تماما، وهى تحاول التصوير بالبلطة .

الفصل التاسع عشر

المهنة : فارس متجول

فى اليوم التالى ، وفى صباح يوم مشرق بهيج ، كنت وساندى نحث السير على الطريق . جميل أن يفتح المرء رئتيه ويستنشق بسعادة بالغة ملء براميل ، مما من الرب المبارك به من هواء نقى ندى، متجدد الأرج بعبير الأحراش، بعد نهارين وليلتين، فى أدران مادية ومعنوية فى عش الجوارح كريه الرائحة ! أعنى أننى أعبر عن وجهة نظرى، أما المكان فى نظر ساندى فكان بالطبع على مايرام ، ولا غضاضة فيه ، فقد اعتادت طوال حياتها تلك الحياة المترفة .

أشفقت على هذه الفتاة التى أخذ فكاها إجازة قصيرة، فكان على تحسب عاقبة تلك الإجازة. كنت صائبا فى ذلك، لكنها ساندتنى بقوة فى الحصن ، ودعمتنى، وأحاطتنى بحمقها الجبار، ذلك الذى كان يستحق فى الحال تفوقه على دواعى الحكمة بقدر الضعف ، لذلك رأيت أنها تستأهل أن تدير الطاحونة لفترة قصيرة إذا شاءت، وشعرت بوخز حين بادرتنى بالآتى :

" نبدأ الحديث بالسير مارهوس الذى رحل مع الآنسة ذات الثلاثين ربيعا، باتجاه الجنوب "

" ساندى ألا ترين لوأن استطعت مط رحلة رعاة البقر بإضافة من عندياتك بقدر النصف ؟ "

" الرأى رأى سيدى " .

" استمرى إذن. لن أقاطعك هذه المرة، قدر ما أستطيع. ابدئى مجددا، منذ البداية، وأعدى أشرعتك، وسوف أعبئ غليونى، وكلى آذان صاغية ."

" نعود الآن إلى السير مارهوس، الذى رحل جنوبا بصحبة الآنسة ذات الثلاثين ربيعا . توغلا فى أعماق الغابة، جن الليل عليهما بغتة أثناء سيرهما ، ووصلا فى نهاية المطاف إلى قصر يقيم به دوق جنوب مارشيز، فطلبا مأوى هناك، وفى الصباح أرسل الدوق إلى السير مارهوس، سائلا إياه أن يتأهب لمنازلته على الفور . نهض السير مارهوس، وتجهز للقتال، وكان عليه قبل ذلك أن يترنم بقداس، ويكسر صيامه، ثم يمتطى صهوة جواده فى فناء الحصن، وهو المكان الذى سيشهد المنازلة . كان الدوق متأهبا على جواده، ومجهزا بعدته وعتاده، وبجانبه أبناؤه الستة، وكل يحمل رمحه فى يده، وهكذا التقى الخصمان، وقد حطم الدوق واثنان من أبنائه رماحهم عليه، إلا أن السير مارهوس، ظل حاملا رمحه ولم يمس أحدهم . ثم أتى أبناؤه الأربعة، فى دفعتين ، فتحطم رمحا اثنين من الأربعة ، وتحطم رمحا الآخرين من ثم . دار ذلك كله ولم يمس السير مارهوس أحدهم . ركض السير مارهوس بفرسه نحو الدوق، وضربه برمحه ضربة قاصمة ، طرحت الفارس والفرس أرضا، وكذلك فعل بأبنائه . فقد السير مارهوس توازنه، فطلب الدوق منه الاستسلام وإلا قام بقتله، استعاد أبناؤه الأربعة زخمهم، وهاجموا السير مارهوس بضراوة . قال السير مارهوس للدوق حينئذ: كف أبناءك، وإلا حطمتكم جميعا. حين رأى الدوق رباطة جأشه وإقدامه، صرخ فى أبنائه، وأمرهم بالاستسلام . جثا الجميع أرضا، وقدموا سيوفهم للفارس، فتلقاها منهم، ساعدوا أباهم على النهوض، ثم تعهدوا فى نبرة واحدة للسير مارهوس بألا يناصبوا الملك آرثر العداء، وأنه سيأخذ عقب ذلك مباشرة، عهدا على نفسه بأن يفد وأبناؤه إلى هويتستنايد، وأن يمثلوا جميعا بين يدى الملك ويلتمسوا عفوه "(*)

(*) القصة مقتبسة من كتاب موت آرثر، و الأسلوب أيضا . م. ت

"سيدى الزعيم المبجل، هنا تتوقف القصة . ستدرك من ثم بها لديك من فطنة أن الدوق ، وأبناءه الستة، هم نفس أولئك الذين هزمتهم، بعد ذلك بأيام ، وبعثت بهم إلى قصر آرثر " .

" عجباساندى، لاأصدق ماقلت" .

" وإننى لاأقول ذلك استرضاء، و تلك أسوأ خصالى " .

" لابأس ،لابأس ،لابأس، من كان يظن ذلك الآن ؟ عجبا ساندى، دوق عظيم الشأن، وأبناؤه الدوق الستة ، ياله من غنم عظيم . بذلك تكون رحلات المغامرين من الفرسان أكثر المهن حماقة، فضلا عن كونها مهنة شاقة مملة، لكننى أرى الآن أنه يمكن فى النهاية كسب بعض المال، لوحالفك الحظ. ليس ذلك بالعمل الذى أستطيع الإدلاء فيه بدلوى، لأننى لن أسعى إلى ذلك. فليس لعمل واعد مشروع، أن يؤسس على المضاربة فحسب. ما ذا يجدى من دورة عمل سريعة فى مشروع ارتحال ، إذا كنت تبددين الأموال هباء ثم تواجهين فى النهاية حقائق محبطة ؟

ذلك مجرد مأزق حرج، لاقبل لك بالخروج منه. صحيح أنك قد تبلغين الثراء بغتة، ليوم أو ربما أسبوع، ثم يتدخل شخص لإزاحتك من السوق، فتنهار قيمة أسهمك، أليس كذلك ياساندى؟"

" أيا كان الأمر، فإننى فى حيرة من استخدام لغة أسهل فى صوغ العبارات هذه، تلك التى تبدو غريبة ملغزة "

" ساندى، لاجدوى من اللف والدوران، والسعى إلى تحاشى مواجهة الأمر على النحو الذى أطرحه تحديدا. إننى أعلم أن الأمر يسير فى هذا السياق. ذلك فضلا عن أنك ببلوغك لب الحقيقة مباشرة، ستجدين أن رحلات الفرسان أسوأ من المشاريع الحكومية، لأنه أيا كانت النتيجة، فإن المشروع الحكومى يكتب له البقاء، فى

كل الأحوال ويستفيد منه الفرد ، ولكن حين يبور السوق، فى إحدى دورات رحلات الفرسان، ويقدم الفارس أوراقه فى السوق للتداول، مـا ذا يتبقـى مـن أصـول تـدعم موقفك المالى ؟ كومة قذرة من الجثث المتعفنة، وبرميل أو اثنان مما تبقـى مـن خـردة . أيمكنك تسمية هذه أصولا ثابتة ؟ إذن فلا تتوقفى عن منحى مشروعا ماليا حكوميا . ألست على صواب ؟"

"آه، ربما شرد عقلى فى أمور شـتى، لمـا حملتـه أحـداث هـذه الرحلـة الأخـيرة وملابساتها من اضطرابات، لم تواجهنى بمفردى أو واجهتـك وحـدك بـل واجهـت كلينا، ،ويبدو .."

" كلا،ساندى، لاعلاقة لذلك بعقلك. إن عقلك سليم معافى إلى أقـصى حـد ، لكنك لاتفهمين فى مجال الأعمال والتجارة، وهـذه هـى المعـضلة. إنـك غـير مؤهلـة للتحدث فى مجال التجارة، وتظلمين نفسك بسعيك المستدام وراء ذلك . و لو تغاضينا مع ذلك عن هذا الأمر، فإن ذلك كسبا فى حد ذاته، وسـوف يـؤتى حـصادا طيبـا فى قصر آرثر . أما بالنسبة للحديث فى شأن رعاة البقر، فأى بلد غريب هذا الـذى يأهلـه رجال ونساء لايدركهم الكبر . فمورجان لافاى هـذه، تتمتـع بنـضارة الـشباب، مـا جعلهـا أشـبه بفاسـار بوليـت، فى كـل المواقـف، وهـاهو دوق جنـوب مارشـيز العجوزلايزال يضرب بالرمح والسيف حتى هذه المرحلة المتأخرة من عمره، بعـد أن علا شأن تلك العائلة كما علا شأنه . وبحسب علمى، فإن السير جاوينى قتل ستة من أبنائه، ومازال لديه ستة آخرون، سأضمهم أنـا والـسير مـارهوس إلى المعـسكر . ثـم هاهى الآنسة ذات الستين ربيعا لاتزال تجول فى الأنحاء، فى ريعان خريـف عمرهـا . كم عمرك ساندى؟"

كانت تلك هى المرة الأولى التى أطرق ذلك الموضع الـساكن فيهـا . أغلقـت طاحونة الكلام أبوابها للإصلاح، أو لسبب آخر .

الفصل العشرون

حصـــــن العـــربيد

قطعنامسافة عشرة أميال، ما بين الساعة السادسة والتاسعة، وتلك فوق طاقة جواد يحمل ثلاثة، رجلا وامرأة ودرعا، ثم توقفنا طويلا فترة مابعـد الظهـيرة، تحـت أشجار تتاخم جدولا رقراقا .

وفد فى التو، فارس يمتطى جوادا، زمجر عند اقترابه منا، بصوت مدوٍ، أدركت من مضمون ما ورد به من كلمات، سبا ولعانا ، وسررت رغم ذلـك بقدومـه، لأننـى رأيته ، يحمل شارة إعلانية مكتوبة بحروف ذهبية لامعة، تقول :

" استعمل دائـما فرشاة الأسنان الواقية من الأمراض "

سررت لقدومه، لأننى عرفت من خلال هذه العلامة ، أنـه مـن فرسـانى. إنـه السيرمادوك ديلا مونتينى ، الذى يتميز بعظم بنيته، وتأتى شهرته فى المقام الأول مـن أنه قد أوشك ذات يوم على إسقاط السير لونسيلوت من فوق فرسه . ولم يكن يكف فى حضرة أى غريب عن العثورعلى ذريعة أو أخرى ليـشيد بالحـدث الكبـير . لكـن هناك حادثة أخرى تكاد تقارب تلك الحادثة فى الحجم، لم يكن ليـدفع بهـا البتـة لغـير المعنيين بالأمر، كما كان لايبخل بها لو بودر بمقاطعة من أحد ، ومفادها أن علة فشله فى إحراز نصر نهائى، أنه بدوره فقد اتزانه، وسقط هو الآخرعن فرسه . لم يجـد هـذا الأخرق الكبير فارقا كبيرا بين الحالتين . أحببته لأنه جاد فى عملـه، ولنفعـه الكبـير . كان جميل الطلعة، عريض المنكبين المدرعين، ولرأسه المريـشة ملامـح أسـد هـصور،

ولترسه الكبير مقبض رائع خصص ليد تلبس قفازا، ممسكة بفرشاة أسنان واقية وعليها شعار "جرب ولن تنخدع" . وما يعلن عنه، كان غسولا للأسنان .

ذكر أنه منهك، وقد بدا عليه ذلك بالفعل لكنه لم يفقد اتزانه . قال إنه يعمل بطريقة " مبيض المواقد "، وأنه لهذا عاود من جديد الخوض فى السباب واللعان . أشار حامل الإعلان إلى أن السير أوسايس الفظ، فارس همام وقد حقق شهرة معتبرة بسبب مشاركاته ذات مرة فى مبارزة بالرمح والسيف ، ما لايقل قدرا عن السير جاهيريس ذاته ، رغم عدم إحرازه أى انتصارات . كان يميل إلى الضحك والدعابة، وفى رأيه ، أنه لاشيء فى هذا العالم يهم . اخترته لهذا السبب، كى ينتحل صفة "مجلى المواقد". وأنه نظرا لعدم وجود مواقد فى الوقت الحالى ، فلا أهمية بالتالى لإجلاء مواقد. كان كل ما يحتاجه المندوب ، أن يعد الجمهور تدريجيا ، وبكياسة، للحدث الكبير، وتوجيه ميوله نحو الانضباط إزاء الزمن الذى يظهر فيه الموقد على الساحة .

كان السير مادوك حاد الطبع، حيث عاود السباب واللعان . ذكر أنه حانق من نفسه، وأنه لن ينزل عن جواده أو تهدأ ثائرته، قبل عثوره على السير أوسايس، وتصفية الحساب معه . اتضح بعد أن تمكنت من لملمة شظايا مارده من عبارات خلت من اللعان، أنه سيلاقى السير أوسايس فجر الغد، وأنه قد أبلغ بأنه لو استطاع اختصار الطريق عبر الحقول، والمستنقعات، وقطع التلال والسهول، يمكنه اعتراض فريق من الرحالة، ممن سيصيرون عملاء نادرين لغسول الأسنان وفرشاتها. انطلق السير مادوك على الفور بحماس منقطع النظير، لتحقيق المأمول ، وبعد ثلاث ساعات من السفر الطويل الشاق ،كان قد حقق هدفه بامتياز . فتأمل، أن يكون أولئك هم الشيوخ الخمسة، المفرج عنهم من السجن ليلة أمس! يالهؤلاء من بؤساء، مر عليهم عشرون عاما منذ أن عرف أحدهم بما أضيف له من أسنان نائتة ، أو ما تبقى له منها .

قال السير مادوك: " اغفل ذلك اغفله، فأنا لم أقم بتلميع موقده، ولعلنى أعثر عليه، دع ذلك لى، فلا قبل لفارس من الفرسان بأن يطاول أوسايس، أو غيره في الإساءة إلى البتة، ثم يبقى حيا، لعلنى أعثر عليه، ذلك ما أقسمت اليوم عليه قسما غليظا ."

بهذه العبارات وغيرها تناول رمحه بخفة، ورحل على الفور . قدمنا بدورنا فى منتصف ما بعد الظهيرة إلى بيت أحد أولئك الشيوخ، على حدود قرية صغيرة . بدا مستمتعا جدا بحب، من افتقدهم من ذويه، وأصدقائه ،على مدار خمسين عاما، والتف حوله أحفاده الذين لم يرهم من قبل، يلاطفونه، لكنهم كانوا جميعا فى نظره غرباء فقد محيت ذاكرته وفسد عقله . بدا من غير المعقول ، أن يعزل إنسان عن المجتمع لنصف قرن، وأن يلقى به في كهف مظلم كالفأر، لكن زوجته المسنة وأقرانه الشيوخ الحاضرين كانوا شهودا على ذلك . يمكنهم أن يتذكروا حاله ، فى ريعانه وفحولته، حين قبل حفيده، وأعاده إلى أمه، ثم مضى بعد ذلك فى رحلة نسيان طويلة . لايستطيع من كانوا فى الحصن عبر نصف قرن ،وهى المدة التى قضاها الرجل فى محبسه - تحديد جريمته المنسية وغير المدرجة فى السجلات - لكن هذه الزوجة المسنة، وكذلك ابنها الأكبر، وقفت هناك وسط أبنائها وبناتها المتزوجين محاولة استعادة صورة أب كان بالنسبة لها مجرد لقب ، محض فكرة ، أوخيال مشوش، أو رواية قديمة، طوال حياتها، وها هو قد تجسد أمامها فجأة ، بشحمه ولحمه .

ياله من موقف غريب، لا لأننى كنت السبب فى حدوثه هنا ، ولكن سبب الغرابة فيه أنه لايزال بالنسبة لى الأكثر غرابة. بمعنى أن هذا الشأن الرهيب، لم ينشأ من تمرد قام به أولئك المقهورون ضد جلاديهم. لقد ظلوا زمنا طويلا ورثة ورهائن للوحشية، وانتهاك القوانين ، ثم لم يعودوا يجفلون من شيء سوى أن يحنو عليهم أحد. أجل، هنا يتحقق كشف فريد، لعمق ما كابد هؤلاء البشر فى ظل العبودية. تراجعت

هوياتهم تماما، إلى مستوى متدن رتيب فى الصبر والاستسلام، والخنوع الفورى، أمام كل ما يواجههم فى هذه الحياة. زالت عنهم أخيلتهم. وحين يذكر ذلك عن إنسان، فإننى أعتقد أنه هبط إلى القاع وليس ثمة ما هو أدنى من ذلك.

كنت أفضل بدورى سلوك وجهة أخرى. فليس من مهام رجل الدولة أن يواجه رجلا يخطط فى ذهنه لثورة سلمية. لايمكن إنكار حقيقة دامغة تفيد بأنه رغم جنوح الناس قليلا وتفلسفهم فى الاتجاه المضاد، لم تحقق أمة فى هذا العالم حريتها بمعسول الكلام ، أو بمكارم الأخلاق، فقانون الحياة الأزلى، ينص على أن نجاح الثورات مرهون فى البداية بإراقة الدماء، أيا كانت مغبة ذلك . فإذا كان للتاريخ أن يعلم شيئا، فإنه يكشف لنا تلك الحقيقة . إن ما يحتاجه هؤلاء القوم ،إذن ، هو عهد الإرهاب ومقصلة، ولست بالذى يقرهما .

بدأت ساندى عند الظهيرة ، وبعد يومين من هذه الواقعة ، تظهر ما ينبئ بانفعال، وينذر بقلق. قالت بأننا اقتربنا من حصن العريبد. باغتتنى بدورى شعور بالقلق. حيث كان سعينا لبلوغه قد غاب عن ذهنى تدريجيا، وقد أدت إعادة إثارته إلى جعله أمرا واقعا، مروعا، استحوذ على.ازداد انفعال ساندى بمرور الوقت، وانفعلت بدورى لانفعالها، كما تنتشر العدوى. بدأت نبضات قلبى تتزايد. ولاسلطان لك على نبض قلبك، فله قوانينه الخاصة، حيث ينفعل لأشياء ينبذها العقل. حين ترجلت ساندى من فوق الفرس، دعانى ذلك إلى التوقف، ثم بدأنا نزحف بهدوء ، حيث أوشكت رأسها أن تلحق بركبتيها، زحفا تجاه صف من الآجام، يحيط بمنحدر، تزايد النبض أكثر وتسارع . ظل الأمر على هذه الحال، حتى اتخذت ساندى لنفسها كمينا، تستشرف منه المنحدر ، وقد لحقت بها زحفا على ركبتى . توهجت نظراتها، وأشارت بأصبعها، وقالت فى صوت هامس متقطع :

" الحصن !الحصن ! انظر، هاهو يلوح أمامنا !"

يالقدر ما واجهت من ترحيب مخيب للآمال ! قلت:

"أى حصن ؟ تلك ليست سوى زريبة للخنازير، زريبة خنازير محاطة بسياج من وتل ."

بدت مندهشة، حزينة. خبت الوضاءة من وجهها، واستغرقت وقتا صامتة تفكر . ثم :

قالت فى شرود وكأنها تخاطب نفسها: " ذلك الحصن لم يكن مسحورا من قبل . وبالغرابة ورهبة تلك الأعجوبة، فهناك من يرى أنه مسحور، فيبدو لعينيه فى صورة مزرية، وهناك من لم ير بسحره ، وبأنه لم يطرأ عليه تغير يذكر، بل يراه باقيا على انتصابه شامخا ، مطوقا بخندق الماء، ترفرف راياته فى الهواء الطلق من فوق أبراجه. فليحفظنا الله، لكم يوجع القلب معاودة رؤية تينك النبيلات الأسارى ، يكلل الأسى وجوههن المليحة ! لقد تأخرنا عنهن كثيرا، واللوم علينا ".

حان دورى. كان الحصن فى عينى مسحورا، لكنه فى عينها لم يكن كذلك . بدت محاولة إقناعها بغير ذلك ، مضيعة للوقت، لم تأت بنتيجة ، وحرى بى مسايرتها فحسب .لذلك قلت:

" من المعروف أن الشيء المسحور فى عين إنسان، يكون على صورته العادية فى عين آخر .

لابد أنك سمعت بهذا من قبل ياساندى، رغم أنه لم يحدث أن واجهت هذا الشيء ، فإنه لم يقع ضررا منه ولحسن الحظ أنه كذلك. فإذا بدا هؤلاء السيدات للناس ولأنفسهن فى صورة خنزيرات، فمن الضرورى فك السحر، و ربما استحال ذلك مع العجز عن التوصل إلى طريقة لفكه، كما أن ذلك محفوف بالمخاطر، فمحاولة فض السحر، دون التوصل إلى الطلسم الخاص بفضه، قد يوقع فى الخطأ ، فيتحول

خنزيراتك إلى كلاب، ومن كلاب إلى قطط، ومنها إلى فئران ، ودواليك، وينتهى الأمر بتراجع جدوى أدواتك لتصبح بلا فائدة ، أو تخلص إلى غاز بلا رائحة لاقبل بملاحقته، فتواجهين النهاية نفسها. لكننا نجد هنا ولحسن الحظ، أن السحر يؤثر على عينى فحسب، وبذا لايكون هناك ضرر من إبطاله. تظل تلك السيدات على صورتهن باعتبارهن سيدات راقيات، فى عينك وعيونهن ، وعيون ما عداهن ، وسوف يعانين فى الوقت ذاته من وقوعى فى الوهم ، لمجرد علمى بأن خنزيرة مسحورة كانت امرأة فى الأصل، وهذا يكفى كى أعرف كيفية التعامل معها . "

"شكرا جزيلا، سيدى المهذب ، إنك تتحدث كملاك . وأنا أعرف أنك ستخلصهن ، لأنك أهل للمآثر الكبرى ، و تتميز ببراعة الفارس و بالإرادة والإقدام . كأى فارس آخر " .

"ساندى، لن أدع أميرة واحدة حبيسة الخم ، هل هؤلاء الثلاث اللواتى أراهن ببصرى الأعشى، يتسولن الطعام من مربى الخنازير "

" العرابدة ؟ هل غيروهن أيضا ؟ ذلك أمر بالغ الدهشة . أينتابنى الخوف الآن من كيفية اختراقك الهدف المحدد ، فى الوقت الذى لايظهر أمامك خمسة من التسعة قصار القامة ؟ آه، هيا ، سيدى العظيم، تقدم بحذر ، فتلك هى المغامرة الأكبر على حد علمى " .

" رويدك، ساندى . إن كل ما أريد أن أعرفه، قدر ما توارى من جسم العربيد، حتى يمكننى تحديد حركاته . لاتخشى شيئا، سأبطل عمل هؤلاء المحتالين، ابق حيث أنت ."

تركت ساندى جاثية على ركبتيها هناك، وقد تجمدت أساريرها، ولكن يحدوها الأمل و لم تتخل عنها رباطة الجأش ، واتجهت مباشرة نحو الخم، وبدأت التعامل مع

مربى الخنازير، كأى عميل ، فكسبت ودهم لشرائى كل الخنازير، بسعر إجمالى يقدر بستة عشر بنسا، وفاق ذلك آخر أسعار السوق، كان قدومى فى الوقت المناسب، لأن الكنيسة سيدة العزبة ، وبصحبتها بقية جباة الضرائب، كانوا سيحضرون فى اليوم التالى ، لمصادرة كل البضائع ، ثم لا يتركون لمربى الخنازير منها ، سوى النزر اليسير، وبذلك تعيض ساندى وحيدة بغير الأميرات . لكن هؤلاء الآن يستطيعون السداد نقدا للكنيسة والجباة ، وسيبتقى لديهم أموال عقب السداد . كان أحدهم أبا لعشرة صغار ، ذكر أنه فى العام الفائت، حين أتاه الراهب، وأخذ الأسمن من بين عشرة خنازير لديه سدادا للعشور، انفجرت فيه الزوجة غاضبة وقدمت طفلها ، وقالت له :

"أيها الحيوان، يامن نزعت من باطنك الرحمة، لماذا تترك لى هذا الطفل ، وقد سلبت ما أقيم به أوده ؟ "

ياللغرابة. حدث الشيء نفسه ، فى عهدى بويلز وفى ظل سيطرة نفس كنيسة الدولة القديمة، والتى يفترض فيها بكل المعايير أن تغير من طبيعتها لو غيرت قناعاتها.

صرفت الرجال الثلاثة، وفتحت زريبة الخنازير، واستدعيت ساندى، فأتت بسرعة اشتعال النار فى مرج . حين رأيتها تلقى بنفسها على تلك الخنزيرات ،ودموع الفرح تسيل على وجنتيها، ثم تضمهن إلى صدرها وتقبلهن، وتداعبهن، وتدعوهن فى احترام بألقابهن الأميرية السامية، أصابنى خجل مما تفعل، بل شعرت بالخزى تجاه الجنس البشرى برمته.

كان علينا قطع مسافة عشرة أميال ، وهى مسافة العودة بالخنزيرات ، وليس قط من السيدات من كن أكثر عنادا أو إثارة للمتاعب منهن . فلم أر استقرارا لهن على طريق، أو درب ، حيث انطلقن بين الزروع فى كل صوب وحدب، واندفعن فى كل الاتجاهات، فوق الصخور والتلال، وما يصادفن من أماكن أكثر وعورة . ولا يجدر

بأحد ضربهن، أو معاملتهن بقسوة، فساندى لاتستطيع تحمل رؤيتهن ، يعاملن بأسلوب يتعارض عما لهن من مكانة سامية ، لذلك فإنه يجدر بك أن تدعو خنزيرة شمطاء مزعجة ، بسيدتى ، وبصاحبة السمو كحال الأخريات . كان من المربك والمزعج أن تهرول وعليك الدرع خلف خنزيرات . كانت إحدى الكونتيسات الصغيرات، تضع خاتما معدنيا فى خطمها، وبدا ظهرها يكاد يخلو من الشعر، وكانت شخصية نكدة سيئة الطبع . دفعتنى إلى ملاحقتها لساعة من الزمن، فى شتى أنحاء الريف، لنعود إلى حيث بدأنا، دون أن أحرز تقدما عليها فى الركض ولو ببوصة واحدة . أمسكت بها فى نهاية المطاف من الذيل، جذبتها إلىّ ، وسط صراخها . حين أدركت ساندى ، وجدتها مرتعبة، قالت لى، بأن أقصى مراتب إساءة الأدب وانعدام اللياقة، سحب كونتيسة من ذيلها .

عدنا فى الليل بصحبة الخنزيرات، بل بأغلبهن. حيث شردت الأميرة نيرفينس دى مورجانور، واختفت اثنتين من معيتها، هما الآنسة أنجيلا بوهون، والآنسة إفين كورتيمينز، أما الأولى فخنزيرة سوداء شابة، فى جبهتها نجمة بيضاء، والأخيرة سمراء نحيفة الساقين، وفى ساقها الأمامية اليمنى عرج بسيط، والاثنتان كانتا أكثر من رأيت استحقاقا للعقاب، كى يتحركن قدما على الطريق. كان أيضا من بين المفقودات بضع بارونات فحسب، وقد رغبت فى أن يبقين شاردات، ولكن ما كان لذلك أن يحدث ، حيث لابد من العثور على لحوم المقانق تلك ، ولذلك أوفدت الخدم حاملى المشاعل، لمسح التلال والأحراش عن آخرها بحثا عنهن .

أودع طبعا كل من تم قيادهن ، فى مكان أمين فى البيت ! ـــ حقيقة أننى، لم أر مثل هذا من قبل . ولاسمعت أذنى أو اشتم أنفى مثله .كان ذلك أشبه بعصيان مسلح، داخل خزان للغاز .

الفصل الحادى والعشرون

حجـــاج الـديـــر

حين أويت أخيرا إلى الفراش، أحسست بتعب بـالغ ، وأى لـذة ، تلـك التـى شعرت بها ، وأى ترف، وأنا ممدد فى الفراش، مسترخ الجسد ، إنه الارتيـاح بعـد مـا كابدته من طول إنهاك وتعب ! لكن ذلك كان بعيد المنال، بعد أن غادر النـوم عينـى، فى تلك اللحظة . عاد النبلاء يصخبون مجددا بالتراشق بالألفاظ، واللهـو والقـصف ، بأعلى وأسفل القاعات والدهاليز ، ما حال بينى وبين الرقاد . وبسبب الأرق، عـادت أفكارى إلى الانشغال، وتركزت فى الأساس، حول خيال ساندى الغريب. فهى امرأة، تملك من رجحان العقل ما يكفى مملكة، كما أنها فى نظرى تتصرف كامرأة مجنونـة . عجبت لتلك القدرة على التثقيف ! والتوجيه ! والتعليم ! تلك التى تنشئ المرء على تصديق أى شيء . كان لابد أن أضع نفسى، مكان ساندى، لأدرك أنها ليـست فاقـدة العقل. بلى، وقد وضعتها مكانى ، لأبرهن على قدر بساطة أن يبـدو المـرء مجنونـا ، فى عين آخر لم يحصل، ما حصلتم من علم . لو أخبرت ساندى بأننى رأيت عربة تجرها الخيول، ليست مسحورة، يمكن أن تقطع خمسين ميلا فى الساعة، ورأيت رجلا، غـير مدعم بقوى سحرية ، يدخل سلة ويغيب عن الأبصار وسط الغيوم، وأننى سمعت ، دون استعانة بساحر، إلى حديث شخص، من مسافة تقدر بمئات الأميال، فلن يساور ساندى مجرد ظن بأننى مجنون ، بعد اعتقادها بأنها تعلم ذلك . لقـد اعتقـد فى قـوى السحر كل المحيطين بها، ولا يساور أحد شك فيه، فالشك فى أن حـصنا، تحـول إلى زريبة للخنازير، وشاغليه خنازير، سيحمل نفس ما كنت أحمله من شك، حين ساور

أهل كونيتيكت، الشك فى حقيقة الهاتف، وفى عجائبه، وسيكون هناك دليل دامغ فى الحالتين ، على الإصابة باختلال عقلى، وفقدان للرشد . أما كون ساندى إنسانة عاقلة، فهذا صحيح، ويجب أن أقر بذلك . فإذا كنت عاقلا أنا الآخر فى عين ساندى، فيجب أن أحتفظ لنفسى بقواى الخارقة ، فى أسفارى غير الخارقة والخالية من أى سحر، فضلا عن أمر المناطيد والهواتف . وأنا بدورى قد آمنت بأن الكون ليس مسطحا، وأنه بغير عمد يرتكز عليها، وبغير غطاء ينتج هذا المجال المائى الذى يشغل كل مساحته العلوية ، ولكن بما أننى الشخص الوحيد فى المملكة الموبوء بتلك الأفكار المنحرفة والإجرامية، أدركت أن التزام الصمت فى هذا الشأن من حسن الفطن، إذا ما رغبت فى ألا يتحاشانى الآخرون وينبذوننى ، شأن من ذهب عقله .

جمعت ساندى الخنزيرات فى غرفة الطعام فى اليوم التالى، وقدمت لهن طعام الإفطار، ووقفت بنفسها تتابعهن، وتبدى نحوهن كل آيات التوقير والاحترام، تلك التى أولاها سكان الجزيرة أصحاب السمو القدامى منهم والمحدثون، ولتذهب كل المدارك المعنوية والعقلية أدراج الرياح. كان يمكن أن أتناول الطعام مع الخنزيرات ، لو كنت بالنسب أشغل منصبى الرسمى والمرموق ، ولكن يمتنع على ذلك، هكذا تقبلت ذلك الازدراء المحتوم ، دون تذمر أو شكاية . تناولت وساندى إفطارنا على المائدة المقابلة، حيث كان أهل البيت بالخارج . قلت :

" كم عدد أفراد العائلة ياساندى، وأين ذهبوا ؟ "

" عائلة ؟ "

"أجل " .

"أى عائلة ،سيدى الكريم ؟"

" عجبا، هذه العائلة، عائلتك " .

" فسر مقالك، فأنا لاأفهمك . وليس لدى عائلة ."

" لا عائلة لك . عجباساندى، أليس هذا بيتك ؟ "

" وكيف يتسنى أن يكون كذلك ؟ ليس لى بيت " .

" لابأس، فبيت من إذن ؟"

" آه، اعلم جيدا أننى كنت سأخبرك، لوعلمت بدورى " .

" ويحك، ألا تعرفين حتى هؤلاء الناس ؟ إذن فمن دعانا هنا ؟"

"لم يدعنا أحد، لقد أتينا فحسب " .

" عجبا، ياامرأة، ذلك سلوك منك جد غريب . الحماقة فيه تجل عن الوصف . ندخل بيت أناس ، بهذه البساطة، ونحشره بأسمى من طلعت عليهن شمس من الأميرات، ثم يصل الأمر إلى أننا لانعرف اسم صاحب البيت . كيف تقدمين هكذا على انتهاك القواعد والأصول ؟ ظننت بالطبع أن البيت لك . ماذا سيقول الرجل ؟"

"ماذا سيقول ؟ ماذا عساه أن يقول غير الامتنان ؟ "

" الامتنان علام ؟ "

ارتسمت على قسمات وجهها حيرة بالغة :

" إنك حقا تربكين قدرتى على الفهم بعباراتك الغريبة .أتتخيلين أن مالك هذا البيت، سيحظى طوال عمره بعظيم الشرف، لاستضافة فريق على شاكلتنا ، قد منوا عليه بإقامتهم فيه ؟ "

" الأمر يغاير الحقيقة لو كنت تقصد هذا . إننى على ثقة تامة من أنها المرة الأولى التى يحظى فيها صاحب هذا البيت بمثل هذا الشرف " .

" فليسعد إذن، وليبدى أسمى آيات الشكر التـام والـولاء . وإلا صـار كلبـا، وابن كلب وسليل كلاب " .

كان الأمر لدى لايبعث على الارتياح ، وربما زادت الوطأة عن ذلك . ولعلـه يكون من حسن الفطن ، جمع الخنزيرات والرحيل عن المكان . لذلك قلت :

" النهار بسبيله إلى الانقضاء ياساندى، وقد حان الوقت لجمع الأميرات معـا، والرحيل بهن . "

" لماذا ، سيدى المهذب والزعيم ؟"

"يتطلب الأمر منا العودة بهن إلى بيوتهن، أليس كذلك ؟"

" عجبا ، بل يعود ذلك إلى مشيئته . فإنهن من شتى بقاع الأرض ! يحتاج الأمر أن تعود كل إلى دارها، وإننى أنبهك إلى ضرورة القيام بكل تلك الرحلات ، فى وقت واحد، جد قصير، كما شاء له أن يخلق الحياة، فضلا عن الموت أيـضا بإذعـان آدم لـه، عند ارتكاب خطيئة بإيعاز من زوجه، تلك التى خدعت وغرر بها بـضلال مـن قبـل عدو الإنسان الأول، ذلك الشيطان فى صورة الأفعى، حيث قـدر لـه فى الـسابق، أن يكرس نفسه ويدخرها للقيام بعمل السوء هذا، وذلك بزرع الغـيرة والحقـد فى قلبـه، من خلال مطامح دنيئة، أفسدت، ودنست ما جبل عليه فى الـسابق مـن عفـة ونقـاء، حين انطلق مع الجموع الهادرة من إخوته البشر ، وسط حجب وفضاءات تلك السماء الصافية ، والتى لايختلف شيء فيها عما ألف فى تلك الأرض الطيّبة، و ـــــــــــ "

" ياللإسكتلندى العظيم !".

" سيدى ؟ "

" لاعليك، تعلمين أنه لم يعد لدينا من الوقت ما نضيعه فى مثل هـذه الأمـور . ألا ترين أنه يمكننا توزيع هؤلاء، حول الأرض، فى وقت أقل مما تقضينه فى شرح أننـا

لاقبل لنا بذلك . ليس حريا بنا تبادل الحديث الآن، بل يجب أن نشرع فى العمل الأمر يقتضى منك حذر ، بألا تشرعى فى إدارة طاحونتك على هذا النحو، وفى ظرف كهذا . هيا إلى العمل الآن، واختصرى فى الحديث . من سيتولى أمر عودة الأميرات إلى دورهن ؟ .

" أصدقاؤهن . سيأتون إليهن من أقصى بقاع الأرض . "

لقد زفت البشرى إلى بغتة من سماء صافية ، بما لم يكن فى الحسبان ، وكان ما أحدثه من شعور بالارتياح ، أشبه بالعفو عن سجين . ستبقى ساندى معى حتى تسلم البضاعة طبعا .

" حسنا، ساندى، الآن وقد انتهت مهمتنا ، بنجاح منقطع النظير، فإننى سأعود إلى الديار، فأخبرهم بالأمر، ولو أن هناك مهمة أخرى ..."

" إننى بدورى متأهبة، وسوف أرافقك " .

تطلب هذا ردا بالاعتذار .

"كيف ؟ ترافقيننى ؟ ما الذى يدفعك إلى ذلك ؟ "

" وأصبح خائنة لفارسى، أتظن ذلك فى ؟ ذلك يحمل على الخزى . لايجدر بى أن أفارقك قبل أن تنزل إلى حلبة المبارزة ، وتصبح بطلا فذا، يكسب الجولات، فأصير خالصة لك . أنا الملومة ، وقد اعتقدت بأن ذلك يمكن أن يحدث . "

قلت فى نفسى متحسرا :

" إنها مختارة للأجل الطويل ، يمكننى أيضا الاستفادة من ذلك ." وجدتنى أقول لها : " حسنا، فلنبدأ "

بينما كانت منشغلة ببث الخنزيرات أحر مشاعر الوداع، سلمت الفريق الأميرى برمته للخدم . وطلبت منهم ،جلب منفضة، لإزالة بعض الغبرة من الأماكن التى أقامت بها الأميرات أو تجولت . لكنهم اعتبروا ذلك أمرا لايستحق العناء، فضلا عن أنه يعد تراجعا عن المألوف والعرف، ويرجح أن يثير لغطا . حسم أمر التراجع عما استقر عليه العرف، أن الأمة يمكنها ارتكاب أى جرم كان، عدا أن تتراجع عما جرى عليه العرف والمألوف. ذكر الخدم أنهم سيتبعون التقاليد القديمة، التى اتخذت صفة القدسية، عبر عادات وتقاليد ضاربة فى القدم، وأنهم سينثرون فى الغرف والقاعات نبات الأسل النضر، وبذا يختفى أى أثر لزيارة الأميرات للمكان . كان فى ذلك شيء من مغالبة الطبيعة، وهو نهج علمى، وجيولوجى ، حيث حفظ تاريخ العائلة فى سجل يقسم السلم الطبقى ، يمكن باحثى الآثار من بحث وتحديد التغيرات الطارئة على نظام الأسرة الغذائى عبر تسلسل زمنى لمائة عام، من خلال ما خلفه كل عصر من أثر .

شد انتباهنا فى ذلك اليوم، موكب من الرحالة الحجاج . لم يكن الموكب يسلك نفس الطريق الذى نسلك ، لكننا مع ذلك لحقنا به ، ذلك أننى كنت قد وضعت نصب عينى الآن ، أننى لو كنت مقبلا على حكم هذا البلد باقتدار، فحرى بى الاطلاع على سبل الحياة فيه بكل تفاصيلها، ليس من خلال آخرين ، بل متابعة ذلك بنفسى أولا بأول .

شابهت هذه المجموعة من الحجاج ما ورد عن شوسر، فى أنها تقدم نموذجا لما يمكن أن يعرضه هذا البلد من المناصب العليا والمهن فيه، ومن أنواع مختلفة من الثياب. ضم الموكب رجالا ونساء، من عجائز وشباب، منهم المقبلون على المرح، وآخرون سمتهم العبوس .امتطوا الحمير والجياد، ليس بها سرج ثانوى واحد به مقعد مخصص للمرأة، فذلك الترف ظل مجهولا لدى الإنجليز ، على مدار تسعمائة عام وإلى

الآن. كانت الجماعة متآلفة ، ودودة ، تتسم بخشونة، وقلة أدب عفوية . تواصلت لديهم ولم تنقطع الرواية الساخرة، ولم تعد تسبب حرجا لهم ، يزيد عما كانت تحدثه فى أفضل المجتمعات الإنجليزية، فى القرون الاثنى عشر الأخيرة . انتشرت أشهر النكات العملية (المواقف الهزلية)، من قبل الظرفاء الإنجليز، فى الربع الأول من القرن التاسع عشر البعيد، انتشرت هنا وهناك وفى الأماكن النائية ،على طول الخط، وحظيت بإطراء كبير وكان يمكنك أحيانا، إذا صدر تعليق على دعابة، فى طرف من أطراف الموكب، وبدأ فى الانتشار إلى الطرف الآخر، كان يمكنك ملاحظة انتشاره تدريجيا من خلال رذاذ الضحك المتطاير، منطلقا من حنايا الموكب، إلى كل اتجاه، وتراه إثر ذلك فيما يظهرعلى الحمير من حياء . عرفت ساندى الهدف والمرام من هذه الرحلة، وأطلعتنى عليه . قالت :

" هؤلاء فى طريقهم إلى وادى القداسة ، لينعموا ببركة الورعين من النساك، ويشربون من مياه البئر العجيبة، ويتطهرون من آثامهم ."

"وأين يقع هذا المنهل ؟ "

" يبعد عنا مسيرة يومين، ويقع بجوار حدود البلدة الواقعة بأعلى مملكة الوقواق " .

" حدثينى عنه ؟ أهو مكان معروف ؟ "

"أوه، بلى فى الحقيقة. ولا شيء غير الحقيقة. كان يقطنه فى الزمان القديم، رئيس أحد الأديرة وجماعة من الرهبان. أغلب الظن، أنه لم يكن هناك من كان أكثر ورعا منهم فى هذا العالم، لأنهم نذروا أنفسهم للبحث والدرس فى الكتب الدينية، ثم لاترى أحدهم يتحدث إلى الآخر، أو يتحدث إلى أى إنسان، وقد عاشوا على اقتيات الأعشاب الضارة، والفتات، و عز نومهم، ولم تنقطع صلواتهم، ولم يقربوا الغسل، أو يبدلوا ثيابهم، حتى تسقط طواعية بفعل الزمن والبلى . سار الحال على هذا المنوال

حتى ذاع صيتهم بين الناس، بسبب أخـذهم أنفـسهم بالـصرامة والـورع ، فـزارهم الغنى والفقير، و نحوا بالوقار " .

"أكملى " .

"ولكن كان هناك ندرة فى المياه، لذلك وفى إحدى المرات أثنـاء صـلاة رئـيس الدير، حدثت المعجزة وتدفق تيار عظيم من المياه فى موضع قحط، استجابة لابتهاله . تغير موقف الرهبان على الفور، بسبب غوايـة الـشيطان لهـم، فحـاولوا إقنـاع رئـيس الدير، بالمناشدات ، والتوسلات، بأن يبنى لهم حماما، وحين فاض بـه الكيـل ولم يعـد قادرا على ردهم عنه، قال سألبى رغبتكم ، ووافق على تحقيق مطلبهم . فتأمـل سـبل نبذهم سبيل التطهر ، التى أرادها الله لهم ، وولعهم بالـدنيا وارتكـاب الإثـم . دخـل الرهبان الحمام، واغتسلوا حتى صاروا فى بياض الثلج، وواعجبا، حين ظهرت آياته فى تلك اللحظة، فى صورة زجر عجيب ! لقد توقف على الفور تـدفق الميـاه المهينـة، ثـم جف نبعها بالكلية " .

" ساندى، لقد أخذوا برفق ، باعتبار أن ما أقـدموا عليـه يعتـبر فى هـذا البلـد رجسا" .

" ربما، لكن تلك ،كانت خطيئـتهم الأولى، فقـد مارسـوا حيـاة مثاليـة لـزمن طويل، ولم يختلفوا عن الملائكة فى أقـل القليـل . فـأداء الـصلوات وذرف العـبرات وتعذيب ا لجسد، كله ضاع سدى، فى محاولة إعادة المياه إلى التـدفق مجـددا . ووصـل الأمر إلى إقامة المواكب الدينية، وتقديم قرابين التوبة، ونذر الشموع للعذراء ، وكلها باءت بالفشل، فتحيروا من ذلك ، وطالت الحيرة أهل البلدة . "

" وما الغريب فى اكتشاف أنه حتى هذه الصناعة لاتخلو مـن أزماتهـا الماليـة ، وأحيانا ما تواجه منشآتها وأسهمها هبوطا يصل إلى الصفر، ويتجه كل مـا فيـه نحـو الركود . أكملى ، ساندى " .

" ثم حدث ذات مرة بعد مرور الأيام والسنين، أن استسلم رئيس الدير للأمر الواقع، وهدم الحمام . فتأمل بعد أن زال غضب الله ، انبثقت المياه فى تلك اللحظة مجددا، و لم تتوقف عن التدفق حتى يومنا هذا، وبنفس القدر من وفرتها فى السابق " .

" أفهم من ذلك أنه منذ ذلك الوقت لم يقدم أحدهم على الاغتسال " .

"من يحاول ذلك سيجد حريته مقيدة ، أجل وسرعان ما سيجد أيضا أنه فى حاجة إليها ".

" وهل ازدهر المجتمع منذ ذلك الحين ؟ "

" دوى خبر المعجزة وقت حدوثها فى كل أنحاء البلدة . قدم الرهبان من جميع البلاد للانخراط فى الجماعة، قدموا أسرابا كالسمك، فأقام الدير مبنى بعد آخر، وأضيفت إليها مبان أخرى ، فامتدت روافدها وأوت الجميع. أتت الراهبات أيضا، جماعة بعد الأخرى، فأقيم بالجانب الأعلى من الوادى، المبنى بعد الآخر، حتى بلغت المبانى من الضخامة ، ماجعلها تكون ديرا للراهبات . تآلف أهل الديرين، فضما ما يقيمونه من أعمال للخير معا، وأقام الجميع ملجأ ضخما لإيواء اللقطاء، يقع على طريق الوادى ما بين الديرين " .

" ساندى، لقد بدأت بالحديث عن بعض النساك فحسب " .

" اجتمع هؤلاء جميعا من شتى بقاع الأرض. يزدهر عمل الناسك ، أينما وجد حجيج . لن تجد ناسكا واحدا غير مرغوب فيه . فلو ذكر أحد ناسكا من هذا النوع ، يعتقد ندرته، وأنه لايوجد أمثال هؤلاء سوى فى البلاد النائية ، فليقلب فى الأغوار والكهوف والمستنقعات التى تحيط بوادى القداسة، أنه مهما كان فلن يفلح مسعاه مهما بلغ من براعة ، وأنه يجد حفنة من هؤلاء النساك هناك . "

اقتربت على الطريق من شخص ضخم الجسم ، ذى وجه بض ودود ، وذلك بغرض استمالته إلىّ ، والتقاط بعض شذرات أخرى من الحقيقة، ولكننى لم أنل منه سوى استمالة طفيفة ، حين بادرنى فى لهفة وسماجة بالخوض فى نفس الحكاية القديمة بطريقة مملة أخنى عليها الزمن — هى نفسها التى خاطبنى بها السير داينادان، عن وقت خصومتى والسير ساجرامور، و سبب تحديه إياى . استأذنت منه بالانصراف، وعدت مباشرة إلى مؤخر الموكب، كاسف البال، راغبا فى النأى بنفسى عن هذه الحياة المؤلمة ، ووادى الدموع هذا ، وهذا اليوم الذى عدمت الراحة فيه ، ذلك الملبد بالغيوم والعواصف، ومعاناة الإخفاق الممل، والتقاعس عن الرغبة فى التغيير، حين يتراءى لى أن تلك الرتابة تبدو أبدية، وأن كثيرا ممن ارتحلوا إلى هذا المكان يعرفون الحكاية تلك.

فى أول ساعات الظهيرة، لحقنا بركب آخر من الحجاج، لكن هذا الركب قد خلا من أى مظهر للبهجة، فلا دعابات أو ضحك، أو سبل للهو، أو مرح صاخب ، سواء فى ذلك الشباب و الشيوخ، فكلا النوعين كانا هنا، شبابًا و شيوخًا، وكهولاً من الجنسين ، ورجالا وسيدات فى منتصف أعمارهم ، وأزواج من الشباب والشابات ، وصغار السن من الجنسين ، وثلاثة رضع ، اعتلوا صدور أمهاتهم . حتى الصغار كانوا عبوسا، ومامن وجه بين هؤلاء الخمسين ، إلا وجدته مكفهرا، يحمل يأسا لاسبيل إلى إزالته، نشأ من وعثاء السفر ومشاقه، ومن ارتباط قديم بمشاعر الإحباط والحزن . أولئك كانوا من العبيد. وصلت الأغلال ما بين أقدامهم المغلولة، وأيديهم المصفدة، وبين حزام جلدى لكل، لتف حول خواصرهم ، وقد انتظم الجميع ، عدا الأطفال، فى صف ينفصل كل عن الآخر بستة أقدام فى سلسلة واحدة تصل طوق عنق كل منهم بالآخر بطول الصف . ساروا على الأقدام، وقطعوا مسافة ثلاثمائة ميل، فى ثمانية عشر يوما، بأقل ما يقيم أودهم من طعام، وأرداه . لقد رقدوا كل ليلة مصفدين، يتضام كل إلى الآخر كالخنازير . تغطت أجسادهم بأسمال

بالمطالبة بكساء . قرح حك الأصفاد الحديدية جلودهم من موضع الكاحل، وأحدث تقيحات، وجروح غشيتها الديدان . أصاب البلى أقدامهم الحافية، و لا يسير أحدهم دون عكاز. كان عدد هؤلاء التعساء فى السابق مائة . لكن خمسين منهم قد بيعوا خلال الرحلة. امتطى مالكهم تاجر العبيد حصانا، وحمل فى يده سوطا، ذا مقبض قصير، وسير ضخم طويل، يتفرع إلى عدة سيور معقودة عند الطرف. كان يستطيع أن يمزق بضربة واحدة من هذا السوط كتف من تسول له نفسه القعود من شدة التعب والألم، ليعيده إلى الوقوف على قدميه مجددا ، وهو فى ذلك لايخاطب أحدا ، قد أغنته ضربة السوط عن الكلام . لم يلتفت إلينا أحد من تلك المخلوقات التعيسة، حين مررنا بهم، ولم يبد منهم ما يشير إلى أنهم يحفلون حتى بوجودنا . لم يصدر عنهم سوى صلصلة الأغلال برنينها المنفر والممل ، من أول الصف الطويل حتى آخره، بمجرد أن تنهض وتهوى الثلاثة والأربعين قدما المحمولة فى آن .تحرك الصف إلى الأمام ، فى غلالة من السديم بعفوية .

أكلحت طبقة من الغبار كل هذه الوجوه، كتلك التى يلحظها المرء، جاثمة فوق الأثاث ،فى البيوت المهجورة . فيدون عليها ما خطر بباله من توافه . طرأ هذا ببالى حين لاحظت وجوه بعض هؤلاء النسوة، والأمهات الشابات، وهن يحملن أطفالهن، ويشرفن على الموت والخلاص من العبودية ، فيالقدر ما أظهر الغبار على وجوههن، ما وقر فى قلوبهن من أسى ، رباه ، وما أسهل قراءته ! لقد حددت العبرات معالم حروفه. كانت إحدى تلك الأمهات الشابات، مجرد صبية، آلمنى منها حتى النخاع قراءة هذه المعانى، ولك أن تتأمل، قدر ما يبوح به صدر طفلة كتلك صدر حرى بألا يعايش الكدر الآن ، بل كان جديرا بأن يحيا نضارة العمر وربيعه ..

هوت فى تلك اللحظة على الأرض مترنحة، بعد أن أدركها الإعياء، فهوى السوط عليها بدوره وسلخ قشرة من كتفها العارى . أجفلت من ضربة السوط كأنى

متلقيها . أمر السيد الصف بالتوقف ، و قفز من فوق حصانه . بدا مهتاجا ومتوعدا الفتاة، وذكر أن تكاسلها على هذا النحو، مصدر إزعاج كبير له ، وبما أن هذه آخر ما يعن له اغتنامه من فرص فإنه الآن بسبيله إلى تسوية الأمر. جثت على ركبتيها، ورفعت يديها، وشرعت هلعا فى العويل والمناشدة والتوسل، لكن السيد لم يلق بالا لذلك. انتزع منها الطفل ، وأمر من يقف أمامها وخلفها من المصفدين ، بأن يلقوها أرضا ، ويمسكوا بها ، ويجردوها من ثيابها. ثم طفق يضربها بسوطه كالمجنون، حتى تسلخ ظهرها، ظلت تجفل وتقاوم بصورة ينفطر لها القلب . أدار واحد من الممسكين بها وجهه، ونال عن مشاعره الإنسانية هذه جلدا وسبا ولعانا .

تطلع حجاجنا بأنظارهم، وعلقوا على البراعة التى يستخدم بها السوط. لقد قست قلوبهم بمعايشتهم العبودية لزمن طويل ويوما بيوم، بحيث لم يروا فى الصورة كلها شيئا غير ذلك يستحق التعليق . هذا كل ما يمكن للعبودية أن تعرضه، ما يؤدى بدوره إلى تحجر ما نطلق عليه ،الفص الأعلى للمخ الخاص بالمشاعر الإنسانية، فقد بلغ هؤلاء الحجاج من رقة المشاعر، ما جعلهم لايتركون ذلك الرجل يعامل حصانا بنفس الأسلوب .

رغبت فى إيقاف هذا كله ، وتحرير العبيد، لكن ذلك لم يكن ليسفر عن شيء، فحرى بى ألا أتدخل مطلقا فى الأمر، حتى لا أهان لتجاوزى تشريعات البلدة ، وانتهاك حقوق المواطن . ولو بقيت حيا ، ونعمت بالثراء، سأكون قاهرا للعبودية، ذلك ما أضعه نصب عينى، لكننى سأحاول أن أضع هذا فى مساره الصحيح ، بحيث أننى حين أقهر العبودية ، فلا يكون ذلك إلا بإرادة الأمة .

كان يقع على جانب الطريق وفى هذا المكان بالتحديد، حانوت للحدادة، وقد وصل الآن إقطاعى آخر، كان قد اشترى هذه الفتاة من مسافة تبعد عن هذا المكان بعشرة أميال، على أن تسلم له هنا، ليتمكن بواسطة الحداد من فض أغلالها الحديدية .

رفعت الأغلال عنها، وحدث شجار بين السيدين البائع والمشترى، حول من يدفع أجر الحداد . وبمجرد رفع القيود عن الفتاة، ألقت بنفسها ، بين عويل حار ونحيب لاينقطع، بين ذراعى ذلك العبد الذى أشاح بوجهه، أثناء جلدها بالسوط . ضمها إلى صدره، وأمطروجهها والطفل بالقبلات، وغسلهما بفيض من عبراته. ارتبت فى الأمر واستفسرت. أجل، كنت مصيبا، إذ هما زوج وزوجته. كان لابد من التفريق بينهما، وانتزاع الفتاة منه ، واستلزم الأمر أن تقاوم، وتصد، وتصرخ كمن أصابه مس من الجنون ، حتى واراها منعطف طريق عن العيان، و تمكنا من ثم من تمييز صرخاتها أثناء دفاعها باستماتة ، عن صرخاتها المكتومة. فماذا عن هذا الزوج والوالد، بعد رحيل زوجته وطفله، أو لن يشاهدا برفقته مجددا ؟ الحقيقة أن أحدا لم يكن يقوى على تحمل صورته هذه ، لذلك غادرت المكان، لكننى أدركت أننى لن أستطيع البتة محو صورته من ذاكرتى، فكلما وردت ببالى، انفطر لها القلب حزنا.

حططنا الرحال فى نزل صغير فى إحدى القرى، عند حلول الليل، وحين نهضت صباح اليوم التالى وتطلعت إلى الخارج، رأيت فارسا آتيا على صهوة جواده، فى ضوء النهار الجديد الباهر، وعرفت أنه السير أوزانا لى كيور هاردى وهو أحد أتباعى . كان يعمل على درب السادة الجديد، وكان متخصصا فى الترويج للقبعات الطويلة. كان يرتدى درعا كاملا من الفولاذ، من أحدث وأجمل الطرز، يصل إلى موضع خوذته، لكنه لم يكن يعتمر خوذة ، إذ لبس قبعة حريرية لامعة مرتفعة ، وكان المشهد لمن يرغب فى رؤيته مثيرا للضحك. كان ذلك أحد مشاريعى السرية الأخرى ، المقامة للقضاء على الفروسية، بجعل صورتها غريبة ومثيرة للسخرية. علقت بسرج السير أوزانا صناديق للقبعات الجلدية، وكان كل مرة يقهر فيها فارسا جوالا، يسبه إكراما لى، ويتحفه بقبعة، ويأمره باعتمارها . ارتديت ثيابى، وهرولت إلى أسفل للترحيب بالسير أوزانا، وتلقى آخر الأخبار منه . سألته :

" ما شأن العمل ؟"

" كما ترى، لم يبق لدى سوى أربع من هذه، بعد أن كان عددها ست عشرة قطعة، وقت قدومى من كاميلوت " .

" عجيب، إنك تتصرف على نحو ممتاز يا سيد أوزانا . أين تجولت فى الفترة الأخيرة ؟"

" إننى قادم للتو من وادى القداسة ، زاد فضلك سيدى " .

" إننى متجه بدورى إلى هذا المكان . أهناك شيء فى الدير خلاف المعتاد ؟ "

" لاجدل فى ذلك على إجماله . .... قدم له طعاما كافيا يافتى، ولا تقتر، أما أنت فاخبرنا بثمن قبعاتك ، ثم سرعان ما يتفقون معك ، ويلبون ما ذكرته لهم. .... سيدى، إننى أحمل أنباء جد خطيرة، وما شأن هؤلاء الحجاج ؟ وليس أمامك أيها الأخ الطيب، سوى الإصغاء والإلمام بما سأقصه عليك، وما يعنيك فى تلك القصة، فبما أنك تمضى فى البحث سدى، وأنك تسعى بلا طائل فإن حياتى تكون رهنا بتعهدى وبالرسالة المكلف بها ، وهاهو وعدى ورسالتى، أعنى : أن حدثا كالذى وقع، لم يحدث مثله إلا كل مائتى عام، فتلك هى المرة الأولى والأخيرة ،التى ذكر فيها أن من سوء الطالع أن يضيق وادى القداسة إلى هذا الحد بأمر من الله العلى ، محق الحق والعدل ، والمعين، فى حين أن الأمر، .. "

انطلق فى التو عشرون حاجا، فى هذا الهتاف الجماعى المدوى :" لقد توقفت مياه النبع الإعجازى عن التدفق !"

"قولكم هو الصواب ، أيها الطيبون . كنت أوشك على النطق به ، قبلكم ".

" هل أقدم أحدهم على الاغتسال بمائه مجددا ؟"

" كلا، يثور شك حول ذلك ، لكن أحدا لايصدق ذلك . يعتقد بارتكاب خطيئة أخرى، لكن أحدا لايعرف كنهها ".

"وبماذا يشعرون إزاء هذه المصيبة ؟ "

" لاقبل لأحد بوصفها فى كلمات. فالنبع يعانى الجفاف لتسعة أيام الآن . وقد بدأت إقامة الابتهالات منذ ذلك الحين، فضلا عن مظاهر الحداد فى لبس الخيش وذرالرماد، وتسيير المواكب الدينية ، ولم يتوقف ذلك ليلا أو نهارا، وقد نال التعب من كل الرهبان والراهبات واللقطاء ، وعلقوا دعاء مكتوبا على رق، فلم يعد أحدهم بقادر على رفع صوته بالابتهال . أرسلوا أخيرا فى طلبك، سيدى الرئيس ، لتدلى بدلوك فى هذا الأمر بواسطة السحر والشعوذة، وحين تعذر قدومك ، بعثوا برسول، لإحضار ميرلين، وقد حضر هناك منذ ثلاثة أيام، ويقول إنه سيأتى بتلك المياه ، حتى لو لجأ فى سبيل ذلك إلى تفجير الكون كله، وتدمير ما عليه من ممالك، وقد أقدم فى جرأة على أداء أعماله السحرية ، وذلك باستدعاء الأشرار من ذويه ، باستنفارهم إلى هناك لمعاونته، و لم يأت حتى الآن بنسمة منداة، أو بما يشبه الرذاذ، على سطح نحاسى عاكس، ولا يمكنك حصر ما تصبب منه من عرق ما بين طلوع النهار حتى نهار اليوم التالى ، نتيجة جهوده المضنية فى أداء هذه المهمة، فإذا كنت "

أعد الإفطار . وبمجرد انتهائى منه ، أطلعت السير أوزانا على كلمات، على جانب قبعته : " قسم الكيمياء، خاص بالمختبر، قسم ج، بى إكس إكس بى، أرسل قطعتين من الحجم الأول واثنتين من رقم ٣، وستة من رقم ٤، كلها مع تفاصيل بالملحقات المتاحة ، واثنين من المساعدين المدربين ." و قلت :

" أيها الفارس الهمام ، اذهب الآن إلى كاميلوت، بأسرع ما تستطيع ، وقدم المكتوب إلى كلارنس، وأخبره بأن يبعث بالمطلوب إلى وادى القداسة بأقصى سرعة ممكنة " .

" سأفعل سيدى الرئيس " ثم غادر المكان .

الفصل الثانى والعشرون

البئـــر المقـــدســـة

الحجاج بشر أيضا ، وإلا تصرفوا على نحو مغاير . قاموا برحلة طويلة شاقة، وحين أوشكت الآن على النهاية، وعلموا أن الهدف الرئيس الذى قدموا من أجله قد زال ، لم يفعلوا ما تفعل الجياد والقطط والهوام، بالعودة إلى حيث أنت، وممارسة حياتها العادية، كلا، لم تفعل ، فبعد أن كانوا فى السابق متلهفين لرؤية البئر المعجزة ، ازدادت لهفتهم الآن أربعين ضعفا، لرؤية مكان البئر . الأمر هنا لاعلاقة له ببشر أسوياء .

قضينا وقتا طيبا، وقبل غروب الشمس بساعتين، كنا وقوفا فوق تخوم وادى القداسة، واستشرفت عيوننا إياه، من جميع الجهات، وتبينا معالمه . تلك المعالم البارزة، وهى الأبنية الثلاثة الضخمة . تناهت فى البعد والعزلة، فى الصغر ، كممتلكات أكليريكية تقع وسط قفر، بدا كفلاة، وهو كذلك بالفعل. لم تنقطع مظاهر الحداد عن هذا المشهد ، حيث لفه السكون، وبدا مشبعا بالموات. لكن صوتا هناك، قطع الصمت، لمجرد أن يضيف إلى أحزانه المزيد، كان هذا الصوت المتخافت ، والقادم من بعيد، رنين أجراس تردد إلينا على نحو متقطع، مع النسيم العابر، بالغ السكون والرقة، ما حال بيننا وبين أن نعرف إن كنا أصغينا إليه بآذاننا أم بأرواحنا.

وصلنا الدير قبل حلول الظلام، وهناك أنزل الرجال الأمتعة من فوق ظهور الحمير، أما النسوة فأرسلن إلى دير الراهبات . تزايد الآن صوت رنين الأجراس،

وكأن وقع دويه الحزين على الأذن رسالة تنذر بشر مقيم . استولت مشاعر اليأس لدى المؤمنين بالخوارق على قلب كل كاهن، وأعلنت عن نفسها، فى شحوب محيا كل منهم. انتشر فى كل مكان، لابسو المسوح السوداء، والخفاف الرقيقة، أشباح قد تغطت الوضر والشحم، كانوا يتحركون فى عجلة فى الأرجاء، ثم يختفون، دون أن تصدر عنهم جلبة، كشخوص الكوابيس، أو كأشياء من صنع الخيال .

بدا رئيس الدير كاسف البال ، بعد أن أبدى سروره بلقائى . تساقطت عبراته تلقائيا . ثم قال :

" لاتتوانى يابنى، واشرع فى الإنقاذ . فالهلاك قادم لامحالة إذا لم تعد المياه مجددا، ولأشرفت على الزوال، تلك المأثرة الجليلة التى بقيت على مدار مائتى عام . ضع فى اعتبارك ألا يخرج ما ستستخدمه من سحر عن إطاره الدينى ، لأن الكنيسة لن تقبل أن يكون ما يقدم لها من عمل ، قد تضمن سحرا من عمل الشيطان . "

" تأكد ياأبت، أننى حين أبادر بعمل، فلن يكون للشيطان فيه نصيب . لن أصنع من السحر مايتصل بعلاقة بالشيطان، أو أستخدم من أدوات لم تخلق بغير يد الله. لكن هل يلتزم ميرلين فى عمله بصحيح الدين ؟"

" آه، ذكر أنه سيفعل يابنى، وأقسم أن يفى بما وعد به " .

" حسنا ، فلندعه والحال هكذا يعمل ."

" لكن المؤكد أنك لن تقعد دون عمل، بل ستقدم يد العون ، أليس كذلك ؟ "

" لن يفيد البتة يا أبت حدوث تداخل فى أساليب العمل، وليس ذلك ضمن القواعد المتفق عليها . لايجب أن يساوم أى من الطرفين على عمل الآخر. علينا أن نبدأ بالأدنى ، ونترقب، وسوف نحقق نتيجة طيبة فى نهاية المطاف. أما وقد منح ميرلين، حق بدء العمل، فلا قبل لساحر آخر، بأن يمسسه، حتى يتخلى طوعيا عنه ."

" لكننى سأسحب ذلك منه، فالحدث جلل، وتصرفى هذا له مايبرره . ولو لم يحدث ذلك ، فمن عساه أن يفرض قانونا على الكنيسة ؟ إن الكنيسة هى التى تطبق الشرع على الجميع، وما شاء لها أن تفعل ستفعله، وليغضب من يغضب . سأسحب منه الأمر ، على أن تبدأ العمل منذ اللحظة " .

" هذا لايصح ياأبت . لاشك كما تذكر ، فى أنه حيثما تكون القوة، يفعل المرء ما يشاء، ولا يراجعه أحد، لكننا نحن السحرة الضعفاء لا نتبع هذا النهج . إن ميرلين ساحر ممتاز، فى نطاق محدود، وهو يتمتع بشهرة كبيرة على المستوى المحلى . إنه يثابر فى مجاله، ويفعل قدر استطاعته، وليس من اللائق بى استلاب ما يؤديه من عمل، مالم يتركه طواعية " .

أشرق وجه رئيس الدير .

"آه، إذن فالأمر بسيط . هناك أساليب تدفعه إلى تركه ."

"كلا يا أبت ،كلا، فالأمر كما يقولون لايحتاج إلى براعة . إنه لو دفع ضد رغبته، فسيدفع عن نفسه بسحر شيطانى ، ربما يشل حركتى، إلى أن أعثر على وسيلة لإبطاله، وقد يستغرق هذا شهرا . يمكننى استخدام وسيلة سحرية بسيطة ، أسميتها الهاتف، لن يستطيع التوصل إلى طلسمها، ولو بعد مائة عام . أجل، إنك تدرك أنه قد يشل حركتى شهرا . أتود المخاطرة بشهر، فى وقت حرج كهذا ؟" .

" شهر ! إن مجرد التفكير فى هذا الأمر يروعنى . الأمر كما ترى يابنى . لكن قلبى مثقل بخيبة أمل كهذه . ارحل الآن ودعنى ألبس روحى لباس الترقب والسأم، كما ظللت على ذلك طيلة العشرة أيام الماضية، أتظاهر هكذا بما يدعى الخلود إلى الراحة، فالجسد نزاع ، إلى إظهار شارات السكينة، حيث لاينعم باطنه بشيء منها ."

ربما كان الأفضل لميرلين طبعا، ومن كل الوجوه التخلي عن اللياقة ، بتركه العمل، واعتبار الظروف غير مواتية، لعجزه وهو ساحر زمانه ، عن إعادة مياه البئر إلى التدفق :بمعنى أن ما تسبب فى شهرته من معجزات كبرى، كان لايتفق حدوثها إلا فى انفراده بنفسه ، وأنه لايستطيع إصلاح البئر ، وسط هذا الحشد من المشاهدين، وأن هذا الحشد لايتفق وتحقيق معجزة فى ذلك اليوم على يد ساحر، كما هو حال عالم روحانى، يحقق معجزة فى أحد المناجم، حيث لن يشك أحد ، فى اشتعال الغاز فى اللحظة الحاسمة ، ودمار كل شيء . لكننى كنت غير راغب فى انسحاب ميرلين من المهمة المنوط بها، حتى أتهيأ لامتلاك زمام الأمور ، ولن أتمكن من ذلك قبل وصول ما أرسلت فى طلبه من كاميلوت ، وقد يستغرق ذلك يومين أو ثلاثة .

أعطى وجودى أملا للرهبان، وأبهجهم كثيرا، ودليل ذلك تناولهم وجبة مشبعة، ربما حدث ذلك للمرة الأولى، منذ عشرة أيام . وبمجرد امتلاء المعى بما ينبغى من طعام، سرعان ما ارتفعت معنوياتهم، وبمجرد أن وزع عليهم شراب الميد، أخذت معنوياتهم فى الصعود. تحير الجميع مما يحدث ، بسبب ما شاع فى الأسرة الدينية من انشراح ، حيث قضت ليلة سعيدة بهذه المناسبة، وبقينا نحن نترقب سير الأحداث، وكان التواصل يتم بيننا على هذا الأساس . سارت الأمور على خير وجه . كانت القصص القديمة الجميلة والمحاطة بالشكوك تروى، فتنهمر منها العبرات، وتفغر منها الأفواه الغائرة، وتهتز لها البطون المنتفخة من كثرة الحَك، ثم تجأر بتراتيل غير مفهومة ، فى نبرة واحدة عالية، فتحجب هدير الأجراس المتصاعد .

شرعت فى نهاية الجلسة فى قص رواية من عندياتى، وحققت بذلك سبقا . لم يتحقق ذلك السبق سريعا ، فأهل هذه الجزيرة ، لايتجاوبون بالطبع مع التداول المبكر للدعابة، لكنهم بدأوا يضجون بالضحك فى أماكنهم، بعد أن قصصتها للمرة الخامسة ، تداعى الواحد تلو الآخر بعد الثامنة، ودارت بهم الدوائر فى الثانية عشرة،

وصاروا حطاما فى المرة الخامسة عشرة، فجئت بمكنسة وأزلتهم عن بكرة أبيهم ، وهذا طبعا بالمجاز . إن استجابة سكان الجزر هؤلاء تأتى بطيئة فى البداية ، لكنها إزاء مايبذل من جهد، تسير فى الاتجاه المعاكس، تدريجيا.

كنت عند البئر فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى، وكان ميرلين حاضرا، يمارس السحر كقندس، لكنه لم يثمر رطبا . كان منحرف المزاج، وفى المرة التى أشرت إلى احتمال أن يكون هذا الاتفاق صعب التنفيذ على مبتدئ ، كان يطلق لسانه باللعان ، كأسقف، أسقف فرنسى، أيام مجلس الوصاية على العرش .

أتت الأمور بحسب ما توقعتها. لقد كان الينبوع فى الأصل ، بئرا عادية ، ككل الآبار، حفرت بطريقة عادية، وبطنت من الداخل بالأسلوب المعتاد . ولا شيء فيها يشير إلى إعجاز البتة. حتى أن الأكذوبة التى اكتسبت بها صيتها ، لم تكن تحمل إعجازا أيضا ، لأننى أستطيع بدورى إطلاقها، ويداى مقيدتان خلف ظهرى . وقعت البئر داخل غرفة مظلمة، مقامة وسط مصلى صغير فى الكنيسة بنى بالحجارة، وعلقت على جدرانه لوحات دينية، صورت بحرفية ، تمكنك من الإحساس بفن الطلاء بالكرومو أى باللون الصافى ، كما أنها تعرف تاريخيا، باللوحات التى تصور شفاء المرضى بمعجزة، أحدثتها المياه ، ولم يطلع عليها أحد . لم يرها سوى الملائكة، فهم حضور دوما، حين توشك معجزة على الحدوث. ربما كان ذلك ليظهروا ضمن شخوص اللوحة . فالملائكة شغوفون شغف رجال فرقة مطافئ بظهورهم فى الصور ، ويمكنك مراجعة ذلك فى لوحات الرواد القدامى . أضيئت غرفة البئر بضوء المصابيح الخافت، وكانت المياه تسحب من قبل الرهبان بسلسلة ودلاة، وتصب فى قنايات، موصلة إلى خزانات حجرية خارج المصلى ، أعنى أن ذلك كان يحدث مع توفر المياه لسحبها، فى حين لايتمكن أحد من دخول غرفة البئر سوى الرهبان . دخلتها فلدى تصريح مؤقت بالدخول، فضلا عن موافقة زميل المهنة، المساعد . لكنه لم يدخلها

بدوره . لقد استخدم كل وسائل السحر، ولم يستخدم عقله . فلو أنه خطا داخلها ونظر بعينيه، بدلا من إعمال عقل مشوش، لتمكن من إصلاح البئر، بالوسائل المعروفة، ولحول ما قام به إلى معجزة بالأسلوب المعتاد ، ولكن هيهات، ذلك إنه ساحر أحمق، ساحر آمن بسحره هو، ولا قبل لساحر ضللته خرافة كهذه، بإحراز أى نجاح .

كانت وجهة نظرى أن البئر قد ارتشحت مياهها، حتى أن بعض أحجار الجدار فى عمق البئر، قد تساقطت وكشفت عن فوالق تسربت منها المياه . قمت بقياس طول سلسلة رفع الماء من البئر، فكان ٩٨ قدما . استدعيت اثنين من الرهبان، وأغلقت الباب، وتناولت شمعة، وطلبت منهما إنزالى داخل البئر فى دلو . حين خلص دلاء السلسلة إلى القاع ، أكدت الشمعة شكى، فقد زال جزء كبير من الجدار، وكشف عن فالق كبير .

شعرت بندم وشيك، سببه أن نظريتى بشأن عطل البئر كانت صحيحة، لأنه كانت لدى نظرية أخرى، تتضمن نقطة جوهرية أواثنتين لإحداث معجزة . تذكرت ذلك فى أمريكا، بعد قرون كثيرة لاحقة ، حيث إنه حين أصيبت إحدى آبار الزيت بعطب، لجأوا إلى تفجيره بأصابع الديناميت. فإننى حين أجد البئر معطلة، ولا تفسير هناك لهذا العطب، يمكننى إبهار أولئك الورعين، بإسناد مهمة إلقاء القنبلة إلى شخص عادى. وكنت أرى إسناد المهمة إلى ميرلين . ولكن اتضح الآن أن فرصة إلقائها غير معروضة. لاتسيرالأمور دوما على نحو ما يشتهى المرء، فلا مجال هنا لشعوره بالحزن ، وحرى به أن يتدبر أموره ، وذلك ما قمت به تحديدا . قلت بأننى لست فى عجلة من أمرى، وإننى أستطيع الترقب، فضلا عن أن تلك القنبلة سيكون لها مفعول السحر . وذلك ما حدث بالفعل.

حين عدت إلى أعلى البئر مجددا ، صرفت الرهبان، وأدليت أنشوطة، وكان عمق البئر مائة وخمسين قدما، وفيه من المياه ما يقدر بواحد وأربعين قدما ! استدعيت راهبا وسألته :

" كم عمق البئر ؟ "

" ذلك لا أعرفه سيدى ، فلم يثر هذا الأمر من قبل " .

" كم يبلغ الماء فيه عادة ؟"

" كان خلال هذين القرنين، يصل إلى الفوهة تقريبا. وذلك توارثناه عن أسلافنا " .

هذا صحيح فى الوقت الحالى على الأقل، فهناك شاهد عليه، وهناك عديد من الشهود فضلا عن الراهب : فمجرد عشرين أو ثلاثين قدما من السلسلة، قد بدا فيها مايشير إلى كثرة الاستخدام ، وأظهر بقيته الصدأ والجفاف . فماذا حدث حين جف البئر فى المرة الثانية ؟ لاأشك فى أن هناك رجلا محنكا أتى و نجح فى غلق الشق، ثم صعد إلى أعلى وأخبر رئيس الدير بأنه كشف عن نبوءة سماوية ، تقول إنه لو قام بهدم الحمام المدنس بالإثم ، لتدفقت مياه البئر مجددا . أما الآن وقد عاود الشق الانفلاق، فيلجأ هؤلاء الأصاغرة إلى الدعاء ، وإقامة المواكب الدينية، ودق الأجراس، سائلين السماء العون، حتى جفت حلوقهم، وسفعوا، ولم يطرأ ببال جاهل منهم أن يدلى بحبل فى البئر، أو ينزل إلى قاعه، ويبحث حقيقة الأمر . من أصعب الأمور ،تخليص عقول البشر مما علق بها من عادات قديمة . إنها تنتقل إليهم انتقال الصفات الوراثية والملامح الشكلية، وكان الحاصل فى تلك الأيام، أن أحدا إذا واتته فكرة، لم يعمل بها أسلافه ، فإن ذلك بالضرورة يدفع به إلى الشك بأنه خرج عن الشرع والعرف . قلت للراهب :

" إن إعادة دفق المياه إلى بئر يعد معجزة عصية على التحقيق ، لكننا سنشرع فى المحاولة ، حال فشل زميلنا ميرلين . إن زميلنا ميرلين، ساحر لايشق له غبار، ولكنه يبرع فى سحر الأفنية فحسب، وربما لاينجح، بل فى الحقيقة، إنه على الأرجح لن ينجح. لكن ذلك لايمس صدقيته فى قليل أو كثير، فمن يقدر على صنع هذا النوع من المعجزات، لقادر على إدارة فندق ".

"فندق ؟ أظن أننى لم أسمع .."

" الفندق ؟ ذلك مايعرف بالنزل . فمن يقدر على تحقيق معجزة كهذه يمكنه إدارة نزل . يمكننى صنع هذه المعجزة ، وسأفعل ذلك، رغم أننى لم أحاول أن أخفى عنكم أنها من بين ما يتطلب بذل أقصى ما لدى السحر من سبل . "

" لايلم بتلك الحقيقة سوى الإخوة الرهبان ، لأنها فى السابق كانت محفوفة بمصاعب جمة ، قد تستغرق عاما . ومع ذلك فقد أرسلك الله خير معين، وسوف نصلى لذلك حتى النهاية ."

كان من البراعة أن تشيع فى الأنحاء فكرة أن المسألة محفوفة بمصاعب جمة . وبتلك الوسيلة من الإعلان المباشر ، يمكن تضخيم أصغر الأشياء . لقد اقتنع الراهب تماما بصعوبة المهمة، وسيقنع بها الآخرون . وسيدوى ذلك الخبر فى الآفاق خلال يومين .

التقيت بساندى فى طريق العودة إلى البيت . حيث كانت تجرى معاينة على النساك ، قلت :

" أود أن أجرى ذلك بنفسى . فاليوم الأربعاء، أتقام حفلة مابعد الظهيرة ؟"

" أى حفلة، لو تفضل سيدى " .

" حفلة ما بعد الظهيرة . هل يستمرون فى العمل ما بعد الظهيرة ؟"

" من ؟ "

" النساك بالطبع ؟"

" يواصلون العمل ؟"

"أجل ــ يعملون . أليس ذلك واضحا ؟ هل يواصلون العمل المعتاد ؟"

" العمل المعتاد ؟ "

" العمل المعتاد ؟ أجل، ماذا فى ذلك ؟ لم أر غباء كهذا من قبل ، ألا تفهمين شيئا البتة ؟ فى كلمات واضحة، أيغلقون الحانوت، وينهون اللعب، ويخمدون الحطب المشتعل .. "

"يغلقون الحانوت، ينهون .. "

" لاعليك، انس ماذكرت، إنك تشعرينني بالسأم . يبدو واضحا عجزك عن فهم أبسط الأشياء " .

" أود لو استطعت إرضاءك سيدى ، إن ما يحزننى ويشعرنى بالأسف، أنى أواجه فى ذلك إخفاقا، إلا أننى مجرد فتاة صغيرة لم تنل شيئا من العلم، لكونى لم أعمد فى المهد، فى بحور العلوم العميقة تلك، تلك التى عمد بمائها صاحب السيادة، الناهل من أكثر أسرارها قدسية، حيث يحاط سيادته بمنزلة الوقار لدى بصيرة مخلوق حقير، حيل بينه وبين ذلك الدأب العظيم، لا يرى فى وضعه المزرى هذا، سوى نموذج لنوع آخر من الحاجة والعوز، يبديها الناس للعين الرحيمة ، فى أغطية من الأسمال اكتست برماد القبر، وحين يواجه من تغشى عقله الظلمات ، بعبارات نادرة من أسرار علوية ، مثل " إغلاق هذه الحوانيت "، و"انتهاء اللعب"، و"خبو النيران"، فإنه بنعمة الله لاينفعل من حسد قد يبديه عقله، ولسان يستطيع النطق بعجائب الكلم بصوت رخيم ، وإذا نتج عن هذا العقل الضعيف اضطرابا، وفشل فى إدراك مضمون

العجائب، وإذا لم يكن عسر الفهم طارئا بل كان حقيقيا وثابتا، فاعلم جيدا ، أن ذلك يكون أسمى آيات الإجلال، فلا يجوز ازدراؤه ببساطة، ولا ينبغي ذلك، وإنك قد لاحظت ميولى العقلية والنفسية، وتدرك أنى وددت ألا أستطيع ، وأننى لن أتمكن مما لا أستطيع ، كما أننى لا أقوى الآن ولن أستطيع ، ولن أتمكن، حتى لو توفرت لى فرصة تحقيق الفهم، لذلك أسألك أن تتجاوز عن مثالبى، فإنك سيدى المبجل، والقائد الأمثل ، ستغفر ذلك لى بما لديك من عطف وبر " .

لم أستطع فهم كل ما قالت، بما حمل من تفصيل، لكننى ألممت بالفكرة بوجه عام، وفى هذا ما يكفى ليشعر المرء بخزى من نفسه.

ليس من الإنصاف ، ذكر تقنيات القرن التاسع عشر، أمام طفلة من القرن السادس لم تنل تعليما، وأن تبكت على هذا النحو لعجزها عن استيعاب مفرداتها ، وقد أنجزت ما استطاعت لمجرد أنها حاولت ذلك، ولا عيب فى عجزها عن إنجاز أعمال كبرى، لذلك تقدمت إليها باعتذار . هكذا سرنا وئيدا ، معرجين على أوجرة النساك، نتبادل أطراف الحديث فى ود، زاد عن السابق .

بدأت تدريجيا أنحى هذه الفتاة، بوقارمشوب بتوجس وغموض، لأنها فى اللحظة التى غادرت المحطة، ولحقت مباشرة بقطارها، أطلقت مباشرة عبارة من جملها اللفظية العابرة للقارات، والتى لايحدها أفق، ووضح أمامى الآن أننى أقف فى حضرة أم اللغة الألمانية المهابة . تأثرت بهذا ، بحيث إذا بدأت أحيانا ، تفرغ فوقي إحدى عباراتها، فإننى ودون إدراك منى أتخذ موقف الوقار ذاته، وأقف موقف الأعزل ، ولو كانت الكلمات ماء لغرقت فيه لامحالة. إنها تتبع الطريقة الألمانية بحذافيرها: سواء كان ما ورد بخاطرها، مجرد تعليق أو عظة أو معلومة موسوعية، أو قصة حربية، فإنه يمكنها وضعها فى جملة واحدة ، أو الموت فى سبيل ذلك. فحينما

يغوص الأديب الألمانى فى جملة من الجمل ، فهذا آخر ما تراه منه حتى يعاود الظهور على الجانب الآخر من محيطه الأطلنطى، وقد أمسك بين فكيه بـ "فعل" .

تنقلنا طوال فترة ما بعد الظهيرة من ناسك لآخر . شاهدنا أغرب معرض للوحوش. بدت المنافسة الكبرى بينهم فى قدرة أى منهم على أن يبدو الأقذر ، والأكثر مرتعا للهوام . بدوا فى مسلكهم وأوضاعهم، تعبيرا نموذجيا عن اقتناعهم الذاتى بما يفعلونه . كان من مفاخرهم الفريدة ، رقاد أحدهم فى الوحل وتجرده من ثيابه وترك نفسه للحشرات كى تلدغه، ويصاب بالتقرحات، دون أن تتحرك فيه شعرة، أما المفخرة الأخرى، فالاضطجاع فوق صخرة، طوال اليوم، لجذب أنظار حشود الحجاج إليهم، وتأمل ثالث المفاخر ، وهى الانحناء المتواصل مع التجرد من الثياب، أما الرابعة فالسير على أربع أعواما، وسحب ثمانين طنا من الحديد، والخامسة عدم الاضطجاع أثناء النوم، بل الوقوف بين الآجام الشائكة، والشخير لدى تجمع الحجاج حوله للفرجة، هناك امرأة ، طاعنة فى السن، لم تبق منها مسحة من جمال، غطاها الوضر والوسخ من قمة رأسها إلى كاحليها، بعد أن حرمت المياه أن تمسها طوال سبعة وأربعين عاما .

وقفت جماعات من الحجاج المحدقين ، تحيط بكل ما يجرى من مشاهد غريبة، تلفهم حيرة مشوبة بوقار، وحسد لما ناله هؤلاء الأتقياء الزاهدين من لدن الله القادر بما فيهم من ورع خالى الدنس.

اتجهنا مباشرة لمشاهدة أحد كبار العظماء . كان صيته يدوى فى الأرجاء ، ويطبق كل الآفاق المسيحية ، وقد قصده المشاهير والنبلاء من أقصى بقاع الكون لينحوه بهالات الوقار . كان مقره وسط أرحب جزء فى الوادى، وقد غص المكان بكل حشوده .

وقع مقره على قاعدة عمودية بارتفاع ستين قدما، أعلاها منصة فسيحة . إنه الآن يؤدى ما دأب على عرضه، كل يوم على مدار عشرين عاما فى نفس المكان، فيقوم بإحناء جسده حتى قدميه، بحركة سريعة ودون توقف ، وتلك هى طريقته فى أداء الصلوات . تابعته بساعة إيقاف، فوجدته قد حقق ١٢٤٤ حركة فى ٢٤ دقيقة و٤٦ ثانية . بدا من المؤسف أن تذهب كل هذه القوة بددا ، فتلك الحركة هى الأكثر إفادة فى إدارة الآلات ، والعجلات، لذا سجلت ملاحظة ، فى سجل اليوميات، بهدف أن يأتى يوم أستخدم فيه نظام الخيوط الممغنطة، لتدار به آلة الحياكة . نفذت فيها بعد ذلك المشروع، وأنجزت به عملا كبيرا على مدار خمس سنوات، حيث بلغ إنتاجه ثمانية عشر ألف قميص من الكتان من المستوى الأول، بمعدل عشرة قمصان فى اليوم الواحد . جعلته يعمل يوم الأحد ، فيوم الأحد كبقية أيام الأسبوع، ولا علة فى إبطال قوة كهذه . لم تكلفنى هذه القمصان كثيرا، عدا قيمة القماش، الذى فصلته بنفسى، فلم يكن صوابا إسناد مهمة! كهذه إليه ، وقد بيعت القمصان ، على الفور للحجاج بدولار ونصف الدولار للقطعة الواحدة، وهى تعادل قيمة خمسين بقرة ، أو حصان أصيل فى مملكة آرثر . اعتبر الرهبان وسيلة ناجعة لتجنب الوقوع فى الإثم، وعرض التابعين لى من الفرسان لافتات تعلن عن المنتج الجديد فى كل الأنحاء، بالرسوم التصويرية الضخمة، والنقش على المعدن . حيث إنه لم يكن هناك منحدر، أو صخر جلمود أو جدار مصمت ، على بعد ميل ، إلا وتمكنت من قراءة هذه العبارة فوقه :

"اشتر القديس الأصلى ستايلايت فحسب، المفضل لدى جميع النبلاء . والمطلوب لجودته " .

كان المال من الوفرة بحيث حار المرء فى كيفية إنفاقه . حين تراكم ، أنشأت خطا إنتاجيا خاصا بالسلع التى تليق بالملوك، ولوازم أناقة الدوقات، ومن فى منزلتهن، فضلا عن الياقات المكشكشة حول العنق ، والمفتوحة من الأمام، والملابس

المتحركة فى نصف الدائرة، والمشبكة بأطواق مطرزة صغيرة تنسل منها خيوط تتحرك كالريش باتجاه الريح، ثم تغير اتجاهها بسنادة خلفية، وتصعد فى لحظة بنصف دورة، فى الجزء الأمامى من الثوب القائم بحبال مثبتة توقيا للرياح . أجل، كان منتجا ممتازا ، من الطراز الأول .

لكننى لاحظت فى ذلك الوقت، أن القوة المحركة تقف على ساق واحدة، واكتشفت أن هناك خللا فى الساق الأخرى ، لذلك جردت البضاعة ، وبعتها بالجملة، وضممت السير بوردى جانيس إلى معسكر المدعومين ماليا، مع زمرة من أصدقائه، لأن العمل ظل متوقفا لنحو عام كامل، فبدأ الراهب الطيب فترة إجازته . لكنه كان مستمتعا بالعمل، ويمكننى ذكر ذلك بالأصالة عنه .

لذا فإننى حين رأيته للمرة الأولى، وجدت أن حالته العامة لم تكن تحتمل الوصف هنا . ويمكنك الاطلاع عليها فى كتاب حياة الرهبان(*).

(مارك توين)

(*) إن كل ما ذكرفى هذا الفصل عن النساك هو من كتاب ليكى، وقد أجريت عليه تعديلات جوهرية . لم يكن هذا الكتاب ترجمة حياة ، ولكنه مجرد رواية، وكان ما أدرج المؤرخ من تفاصيل واضحة ، من الضخامة بحيث لا يعاد سردها هنا .

الفصل الثالث والعشرون

إصـــــلاح البئـــــر

ذهبت ظهيرة السبت إلى البئر واطلعت على ما يجرى هناك .كان ميرلين منشغلا بإثارة مسحوق يشتعل بالأبخرة ، ضاربا فى الهواء بيده، ومهذرما بأقوى مـن المـرات السابقة بكلمات غير مفهومة، إلا أنه بدا محبطا ،إذ لم يتسن له حتى الان ارتشاح قطـرة واحدة من مياه البئر بعد . قلت من ثم :

" كيف تسير الأمور معك حتى الآن أيها الزميل ؟"

" تأمل ، إننى منشغل تماما، فى تجريب أقوى ما عرف السحرة الكبار من فنون السحر فى بلاد الشرق ، ولم تفلح معى ، ولم أظفر منها بشيء. فاهدأ حتى أفرغ . "

أثار دخانا فى تلك اللحظة ، أظلم المنطقـة برمتهـا، فـانزعج النسـاك ، حيـث هبت الريح باتجاههم، فهبط فوق أوجرتهم فى ضباب كثيف متحرك. أطلق وابلا من الكلمات لتنسجم مع الموقف ، ثم لوى جسده، وضرب الهواء بيديه بطريقـة عجيبـة. هوى على الأرض بعد ثلث الساعة لاهثا ، بعد أن نال منه التعب. وصل رئيس الدير فى هذه اللحظة، بصحبة عدد من الرهبان والراهبات، ومن خلفهم، حشد من بعـض مئات من الحجاج، وأيتام الدير، شغلوا مكانا كبيرا. زحف الجميـع بـسبب الـدخان العظيم، والكل فى حال من الانفعـال. استفـسر رئـيس الـدير فى لهفـة عـن النتـائج. فقال ميرلين :

" لو أن هناك عملا يبذل من مخلوق لفك الطلسم المرصود بهذه المياه ، فلن يزيد أبدا، عما بذلته حتى الآن، لكن ذلك كله باء بالفشل، حيث إننى الآن وأنا أدرك ذلك، فإن ما كنت أخشاه قد تأكدت حقيقته ، وعلامة هذا الفشل، هى أن أقوى روح شريرة عرفها سحرة الشرق، تلك التى لاينطق باسمها أحد إلا لقى حتفه، قد ألقت تلك الروح بطلسمها على هذه البئر. لن يستطيع أحد النطق أو إبداء الرغبة فى الكشف عن سر ذلك الطلسم، ولاقبل لأحد بإبطال مفعوله . أيها الأب الصالح لن يعود للمياه تدفقها إلى الأبد . لقد بذلت أقصى طاقة يبذلها بشر فاسمح لى بالانصراف ".

أوقع ما قاله ميرلين برئيس الدير فى حالة من الهلع الشديد، التفت إلىّ وعلامات الهلع، بادية فى وجهه ،وقال :

" سمعتُ ما قال ، أحقيق هذا ؟"

" جزء مما قال " .

" ليس كله، ليس كله إذن . فأى جزء مما ذكره هو الصحيح ؟"

" لقد ألقت تلك الروح ذات الاسم الروسى بطلسمها على البئر " .

" يالطف الله، قد هلكنا إذن ."

" جائز " .

" لكن ذلك ليس مؤكدا . أتعنى أن ذلك ليس مؤكدا ؟"

"ذلكم الصواب " .

" كيف ذلك، وأنت تعنى أيضا أنه حين يذكر بأن أحدا لاقبل له بفك الطلسم، فإن ..."

"أجل، إنه حين يقول ذلك، فإنه لايذكره باعتباره يقينـا ثابتـا . فهنـاك أحـوال يمكن فى ظلها أن تتوفر فرصة فك الطلسم ببذل مزيد من الجهـد، هنـاك إذن فرصـة صغيرة ، متناهية فى الصغر قد تحقق المرجو " .

" الشروط .."

" أوه، ليست من الصعوبة. لاتخرج عن رغبتى فى إخلاء الأماكن المحيطة بالبئر لمسافة ميل ، أتمكن خلالها من الخلو بنفسى كلية اليـوم، مـن وقـت الغـروب، إلى أن أتمكن من إزالة العطب، وألا يسمح لإنسان بتخطى تلك المسافة مـن الأرض بغـير إذن منى " .

" أهذا كل شيء ؟"

" أجل ."

" أليس هناك ما تخشاه ؟"

" أوه ،البتة . ربما يفشل المرء، بالطبع، وربما يصادفه النجاح، وعليه أن يجـرب، وإننى متأهب للعمل الآن . هل تهيئ لى الظروف الآن ؟ "

" كلها، بل كل ما طلبت . سأصدر أمرا بهذا الخصوص ."

قال ميرلين بابتسامة شريرة :

" انتظر قليلا، أتعلم أن من يتصدى لفك هذا الطلسم، عليـه أن يعـرف أولا اسم الروح الشريرة ؟"

" أجل، وأنا أعرف اسمها " .

" ثم هل تدرك أيضا، أن معرفة الاسم ليـست براعـة فى ذاتهـا، ولكـن عليـك فضلا عن ذلك النطق به ؟ هـا ــ هـا ! أتدرك ذلك ؟"

" أجل ، أعرف ذلك أيضا " .

" تعلم ذلك ! هل تتحامق ؟ أقررت أن تنطق بالاسم ثم تلقى حتفك ؟"

" أنطق به ؟ أجل بالتأكيد . سأنطق به حتى لو كان الاسم هو ويلز . "

" إذن فإنك هالك لامحالة . سأذهب لأخبر آرثر " .

" تفعل خيرا . خذ مخلاتك وامض إلى حال سبيلك يا جون و . ميرلين ، ليس عليك الآن سوى العودة إلى البلدة ، وقياس أحوال الطقس " .

كانت رمية من رام ! أجفلته، لأنه أسوأ قارئ طقس فى المملكة . حينما يأمر برفع شارات الخطر بطول الساحل، كان الجميع على يقين من أن الأحوال الجوية ستظل على حالها من الهدوء ، طيلة أسبوع، وفى المرة التى يتنبأ فيها بطقس صحو، تمطر السماء قطعا من آجر . لكننى استبقيته فى إدارة قراءة أحوال الطقس التابعة للحكومة هناك، لتشويه سمعته . لذلك عكرت تلك الرمية مزاجه ، فطلب البقاء، للاستمتاع بمشاهدة هلاكى، بدلا من رحيله وإبلاغهم الأمر .

وصل مستخدماى من الخبراء فى العشية، وقد نالا من التعب الكثير ، لسفرهما وسط الأنواء . كان لديهما بغالا لحمل الأمتعة على الطريق، وقد جلبا معهما كل ما طلبته، من أدوات، ومضخة لرفع الماء، وماسورة من الرصاص، ومادة تشتعل فى الماء، وأربطة صاروخية كبيرة، وشموع تصدر ألعابا نارية، ومسدسا ت تطلق شرارات ملونة، وجهاز كهربى، وعديد من المستلزمات الأخرى، وكل ماهو ضرورى، لتقديم عرض كبير لمعجزة كبرى . تناولوا عشاءهم، وغفوا قليلا ، وانطلقنا عند منتصف الليل، عبر قفر خال تماما من البشر، ما هيأ لنا الظروف الملائمة . فرضنا سيطرتنا على البئر وما أحاط بها . كان لدى الشباب التابعين لى خبرة بأشياء كثيرة ، بدءا من بناء الآبار بالحجارة، حتى تركيب آلة للحساب . انتهينا قبل شروق الشمس

من إصلاح ذلك الرشح، بأحسن صورة ممكنة وبدأت المياه فى الصعود . قمنا بعد ذلك بوضع ألعابنا النارية فى المصلى، وأغلقنا المكان، وعدنا إلى البيت للرقاد .

عدنا إلى البئر مجددا، قبل انتهاء قداس الظهيرة، فمازال أمامنا الكثير، كما أننى قد قررت لأسباب عملية إحداث المعجزة قبل انتصاف الليل، لأن المعجزة التى تحدث من أجل الكنيسة فى يوم عادى من أيام الأسبوع ستأتى بمردود طيب ، يزيد ست مرات عما لو حدثت يوم الأحد . تصاعدت المياه إلى حدها المعتاد فى تسع ساعات، أو قطعت بالأحرى للوصول إلى قمة البئر حوالى ثلاثة وعشرين قدما. قمنا بتركيب ماسورة حديدية صغيرة، وهى إحدى بواكير إنتاج مصانعى القريبة من العاصمة وثقبنا ثقبا داخل خزان من الحجر، أقيم أمام الجدار الخارجى لحجرة البئر، وأدخلنا جزءا من الماسورة، بحيث يكفى بلوغ باب المصلى، بارزا خلف العتبة. بحيث يصبح ما يتدفق من المياه ظاهرا إلى مسافة مائتين وخمسين آكرا من الأرض تملأها حشود البشر ، التى كنت أتهيأ لحضورها فوق أحد السهول المنبسطة ، المواجهة لهذه الهضبة الصغيرة فى الوقت المحدد .

نزعنا غطاء برميل فارغ، ورفعناه إلى السقف المستوى للمصلى ، وأحكمنا ربطه من أسفل، وملأناه بالبارود، إلى حد يسمح له بحرية الحركة بقدر بوصة فى القاع، وثبتنا الشماريخ فى البرميل الكبير، بكثافة تمكنها من الانطلاق بسهولة، وهى من أنواع متعددة، ويمكننى الزعم بأنها شكلت حزمة مجتزئة ضخمة . دفنا سلك بطارية صغيرة فى ذلك البارود، ووزعنا كمية من الوقود سريع الاشتعال، على كل ركن فى السطح، بألوان الأخضر والأزرق والأحمروالأرجوانى ، وكلا فى ركن بذاته، وزودنا كل منها بفتيل .

أقمنا على بعد مائتى ياردة فى السهل خما خشبيا، ارتفاعه أربعة أقدام، وسطحناه بألواح خشبية، فصار لدينا منصة، كسوناها بقماش مطرز بزخارف أنيقة، استعرناه

خصيصا لهذه المناسبة، وانتهينا من ذلك كله بالكرسى البابوى المخصص لرئيس الدير. حين تنتوى صنع أعجوبة ، أمام أناس جهلاء، عليك التدقيق فى كل ما وضعته من تفاصيل ، و الاهتمام بكل ما يثير النظارة، فيما يقدم قدرات متميزة، فضلا عن توفير وسائل الراحة لكبار ضيوفك، ويمكنك بعد ذلك أن تكون حر التصرف، وأن تظهر كل ما أنت جدير به من قدرات ، وأن تدرك قدر ما لهذه الأشياء من أهمية، فأنا أعلم بطبيعة البشر . لايمكنك إضافة مزيد من الأساليب، دون داع فى صنع المعجزة، لأن ذلك يشغلك بأشياء أخرى، ويستنفد الكثير من الجهد ، وأحيانا المال، حتى تحقق المرجو فى النهاية . أجل، لقد مررنا الأسلاك بأرضية المصلى، ومددناها حتى أسفل المنصة، وأخفينا مولدات الكهرباء هناك . أحطنا المنصة بسياج من حبل بطول مائة قدم مربعة، للحيلولة دون وصول العامة إليها ، وبذلك نكون قد أكملنا المهمة . واتتنى فكرة فتح الأبواب فى العاشرة والنصف، وبدأ العرض، فى تمام الحادية عشرة . وددت لوأننى أتولى بنفسى أمر الدخول، لكن ذلك كان مستحيلا بالطبع. أمرت الشباب بالحضورإلى الكنيسة فى العاشرة ، قبل حضور الجميع، وطلبت منهم التأهب، لتشغيل المضخة فى الوقت المتفق عليه، وإزالة الكلس عن الماء . ذهبنا بعد ذلك لتناول العشاء .

كانت الكارثة التى حلت بالبئر قد دوى وقوعها فى الآفاق البعيدة، فظلت الجموع منذ تلك اللحظة وعلى مدار يومين، تتقاطر على الوادى . صار الطرف الأدنى من الوادى معسكرا كبيرا، وتطلب الأمر منا بالطبع إعداد دار مناسبة .

جاب المنادون الأنحاء فى أول العشية، وأعلنوا عن المحاولة القادمة لإصلاح البئر، ما أجج المشاعر والأحاسيس . كما أعلنوا أن رئيس الدير، وبطانته الرسمية، سيتحركون فى موكب مهيب، ويشغلون المنصة فى تمام العاشرة والنصف، وهو الوقت

الذى أمرت بأن تخلى فيه المنطقة الحرام، وسيتوقف فى تلك اللحظة دق الأجراس، إشارة إلى أن يلتزم الجميع السكون ويبقوا فى أماكنهم .

كنت فوق المنصة والكل متأهب لأداء التحية الرسمية ، وذلك حين بدا موكب رئيس الدير المهيب للعيان، حيث لا يمكن رؤية الموكب قبل اقترابه من السياج الحاجز، فالليلة ظلماء، ولا يسمح باستخدام المشاعل. صاحب الموكب ميرلين، وقد اتخذ لمجلسه مقعدا أماميا، وصدق هذه المرة فيما قال . لايستطيع المرء رؤية الحشود، وقد تكتلت معا خلف الحاجز، لكنها كانت حاضرة هناك، على تلك الصورة . فى اللحظة التى توقفت فيها الأجراس، انطلقت تلك الحشود الكبيرة، وتدفقت إلى الخط المحدد، كسيل منهمر، وظل تدفقها على مدى نصف الساعة، ثم تكثفت تلقائيا، بحيث يمكنك عبور إفريز من رؤوس البشر، لأميال حتى بلوغك البئر .

رانت لدينا فترة سكون رهيب، حيث إنه لحوالى عشرين دقيقة - وقد وضعت ذلك الأمر فى اعتبارى لتحقيق الأثر المطلوب - يكون الأفضل دوما أن تمنح جمهورك فرصة للارتقاء بتوقعاته . شقت السكون ترنيمة لاتينية مهيبة، بأصوات رجولية، وتعاظمت وسرت أدراج الليل، فى انسيابية رتيبة متناغمة . وكان ذلك أيضا من إعدادى ، وهو أفضل مبتكراتى . وقفت فوق المنصة، بمجرد التوقف عن الترنيم، ومددت يدى إلى الفضاء لدقيقتين، ورفعت وجهى إلى السماء، وران خلال ذلك صمت عميق، ثم نطقت بهذه الكلمة مع شيء من الرهبة بثت فى المئات الهلع ، وأصابت النسوة بالإغماء :

" كونستانينوبوليتا.نيسشير ديود لساركيقيقينا شر سجيسلليسشاف "

بمجرد إطلاقى صيحة مدوية فى نهاية تلك الكلمة، مسست إحدى الوصلات الكهربائية، وضغطت الزر فكشف الانفجار عمن وقفوا فى الظلمة وفى عيونهم الهلع، ما ينبئ بنذير شر قادم !كان أثر ذلك رهيبا ! أطلق كثيرون الصراخ، وتحركت النسوة

فى خطوط لولبية فى كل اتجاه وعلى غير هدى، وتفرق لقطاء الكنيسة ، فرادى وجماعات، أشار رئيس الدير والرهبان بعلامة الصليب، وتمتمت شفاههم بدعاء رجى. أطبق ميرلين قبضته، بل بُهت إلى حد الشعور بالضآلة ، فلم يكن قد رأى من قبل شيئا يبدأ على هذا النحو . حان الآن وقت جنى الثمار . رفعت يدى وجأرت بهذه العبارة :

"إيهيستنبنا ميتيهيتر كايستنشسبريخويخساتينساتينايت سبرشوشنجن "

أطلقت الألعاب النارية الحمراء .كان يمكن سماع ذلك الهدير البشرى الجماعى، والصراخ حين لحقت جهنم القرمزية بالزرقاء ! هتفت بعدها بوهلة قائلا :

" ترانبآلتر وبنتر وبنترا نسبور ترامليثير تسربرتر وجثيراين نتراجويدى "

وأطلقت الشماريخ النارية الخضراء ! وبعد ما قارب الأربعين ثانية ، مددت ذراعى إلى الأمام، وأرعدت بصوتى مقاطع مدوية، من هذا الفصيل :

- ميكا موسيلها نيتهاش .

- مينشو يردير موهر نموتا .

- مارمور مونو متنهاشر .

أطلقت على الفور، ضوءا أرجوانيا ! تلته مباشرة أضواء حمراء وزرقاء وخضراء وأرجوانية ! أربعة براكين ثائرة تصب حمما من اللهب المضيء، وتنشر ما يشبه ضوء الظهيرة مشوبا بجلوة ألوان، بلغ أقصى مكان فى هذا الوادى. كان يمكن أن يرى الناس من بعيد ذلك الشخص المتخشب، يقف فوق قاعدة عمود و مواجها صفحة السماء، وقد وقف عن الدوران مرة واحدة خلال عشرين عاما . أعرف الآن أن الشباب واقفون بجوار المضخة ، وأنهم متأهبون للعمل . لذلك قلت لرئيس الدير :

" حان الوقت الآن ياأبت . إننى الآن فى حل من الكشف عن الاسم الرهيب، وإصدار أمرى بحل الطلسم. عليك الآن أن تتماسك ، وتستعد لما هو قادم ." ثم صحت فى الناس :" انظروا، سيبطل السحر فى اللحظة التالية، وسيحل الطلسم، الذى استحال على أحد حله. فإن حل الطلسم ، ستعرفون ذلك، لأنكم سترون المياه المقدسة تتدفق من باب المصلى !" وقفت لحظات لأترك للسامعين فرصة نقل ما أعلنت لمن لم يلتقطوه بأ سماعهم ممن يلونهم، ثم نقله تلقائيا للصفوف الأبعد، ثم صنعت عرضا كبيرا من الإيماءات الغريبة بالإشارة والجسد، و صحت قائلا :

" التفتوا إلىّ، إننى آمر الروح الشريرة، الحالة بالبئر المقدسة، أن تفرغ فى الفضاء، كل نيران الجحيم، التى لم تزل كامنة فيها ، وأن تبطل طلسمها الآن، ثم تذهب من هنا إلى الجحيم، و تبقى مكبلة هناك لألف عام . آمرها باسمها الرهيب بجوججلليجككك !"

مسست برميل الشماريخ، فانطلق تلقائيا شلال من رماح نارية تخطف الأبصار، تسرع نحو الأفق مهسهسة ، ثم تنفجر فى كبد السماء فى عاصفة من لؤلؤ متألق ! صدر عن حشود البشر هدير مروع، ثم تحول بغتة إلى تهليل يعبر عن فرحتهم، فقد بدا أمامهم واضحا جليا ، معاكسا فى ضوء باهر، شلال دافق من المياه الجارية ! لم يستطع رئيس الدير النطق بكلمة واحدة، لاحتباس حلقومه بالدموع والعبرات، وضمنى بين ذراعيه دون أن ينطق بشيء، وهرسنى هرسا . كان ذلك أبلغ من الكلمات . وكان أيضا عصيا على التصديق، فى بلد خلا من أطباء يعادلون نيكلا أكل الزمان منه وشرب .

ليتك رأيت تلك الأعداد الغفيرة من البشر، وقد ألقوا بأنفسهم على تلك المياه يقبلونها ويعاودون تقبيلها، ويداعبونها، ويتحدثون إليها، كأنها كائن حى، ويحتفون بها

بأرق ما نعتوا عزيزا لديهم ، وكأنها صديق قد غاب عنهم طويلا افتقدوا غيبته، ثم ها قد عاد إليهم الآن . أجل، كان جميلا أن ترى ذلك، حتى شغلت بهم عن السابق .

أعدت ميرلين إلى الوطن سريعا . حيث أصيب بالانهيار وتهاوى كجرف هار، حين نطقت بالاسم الرهيب، ولم يسترد وعيه منذ تلك اللحظة، لأنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل، ولم أسمع به بدورى، لكنه كان فى رأيه هو الاسم الصحيح، فأى ثغاء لديه هو عين الصواب. صرح فيما بعد بأن "أم الروح" ذاتها لايمكنها نطق ذلك الاسم بأفضل مما فعلت. لن يتمكن من تفسير كيفية بقائى حيا ، وبدورى لن أفصح له عن ذلك. إن من يفصح عن سر كهذا ساحر مبتدئ . ظل ميرلين يمارس السحر طيلة ثلاثة شهور ، كى يتوصل إلى حيلة بارعة، تمكنه من نطق ذلك الاسم ، ثم العمل به. لكنه عجز عن ذلك .

حين ذهبت إلى المصلى، تفرق الجمهور، وتراجعوا إلى الوراء فى وقار، ليفسحوا لى الطريق، وكأننى شخصية خارقة، وأنا كذلك بالفعل ، وكنت أدرك ذلك. قضيت الليلة كلها ساهرا بصحبة الرهبان، فأطلعتهم على سر المضخة ، وعلمتهم كيفية استخدامها، وقد كان قطاع كبير من الناس يقضون ليلتهم حول الماء، حيث كان متوقعا أن يعقب ذلك مباشرة استمتاعهم بها إلى أقصى حد . كانت تلك المضخة فى عين أولئك الرهبان معجزة فى ذاتها . تحيروا كثيرا فى أمرها، وازدادوا إعجابا بها، وانشغلوا بعملها غير المسبوق .

كانت ليلة رائعة، حملت ذكرى طيبة، وقد صعب على الرقاد، بسبب ما وقر فى نفسى من مشاعر تفيض بالانشراح والبهجة .

الفصل الرابع والعشرون

ســـاحـــــر منـــافـــس

تعاظم نفوذى الآن وكبر فى وادى القداسة . وبدا الأمـر يتطلـب الـسعى إلى الاستفادة من ذلك بتحقيق شيء ذى قيمة. واتتنى الفكرة صباح اليـوم التـالى، عنـد رؤيتى أحد فرسانى من العاملين فى إنتاج الصابون ، قادما على جواده. وطبقا للروايـة التاريخية ، كان الرهبان فى المنطقة ـ طوال القرنين السابقين- تواقين إلى تحقيـق رغبـة دنيوية، هى الاستحمام بالماء . لعل ذلك الانحراف السلوكى لايزال باقيا عـلى حالـه. لذا استفسرت من أحد الإخوة الرهبان :

" أتود الاغتسال بالماء ؟"

ارتج من الفكرة، أو من خطورة اغتسال أحـد بالمـاء، عـلى البشر، لكنـه قـال بحرارة :

" لايحتاج الأمر إلى سؤال شخص مسكين ، لم يعرف الاسـتمتاع بتلـك اللـذة الطيبة منذ كان صبيا . أتمنى أن يغسلنى الرب ! لكن ذلـك سـيدى المبجـل يستحيل حدوثه ، فلا تغرنى بذلك ، لأنه محظور . "

تحسر بشكل يبعث على الأسى، ما جعلنى أعقد العزم على أنـه مـن الواجـب إزالة طبقة واحدة على الأقل من أصوله الراسخة حتى لو كانت فى حجم نفوذى كلـه وأدت إلى إفلاسى. وهكذا ذهبت إلى رئيس الدير، وطلبت منه تصريحا للأخ الراهب بالاغتسال. شحب وجه الرجل من هول الفكرة، لست بذلك أقـصد قـدرتك عـلى

رؤية بياض شحوبه ، لأنك بالطبع لن تتمكن من ذلك دون أن تكشط الوجه كشطا، ولم أكن آبه حتى بكشطه فالأمر لايعنيني، لكنني أدركت أن هناك شحوبا أبيض قد ظهر كما لوأن بشرته قد تعرضت لكشط بسمك غلاف كتاب، بان ذلك عن تراجعه إلى الخلف وهلعه ، وقوله :

" أي بني، اطلب شيئا آخر غير هذا، وأنا حرى بتلبيته عن طيب خاطر وبكل امتنان، لكن أوه ، دعك من هذا ! أتريد أن تبدد المياه المقدسة مجددا ؟"

" كلا، يا أبت ،لن أبددها. لدى من العلم الخفى ما ينبئ بأن هناك خطأ قد حدث فى المرة الأولى، حين فهم خطأ أن توقف دفق مياه النبع كان بسبب إقامة الحمام." بدا ما يشير إلى اهتمام كبير بالأمر قد ظهر على وجه الشيخ، "تقول علومى بأن بناء الحمام بريء من ذلك العطب، وأن سبب ذلك نوع مختلف من الإثم " .

"تلك عبارات مشجعة .... إلا أنه يمكن قبولها لو كانت صحيحة " .

"هي بالفعل صحيحة . اسمح لى ياأبت ، بإقامة الحمام مجددا .دعنى أعيد إقامته، وسوف تتدفق مياه البئر إلى الأبد " .

" أتعد بهذا ؟ أتعد به ؟ تعهد بهذا، قل بأنك تعد به ."

" أعدك" .

"يمكننى إذن أن أكون أول المبادرين بالإغتسال ! هيا باشر عملك . لا تتوان، لاتتوان، بل امض قدما " .

باشرت بصحبة اثنين من الصبية العمل مباشرة . كانت بقايا الحمام القديم لاتزال باقية ولم تبرح مكانها، فى حوض الدير الكبير، ولم ينقص منها حجر واحد . تركت على حالها ، طوال تلك الفترة الطويلة، لم يقترب منها أحد بسبب خشيتهم الشديدة منها، وكأنها شيء ملعون . أقمنا الحمام كاملا فى يومين، وملأناه بالماء، حتى

صار بركة دافقة بالمياه النقية الصالحة للاستحمام.كانت مياهه أيضا متجددة دوما. تصب فى الحمام وتخرج منه، عبر قنايات قديمة . بر رئيس الدير بوعده وكان أول المبادرين بتجربة الحمام . نزل إليه وقد ران على جسده الوضر الأسود واعتراه الخوف، وترك بأعلى الحمام من ران على أجسادهم هذا الوضر ، تركهم فى رهبة وقلق، وترقب شر آت . لكنه عاد مجددا ببياض ناصع ، تملأه البهجة، فانتهى اللعب ! بتحقيق نصر آخر .

كانت مهمة جيدة تلك التى أنجزناها فى وادى القداسة، ما قد أشعرنى بالرضا، فأزمعت الرحيل، إلا أننى شعرت بكدر، جراء إصابتى بنزلة برد شديدة، أعادت إلى شعورا قديما بآلام رهيبة بالمفاصل . أصابت الآلام بالطبع أضعف موضع فى جسدى، وظلت كامنة به، وهو المكان من جسدى الذى هصرنى رئيس الدير منه، وهرسنى بيديه هرسا ، وذلك حين أراد أن يضمنى إليه ليؤكد لى بالغ امتنانه .

حين بدأت أخيرا فى النهوض من الفراش ، شعرت بأنى مجرد طيف . لكن الجميع أبدوا خالص قلقهم وعطفهم علىّ، فأعادوا بذلك مشاعر البهجة لدىّ ، وذلك هو العلاج الناجع الذى أعاننى على التماثل السريع للشفاء، واستعادة القوة والنشاط، وهكذ استرددت زخمى سريعا .

كانت ساندى منهكة بسبب رعايتها لقطاء الدير، لذلك قررت الرحيل بحرا بمفردى، تاركا إياها فى الدير كى تنعم براحة تامة . واتتنى فكرة التنكر فى هيئة رجل حر من طبقة الفلاحين ، والتجول سيرا على القدمين عبر البلدة ،لأسبوع أو اثنين .

فأنتهز فرصة كهذه للإقامة وتناول الوجبات ، مع الفئة الأدنى والأكثر فاقة من المواطنين الأحرار ، وفى ظروف متكافئة . لم تكن هناك وسيلة سوى تلك، تعين على الإلمام بأشكال الحياة اليومية، وأثر القوانين عليها. فإننى إذا زرتهم باعتبارى أحد

السادة، فقد يواجه ذلك ببعض التحفظات والعقبات، التى ستحول بينى وبين أفراحهم الخاصة وأتراحهم ، فلا أتجاوز ما بعد الظاهر .

خرجت صباح أحد الأيام، فى جولة طويلة، كى أعد نفسى بدنيا للرحلة وتسلقت تلا يحد الطرف القصى من الوادى، حتى وصلت إلى صومعة مجوفة، مواجهة لجرف خفيض، عرفت من موقعها أنها سكن لأحد النساك . اشتهرت من قبل، على بعدها ، بأنها صومعة لناسك معروف بزهده الشديد و قذارته . علمت أنه قد عرض عليه موقعا فى الصحراء الكبرى حيث الأسود ونمل الصحراء، هناك يجعلان حياة الراهب أكثر عسرا وعزلة ، فتوجه إلى أفريقيا لشغل هذا الموقع ، ووقررت أنا الذهاب إلى الصومعة ، للتعرف على ما يتفق و الجو العام وشهرة هذا الخم

.

دهشت كثيرا، لأن المكان أجريت به حديثا أعمال النظافة من كنس ومسح . ذلك فضلا عن دهشتى لدى سماعى رنين جرس صغير آت من داخل الصومعة، أعقبه هذا النداء :

" سنترال، مرحبا ! أهذه كاميلوت ؟ ...... اسمع، ربما يسعد قلبك، وتكون على ثقة من تصديق الأعجوبة ، حين تأتى بصورة غير متوقعة ، وتجعل من ذاتها شاهدا فى مواطن مستحيلة ، هنا حيث يقف بشحمه ولحمه صاحب السيادة الزعيم وسوف تصغى بأذنيك إلى ما يقول ! "

أى انقلاب جوهرى فى الأمور، هذا الذى حدث الآن، وأى خلط عجيب بعضها البعض ، وأى قاسم مشترك قد ربط بين الأضداد، لقد أصبح مقر المعجزة الزائفة مركزا حقيقيا لها، وتحولت صومعة العصور الوسطى التى أقام بها الناسك، إلى مكتب للاتصالات الهاتفية ؟

تقدم الموظف إلى دائرة الضوء، وعرفت أنه أحد مستخدمى من الشباب .

قلت له :

" منذ متى أقيم هذا المكتب هنا ، يا أولفيوس ؟"

" منتصف الليلة فحسب، أيها الزعيم ، وهذا مدعاة لانشراح صدرك. لقد رأينا أضواء كثيرة فى الوادى، ورأينا أن الأفضل، إقامة مركز للاتصالات،

فحيثما تكثر الأضواء فى مكان ما ، فإنها تشير بالضرورة إلى وجود مدينة كبيرة".

"هذا صحيح . فهذه ليست مدينة بالمعنى المتوارد، إلا أنها فى كل الأحوال، موقع طيب . هل تعرف أين أنت ؟"

" أما بالنسبة لهذا، فإنه لم يكن لدى من الوقت مايسمح لى بالاستفسار، لأنه حين رحل الرفاق من هنا مباشرة لمباشرة أعمالهم، وتركونى فى الخدمة، كان على أن أخلد للراحة ، وفى نيتى الاستفسار عن الأمر عند استيقاظى من الرقاد، وإرسال اسم المكان إلى كاميلوت، لتسجيله " .

" حسنا، ذلك هو وادى القداسة ".

لم يعلق، أقصد أنه لم يعلق على الاسم، كما كنت أفترض أن يفعل ، قال فحسب:

" سأبلغ به " .

" عجبا، لقد شاعت جلبة فى الأماكن المحيطة به، بشأن ما وقع من خوارق هنا ! ألم تسمع بها ؟"

" آه عليك أن تتذكر أننا نتحرك ليلا، ونتجنب الحديث إلى إنسان . لم نكن نعلم شيئا البتة، ولكننا أبلغنا به تليفونيا من كاميلوت " .

" غريب أن يكونوا قد عرفوا بهذا كله . ألم يخبروك بشيء عن الأعجوبة الكبرى التى وقعت وأعادت إصلاح البئر المقدسة ؟"

" أوه، أذلك ما تقصد ؟ أجل، هذا صحيح . لكن اسم هذا الوادى يختلف بالكلية عن ذلك الاسم، الواقع أنه يحتمل ألا يختلف عنه أكثر من . "

" ما هو ذلك الاسم إذن ؟"

" وادى القداسة " .

" هكذا يتضح الأمر . تبا للهاتف إذن . فهو نفس العفريت الناقل لما تشابه من أصوات، بإعجاز يغاير ما تشابه من إحساس . ولكن دعك من هذا، فقد عرفت الاسم الآن . اتصل بكاميلوت " .

فعل ذلك، واستدعى كلارنس هاتفيا . سرنى أن أسمع صوت فتاىّ مجددا . بدا الأمر وكأنى ما زلت فى بلدتى . بعد تبادل التحيات، وإبلاغه عن مرضى الأخير، قلت:

" ماذا استجد ؟"

" لقد بدأ الملك، والملكة، و كثير من أفراد الحاشية، فى هذه الساعة، رحلة إلى واديك لإبداء خالص امتنانهم بالمياه التى أعدت تدفقها، وتطهير أنفسهم من الإثم، ورؤية المكان الذى أطلقت منه الروح الشريرة نيران الجحيم حتى السحب ، واصغ جيدا فإنه يمكنك سماع الغمز بعينى فى الهاتف ، وتسمعنى وأنا أفغر فاهى بابتسامة، فأنا الذى قمت باختيار مجموعات اللهب، من مخازننا الخاصة ، وبعثتها حسبما طلبت ."

"أيعرف الملك الطريق إلى هذا المكان ؟"

"الملك ؟ كلا، وربما لايعرف الطريق إلى أى مكان آخر فى مملكته، لكن الشباب ممن أعانوك على صنع المعجزة، سيرشدونه إلى هذ المكان ، ويحددون له أماكن استراحته فى أوقات الظهيرة، ونومه فى العشية " .

" وهكذا يصلون إلى هنا، متى؟"

"منتصف ما بعد ظهيرة اليوم الثالث، أو بعدها ؟ "

"أهناك أنباء أخرى غير تلك؟"

"لقد بدأ الملك زيادة عدد الجيش المرابط الذى أشرت عليه به ، اكتملت فرقة واحدة، وعين قادتها " .

"الأحمق ! وددت لو كنت حر التصرف فى الأمر . هناك شخص واحد فى المملكة كلها، يصلح أن يكون قائدا لفرقة نظامية ."

" أجل، ستستغرب الآن حين تعرف أنه ليس من بين أفراد تلك الفرقة، ينتمى إلى وست بوينت " .

" عم تتحدث ؟ أأنت جاد ؟ "

" الصواب ما قلت الآن ".

" عجبا، إننى قلق لهذا . من وقع عليهم الاختيار، وماالطريقة التى تم بها ؟ هل تم ذلك باختبار تنافسى ؟ "

"لاأعرف فى الحقيقة شيئا بشأن الأسلوب . ولاأعرف سوى أن هؤلاء الضباط جميعا من أسر النبلاء، وقد نشأوا من سلالة ..... ماذا تطلق عليهم ؟ البلهاء".

" هناك خطأ ما ياكلارنس " .

" اهدأ بالا، لقد رحل اثنان من المرشحين لرتبة الملازم مع الملك . وكلاهما نبيل شاب، فإن بقيت هناك فإنك ستحضر خضوعهما للاختبار " .

" تلك أخبار مهمة . سأختار على أية حال، أحد التابعين لوست بوينت، جهز أحد الرجال، وابعثه برسالة إلى مدرسة ترويض الخيل ، ودعه يستهلك الجياد ، لو احتاج الأمر، فعليه أن يكون هناك قبل غروب شمس اليوم، وقل .."

" لاحاجة إلى ذلك . لقد مددت إلى المدرسة سلكا أرضيا . دعنى لو تفضلت، أهاتفك عن طريقه " .

أتى ذلك بمردود طيب ! عدت مجددا أستنشق نسيم الحياة بعد طول اختناق، فى جو مركز اتصالات الهاتف والبرق هذا . أدركت حينئذ، قدر خشية أهل هذا البلد طوال هذه السنين وهلعهم منى ، وقدر مامررت به من حالة تبلد ذهنى، كاد يحول بينى وبين القدرة على إدراك هذا الأمر .

أعطيت التعليمات لرئيس الأكاديمية فى السر. وطلبت منه أيضا أن يحضر ورقة وريشة للكتابة بالمداد، وعلبة من ثقاب الأمان أو بعضه . كان يضجرنى العمل بدون هذه الأدوات النافعة، وأصبح الحصول عليها الآن سهلا، كما كنت بسبيلى إلى التخلى عن لبس الدرع فى الفترة الراهنة، فصار من السهل علىّ استعمال جيوبى .

وجدت لدى عودتى إلى الدير، أمرا غريبا يجرى هناك . كان رئيس الدير والرهبان، قد اجتمعوا فى القاعة الكبيرة، يشاهدون بإعجاب شديد وثقة بالغين ، عرضا لأحد السحرة الجدد، الوافد للتو . كان زيه قمة فى الغرابة، وفى بهرجه وشذوذه أشبه بلباس عراف هندى. كان يموء ويتمتم ويومئ، ويرسم فى الهواء وعلى الأرض إشارات غامضة، وهو ما درج من أساليب مألوفة . زعم أنه وافد من آسيا، وهذا حسبه، وكأنه دليل متموغ كالذهب يمكن أن يطبق فى الأرجاء سريعا .

ما أسهل وأبسط أن تصبح ساحرا عظيما على نحو ما سلك هذا الشخص. لقد انفرد بالكشف عما يفعل أى شخص على وجه البسيطة فى اللحظة والتو أمام ناظريك،

وعن كل ماسيحدث له فى المستقبل وما حدث لـه فى المـاضى . سـألهم :هـل يرغـب أحدكم فى معرفة ما يفعله إمبراطور الشرق الآن ؟ جاءت بالخبر اليقين تلك العيـون الوامضة والأكف السعيدة، يحك بعضها البعض ، مـا أفـاد بـأن هـذا الحـشد المـوقر يرغب فى معرفة حال ذلك الملك ، فى التو واللحظة . قام الدجال بأداء ما يؤدى عـادة من حركات فى التمثيل الصامت، ثم أعلن فى وقار :

"إن إمبراطور الشرق العظيم، يقوم فى هذه اللحظة بوضع نقود فى كف راهب معدم، قطعة، اثنتين، ثلاث، وكلها من الفضة " .

انطلق من كل أنحاء الصالة، هدير مصحوب بإعجاب بالغ :

" رائع " ،"عجيب " أى بحث ، وأى جهد ، قد بذلا لإحـراز قـدرة عجيبـة كهذه !"

أيودون معرفة ماذا يفعل الآن عظيم الهند ؟ أجـل . لقـد أخـبرهم بـما يفعـل عظيم الهند .

أخبرهم عقب ذلك بما يفعل والى مصر فى تلك اللحظة ، وكذلك ملك البحار القصية . ودواليك، دواليك، وكانت الدهشة تتزايد بما يقدمـه لهـم بدقـة وأمانـة . ارتأوا هذه المرة أن يطرق مكانا مجهولا، والرجل لايدركه تردد البتة، فقد عرف دوما، واقترن دوما ما عرفه بالدقة البالغة. أدركت أنه لو استمر الحال هكذا، فسأفقد مكانتى لامحالة، وسيستحوذ هذا الرجل على معجبى، و أترك أعزل فى الخـلاء . كـان لابـد لى من إيقافه عند حده ، وأن يتم ذلك سريعا . قلت له :

" لو حق لى أن أسأل ، فإننى أريد أن أعرف، ما يفعله الآن شخص بعينه ".

" تحدث ما شاء لك الحديث، فسوف أخبرك " .

" الأمر يحمل صعوبة ، وربما استحالة " .

" لايعرف سحرى تلك الكلمة . فكلما ازدادت الصعوبة، زادت قدرتى على كشفه لك لامحالة " .

تأمل هذا ، إننى الآن أقوم بلفت الانتباه . يمكنك متابعة تعاظمه أيضا بملاحظته فى الأعناق المشرئبة، والأنفاس المتهدجة . قمت بتصعيد الأمر إلى الذروة :

" إذا لم تخطئ ، وإذا ذكرت لى بصدق ما طلبت الكشف عنه ، سأنقدك مائتى بنس فضية ".

" اعتبرها لى ! سأخبرك بما تود معرفته " .

" أخبرنى الآن عما أفعل بيدى اليمنى " .

" آه ـ ها "، لهث الجميع فى نفس واحد تعبيرا عن الدهشة . لم تطرأ ببال أحد فى الحشد، حيلة بسيطة كتلك فحواها الاستفسار عن حال شخص لايبتعد عنه بعشرة آلاف ميل . وقع الساحر فى حيص بيص، فما طرأ الآن لم يواجهه الساحر فى ممارساته السابقة، وذلك أفحمه، وجعله لايعرف كيفية مواجهته . بدا مشدوها، ومضطربا، فاقدا القدرة على النطق بكلمة . قلت: " هيا ، ماذا تنتظر ؟ أيسعك أن تستجيب فى التو ، وتخبر الجميع ، بما يحدث على الجانب الآخر من الأرض، ولا يسعك الإفصاح بما يفعله شخص يقف منك على بعد ثلاث ياردات ؟ إن من وقفوا خلفى يعرفون ما أصنع بيدى اليمنى ، وسوف يصدقونك لو قلت الصواب . " ظل الرجل ثابتا فى مكانه " . جميل جدا، سأخبرك لصمتك وعجزك، وسبب هذا أنك لاتعرف شيئا . أيها الساحر ! أصدقائى الأعزاء، هذا الضال، مجرد كذاب، محتال " .

أحزن هذا الرهبان، وأفزعهم . إنهم لم يألفوا سماع ما تدعى به هذه المخلوقات البغيضة من ألقاب، كما أنهم لايعرفون ما سيسفر ذلك عنه. ران صمت عميق ، فقد رسخ الإيمان بالخوارق فى أذهانهم . بدأ الساحر الآن يلملم شتاته، وحين

أعقب ذلك بابتسامة بلهاء عابرة، تنفس الجميع الصعداء، فقد أشارت البسمة، إلى أنه ليس حاد الطبع . قال :

" أسكتنى لغو هذا الشخص عن الكلام . فليعلم الجميع أنه إذا تصادف ولم يعلم أيكم بأن من فى منزلتى من السحرة، لايشغل نفسه، سوى بما هو يليق بالملوك والأمراء والأباطرة وأولئك الذين ينشأون فى الترف منذ نعومة أظفارهم، أولئك فحسب . فإن سألتنى عما يفعل آرثر الملك العظيم، فالأمر يختلف، وقد أخبرتك، بأننى لاأهتم بأمور كتلك " .

" وى، لا أفهم ما تقول . ظننتك قصدت بقولك "أى شخص " وبذا اعتقدت أن الأمر يشمل الجميع، حسنا، إن أى شخص، يعنى كل الأشخاص ."

" هذا صحيح، أى شخص رفيع المنزلة بالمولد، والأفضل أن يكون من سلالة ملكية . "

قال رئيس الدير ، الذى انتهز الفرصة لتلطيف الأجواء، ومنع حدوث كارثة:" أجل، يبدو الأمر كما يقول ، فمن غير المرجح، أن تشرف موهبة كهذه، بالكشف عن أحوال من هم أقل منزلة ممن ولدوا فى كنف المجد . فمليكنا آرثر .. "

هتف الساحر :" هل تعرفه ؟ "

"أجل أعرفه جيدا، حق المعرفة " .

سيطرت فى الحال مشاعر الرهبة والكدر مجددا على السادرين فى الجهالة . راقبوا باهتمام ما أعقب ذلك من رقى، ثم تفحصونى، ولسان حالهم :" انظر الآن، ما عساك أن تقول فى هذا ؟" حتى أتى الكشف مدويا :

" الملك منهك الآن بسبب رحلة قنص. يرقد الآن فى قصره، و ينعم فى سباته منذ ساعتين " .

قال رئيس الدير وهو يشير إلى نفسه بعلامة الصليب، " فليمنحه الله بركة منه . لعل فى ذلك الرقاد تنشيطا لجسده وروحه " .

قلت :

" ربما صح قولك ، لو كان نائما الآن، لكن الملك ليس نائما، الملك الآن على سفر " .

حل القلق مجددا، فهناك صراع على إثبات الجدارة. لم يعرف أحد أينا يصدقون، وظل لدى ما تبقى من صيت . ازداد ازدراء الساحر إياىّ، ثم قال :

" مه، رأيت كثيرا من العرافين العظام والمتنبئين والسحرة، لكننى لم أر من وسعه الجلوس فى تخاذل ، ومن يطلع على جوهر الأشياء دون رقية تعينه " .

"حياتك فى الأحراش أفقدتك الكثير . أنا بدورى حريص على استخدام الرقى، حرص الأخوة الكبار، ولكن فى اللحظات الحاسمة فحسب ."

حين يصل الأمر إلى حد التهكم، فإننى أعتقد بإدراكى كيف أنهى الأمور لصالحى . تسببت تلك اللطمة فى اضطراب الرجل . استفسر رئيس الدير عن أحوال الملكة والحاشية، وتلقى هذه المعلومة :

" الجميع نائمون، شأنهم فى ذلك شأن الملك، لشعورهم بالإرهاق " .

قلت :

"هذه أكذوبة أخرى . فنصفهم سادر فى لهوه، ، أما الملكة والنصف الآخر من الحاشية ، فليسوا بنائمين، بل هم على سفر . ربما يمكنك الآن مط ذاتك قليلا، وإخبارنا بالمكان الذى يتجه إليه الآن كل من الملك والملكة وجميع من ارتحلوا معهما؟"

" هم كما ذكرت، نائمون الآن ، لكنهم فى الغد سيرتحلون، لقيامهم بنزهة بالقرب من البحر " .

" وأين يكونون عشية بعد غد ؟"

" بعيدا فى شمال كاميلوت، ويكونون فى تلك اللحظة، قد قطعوا نصف مسافة الرحلة ."

" وتلك أكذوبة أخرى، تقدر بمسافة مائتى وخمسين ميلا . إنهم لم يقطعوا نصف مسافة الرحلة فحسب، بل أنجزوا الرحلة كلها، وهم بسبيلهم إلى القدوم هنا فى هذا فى الوادى " .

أصابت تلك الرمية الهدف ! وجعلت رئيس الدير والرهبان فى نوبة من الهياج، وألقت بالساحر إلى السفح . أردفت مباشرة :

" إذا لم يصل الملك، سأضع نفسى على خازوق، وإذا وصل سأضعك أنت فى المقابل . "

اتجهت مباشرة فى اليوم التالى، إلى مكتب الهاتف، وعلمت هناك أن الملك قد مر فى طريقه إلينا بمدينتين، تقعان على نفس الطريق . رصدت تقدمه فى اليوم التالى له، بالطريقة ذاتها . وأبقيت ذلك كله سرا . أفادت الأخبار فى اليوم الثالث بأنه لو ظل قادما بنفس الوتيرة ، فسيصل فى الرابعة ما بعد الظهيرة لم يظهر فى الأنحاء ما يدل على اهتمام بقدوم الملك ، وبدا أمرا غريبا فى الحقيقة ألاتجرى استعدادات لاستقباله بصفة رسمية. لم يكن ليفسر ذلك سوى أمر واحد لامحالة، هو ظهور ساحر آخر ينبش خلفى. هذا صحيح . استطلعت الأمر من راهب صديق فأجاب بأن الساحر قد أجرى أعمالا سحرية أخرى، وكشف عن أن حاشية الملك ليست على سفر بالكلية ، ولكنها باقية بالقصر . تصور هذا ! لاحظت أن شهرة المرء فى هذا البلد لها هذا القدر

الكبير من الأهمية. لقد رآني هؤلاء بأم أعينهم أقدم أضخم عرض بسحري في التاريخ، والوحيد الذي يستحق أن تحتفظ به ذاكرتهم، ثم هاهم الآن، مهيئون لتصديق مغامر، لايستطيع تقديم دليل على ما لديه من قدرات سوى عبارة غامضة .

لذلك كان من غير اللائق أن يصل الملك البلد دون أن يجرى له استقبال حافل، لذلك تداركت الأمر سريعا، ودعوت إلى إقامة موكب يشمل حجاج الدير، وأخرجت عددا من النساك وأعددتهم لاستقباله في الساعة الثانية . وتلك هي الصورة المهيبة التي استقبل بها . أصيب رئيس الدير بالاستياء واستنكف المجيء به إلى إحدى الشرفات، ودفعه إلى رؤية مقدمة الموكب المهيب، متقدما إلى الأمام، و لا يتقدم راهب واحد منه للترحيب به ، أو يحرك أحدهم ساكنا أو يدق أجراس الفرح لرفع معنوياته ألقى على الموكب نظرة فحسب ، وأسرع بالفرار لاستنهاض قواه . تلا بعد ذلك دق الأجراس بقوة معلنة موعد الغداء . لفظت الأبنية ما فيها من رهبان وراهبات، انطلقوا في حشود نحو الموكب القادم، وبصحبتهم الساحر . وقد شد بأمر من رئيس الدير إلى قضيب حديدي، بعد أن مرغ صيته في الوحل، وعلا صيتي إلى عنان السماء . أجل، يمكن للمرء في بلد كهذا، أن يبقى على شهرته سارية المفعول، ولكنه لايستطيع أن يفعل ذلك بالتراخي والكسل، بل عليه أن يبقى متأهبا ، ومبادرا دوما للعمل .

الفصل الخامس والعشرون

اختبار تنافسى

حين رحل الملك لتجديد نشاطه أو للنزهة ، أو لزيارة نبيل لايرتبط وإياه بصلة قرابة لصيقة، رغب فى القضاء على مالديه من سلع ضرورية وخدمات، رحل بصحبته قطاع من الشئون الإدارية. كان ذلك سائدا فى تلك الفترة . وفدت إلى الوادى بصحبة الملك تلك اللجنة المكلفة باختبار المرشحين، لشغل مراكز القيادة فى الجيش ، و ذلك حتى يتسنى لهم القيام بمهامهم كما هو الحال فى الوطن. ومع أن هذه الرحلة اتخذت الطابع الترفيهى، فإن الملك ظل يدير مهامه الرسمية بالوتيرة نفسها. فقام كالعادة بنقد أموال آفة الملك، حيث عقد اجتماعا رسميا عند البوابة الخارجية، وقام بفحص الحالات المرضية ، كما يمارس عمله باعتباره أيضا رئيس المحكمة العليا .

أبلى فى تلك المهمة بلاء حسنا . وكان بوصفه قاضيا، يظهر الحكمة والرحمة ، ويمارس الصدق والعدل بحسب ما يمتلك من قدرات ، ولنا على هذا الأمر تحفظ كبير، فقد طغت قدراته تلك على أغلب أحكامه وقراراته - أعنى تلك التى تربى ونشأ عليها. فأينما تقع خصومة بين أحد النبلاء أو السادة، وبين شخص أدنى مرتبة، كانت ميول الملك وعاطفته يقفان دوما إلى جانب الصنف الأول، سواء احتمل الأمر شكا لديه من عدمه، وكان من المستحيل أن يتزعزع موقفه . كان أثر النتائج الواضحة من ممارسة الرق، على مدارك تاجر الرقيق المعنوية، معروفا لدى العالم أجمع ومسلما به ، ولم تكن الطبقة الأرستقراطية صاحبة الامتيازات، سوى جماعة من تجار الرقيق ، تحت مسمى آخر . وكان لهذا مغزى سيئا ، ولكنه لم يكن بالضرورة منفرا بالنسبة

للنبيل ذاته ، إلا أن الحقيقة كانت فى ذاتها تحمل على النفور ، وملمح النفور فى تجارة الرقيق هو الأهم، وليس الاسم. لايحتاج المرء فى ذلك سوى أن يصغى إلى أرستقراطى يخوض فى شأن الطبقات الاجتماعية الأدنى، لكى تطلع فيها - وبطريقة طبيعية ومحايدة ــ على نفس نبرة وزخم تاجر الرقيق ، وبنفس مشاعره البليدة . إنهم نتاج نفس العلة فى الحالتين ، وهى تلك العادة القديمة التى تسيطر عليه وتتحكم فيه ، بإشارته إلى كيانه السامى.

شابت أحكام الملك مظالم عدة، ومرد ذلك إلى ماحصله من نشأة وثقافة ، وإلى وجدان متشدد عفوى. لم يكن مؤهلا لإصدار حكم، شأنه شأن الأم التى أسندت إليها مهمة توزيع اللبن على صغار الجياع ، فى زمن المجاعة، فحظى صغارها وحدهم بنصيب الأسد .

عرضت إحدى القضايا المهمة على الملك . فتاة شابة يتيمة، لديها حيازة كبيرة، اقترنت بشاب مليح معدم . لما كانت ممتلكات الفتاة تقع داخل زمام أرض الأبراشية، طالب المطران، وهو سليل أسرة أحد كبار النبلاء، طالب الفتاة بقطعة الأرض، لزواجها سرا دون علمه، وأنها بذلك تكون قد سلبت الكنيسة أحد حقوقها باعتبارها سيدا على الممتلكات ، ما أشير إليه فيما بعد بالسيد الإقطاعى . كانت المصادرة عقوبة الرفض أو التجاهل. دفعت الفتاة بأن السيادة على المقاطعة ،مخولة للمطران، وأن حق الملكية الخاصة فى هذه الحالة غير قابل للتحويل، بل يجب أن يمارسه السيد نفسه، أو يظل معطلا دون ممارسة، وأن القانون القديم للكنيسة ذاتها قد منع المطران تماما من ممارسة هذا الحق. كانت قضية مثيرة بالفعل .

ذكرنى ذلك بشيء قرأت عنه فى شبابى، يتعلق بالطريقة البارعة التى جمع بها كبار رجال الدولة فى لندن تلك الأموال التى أقيم بها المجلس التشريعى . لم يكن يستطيع من تناول قربانا مقدسا، طبقا لشعيرة الكنيسة الأنجليكانية، خوض معركة

لانتخاب عمدة لندن . هكذا كان المنشقون على الكنيسة غير مؤهلين لشغل المناصب القيادية، فهم لايستطيعون خوض المعارك الانتخابية، حتى لو طلبوا ذلك، كما لا يستطيعون ممارسة العمل لوانتخبوا. استفاد كبار رجال الدولة، ممن انتحلوا دون شك سمات الشماليين (الأمريكان)، استفادوا من تلك الحيلة البارعة، فقد أصدروا قانونا داخليا، يفرضون بموجبه غرامة تقدر بأربعمائة جنيه إسترلينى على من يرفض الترشح لمنصب العمدة، وغرامة تقدر بستمائة جنيه إسترلينى على من يرفض الخدمة بعد اختياره للمنصب . مضوا فى تطبيقه، واختاروا عددا من المنشقين، الواحد تلو الآخر، وظلوا يعملون بهذا حتى بلغت قيمة الغرامات خمسةعشر ألفا من الجنيهات الإسترلينية، وهكذا ظل المجلس التشريعى المهيب قائما فى مكانه حتى يومنا هذا، ليذكر المواطن على استحياء بماض بعيد، ويوم حزين تسلل فيه جماعة من الشماليين ، إلى لندن، ولعبوا أدوارا من النوع الذى منح بنى جلدتهم، صيتا فريدا ملتبسا ، بين أصحاب القداسة والصلاح من أهل البسيطة .

بدا موقف الفتاة فى القضية متماسكا فى رأيى، كما بدا موقف المطران بالقدر نفسه من التماسك. لم أدر كيف تمكن الملك من الخروج من هذا المأزق . لكنه حقق ذلك . وكان قراره التالى :

" إننى أرى فى الحقيقة بعض الصعوبة ، فالأمر من حيث وضوحه جد بسيط . كانت العروس الشابة قد نقلت ملكيتها، بإشعار كما هو متبع، أخطرت به المطران الوصى والمالك الأصلى ، وسيد المقاطعة، ولم تبذل فى ذلك جهدا يذكر ، ذلك أن المطران المذكور، كان لديه بصورة فورية، ما يجعله أهلا لممارسة حقه المذكور ، وبذا تكون قد احتفظت لنفسها بكل ما فى حوزتها . وبناء عليه، فإنه بإخفاقها فى واجبها الأول، تكون قد أخفقت فيما سواه . فمن يتعلق بحبل، تعانى يداه الجذب إلى أعلى، ويصبح سقوطه حتميا، ولا تبرر ذلك متانة الحبل، أو قدرة الشخص على النجاة على

أى نحو كما قد يدعى. أيها الرفاق، إن دعوى هذه المرأة باطلة من الأساس، وينص المرسوم الملكى على مصادرة ممتلكاتها عن آخرها، لصالح المطران، وأن تتحمل هى كل الأتعاب . القضية التالية !"

كانت نهاية محزنة لشهر عسل جميل، لم ينقض عليه ثلاثة شهور . أى بشر أولئك الذين يغشاهم البؤس وهم فى عمر الزهور ! أمضى الزوجان هذه الشهور، وهما ينتشيان فى حميمية، بتبادل القبلات. كان ما يلبسانه من ثياب وحلى بسيطة فى الرونق والأناقة، يقدم تفسيرا واضحا لما سمحت به قوانين التقشف لمن فى منزلتهما الاجتماعية، وقد انتحبت على كتفه وهى ترتدى هذه الثياب الجميلة ، فيحاول تهدئتها بعبارات الأمل، لتطغى على صوت اليأس، وها قد خرجا من قاعة المحكمة إلى عالم بلا مأوى يلجآن إليه ، أو مضطجع أو قوت، والغريب أن المتسولين على قارعة الطريق،كانوا أفضل حالا منهما .

صحيح أن الملك قد خرج من المأزق بنتائج لاأشك فى أنها مرضية للكنيسة ولبقية أفراد النخبة . يسوق الناس كثيرامن الحجج المقنعة والواضحة ، المؤيدة للنظام الملكى، لكن تبقى الحقيقة أنه لكل إنسان فى الدولة، حق التصويت فى الانتخابات ، وتعطل كل القوانين الجائرة . إن شعب آرثر من الوضاعة ما جعله غير جدير بنظام جمهورى، ذلك أن النظام الملكى عرضهم للتهميش طويلا ، ولو أن لديهم قدرا ضئيلا من الذكاء لأبطلوا العمل بذلك المرسوم الذى أصدره الملك للتو، لو سمح القانون بالتصويت الحر . شاعت عبارة على كل الأفواه، حتى باتت تحمل مضمونا ومغزى ، وقد دل تداولها على وجود هذا المعنى والمغزى، وهى العبارة التى تشير إلى هذه، أو تلك أو أى من الأمم الأخرى، بأن لديها القدرة على أن تحكم نفسها بنفسها، وأن ذلك معناه أن هناك من الأمم فى مكان أو زمان بعينه ، ما لاتملك تلك القدرة، ولن تكون قادرة على حكم نفسها بنفسها، حيث نصب من تخصصوا فى هذا

السبيل من أنفسهم حكاما عليها، أو ربما يزمعون ذلك فى المستقبل . إن الرواد فى كل الأمم، وكل العصور، قد برزوا بأعداد كبيرة من بين جماهير الشعب فحسب ، وليس سواهم، لا من أفراد النخبة فيه، لذا فإنه لايهم مستوى الذكاء فى الأمة سواء علا أو انخفض، لأن حجم قدرتها كامن فى سلسلة طويلة، من فقرائها وعوامها، بذلك فإنها لن تشهد يوما تعدم فيه أداة تحكمها من بين الكثرة . ذلك يؤكد دوما حقيقة دامغة ، مفادها أنه حتى النظم الملكية التى حققت قدرا من الرقى والتحضر والثقافة ، تبقى بمنأى عما حققت شعوبها من إنجاز. وينطبق ذلك على الحكومات الشعبية المشكلة من أفراد الطبقة الدنيا ، فضلا عن الأدنى .

تعجل الملك آرثر فى تكوين الجيش على غير ما طمحت . وما ظننت إقدامه على ذلك وأنا بعيد عن البلد، هكذا فإننى لم أضع قائمة باختيار القادة، بل أشرت بأن من الأصوب إخضاع كل مرشح لاختبار دقيق وصارم، ولجأت فى السر إلى إدراج قائمة بمؤهلات عسكرية محددة، لا يستطيع استيفاؤها سوى أتباعى المنتمين إلى وست بوينت. وكان لابد من إنهاء هذا الأمر قبل رحيلى، لأن الملك كان منشغلا بفكرة إقامة جيش نظامى، حتى نفد صبره، ورأى أن يبدأ العمل فى ذلك فى الحال، وأن ينفذ الاختبار، كما ورد بذهنه .

تطلعت لبحث الأمر، فضلا عن معرفة قدر ما سيباغت الآخرون، بما سأقدمه للجنة الاختبار . عرضت الأمر على الملك بهدوء، فأثار ذلك فضوله . حين اجتمعت اللجنة، لحقت بأعضائها، ولحق بنا المرشحون . كان أحد هؤلاء نابها ، كان بصحبته اثنان من معلميها التابعين لوست بوينت .

حين رأيت أعضاء اللجنة، حرت ما بين الضحك والبكاء . كان رئيسها الضابط المعروف فى القرون اللاحقة بملك المعارك " نوروي" ! وكان العضوان

الآخران مديرين فى إدارته، و الثلاثة رهبانا بالطبع، وكل الموظفين العارفين بـالقراءة والكتابة ، كانوا من الرهبان .

استدعى مرشحى فى البداية، وكان لايحمل بطاقة توصـية منـى، وقـد اسـتهل سؤاله رئيس اللجنة بصفته الرسمية :

" الاسم؟ "

"مول ــ إيز " .

" ابن من ؟ "

" وبستر " .

" وبستر ــ وبستر . همم ــ تعجز ذاكرتى عن استدعاء هذا الاسم . العمل ؟"

" نساج " .

" نساج ! يحفظنا الله " .

أصيب الملك بذهول من الرأس حتى إخمص القدمين ، وأصيب أحـد الكتبـة بدوار، وأوشك الآخرون على ذلك . استرد رئيس اللجنة شتاته، وقال محتدا :

" هذا يكفى . انصرف ".

لكنى استغثت بالملك . ناشدته بأن يخضع مرشحى للاختبـار . وافـق الملـك ، لكن أعضاء ممن كانوا جميعا من النخبة بالنسب، ناشدوا الملك إعفاءهم مـن التـورط فى اختبار ابن النساج . كنت أعرف مدى جهلهم بأى اختبار، لذلك توسـلت إلـيهم، فأسند الملك المهمة للأساتذة التابعين لى . كان لدى سبورة معـدة للاسـتخدام ، وبـدأ السيرك فى التو . كان من الرائع أن تسمع الفتى وهو يشرح علم الحرب، ويغوص فى تفاصيل المعارك والحصار، وفى الإمداد والتموين ، والنقل، وزرع الألغام، وإزالتهـا،

والمناورات الكبرى، والهدف الاستراتيجى، الأولى والنهائى، وسلاح الإشارة، والمشاة والفرسان، والمدفعية، وكل ما يتعلق بمدافع الحصار، والمدافع فى أرض المعركة، والبنادق، والتدريب بالبنادق القديمة، ولم يكن - كما تعلم - لأحد من الجهلاء المصغين، ناقة أو جمل، فى كلمة واحدة مما ذكر، وكان رائعا أن تراه يشرح بالطبشور على السبورة، لوغريتمات رياضية ، ما يبهر الملائكة ذاتها، وكل ذلك بأريحية شديدة، وكلها تتعلق بالكسوف والخسوف، والشهب، والتقلبات الشمسية، والكواكب، والزمن البينى ، والزمن النجمى ، ووقت الغداء، ووقت النوم، وكل ما يمكن تخيله فوق السحب، أوما يمكنك أسفلها من مباغتة عدو بهجوم أو تهديده ، أو جعله نادما على تقدمه، وحين أدى الشاب التحية العسكرية، وتنحى جانبا فى النهاية، كنت فخورا كل الفخر بضمه إلى صدرى ، وقد بدا الآخرون وكأن على رؤوسهم الطير من جهة، أو سكارى من جهة أخرى، بعد أن فتنوا بما رأوا وتجمدوا فى أماكنهم كالثلج . أدركت أن الكعكة من نصيبنا، وبأغلبية كبيرة .

التعليم شيء عظيم . كان هذا هو نفس الشاب، الذى حضر إلى الوست بوينت ، وقد نال الجهل منه منال ، والذى حين سألته وقتها :

" لو أن ضابطا برتبة جنرال، قد تعرض للسقوط تحت حصانه، فى ساحة القتال، فماذا حرى به أن يفعل ؟ " فأجاب بسذاجة :

" ينهض ، وينفض عن نفسه الغبار " .

استدعى نبيل شاب بعده . فكرت أن أسأله بنفسى بعض الأسئلة، قلت له :

" أيستطيع جنابكم القراءة ؟"

احمر وجهه غضبا، ورمانى بقوله :

" أتظننى كاتبا ؟ أرانى أنتسب بالدم إلى.. "

" أجب عن السؤال !"

تراجع غضبه قليلا، وانبرى قائلا :

" لا "

" أيمكنك الكتابة ؟"

أراد أيضا الامتعاض، لكنني بادرته بقولي:

" ستخضع للأسئلة ، دون تعليقات . فلست هنا للتباهي بنسبك، أو ألقابك، وغير مسموح هنا بشيء من هذا القبيل، أيمكنك الكتابة ؟ "

"كلا"

" أتعرف جدول الضرب ؟ "

"إلام تشير؟"

" ما هو مضاعف الرقم ٩ ست مرات ؟"

" ذلك اللغز يخفى عليّ، إنه لم يطرأ لى طوال حياتى أننى بحاجة ماسة لسبر أغوارما تقول ، وبذا لم تكن هناك حاجة للتعرف على هذا الشيء ،فإننى أعيش محروما من المعرفة " .

" إذا باع أ برميلا من البصل إلى ب، بقيمة ٢ بنس للبوشل، مقابل شاة بقيمة ٤ بنسات، وكلب بقيمة ١ بنس، وقتل س الكلب قبل تسليمه، بسبب تعرضه للعض من نفس الكلب ، الذى عضه خطأ بظن أنه د، فما القيمة التى مازال أ دائنا بها لـــ ب

وأى هذه الأطراف يتحمل ثمن الكلب، س أم د، ومن منهم يستحق تلك القيمة ؟

إذا كان أ هو المستحق ، أو هو المطالب بالأضرار الناجمة فى صورة مبلغ إضافى، يمثل ربحا ممكنا يعوضه عن حرمانه من الكلب، يدرج كقيمة مضافة تحت بند " حق الانتفاع ؟"

" أقسم بالله الحكيم، وبقدرته التى لايطلع عليها أحد ، والكاشف بوسائل غيبية عن آياته الكبرى فى الكون ، بأننى لم أشهد البتة، شخصا يوجه سؤالا كهذا ، يقصد به تشتيت الذهن، وكبت مسارات الفكر . لذا فإننى أناشدك ترك الكلب والبصل وهؤلاء الذين يحملون ألقابا لا دينية غريبة، يعملون بأنفسهم على الخروج آمنين من منزلقاتهم الغريبة والمؤسفة، دون أن يطلبوا عونا منى، فما يعانون من قلق كاف فى ذاته، وقد حاولت مد يد العون ما استطعت، لكننى تسببت بذلك فى مزيد من إهدار دعواهم، وربما لا أعيش بدورى حتى أرى ساعة هلاكهم "

" مذا تعرف عن قوانين التجاذب والجاذبية ؟"

" لو أن هناك شيئا كهذا، فربما أعلن عنه جلالة الملك، حيث كنت مريضا فى بدء العام، و بذلك أكون قد أخفقت فى العلم بها " .

" ماذا تعرف عن علم البصريات ؟"

"إننى أعرف حكام المناطق . والقائمين على الحصون، وعمد البلديات، وكثيرا من المكاتب الصغيرة، وألقاب الشرف، لكن ما تطلق عليه علم البصريات، فلم أسمع عنه من قبل، فربما كان لرتبة شرفية جديدة " .

"أجل، فى هذا البلد " .

حاول أن تتخيل فى أسى حلزونا كهذا، و تتخيل أن يشغل حلزونا على شاكلته منصبا رسميا، أو أى منصب آخر تحت الشمس ! الغريب، أن لديه من الصلاحية ما يرشحه للعمل ناسخا للآلة الكاتبة، ذلك إن كنت ستتغاضى عن جهودك المبذولة فى

إجراء تصويبات لاحصر لها، فى قواعد النحو والصرف وعلامات الوقف . كان من غير المبرر إحجام سموه عن إعانتنا ولو قليلا يفيد بعدم صلاحيته للوظيفة . لكن ذلك لايؤكد أن لديه بعض القدرات فى هذا الاتجاه ، بل يؤكد فحسب أنه أيضا ليس ناسخا للآلة الكاتبة . بعد مزيد من مناوشتى إياه، تركت للأساتذة حرية التعامل معه، فأمطروه بأسئلة فى مجال الحرب العلمية، ووجدوه بالطبع خاوى الوفاض . كان يعرف القليل عن شئون الحرب الحالية، والسعى فى أثر المطاريد، ومباريات مصارعة الثيران، فى الحلبة المستديرة، وأشياء أخرى ، وما دون ذلك يؤكد أنه لايفقه شيئا عنه . استدعينا شابا آخر من النبلاء ، فكان لايختلف عن سابقه فى شيء، من حيث الجهل ، وقلة الجدوى. تركتهما لرئيس اللجنة وأنا أدرك إدراكا تاما، أنهما لايصلحان . كانا قد اختبرا فى المراحل الأولية ،من الاختبار السابق .

" الاسم ،من فضلك ؟ "

" بيرتايبول، ابن بيرتايبول، بارون بارلى ماش " .

"الجد؟ "

" سير بيرتايبول أيضا، بارون بارلى ماش ."

"جد الجد ؟ "

" نفس الاسم واللقب . "

"الجد الأكبر ؟"

" لم نتوصل إليه ، سيدى المبجل ، انقطع السلسال قبل أن يصل إلى ذلك المدى البعيد " .

" لايهم ذلك فى شيء . فهذه الأجيال الأربعة ، تفى بمتطلبات ما هو متبع " .

سألته :

" تفى بأى متبع؟"

" العرف ينص على أربعة أجيال من النبلاء، وإلا كان المتقدم غير مستوف للشروط " .

" هل يصبح المرء غير مؤهل لمنصب الملازم، مالم يكن فى مقدوره أن ينسب نفسه إلى أربعة أجيال سابقة من سلالة النبلاء ؟"

" هذا صحيح، حيث لايمكن تعيين ملازم أو ضابط آخر دون تلك المؤهلات."

" أوه، حسبك ، هذا مدهش . وما جدوى مؤهل كهذا؟ "

" جدواه ؟ هذا سؤال صعب، سيدى المبجل والرئيس ، يصل هذا الأمر إلى التشكك من الحكمة من وجود كنيسة أمنا العذراء ذاتها " .

"كيف؟ "

" ذلك أنها قد أقيمت على العرف ذاته ، وذلك على عهدة الرهبان . فلا يمكن حسب ما تعارفنا عليه ، الاعتراف بأحد حتى يستنفد أجيالا أربعة ."

" أدرك، أدرك أنه الشيء ذاته . هذا مدهش. ففى الحالة الأولى يظل من قضى نحبه، باقيا على قيد الحياة لأربعة أجيال، وقد تقمط بالجهل والبلادة، ما يؤهله لقيادة بشر أحياء، ويضطلع بأفراحهم وأتراحهم، وفى الأخرى، إنسان وسد مع الموتى والهوام لأربعة أجيال ، وذلك يؤهله لشغل منصب فى القبة السماوية . هل يوافق جلالة الملك على هذا القانون العجيب ؟"

قال الملك :

" الغريب حقا، أنني لاأرى فى هذا أى غرابة . فكل مراتب الشرف والامتياز، تنسب بالحق الطبيعى إلى من يحملون لقب النبالة بالنسب، وبذا تصبح كل رتب الجيش وقفا عليهم، وستبقى على هذا النحو سواء بالقانون أو بغيره . فتلك القاعدة القانونية لم توضع إلا لتحديد الإطار العام، وهدفها عزل الكثيرين من السلالات الجديدة، التى ربما تسعى إلى التقليل من شأن تلك المناصب، ما قد يجعل أفراد الطبقة السامية، يديرون ظهورهم لها ويحقرون من شأنها . وأنا الملوم لسماحى بهذه الكارثة . يمكنك بما فوض لديك من سلطات، أن تصرح به ، بعد أن عقدت العزم على أن تفعل ذلك، أما أن يقوم الملك بذلك، فهو ضرب من الجنون، يستحيل إدراكه " .

"أوافق على ذلك . فليتقدم السيد رئيس كلية هيرالد ."

واصل الرئيس الاختبار :

" بأى إنجاز كبير على شرف العرش والدولة، قد رقى مؤسس أسرتكم العظيم، إلى درجة النبالة البريطانية الرفيعة ؟ "

" أقام مصنعا للجعة " .

" سيدى، ترى اللجنة أن المتقدم مستوف لجميع الاشتراطات والمؤهلات لشغل منصب قيادة القوات المسلحة، ويبقى ملفه مفتوحا، لاتخاذ القرار بعد اختبار منافسه " .

تقدم المنافس وأثبت انتماءه لأربعة أجيال من النبلاء . و كان ذلك أقصى ما يطلب من مؤهلات عسكرية .

وقف جانبا، للحظة، وأعقب ذلك توجيه السؤال إلى السير بيرتيبول :

"ما ذا عن شأن قرينة مؤسس سلالتك الاجتماعية ؟"

" تنتمى إلى طبقة كبار الملاك ، وهى ليست من النبلاء، وقد تميزت بدماثة الخلق والعفة والبر، ونقاء السريرة، حتى صارت ندا فى ذلك كله لسيدة البلاد الأولى".

" هذا يكفى . اجلس " .

استدعى اللورد المنافس والأقل مرتبة مجددا ، وسأله : " ماذا كانت مرتبة ووضع الجدة الكبرى الاجتماعى، وهى التى أضفت على عائلتكم شرف النبالة ؟"

" كانت القائمة على قضاء حاجة الملك، وقد بلغت هذه المنزلة الرفيعة، بقدراتها الذاتية، دون استعانة بالمجارى حيث ولدت ."

" آه، نعم النبالة، تلك هى المخالطة الصحيحة، والبريئة من أى نقيصة . أيها اللورد المهذب، إن رتبة القائد لك . فتسلميها دون ازدراء ، فإنها الخطوة الأدنى ، المؤدية إلى مكانة أكثر جدارة بتشريف من فى مثل أصلك " .

شعرت وكأننى فى بئر من المهانة لاقاع لها . لقد منيت النفس بانتصار سهل ، مدو فى الآفاق، وتلك هى النتيجة ! كدت أشعر بالخزى من مجرد إبداء تعبير عن خيبة الأمل الواضحة أمام الجميع. أخبرته بأن يذهب إلى بيته ويترقب، لأن الأمر لم ينته بعد .

كان لى لقاء خاص بالملك ، عرضت خلاله اقتراحا . قلت إن عين الصواب قيادة النبلاء لفرقة الجيش النظامى، وما كان يمكنه أن يفعل أروع مما فعل . وأن إضافة خمسمائة ضابط إليها كان بالفعل من حسن الفطن، ذلك فضلا عن أن أغلبهم كانوا من نبلاء البلد وذويهم ، حتى لواقتضى الأمر فى النهاية أن يتضاعف عددهم خمس مرات عن عدد الجنود فى الفرقة، وبذلك تصبح فرقة المليك الخاصة ممتازة، ومحسودة ، ويمكن أن يقع خوض المعارك على عاتقها هى ، وبأسلوبها المميز ، وأن تمضى من هذا المنطلق كما شاء لها، فى زمن الحرب ، وأن تتمتع برفعة المنزلة

وبالاستقلالية، وذلك تمتيجعلها غاية المنى فى عيون النبلاء، فيشعرون نحوها بالرضا والسرور . نقوم من ثم ، بتكوين بقية الجيش النظامى من أفراد من عامة الشعب، ولا نسند مهمة قيادهم لأحد، كما هى العادة، حيث لايختار أحد على أساس الكفاءة وحدها ، ونكلف هذه الفرقة بمهام محددة، وألا نعفى الأرستقراط من النخبة من الانضباط ، بإجبارهم على أداء كل ما يسند إليهم من أعمال ، ومواصلة جهد هم هذا حتى النهاية، بحيث إنه حين يشعر الملك بسأم ، ويود السفر سعيا لتغيير الأجواء، والارتحال لمطاردة العرابيد ، وقضاء وقت طيب، يتم له ذلك دون مكدرات، مدركا بأن أمورا كهذه تدار بيد أمينة، وأن العمل يدور على قدم وساق بنفس الوتيرة ، كالمعتاد . سر الملك بالفكرة .

وبمجرد أن التفت إلى ذلك، واتتنى فكرة ممتازة . ظننت أننى تبينت طريقى للخروج من المأزق القديم والمزمن فى آخر المطاف .

تأمل قدرعراقة السلالة فى المالك القديمة ، وقدر الخصوبة فيها . كانوا حين يرزق أحدهم بطفل، تمتلئ وجوههم بهجة وحبورا، فى الوقت الذى يكتم فيه الشعب أحزانه فى داخله . كانت البهجة والانشراح يحملان على الشك، أما الأسى فنابع من القلب . لأن هذا الحادث السعيد لايقصد به سوى استمرار النظام الملكى. فيالطول قائمة الملوك تلك، ويالقدر وطول ما تتحمل ميزانية الدولة من أعباء، وما يتعرض له العرش من أخطار . ذلك برغم أن آرثر لم يكن يؤمن بالحقيقة الأخيرة، ولن يصغى إلى أى من مقترحاتى العديدة ، الهادفة إلى إيجاد بدائل للامتيازات الملكية . إننى لو تمكنت بين فينة وأخرى ، من حثه على تقديم دعم مالى من جيبه الخاص إلى أحد المسرفين من أفراد السلالة ، لحققت فى ذلك إنجازا كبيرا، ولكان لذلك أبلغ الأثر على الشعب ، ولكننى لو فعلت النقيض، فإنه لن يعطى مقترحى أذنا صاغية . كان لديه ولع مفرط بما تتمتع به الأسرة الحاكمة من امتيازات . وقد بدا أنه ينظر إليها بكثير من القدسية،

وأنه لا قبل لأحد بأن يسرع في إثارة حفيظته ، دون الهجوم على تلك المؤسسة الجليلة . فإن تجاسرت بالإشارة في حذر إلى أنه محال على عائلة محترمة أخرى في إنجلترا، أن تتواضع وتشارك في مسئولية الحكم، رغم أن هذا هوأقصى ما طرحت ، كان يوقفني دوما عند هذا الحد، ويطلب أيضا الكف عن إثارة حفيظته .

لكنني ارتأيت أنني أدركت فرصتي في النهاية . سأشكل بمفردي هذا الفيلق العظيم من الضباط فحسب، دون جندي نظامي واحد . وسأجعل نصف أفراده من النبلاء، ممن سيشغلون كل المناصب حتى رتبة اللواء، وأن يخدموا بالمجان، ويسددوا كل نفقاتهم ، وسيسرون بهذا حين يعلمون أن بقية الفيلق، ستتكون حصريا من الدماء النبيلة. ستشغل هذه الدماء النبيلة ، الرتب بدءامن رتبة الفريق حتى رتبة المشير، ويتقاضون مرتبات مجزية، و تتحمل الحكومة عنهم نفقات الملبس والغذاء . فضلا عن أنه- وهذا هو الأهم - لابد أن ينص بمرسوم ملكي ، على أن هؤلاء النبلاء العظام جديرون بحمل الرتب العالية المهيبة التي (سأبتكرها في القريب)، وأنهم الوحيدون بالمملكة، الجديرون بحمل الألقاب . كان ينبغي أن يكون لهؤلاء الأمراء بالنسب، مطلق الاختيار : الانضمام إلى الفيلق، والحصول على ذلك اللقب الكبير، والتخلي عن الامتيازات الملكية، أو عدم الانضمام إليه مع احتفاظهم بالامتيازات . الخلاصة من هذا كله، أن الأمراء البارزين و غير المنسبين، كان يمكنهم الالتحاق بالفيلق، وتلقي مرتبات مجزية، ومناصب مرموقة ، وذلك بناء على إشعار بالموافقة على شروط الالتحاق من الوالدين .

سيلتحق كل الشباب ، وإنني على يقين من ذلك، وبذا تتلاشى كل الامتيازات، بحيث يكون كل الملتحقين حديثا سواسية في كل شيء . وبذلك يمكن خلال ستين يوما توقف العمل بالامتيازات الملكية الغريبة والطريفة والشاذة، وأن تحتل مكانها بين نوادر الماضي .

الفصل السادس والعشرون

الصحيفة الأولى

حين أخبرت الملك بنيتى فى القيام بجولة، متنكرا فى هيئة مواطن بسيط حر، والتطواف بالريف، والإلمام بحياة البسطاء، تحمس على الفور لهذه الفكرة الجديدة، وصمم أن يخوض التجربة بنفسه، ولن يحول بينه وبين ذلك شيء، وأنه سيرجئ كل شواغله من أجلها، و كانت تلك هى أفضل ما صادف من أفكار منذ فترة . رغب أن نسلك الطريق القديمة، والرحيل على الفور، لكننى أوضحت له أن هذا لن يجدى. فأنت تعلم، لقد دعى لحضور جلسة الاستشفاء من آفة الملك(*) أعنى أنه ليس من الصواب أن يخيب ظن الأسرة، وأن هذا التأخير لا يستحق أن يوضع فى الاعتبار، لأنه فى كل الأحوال لن يتعدى الليلة الواحدة . ظننت أن حريا به إبلاغ الملكة بنيته فى الرحيل . اكفهر وجهه، وبدا حزينا . ندمت لإثارة تلك المسألة، خاصة حين قال، وهو يعانى مرارة الأسى :

" لقد غاب عنك أن لونسيلوت هنا، وحيثما وجد لونسيلوت، لن يعنيها وجود الملك فى شيء، أوحتى أوان عودته " .

غيرت من سياق الحديث بالطبع . بلى، إن جينيفر امرأة مليحة، هذا صحيح، لكنها عدا ذلك باردة المشاعر . لم أتدخل البتة فى أمور كهذه، فذلك ليس من شأنى، لكننى مججت الطريقة التى تسير الأمور بها، ولم أهتم بإثارة الأمر. كثيرا ما سألتنى

(*) آفة الملك: مرض كان يعتقد أن يتحقق الشفاء منه بلمسة من الملك، ثم ينقد المريض بعد الشفاء المزعوم قطعة من العملات الذهبية ضئيلة القيمة ويطلق عليه مرض السكروفيولا .

جينيفر " هل رأيت السير لونسيلوت يازعيم ؟"، لكنه لم يكن يتصادف وجودى أبـدا حال بحثها عن الملك .

هناك نموذج جد واضح فيما يتعلق بآفة الملك ـ يتسم بالدقة والوضوح . تبوأ الملك سدة الحكم، تحيط به زمرة كبـيرة مـن رجـال الـدين، مـا يتفـق تمامـا وأعـراف الكنيسة، وقف مارينيل، وهو ناسك ممن يدعون معالجة الأمراض بالدجل، وقـف فى مكان بارز لتقديم المرضى أمام الملك . جلس أو اضطجع هذا الدعىّ، وسـط فـوضى عارمة ، فوق أرض فسيحة، لايفصل بينها وبين الأبواب شيء، وأسفل ضوء قـوى . كان ذلك أشبه بلوحة رائعة، يعتقد أنها أعدت لهذا الغرض بكل ما حوت ، ولم تكـن فى الواقع كذلك .

كان عدد المرضى الحضور يقدر بثمانمائة فرد . سار العمل وئيدا، واستلزم الأمر أن أولى اهتماما بتلك الطرفة، ذلك أننى رأيت من قبل مـن الطقـوس مـا يبعـث عـلى الملل، لكن ما تضمنه هذا المشهد من سمات مميزة أجبرنى عـلى تحمـل تبعاتـه . حـضر الطبيب فى المكان لأن كثيرين من بين كل تلك الحشود، تخيلوا فحسب ، أنهم يعـانون مرضا ما، و كثيرين منهم قد وقر فى نفوسهم، بل رغبوا بشدة فى نيـل الـشرف الأزلى، بمسة من الملك ذاته ، وتظاهر آخرون أيضا بالمرض للحصول على قطعة من العملات المعدنية، مصحوب عطاؤها بتلك المسة . كانت عملة النقد حتى اللحظة تلك ، مـن العملات الذهبية بالغة الصغر، تقارب فى القيمة ثلث الدولار . حين تتمعن كثيرا فى ضآلة القوة الشرائية لتلك العملة فى عصر وبلد كهذين، وأن عدم بطلانها أمر بـالغ السوء ، تدرك أن مخصص آفة الملك السنوى فى الميزانية، هو مجرد مبلغ من المال تحتـال به الحكومة لتحكم قبضتها على الخزانة، وتنتهز ما يتاح لها من فرص، للاستيلاء عـلى الفائض . لذلك قررت سرا أن أمس بيدى نفس الخزانة لبحـث أمـر مخـصص "آفـة الملك". غطيت قيمة ستة أسباع المخصص، فى الخزانة فى الأسبوع السابق على رحـيلى

عن كاميلوت لقيامى بالمغامرة المعروفة ، وطلبت استبدال السبع الباقى بنيكلات قدر خمسة سنتات، وأن تسلم إلى رئيس الكتبة فى إدارة آفة الملك، وأن يحل النيكل محل كل عملة نقدية من الذهب ، وأن يؤدى نفس الغرض الذى تؤديه ، فتخيل أن يحدث ذلك، ربما تراجعت وحدة النيكل النقدية بعض الشيء من حيث القيمة، لكننى رأيت أنها ستصمد . إننى لا أتفق من حيث المبدأ مع فكرة ضخ الأموال السائلة ، لكننى فى حالتى تلك، قررت تضخيم المبلغ، لأنه كان فى الأصل مجرد هبة . يمكنك بالطبع تضخيم مال الهبة بالقدر الذى ترغب، وإننى من جانبى أفعل ذلك بصفة عامة . كانت عملات هذا البلد الذهبية والفضية القديمة، فى الغالب من أصل مجهول ضارب فى القدم ، لكن بعضها كان من أصل رومانى، وقد تعرضت للمحو، وكان يندر أن تشبه فى استدارتها قمرا عمره أسبوع ، كما أخرجت بالطرق ولم تسك ، و أكل الزمان منها وشرب لكثرة التداول، حتى صار ما عليها من بيانات أشبه ببثور ممحوة . ارتأيت أن نيكلا جديدا لامعا، واضح البيانات، يحمل على أحد وجهيه صورة آرثر، وعلى الآخر وجه جينيفر، مع شعار دينى لامع، ارتأيت أن تلك العملة بسبيلها إلى قطع شأفة "آفة الملك " من الجذور، وسيتم تداولها على نحو أروع، كما سيسر بها من توهموا مرضهم بداء الملك، وكنت على صواب فى ذلك .

كانت تلك هى الدفعة الأولى التى عرضت للتداول ، وقد حققت المستهدف منها . كان التوفير فى الإنفاق حالة اقتصادية فريدة . يمكنك ملاحظة ذلك بالأرقام فى ما يلى : تم مس عدد يزيد قليلا على سبعمائة فرد من ثمانمائة، بنفس المعدلات السابقة، وكان ذلك يكلف الحكومة، بما يقارب المائتين والأربعين دولارا، وبالمعدلات الجديدة كانت النفقة تعادل ثلاثين دولارا، وبذلك نكون قد وفرنا ما يزيد على المائتى دولار، دفعة واحدة . ولتقدير القيمة الكلية لهذه الدفعة، تأمل هذه الأرقام: تصل قيمة الإنفاق السنوى للحكومة الوطنية إلى ما يعادل أجر ثلاثة أيام من

كل فرد فى الشعب، يحتسب ذلك على أساس الأفراد الذكور . فإذا كان عدد أفراد السكان ستة ملايين، ومعدل الأجور اليومية دولارين، فقيمة ما يحصل من أجر كل فرد فى ثلاثة أيام ، يبلغ ثلاثمائة وستين مليونا من الدولارات، فيسدد ذلك نفقات الحكومة . كان هذا المبلغ يجمع فى بلدى، وفى عهدى بها، من الضرائب، وتصور المواطن هناك أن المستورد الأجنبى ، هو الذى يضطلع بسداد هذه القيمة ، وكان قانعا بهذا الإعتقاد، بينما كان الذى يسددها حقيقة هو المواطن الأمريكى، وكان المواطنون يتحملونه بقيم متساوية، حتى إن ما يتكلفه المليونيرات المائة فى العام ، وما يتكلفه طفل عامل المياومة الرضيع ، سواء بسواء فكلاهما ينفق ستة دولارات . أظن أنه لا مساواة أفضل من تلك. كل أراضى إيرلندا وإسكتلندا تقع الآن فى قبضة آرثر، وكان عدد سكان الجزر البريطانية المترامية، يقل قليلا عن مليون نسمة . كان متوسط أجر العامل الحرفى ثلاثة سنتات فى اليوم، بعد حسم الاستقطاعات . وبناء عليه يبلغ الإنفاق الحكومى تسعين ألفا فى العام، أو حوالى مائتين وخمسين دولارا فى اليوم الواحد . وهكذا فإننى باستبدال الذهب بالنيكلات، فيما يتعلق بيوم آفة الملك، لم أكن فى ذلك قد مسست أحدا بسوء، ولم أثر بهذا حفيظة أحد، لكننى أرضيت الجميع ووفرت أربعة أخماس الإنفاق اليومى العام أيضا، ما يعادل ثمانمائة ألف دولار، كما كان الأمر على عهدى فى أمريكا . وقد استلهمت الحكمة فى العمل بالنظام الجديد ، من مصدر بعيد، واستلهمتها من أيام صباى، أى أنه على رجل الدولة الحقيقى ألا يغض الطرف عن أى من وجوه المعرفة، مهما صغر شأنه : دائما ما كنت فى صباى أدخر نفقتى اليومية ، وأساهم بالقيمة فى شراء أزرار من أجل الدعوة التبشيرية خارج البلاد ما يفيد المشرد الجاهل ، تماما كما يفيده النقد، وربما يفضل النقد مساهمتى بالأزرار، فقد سعد الجميع، ولم يضار أحد .

تعامل مارينيل مع المرضى بأولوية قدومهم . يفحص المتقدم، فإذا لم يستطع التأهل أبلغ بالخروج ، أما لو استطاع التأهل ، فيسمح له بالمثول بين يدى الملك . أعلن الراهب الآتى :" سيضعون أيديهم على المرضى فيشفون ". كشف الملك القروح فى حين تواصلت التلاوة، وتأهل المريض آخر الأمر، وحصل على النيكل، ليعلقه الملك بنفسه حول عنق المريض، ويصرفه بعد ذلك . أتظن ما يحدث شفاء من علة ؟ إنه كذلك بالفعل . فأى شعيرة قديمة ستجلب الشفاء، لو توطد إيمان المريض بها . بأعلى بلدة "أستولات" كنيسة صغيرة ، كانت العذراء قد ظهرت لفتاة، بالقرب من مكان كانت ترعى عنده سربا من الأوز ، وقد أشاعت الفتاة هذا الخبر ، فأقيمت هذه الكنيسة الصغيرة فوق تلك البقعة، وعلقت فيها لوحة تمثل الحدث، لوحة تدفعك إلى الاعتقاد بأن من الخطر لأى مريض الاقتراب منها، فى حين قد أتى الأمر بالنقيض، حيث قدم إليها آلاف المرضى والمقعدين كل عام، وابتهلوا بالدعاء أمام اللوحة ، فصاروا أصحاء معافين ، حتى أولئك المعافون من الناس ، كانوا يستطيعون النظر إلى اللوحة فتدب فيهم الحيوية والنشاط . حين أبلغونى بالأمر لم أصدق طبعا شيئا مما قالوه، لكننى حين ذهبت إلى هناك ، ورأيت ذلك بعينى، كان على أن أتراجع وأسلم بالأمر . وجدتنى قد انفعلت لشفاء المرضى، وكان الشفاء حقيقيا لا لبس فيه. رأيت من المعاقين من سبق لى رؤيتهم فى أنحاء كاميلوت، يسيرون على عكازات، قد أتوا إلى المكان وابتهلوا من أجل الشفاء أمام اللوحة ، وقد تخلوا عنها على الفور ونحوها جانبا. كان هناك أكوام من العكازات، تركها أولئك هناك لتكون شاهدة على ما حدث .

وفى أماكن أخرى يلعب البعض برأس المريض، فيكتب له الشفاء دون أن ينطقوا بكلمة واحدة . فى أماكن غير هذه وتلك، يجمع المحترفون المرضى فى غرفة واحدة ويبتهلون فوق رؤوسهم، ويميلونهم إلى تصديق ما يدعونه ، فيكتب لأولئك

الشفاء. حيثما وجدت ملكا يعجزعن شفاء آفة الملك، تستطيع أن تتأكد يقينا من أن أكثر الخرافات توطيدا لعرشه - وهى الاعتقاد الوهمى بتوليه العرش بأمر الرب - لم يعد لها وجود . توقف ملوك إنجلترا فى شبابى، عن مس المرضى لدفع الآفة، لكن هذا لم يكن نتيجة تراجع ثقتهم بأنفسهم ، فقد كانوا يستطيعون إبلال تسعة وأربعين حالة من خمسين .

كان يلح على شعور بالسأم كلما ألقى الراهب الكلمات بنبرة رتيبة على مدار ثلاث ساعات، وقام الملك بتمحيص الأدلة ، وتواصل تدافع المرضى إلى الأمام. كنت أجلس بجوار نافذة مشرعة، لاتبعد كثيرا عن الظلة التى يجلس تحتها أصحاب المقامات الرفيعة، من نبلاء ورجال دين ودولة ، وللمرة الخمسمائة يتقدم مريض لمس علته، ثم يعاود الراهب تلاوة هذا الابتهال فوق رأسه بنبرة رتيبة". سيضعون أيديهم على المرضى و..."، وحين أتت من الخارج عبارة أشبه بصوت النفير، سحرت روحى، وكدست وقع ثلاثة عشر قرنا عجافا حول أذنى، :" اقرأ كاميلوت الأسبوعية، وبركان الأدب ! ـ دوى الانفجار الأخير ـ بستين فقط ـ آخر أخبار معجزة الوادى المقدس الكبرى !" وفد من يرقى الملوك مقاما ، أعنى بائع الصحف الصبى . لكننى كنت الشخص الوحيد فى المملكة الذى كان يلم بكل أخبار ذلك الحدث العظيم ، وبما سيفعله هذا الساحر العالمى، بقدومه إلى العالم .

ألقيت من النافذة نيكلا، وحصلت على الصحيفة . ولف آدم بائع الصحف العالمى بمنعطف الطريق، لإعطائى بقية النقود . كان من الروعة أن أرى مجددا إحدى الصحف، كما كنت مدركا لشعور مباغت خفى، ينتابنى لدى وقوع بصرى على الكلمات الأولى من العناوين الرئيسة . نعمت طويلا بحياة ديدنها الوقار والاحترام، والتميز، ما أشعرنى ببرودة بسيطة تسرى فى بدنى :

لحظات مجيدة فى وادى القداســـة

عطـــل طارئ ببئـر للمياه

برير ميرلين يستعرض فنونه لكنه يتوقف

إلا أن الزعيم يحقق أول إنجازاته

تدفقت البئر العجيبة بالمياه

وسط لهيـــب من جهنم

ودخان وبروق

الدهشة تخيم على المكان

فرحة مالـــــها مثيـــل

ودواليك . أجل، كان حدثا مدويا . كنت أتمكن فى السابق من الاستمتاع بهـا، وأدرك اكتمالها ، لكننـى لاحظـت عيبـا فى إخراجهـا. شـأنها فى ذلـك شـأن صـحيفة آركنساسية جيدة، لكننا لسنا فى آركنساس الآن. ذلك فضلا عن أنه قد ورد فى السطر قبل الأخير، ما يتناول النساك بالإثم ، وقد يتـسبب ذلـك فى حرمـان الـصحيفة مـن الإعلانات التى ينشرونها فى الصحيفة . الحقيقة أنه كانت هناك نبرة، تشى بـشيء مـن زلة اللسان عبر الصفحات . وضح تماما أننى أجريت تطورا ملحوظـا دون أن ألحـظ ذلك . وجدتنى متأثرا رغما عنى، ببعض مايشير فيها إلى الخروج عن الاحتشام، ما بدا لدى مستحسنا وفى حدود فلتات اللسان فحسب، وذلك وهى تخطو خطواتها الأولى . وفيما يلى نماذج عديدة ومنتقاة، شعرت من خلالها بشيء من القلق :

دخان ورماد فى الإقليم

التقى دون ترتيب مسبق كل من السير

لونسلوت والملك الشيخ أجريفـــاس،
ملك إيرلندا، فى الأسبوع المـــاضي
بأعلى جنوب مرعى الخنازير، التا بع
للسير بالمورال لى ميرفيليوس، وتـــم
إبلاغ الأرملة بالأمر .
ستتحرك البعثة الموفدة للبحث عن السير
ساجرامور لا ديزايروس، فى منتصـــف
ليلة الغد . يرأس البعثة، فارس المروج
الحمراء الشهير، ويعاونه السير بيرسانت
الإندى، والألمعى المحترف، حلو المشاعر
فى كل حال، كما يساعده السير بالامايدس
العربى ، الذى لم يكن فى ذاته نبتة عنب الدب.
لم تكـــن هذه مجرد نزهة، فهؤلاء شباب
جادون .
سيأسف من هللوا، حين يعرفون السير
شاروليزالجولى، الشهير والأنيـــق الذي
اكتسب مودة الجميع، خلال إقامته أربعـــة
أسابيع فى بال، وهالبوت، وذلك لمسلكـــه

المهذب وحلو حديثه وأنه سيشد الرحـــال

إلى بلدته اليوم .

أسند إنهاء ترتيبات جنازة الراحل السيـــر

داليانس، ابن دوق كورنويل، الذى لقـــى

حتفه فى مبارزة يوم الثلاثاء الماضى مع،

العملاق صاحب الهـــراوة الغليظـــة

على حدود سهل السحر، عهـــد بها

إلى الودود ، المتمتـــم الكـــفء،

أمير الحانوتية، والذى لايضاريه أحد

فى بث مشاعر الرضا التام، عما قـــدم

من شعائر حزينة . وكان فى ذلك النموذج

الأمثل .

يعود ما قدم من آيات الشكر القلبية فـــي

شعيرة التهليل ، بدءا من المحرر حتى عامل

المطبعة، يعود ذلك إلى اللورد المهـــذب

رئيـــس التشريفات، والمساعد الثالث

للقصر الغربى، القائم على منكـــهات

الآيس كريم، بكمية روعى فيـــها، أن

تنطق لها عيون المعزين بآيات العرفـــــان،

و تحقق ذلك بالفعل . حين تريد هذه الإدارة،

إحراز لقب محبب، لتحقيق رواج سريع،

فالتهليل فرصة متاحة .

تقوم الآنسة إيرين ديولاب ، من آستولات

الجنوبية، بزيارة خالــها، المسئـــول

الشهير عن دار مبيت مربى الماشيـــة ،

فى حى ليفر لين، فى هذه المدينة .

عاد باركر الأصغر نافخ الكيـــر إلى

الديار ويبدو أنه قد تحسن كثيرا،

لقضاء عطلته وسط الحدادين فى الخارج .

تأمل إعلانه .

كانت تلك بداية رائعة بالطبع، فى مجـال الـصحافة، أدرك ذلـك جيـدا، ذلـك فضلا عن أنها كانت محزنة بعض الشيء . أسعدتنى كثيرا، "أخبار أفراد البلاط " مـن حيث بساطتها، وروعتها ، فبثت فى نفسى شـعورا فريـدا بالانتعـاش ، بعـد كـل مـا عانيت من هم يدعو إلى التأفف ، وكان يمكن لهذه المشاعر أن تتطـور إلى الأحـسن . أدركت بأنهم يفعلون قدر ما يمكنهم ، فليس هناك ما يشى بتنـوع فى أخبـار الـبلاط الدورية . هناك رتابـة حقيقيـة، فـيما يتعلـق بأحـداث الـبلاط ، تعـوق جهـود المـرء وتربكها، عند محاولته تنشيطها وإزالة ما بها من رتابة . إن أفضل الطرق للتعامل مـع

تلك الأحداث، وهى الأنجع، تتمثل فى مواراة رتابة الواقع فى ظل تنويع الصورة، عليك أن توارى واقعك فى كل مرة، وغطه بقشرة جديدة من الكلمات. ذلك يزيغ عين القارئ ، فيعتقد بجدة الحدث، ويقدم له من الأفكار، ما يشير إلى أن أحداث البلاط تسير على ما تسير عليه ما عداها من أحداث ، فيدفع ذلك إلى الإثارة ، ما يدفعك بالتالى إلى التهام عمود بأكمله، بشهية مفتوحة، وربما لايجعلك تلاحظ أن وعاء ضخما من الحساء ، قد طهى من ثمرة واحدة من الفاصوليا. كانت طريقة كلارنس مميزة، فيما تظهره من بساطة وتناسق واستقامة وجدية ، وكل ما يمكننى قوله عنه إنه ، ليس الأسلوب الأمثل :

أخبـــــار البلاط

الاثنين قام الملك بنزهة .

الثلاثاء " " " .

الأربعاء " " " .

الخميس " " " .

الجمعة " "" .

السبت " " " .

الأحد" "" .

حين قرأت الصحيفة بالكامل ، سررت بها رغم كل المآخذ سرورا بالغا. لاحظت من الناحية المهنية، بعض المباشرة الفجة هنا أو هناك، لكنها لم تكن بالكثرة، لم تكن بالكثرة التى تستدعى النقد ، وقد تم تصحيح البروفات بأسلوب جيد بالطريقة الآركنساسية، وكان ذلك كافيا وزيادة، لما يحتاجه عهد آرثر، ومملكته . كانت قواعد اللغة فيها، مملوءة بالأخطاء كالمعتاد ، ومقصورة عن التعبير بطريقة أو بأخرى،

لكننى لم أكـن ألقـى لمثـل هـذا كثـير بـال . أمـا مـن وجهـة نظـرى ، فـإن أخطاءهـا كانت شائعة، ولا يجب على المـرء أن يلـوم الآخـرين لأسـباب لايـستطيع هـو نفـسه التصرف حيالها .

ازددت نهما للأدب، إلى حد يجعلنى ألـتهم الـصحيفة كلهـا فى وجبـة واحـدة، لكننى تناولت بضع لقيمات فحسب، وقد اضـطررت إلى هـذا، لأن مـن حـولى مـن الرهبان حاصرونى بأسئلة من نوع، ماهذا الـشيء الغريـب ؟ وفـيم يـستخدم ؟ أهـو منديل ؟ أم حشية سرج ؟ أم قطعة من قميص ؟ مم صنعت ؟ يالنحولها، وهـشاشتها وخشخشتها . أتظنها للبس، وهل تضار من المطر ؟ أذلـك المكتـوب فوقهـا حـروف للكتابة، أم لمجرد الزينة ؟ ارتابوا فى أن تلك حروف للكتابة ، لأن من كان يعرف منهم كتابة اللاتينية ونثارا من اليونانية قد تعرفوا إلى بعض الحروف ، لكـنهم لم يـستطيعوا التوصل إلى شيء . وضحت الأمر بصورة هى الأبسط :

" هذه صحيفة عامة، سأشرح لكم كنهها، فى وقت آخـر . وهـى ليست ثوبـا يلبس ، كما أنها صنعت من الـورق ، سـأشرح لكـم فى وقـت آخـر معنـى صـحيفة . سطورها مادة مقروءة، لم تكتب باليد، بل تطبع، وسأشرح لكم قريبا، معنـى الطبـع . يصنع منها ألف نـسخة ، وكـل النـسخ تـشبه هـذه الـصحيفة فى كـل شيء، وفى كـل التفاصيل، ولا يمكن تفرقتها عن بعضها البعض. انطلقوا يعـبرون عـن الإعجـاب و والدهشة :

" ألف صحيفة . ذلك فى الحقيقة إنجـاز كبـير، وهـو عمـل عـام يـشارك فيـه كثيرون " .

" كلا ــ بل عمل يوم واحد فحسب، يقوم به رجل وصبى " .

أشاروا إلى أنفسهم بعلامة الصليب، وتمتموا بدعاء واق، أو اثنين .

" آه ــ هـ ... يالها من معجزة، ياللعجب ! ذلك عمل شرير من أعمال

السحر " .

توقفت عند هذا الحد . وتلوت بصوت خفيض، على كل من يمكنه منهم مد رأسه الحليق للإصغاء إلى جزء مما تلوته من قبل فى معجزة إصلاح البئر، صحب هذا هتاف من الجميع ، معبرا عن الذهول وبالرهبة : " آهـ ـ هـ " "عجيب ! " مذهل ، مذهل !" وهو نفس ما وقع منهم فى السابق بكل تفاصيله العجيبة ! " هلا تناولوا هذا الشيء الغريب بأيديهم ، واستشعروه، أو حتى تفحصوه ؟ ربما فعلوا ذلك . أجل، لقد تناولوا الجريدة بأيديهم، وأخذوا يقلبونها، بحرص، ورهبة، وكأنها شيء مقدس، ورد إليهم من مكان خفى، وتحسسوا مادتها برقة، وأخذوا يمسدون سطحها الناعم الرقيق، بلمسات حانية، كما تفحصوا بنظرات الإعجاب تلك الحروف الغريبة . كم كان قدر ما شعرت به من جمال، فى تلك الرؤوس المنحنية والمتلاصقة، وهذه الوجوه الرائعة، والأعين المعبرة ! ثم أليست تلك فاتنتى، المناطة الآن بكل هذا الإعجاب الدفين، والاهتمام، والثناء عليها بأبلغ تعبير، وإطرائها بعفوية ؟ أدركت فى تلك اللحظة قدر ما تشعر به أم حين تتناول منها النسوة طفلها حديث الولادة ، سواء كن غريبات عنها أو صديقات، فيضممنه إليهن فى شغف، ويحنين رؤوسهن فوقه، فى حب عميق، ينسيهن العالم كله، وكأن إدراكهن قد فارقهن فى تلك اللحظة .

أدركت مشاعر تلك الأم، وأنه ما من مطمح آخر قد حققه ملك أو قائد أو شاعر، يمكنه قطع نصف المسافة لنيل تلك السكينة التى بلغت الذروة، أو يقدم نصف الارتقاء بمشاعر الغبطة والرضا تلك .

تنقلت صحيفتى خلال بقية الجلسة من جماعة لأخرى، ممن كانوا يشغلون أعلى أو أسفل أرجاء القاعة الكبيرة، وعيناىّ فى غبطة لاتفارقها، فجلست ساكنا أشعر بالرضا التام ، ثملا بمشاعر البهجة. أجل، إنه النعيم، قد ذقته مرة، فلربما لا يقدر لى أبدا التمتع به مرة أخرى .

الفصل السابع والعشرون

سفر الملك والشمالى فى زى تنكرى

جئت بالملك إلى جناحى فى العشية، لأحلق شعره، وأعينه على ارتـداء الثـوب المعد له . كان من عادة علية القوم تصفيف شعورهم، بقصها فـوق الجبهـة ، لكـنهم يرسلون على أكتافهم ما تدلى منها، فى حين كان أبناء الطبقة الدنيا من العامة يقـصون شعورهم من الأمام والخلف، أما العبيـد فـلا يقـصرون شـعورهم ويتركونهـا تنمـو طواعية . لذلك قصرت من شعر رأسه، وقصصت الخصلات العالقة بـه . كـما قمـت بتهذيب شعر الفودين والـشارب، حتـى صـار طـولها لايزيـد عـلى نـصف بوصـة، وحاولت أن أظهر ذلك بصورة ارتجالية، وقـد نجحـت فى ذلـك . كـان فـيما فعلـت تشويه لصورته على نحو يدعو إلى النفور . حين انتعل خفيه الكبـيرين، ووضـع عليـه رداءه الكتانى، القاتم الخشن، والمسربل من رقبته حتى عظام كاحليه، لم يعد هو ذلـك الرجل الأول فى المملكة، بل كان شخصا يتسم بالقبح والضعة ، وسوء الهندام . انتهى كلانا من الحلاقة ، وارتداء الثياب، واستطعنا تحويل صورتينا إلى اثنـين مـن صـغار المزارعين، أو وكيلا مزرعة، أو رعاة أغنام، أو سائقى عربة كارو ، أو قرويين يشتغلان بالحرف اليدوية لو ادعينا ذلك ، فقد كان ثوبانـا مـن الـشيوع حقيقـة بـين الحـرفيين، بسبب ما فيهما من متانة ورخص. لا أعنى رخصهما بالنسبة لفقير، بل أعنـى أنهـما قـد حيكا كما تعلم من أرخص قماش يرتديه الذكور .

تسللنا قبل ساعة من حلول الفجر، وقطعنا ثمانية أو عشرة أميال مع شروق الشمس، وصرنا وسط قرية آهلة بقليل من السكان ، كنت أحمل على ظهرى صرة ثقيلة، محملة بالأمتعة، أمتعة تساعد الملك تدريجيا على معايشة حياة الريف الصعبة دون أن ينتج عن ذلك إضرار به.

عثرت للملك على مكان مريح على جانب الطريق يجلس فيه للراحة ، وأعطيته لقيمات يقيم بهن أوده . قلت إننى سأبحث له عن ماء، وذهبت لأجول بالمكان. كان من بين ما قصدت من ذلك أن أحتجب عنه ، كى أجلس ، للاستراحة بدورى . كان من عاداتى الدائمة أن أظل واقفا فى حضرته ، وكان ذلك يحدث حتى أثناء انعقاد المجلس الاستشارى ، عدا مرات نادرة، كان يطول فيها جلوسه بالضرورة، فيمتد لساعات، وكنت آنئذ أتخذ شيئا بسيطا مسطحا لامتكأ له للجلوس عليه ، أشبه بوعاء مقلوب، وكان مريحا كألم الأسنان . لم أشأ التخفيف منه بغتة بل بالتدريج. كان لابد الآن من الجلوس معا، سواء منفردين أو أمام الناس، إلا أنه لن يكون من الحكمة أن أتعامل معه على قدم المساواة، حين لا تضطرنا الظروف لذلك .

وجدت الماء، على مسافة ثلاثمائة ياردة، وظللت جالسا للراحة حوالى عشرين دقيقة، حتى سمعت أصواتا . ظننت أن الأمور تسير بصورة طبيعية ، وأن الفلاحين سادرون فى شواغلهم، ولا يرجح أن يخرج أحدهم الآن، فى هذا الوقت المبكر . لكنه فى اللحظة التالية، بدأ ظهور أناس، يدورون بمنعطف الطريق، ويرتدون ثيابا أنيقة، وبصحبتهم حمير تحمل أمتعة، وخدم يتبعونها ! انطلقت من مكانى كالسهم من وراء الآجام، ومن أقصر طريق . بدا من الوهلة الأولى ، أن هؤلاء سيمرون حتما بالملك قبل أن أتمكن من الوصول إليه ، لكن اليأس كما تعلم يهبك جناحين، فدفعت بجسدى إلى الأمام، وملأت صدرى بالهواء ، وحبست أنفاسى ، وركضت . وصلت إليه، وبتؤدة غريبة قلت له :

" معذرة مليكى، لاوقت الآن للرسميات، انهض سريعا ! انهض من مكانك، إن أفرادا من الصفوة قادمون نحونا ! "

" أتلك أعجوبة ؟ فليقدموا ما شاء لهم " .

" عفوا سيدى ! لكن لايجب أن يرونك جالسا . انهض ! انهض وقف وقفة شخص ذليل وهم يمرون بك . تذكر أنك مجرد فلاح " .

" نسيت ذلك حقا، فقد رحت أحلم بالتخطيط لحرب ضد جول " قام من مكانه فى اللحظة ذاتها، لكن كان لأى مزارع المبادرة بالنهوض من مكانه أسرع منه ، لو أن هناك شيئا من عطاء كان يوزع فى إقطاعية ". وهكذا طرأت فكرة طغت تلقائيا على هذا الحلم الملكى الذى .. "

" أسرع، سيدى الملك، قف وقفة شخص ذليل ! احن رأسك ! أكثر ! أكثر قليلا ! احنها !"

فعل ما وسعه، لكنه لم يحقق فى ذلك نجاحا كبيرا . بدا فى انحنائه أشبه ببرج بيزا المائل . ذلك أقصى ما يمكنك أن تصفه به. كاد ذلك أن يكون فى ذاته إنجازا كبيرا، زاد مما طرأ على الموكب من أوله حتى آخره من صورة العبوس الجماعى ، ما جعل خادما بهى الطلعة فى المؤخرة يرفع سوطه، لكننى سرعان ما دفعت بجسدى تحت السوط قبل سقوطه ، فى ظل وابل من الضحك المجوج أعقب ذلك ، خاطبت الملك بجدية، وحذرته من الاهتياج. كظم غيظه فى الحال، لكنه وجد فى ذلك مشقة كبيرة، فقد بدا راغبا فى التهام الموكب بأسره ، قلت :

" قد يقضى ذلك على مغامراتنا منذ البداية ، خاصة وأننا مجردون من السلاح، ولا قبل لنا بالتعامل مع عصابة دجج أفرادها بالسلاح . لو أن لنا أن ننجح فى مغامراتنا هذه ، فعلينا ألا نبدو من المزارعين فحسب، بل أن نتصرف مثلهم . "

" تلك حصافة لاقبل لأحد بها . هيا أيها الزعيم . سأضع هذا فى اعتبارى، وأتعلم، وأفعل قدر ما يسعنى " .

نفذ وعده ، وتصرف قدر ما استطاع، بل كنت أراه يتحسن . هب أن لديك طفلا نشيطا، طائشا، مندفعا، يفرغ من طيش ويتجه لآخر دون توقف، وأمه القلقة تسير فى أعقابه طوال اليوم ، فتنقذه فى التو من تعريض نفسه للغرق من خصلة من شعره ، أوتنجيه من الموت فى كل مخاطرة جديدة يقدم عليها، وهذا كان حالى والملك . لو أننى توقعت إقدامه على خطر من هذا النوع ، لاستلزم الأمر أن أنهاه عنه بـ"لا"، ولو أن إنسانا عمد إلى أداء دور ملك متنكر فى هيئة فلاح، فعليه أن يسير على الوتيرة ذاتها، وكان يمكننى التعامل بأفضل من ذلك مع مجموعة من الوحوش المعروضة فى معرض من المعارض ، وأستمرعلى ذلك لفترة أطول . هكذا فإننى خلال الأيام الثلاثة الأولى لم أكن أسمح له بدخول كوخ أو مسكن آخر . لو استطاع أن يجتاز مشقة خلال مراحل تقشفه الأولى، كان ذلك يحدث فى النزل الصغيرة، وعلى جادة الطريق، وقد قيدنا أنفسنا بالتوجه إلى تلك الأماكن . أجل، من المؤكد أنه تمكن من بذل أقصى جهده ولكن فيم ؟ تبينت رغم ذلك أنه لم يتقدم خطوة واحدة .

كان يتسبب دوما فى تكديرى ، ومباغتتى بغرائب كبيرة ، فى أماكن غير متوقعة . بحلول عشية اليوم التالى، كان كل ما استطاعه إخراج خنجر من ردائه ببراعة !

" ياللسماء ، من أين جئت بهذا ، سيدى ؟"

" عشية أمس، فى الخان، من أحد اللصوص " .

" ما الذى دفعك حقا إلى شرائه ؟ "

" سبق لنا النجاة من مخاطر عدة، جراء فطنتك، فطنتك فحسب، لكننى فكرت بدورى مليا، فى حمل سلاح من باب الاحتياط، فقد يوقعك شخص مثلى فى بعض المآزق " .

" لكن لايسمح لمن على شاكلتنا بحمل أسلحة فما عسى أن يقول أحد السادة ، أجل، سيد أو سواه أيا كان وضعه، لو ضبط فلاحا وقحا يشهر فى وجهه سلاحا ؟"

كان من حسن الطالع أن أحدا لم يمر بنا فى تلك اللحظة . حثثته على التخلص من الخنجر، وكان ذلك أشبه باسترضائك طفلا بمداعبته ، بغرض التراجع عن قتل نفسه . واصلنا السير، فى صمت وتأمل . قطعه الملك فى النهاية بقوله :

" لو إنك علمت بأننى أفكر فى أمر بغيض، أو محفوف بالمخاطر، فلم لا تنهانى عن فعله."

نم سؤاله عن إجفال وحيرة فى آن . لم أعلم تماما كيفية الإجابة عنه، أو ما أقول بصدده، لذ لك توصلت بالطبع إلى أن أقول بتلقائية :

" ولكن سيدى، كيف لى أن أطلع على نواياك ؟"

أسقط فى يد الملك ، و قال :

" لقد صدقت أنك أعظم من ميرلين، وإنك كذلك فى فن السحر أيضا. لكن التنبؤ أعظم من السحر، وميرلين متنبئ جيد " .

أدركت أننى تسببت فى إثارة لغط لديه وكان على أن أسترد مكانتى عنده. بعد طول تفكير، وروية ، قلت :

" سيدى، لقد أسأت فهمى ، وسأوضح الأمر . هناك نوعان من النبوءة، أولهما موهبة التنبؤ بما سيحدث ، فى المنظور القريب، والثانى، التنبؤ بما سيحدث عبر أجيال ودهور . فأيهما فى ظنك الموهبة الأعظم ؟ "

" أوه، الأخيرة دون شك " .

" هذا صحيح، فهل يمتلكها ميرلين ؟"

" أجل إلى حدما . لقد تنبأ بـأسرار، تتعلـق بمـيلادى، وبمـستقبل المملكـة فى العشرين عاما القادمة . "

" أذهب أبعد من ذلك ؟"

"أظن أنه لم يطلب منه المزيد ".

" قد يكون هذا أقصى ما عنده . فلقدرات كـل متنبـئ حـدود قـصوى . تبلـغ قدرات بعض المتنبئين العظام ، المائة عام " .

" أظن ذلك قليلا . "

" هناك من هم أكثر قوة من ذلك، حيث تبلغ قـدراتهم عـلى التنبـؤ الأربعمائـة أوالخمسمائة عام، وهناك من يصل إلى السبعمائة والعشرين " .

" عجيب ، مدهش ! "

"ولكن ما هؤلاء، مقارنة بى ؟ لاشيء . "

" ماذا ؟ أيمكنك حقا تخطى زمن يطول بقدر ______ "

" سبعمائة عام ؟ سيدى، يستطيع بصرى هـذا، الحـاد كعـين الـصقر يـستطيع التغلغل، والكشف عن مستقبل هذا العالم لما يقارب الثلاثة عشر قرنا ونصف القرن".

يالى، كان حريا بك رؤية عينـى الملـك ، وقـد اتـسعتا وتيـدا، وعلتـا بمجـال الأرض الكلى بقدر بوصة ! حسم ذلك أمر بربر ميرلـين . لم تـتح لأحـد مـن هـؤلاء فرصة للتحقق من محدثاته ، بل كان عليه أن ينبئهم فحسب . لم يطـرأ ببـال أحـد أن يبدى شكا فيما أنبأ به . استطردت :

" بهذا يمكنني إجراء نوعين من التنبؤ، في المنظورين القريب والبعيد، لو شئت بذلك جهدا أكبر ، لكني لا أمارس غير المنظور البعيد ، إلا في النادر، لأن النوع الآخر يقل عن ملكاتي شأنا ، ويعد أكثر ملاءمة لأمثال ميرلين، من شيوخ النبوئيين ، كما نطلق عليهم في المهنة . كنت من وقت لآخر أحدث نبوءة صغيرة تزجية للوقت، وذلك في النادر طبعا وليس غالبا . تذكر أنه كان قد دار لغط كبير قبل وصولك إلى وادي القداسة، دار حول ما قدمت من تنبؤ بأوان قدومك، وساعة وصولك بالتحديد، قبل ذلك بيومين أو ثلاثة " .

" إنني أذكر ذلك الآن بالفعل " .

" حسنا، كان يمكنني أن أفعل ذلك بسهولة أكثر من ذلك بأربعين مرة ، وأراهن ألف مرة على حزمة من التفاصيل أدق من ذلك كثيرا ، ولو كان يبعد بخمسمائة عام، وليس بيوم أو اثنين " .

" مدهش أن يصل الأمر إلى هذا المدى ."

" أجل، و الخبير المحنك، يمكنه التنبؤ دوما بشيء يحدث بعد خمسمائة عام بقدر أسهل من تمكنه من التنبؤ بما سيحدث بعد خمسمائة ثانية فحسب" .

" ومن البدهي أن ينطبق هذا تماما على الطريقة الأولى ، لأنها تتعامل وفترات متقاربة، يمكن لإنسان عادي أن يتوقعها . إن قانون النبوءة في الحقيقة، يكذب الأرجحيات، فيحول بغرابة شديدة الصعب إلى سهل والعكس صحيح .

إنها رأس حكيمة ، وتنكرها في قلنسوة فلاح غير مأمون العواقب ، حيث يمكنك معرفة أنها لملك، وأنت داخل غرفة للغوص، لو تمكنت من الإصغاء إلى طريقة أدائها العقلي .

صرت الآن أمارس حرفة جديدة، حافلة بالعمل. شغف الملك بالكشف عن كل ماسيحدث للعالم ، خلال القرون الثلاثة عشر القادمة ، كأنه يترقب اللحاق بها . أطلقت لنفسى العنان فى التنبؤ منذ تلك اللحظة ، محاولا الوفاء بمطالبه. كنت أول عهدى بالحياة، أندفع إلى بعض الطيش، لكن أسوأه كان إجبار نفسى على أداء دور المتنبئ، لكن الأمر كان يتجه معى نحو الأفضل. لايجدر بالمتنبئ أن يكون ذكيا ، ولا بأس طبعا إن كان كذلك، حال استدعى الأمر منه الوفاء بمتطلبات حياته العادية، لكنه دوما فى غير ما حاجة إلى استخدام ذكائه فى مهنته هذه. فالتنبؤ أسهل مهنة على الأرض يمكن ممارستها. حين تحل بك روح التنبؤ، فكل ما يجدر بك فعله أن توارى عقلك بغطاء، و تدعه ينعم بالراحة فى مكان هادئ، ثم انس أن لك فكا، ليس عليك التدخل فى عمله، لأنه سيعمل طواعية، ويأتيك فى آخر الأمر بنبوءة .

كان يمر بنا كل يوم فارس أو رحال، فتؤجج صورة كل منهم فى الملك مشاعرالإقدام فى كل مرة . مؤكد أنه كان ينسى هويته، وينطق بما يبعث على الشك بطريقة أو بأخرى، أو ما ينأى به عن هويته المنتحلة ، وسرعان ماكنت فى كل مرة أخرجه عن ذلك السياق، فيكف حينئذ، وينظر إلىّ بعينيه، وشعاع من الكبرياء يخرج منهما، فضلا عن انتفاخ أوداجه، وكأنه جواد معد للحرب، فأعرف حينئذ أنه يتوق إلى اللحاق بأولئك الفرسان . لكننى توقفت عند حلول الظهيرة على الطريق، لتحوط أوحى به صوت ضربة سوط، تلقيت مثلها منذ يومين، تحوطا قررت فيما بعد التخلص منه، واستنكاف أن يترسخ فى، لكننى الآن أحمل ذاكرة قوية، فبينما كنت أطلق لطيشى العنان، ولفكى الاتساع والتمدد، ولعقلى التنعم بالراحة ، وجدت نفسى لحظة التنبؤ وقد أصيب إصبعى بالتواء، ووجدتنى منبطحا على الأرض . شعرت بضعف، ووجدتنى للحظة عاجزا عن التفكير، ثم نهضت من مكانى بحرص وتؤدة، وحللت الصرة من فوق ظهرى . كنت أحتفظ فيها بقنبلة من الديناميت، فى

صندوق، ملفوف فى قطعة من الصوف. كان الإحتفاظ بها شيئا طيبا، حال تحين فرصة أمكن فيها من صنع معجزة تنفعنى. لكن وجودها معى كان يشعرنى بالقلق، ولم يخطر ببالى أن أطلب من الملك حملها. و كان علىّ رغم ذلك أن أقرر إما التخلص منها، أو التوصل إلى طريقة آمنة، للتعايش معها .

أخرجتها، ودسستها داخل حقيبتى الصغيرة، و أقبل فى اللحظة ذاتها فارسان. قام الملك من مكانه، بمهابة تمثال، محدقا نحوهما ببصره، وقد نسى طبعا هويته الجديدة مجددا، وقبل أن أتمكن من تحذيره بكلمة ، استطاع بما تيسر من وقت مغادرة المكان، وخيرا فعل . لقد افترض أنهما سينعطفان على الطريق . فهل ينعطفان تحاشيا ، لئلا يطآ بأقدامهما أسمال فلاح ؟ ومتى أجبر نفسه فى السابق على إخلاء الطريق ، أو حتى وجد فرصة لأن يفعل ذلك، لو رآه فلاح، أو فارس نبيل آخر، وجدا من الحكمة أن يوفرا عليه عناء ذلك ؟ لم يلق أى من الفارسين إلى الملك بالا فى تلك اللحظة، فهذا مكانه يسلك فيه ما شاء له ، وإذا لم يكن قد تخلى عنه، كان سيظل جالسا فيه ، دون أن يعبأ به أحد، و يرميه أيضا بالازدراء .

اشتط الملك غضبا، وراح يعلن التحدى ، وينبذ بالألقاب، بكل ما يملكه ملك من حمية . مر الفارسان ، وتجاوزنا لمسافة قريبة . توقفا، وكأنهما انتبها لوجودنا ، والتفتا إلينا من فوق الجياد ، كأنهما قد ترددا فيما لو استحق الأمر إلقاء نظرة على حثالة مثلنا . سرعان ما عادا واتجها نحونا . حرى بى إذن ألا أضيع لحظة . تحولت إليهما ، وخطوت نحوهما بخطى وئيدة، وحين صرت على مقربة منهما ، أطلقت وصلة حادة من سباب القرن الثالث عشر ، يقف لها شعر الرأس، جعلت انفعال الملك يتراجع ويقل بالمقارنة. كان انتقائى لما لذ وطاب من القرن الثالث عشر، لأننى كنت على دراية به . تقدما بحيث صارا على مقربة من الملك قبل أن يتبينا حقيقة الأمر، وقد استبد بهما الحنق، فأوقفا الجوادين ، على حوافرهما الخلفية، ودارا بهما دورة ، وصارا فى

اللحظة التالية وجها لوجه . كنت منهما على مسافة سبعين ياردة، أتسلق جلمودا ضخما على جانب الطريق. حين صارا منى على مسافة ثلاثين ياردة، أنزلا رمحيهما الطويلين إلى مسافة ، تقل عن مستوى رأسيهما المدرعة بالخوذة ، هكذا كان شعر جواديهما ، يطير مع الهواء إلى الخلف، وبأقصى ما يمكن تصوره من هجوم ، مرقا نحوى بسرعة البرق ! حين صارا على مسافة خمس عشرة ياردة، سددت تلك القنبلة نحو هدفها المحدد، فارتطمت بالأرض، تحت أنفى جواديهما مباشرة .

أجل، كان ذلك من البراعة، براعة حقيقية تستحق الفرجة . كان ذلك أشبه بانفجار باخرة على نهر المسيسيبى، وصرنا فى خمس عشرة دقيقة ، وقوفا أسفل رذاذ لاينقطع من الشظايا الميكروسكوبية المتطايرة من الفارسين، فضلا عن لحم الخيل والقطع المعدنية. أقول نحن ، لأن الملك انضم إلى النظارة بالطبع، بمجرد أن استرد أنفاسه .

أحدث الانفجار حفرة كبيرة فى المكان ، تستدعى من أهل المنطقة، جهدا دؤوبا فى قادم السنين، لمعرفة سببها، أعنى، أن أمر ردمها، سيكون ملحا نسبيا ، وسيقع عاتقه على قلة مختارة من فلاحى تلك الإقطاعية، لن يحصلوا جراء ردمها على مقابل يذكر .

لكننى أوضحت أمرها بنفسى للملك . قلت إنها حدثت جراء انفجار قنبلة ديناميتية . لم تحرك فيه هذه المعلومة ساكنا ، لأنها تركته على القدر نفسه من الذكاء الذى كان عليه فى السابق. ورغم ذلك كانت فى نظره أعجوبة كبرى، وكانت ضربة أخرى لإسكات ميرلين. رأيت الأصوب ، أن أوضح له أن هذه معجزة نادرة على هذا النحو لايمكن حدوثها، إلا حين تكون الظروف الجوية مواتية تماما . وذلك حتى لا يطلب منى تكرارها فى كل مرة نثير فيها موضوعا مهما، فأواجه حينئذ بمعضلة، حيث لم يعد لدىّ مزيد من القنابل .

الفصل الثامن والعشرون

تدريب الملك

بمجرد شروق شمس اليوم الرابع، وخوض الطريق سيرا على الأقدام على مدى ساعة، فى جو الفجر البارد، توصلت إلى قرار، مفاده أنه لابد من تدريب الملك، فالأمور لايمكن أن تستمر بهذه الوتيرة، وأن الواجب يلح على رعايته، ويجدر تدريبه بدراية ووعى، وإلا فشلنا فى أن نغامر حتى بدخول بيت واحد، فالقطط ذاتها ستكتشف أنه ليس فلاحا بل شخصا متنكرا فى هيئة محتال . لذلك طلبت منه التوقف عن السير ، وقلت له :

" سيدى ،أنت تؤدى أداء طيبا فى ارتداء الثياب والشكل ، بلا أخطاء، لكن ما بين ثيابك وطريقة سيرك أخطاء كثيرة ، تصل إلى حد الفوضى. إن مشيتك العسكرية، واختيالك فى السير، لن يجديا فى شيء . إنك تقف مشدود القوام، ناظرا إلى أعلى، معتدا بنفسك. لن تحنى شئون الملك كتفيك ، أوتخفض ذقنك، أو تحد من الغطرسة فى نظراتك، ولن تبعث فى القلب الريبة والخشية ، أو تبدى ما يشير إليهما فى جسد رهل، وخطى متعثرة . لن يجدى فى هذا الأمر سوى شئون الوضاعة والتدنى اللذين نشأ المرء فى ظلهما وترعرع. يجدر بك تعلم اللعبة، ومحاكاة سبل انتحال من يعانى الفاقة، والحرمان، والظلم، والمهانة، وعدد من السمات اللاإنسانية الشائعة وغيرها، ما يمحومن المرء إنسانيته ، ويجعله تابعا ، مسيسا ، أو خاضعا ذليلا، طوع بنان سادته، وإلا كشف الصغار عن حقيقتك، بصورة تكشف على الفور انتحالك، فنمنى بفشل ذريع فى أول كوخ ندخله . سر هكذا لو تفضلت "

تفهم الملك الأمر، ثم حاول المحاكاة .

" جميل جدا ، رائع . تفضل ، اخفض الذقن قليلا ، أجل، ممتاز . عيناك تتطلعان إلى أعلى، لاتتطلع إلى الأفق، أرجوك، ، انظر إلى الأرض، أمامك عشر خطوات . آه، هذا أفضل، ممتاز . أرجوك ،انتظر، إنك تكشف عن زخم كبير لك، وإرادة واضحة ، يتطلب الأمر منك كثيرا من التثاقل فى سيرك. انظر إلى من فضلك، هذا ما أعنيه ...... إنك تستوعب الآن، ذلك هو المطلوب فى أقل صوره ، هناك شيء من التقدم، أجل، رائع . لكن لم يزل هناك شيء ما ، لاأدرى كنهه . سر من فضلك ، مسافة ثلاثين ياردة، حتى أستطيع التحقق من الأمر برمته . .... هكذا، الرأس الآن فى وضعها الصحيح، والسرعة منضبطة، ووضع الكتفين، والعينين، والذقن، والمشية، وطريقة الوقوف، الصورة صحيحة بوجه عام، كل شيء فى نصابه ! لايزال هناك أمر بعينه، الأمر فى إجماله لاينحو إلى الصواب ، فهناك شيء لم يؤخذ بعد فى الحسبان . أعد ذلك مجددا لو تفضلت.... أعتقد أننى قد بدأت الآن رصده . أجل، لقد اكتشفته. انظر، الكآبة الحقيقية مطلوبة ، تلك هى المعضلة . ذلك كله لن يجدى، ليس هناك مآخذ على تفاصيل الحركة الميكانيكية الدقيقة ، وكل ما يتعلق بالإيهام صحيح، إلا أنه لاينطلى على أحد " .

" ما الذى حرى بالمرء أن يفعله ليحقق المرجو ؟ "

" دعنى أتدبر ذلك .... لايبدو أننى قد توصلت إلى ذلك بالتحديد . الحقيقة أنه لايمكن إصلاح هذا الأمر إلا بالممارسة . ونحن هنا فى المكان المناسب ، فالأرض فيها من الصلابة والثبات ما يعدل من المهابة فى مشيتك، والمكان غير معرض لمقاطعة من أحد، فهذا مجرد حقل، وكوخ وحيد على مرمى البصر، وهما أبعد من أن يتمكن أحد من رؤيتهما من بعيد . سيكون من الأفضل سيدى لو تحولنا قليلا عن جادة الطريق، لقضاء اليوم فى تدريبك " .

بعد انتهاء التدريب بوقت قليل ، قلت له :

" تخيل، الآن سيدى أننا بباب الكوخ الكائن هناك، ويقف أمامنا كل أفراد الأسرة . تقدم من فضلك وتحدث إلى رب البيت " .

شد الملك قامته كنصب تذكارى، وقال بصرامة بالغة :

" أحضر مقعدا أيها الغلام، وهات أفضل ما عندك . "

" آه، مولاى، ليس هكذا ."

" ماذا ينقص ؟ "

" هؤلاء لايدعون بعضهم البعض بالغلمان " .

" لايدعون ، أهذا صحيح؟"

" أجل ، فمن يرقونهم منزلة ، يدعونهم بهذا " .

" علىّ إذن أن أحاول مجددا، سأدعوه فلاحا نصف حر "

" كلا، كلا، فيحتمل أن يكون متمتعا بكامل حريته ."

" آه ، هكذا الأمر . ربما وجب أن أدعوه بالرجل الطيب ."

" قد يصلح هذا ، يامولاى، لكن ربما يكون من الأفضل أن تدعوه بالصديق، أو الأخ " .

" الأخ! وضيع كهذا ؟"

" آه، لكننا أيضا نتظاهر بأننا مثله من الدهماء " .

" حالفك الصواب، سأردد ذلك . أحضر مقعدا ياأخى، وهات أيضا ما طاب عندك . هكذا إذن" .

" ليس كلية . ليس إجمالا. إنك تطلب ذلك لفرد واحد، وليس لكلينا، فرد واحد فحسب ، طعام لشخص واحد، ومقعد لفرد ، ونحن اثنان ".

بدا الملك محيرا، ولم يكن على نحو كبير من الذكاء . رأسه كالساعة الرملية، التى يمكنها استيعاب فكرة ، لكن عملها مقسم على مراحل بالغة القصر، ولا تقوم على تنفيذ الفكرة مرة واحدة.

" هل يمكن أيضا أن يكون لك مقعد، وأن تشرع فى الجلوس؟"

" إذا لم أجلس على مقعد سيكتشف الرجل الأمر ، وسيدرك أننا نتظاهر أمامه بأننا سيان ، وأننا نمارس عليه الخداع أيضا ".

" قولك الصواب . ما أروع الحقيقة ، حين يشاء لها أن تأتى هكذا على غير توقع! أجل، عليه أن يأتى بمقعد آخر وطعام لفردين، وألا يظهر كياسة لدى تقديمه الإبريق والمنشفة ، لأحدنا دون الآخر " .

" هناك أمر آخر دقيق يجب تحديده . فهو لايجدر به أن يأتى بالأشياء لنا خارج الكوخ، لأننا سنتجه إلى الداخل، بين الأوساخ، وربما أشياء أخرى أكثر نفورا ، وعلينا أن نتناول الطعام مع أفراد الأسرة ، وبالطريقة المتبعة لديهم، وتحت أى ظرف سواء بسواء، باستثناء أن الرجل من عبيد الإقطاع ، وعلى أن أشير فى النهاية إلى ، أنه لن يكون هناك إبريق أومنشفة، سواء كان الرجل حرا أم رقيقا . سر مجددا من فضلك سيدى . أجل، هذا أفضل، بل إنه أفضل أداء لك، ولكنه ليس غاية المبتغى. فالكتفان ليسا بأقل من أن يحملا درعا فولاذية، فضلا عن أنهما غير محدودبين " .

"أعطنى الصرة إذن . ولسوف أعلم النفس التى تشقى بالأعباء ، ألا قبل لها بالشمم والإباء. أظن أنها تلك التى تحنى الكتفين، وليس بقدر ما تحمل من أثقال، فالدرع ثقيلة ، كما أن حملها مصحوب بكبرياء وشمم ، فالمرء يقف بداخلها ممشوق

القامة ...... كلا، لاتبادرني بـ "لكن "، فأنا لاأواجه باعتراضات . سأتناول هذا الشيء، ارفعه على ظهري ".

حالفه التوفيق الآن، والصرة على ظهره، قد بدا كأي إنسان رأيته من قبل أبعد من أن يكون ملكا. لكنه يمتلك كتفين معاندين، يبدو أنهما قد عجزا عن الإلمام بتصنع الانحناء بشتى أنواعه. تواصل التدريب، وتواصل تنبيهي إياه وتصحيح أخطائه :

" تخيل الآن أنك مدين بدين، وأن دائنيك لايكفون عن مطالبتك به ، وأنك عاطل عن العمل، وهب أنك تعمل بيطارا للخيل، معدما ، وزوجتك مريضة، وأطفالك يعانون الجوع.. "

قمت بتدريبه على هذه الوتيرة ودواليك ، كي يحاكي في المقابل، بشرا ممن عانوا في حياتهم سوء الطالع، وواجهوا الجور والحرمان الشديد . ولكن ياإلهي، فتلك لديه مجرد عبارات تنطق فحسب، كلمات، لا تعنيه في هذه الحياة في شيء. لعلني ألجأ إلى الصفير بعد ذلك . فالكلمات لاطائل من إدراكها ، ولن تحرك فيك ساكنا مالم تعاني بداخلك ما تحاول الكلمات شرحه. هناك من الحكماء من تحدثوا بدراية تامة وثقة بالغة، عن الطبقات العاملة، ويقنعون أنفسهم، بأن جهدا عقليا شاقا ليوم واحد، أكثر شقة على المرء من جهد يوم بدني شاق ، وأن الأول يستحق راتبا أكبر . و تعلم أن تفكيرهم هذا ينحو إلى الغرابة ، لأنهم يعرفون كل شيء عن الجهد في النوع الأول ، كما أنهم لم يجربوا ما يعانيه المرء من جهد في النوع الثاني . لكنني أعرف حقيقة الاثنين، وعلى حد علمي ، فإن أموال العالم كله لاتكفي في استخدامي للعمل بمعول على مدار ثلاثين يوما، لكنني حري بأن أبذل عصارة فكري ، لقاء أقل ما تقدمه من أجر وأكون قانعا بذلك أيضا . لقد أسيء تسمية ذلك " جهدا عقليا " ، فذلك لغط وانحراف بالمعنى عن حقيقته ، وكذلك كل ما يقدم فيه من مردود أعلى. فالأجر الأدنى يتقاضاه النحات والمهندس والجنرال والكاتب والمثال والرسام، وأستاذ الجامعة،

والمحامى والمشرع، والممثل والواعظ، والمغنى، عن عمله ، وهو راض تماما بـأجره، بينما الفنان عازف الكمان، الجالس وسط الفرقة الأوركسترالية الضخمة، تغمره أمواج من الألحان الدينية بما فيها من مد وجزر ، ولو قلت يقينا إنه بـدوره يـمارس عملـه ، فمن الغريب أيضا والمثير للسخرية أن تتساوى الحالتان . إن قـانون العمـل مجحـف بالكلية، ولكننا نعمل به، ولاقبل لشيء بتغييره، فالعامل فى فنون اللهو يتقاضى الأجر الأعلى، فضلا عن تقاضيه هذا الأجر نقدا . وذلـك أيـضا هـو نفـس قـانون الخـدع المكشوفة ، فى تحويل رتب النبالة والشرف من وريث لآخر .

الفصل التاسع والعشرون

الكوخ الموبوء بداء الجدرى

حين وصلنا إلى ذلك الكوخ، منتصف ما بعد الظهيرة، لم نجد حوله ما يشير إلى أى نشاط. أما الحقل القريب من الكوخ فقد تم حصد محصوله، قبل فترة، وبدا عاريا، بعد جمع حصاده ودرسه. كانت الأسيجة والفواصل وكل شيء تشير إلى حالة من الدمار ، وتفصح عن فاقة. لم نر حيوانا واحدا حول المكان، أو حياة من أى نوع . ران ما يشبه جمود الموت على كل شيء . كان الكوخ من طابق واحد، اكلح سقفه بفعل الزمن ، وبلى لافتقاره إلى الترميم .

كان الباب مواربا قليلا . تقدمنا وئيدا، محتبسى الأنفاس، فذلك المسلك توجبه مشاعر المرء فى ظروف كتلك . طرق الملك البا ب ووقفنا نترقب، ما من مجيب . عاود الطرق ثم لا مجيب . دفعت الباب وئيدا، فانفتح ،ونظرت بالداخل . ميز بصرى أشياء قاتمة، وامرأة تنهض من الأرض وتتجه نحوى، كمن نهض من سبات . استردت قدرتها على الكلام ..

قالت متوسلة إياه :

" كن رحيما، لقد سلب منا كل شيء ولم يتبق لنا شيء " .

" لم آت أيتها المسكينة لسلب شيء " .

" ألست راهبا ؟"

"كلا ."

" ولم يوفدك مالك الأرض ؟ "

" كلا ، إننى غريب عن المكان " ،

" أوه لايخرج سالما بحول الله، من يغشى مثل هذا البؤس والهلاك ، لاتبق هنا، بل ارحل فورا ! فهذا المكان شقى بلعنته ، وكنيسته " .

" اسمحى لى بالدخول، ومد العون لك ، فإنك مريضة وفى حاجة إلى معين . "

أخذ بصرى الآن يعتاد العتمة ، فقد تمكنت من رؤية عينيها الغائرتين، تمعنان النظر فى، واستطعت أن أميز قدر ضعفها .

" أقول لك إن المكان أخضعته الكنيسة للحظر . فانج بنفسك، وارحل، قبل أن يراك هنا أحد المشردين، ويبلغ عنك " .

" لاتقلقى بشأنى، فإنى لا آبه بلعنة الكنيسة . دعينى أساعدك " .

" فلتباركك كل الأرواح الطيبة، لو أن هنا الآن منها، بوركت لقولك هذا . لو أننى أجرع شربة ماء بحق الرب . ولكن حسبك ،حسبك، انس ما سألتك . واهرب، فإن من لايخشى الكنيسة هنا، حرىّ به أن يخشى هذه الآفة المتسببة فى القضاء علينا . اتركنا لحالنا ، أيها الغريب الطيب الشجاع، مصحوبا بكل التمنيات القلبية، بقدر ما يحل بهم من لعنات " .

لكننى بادرت بإحضار دلو خشبى ملقى على الأرض، واندفعت مرورا بالملك فى طريقى إلى البئر . حين عدت ودخلت البيت، وجدت الملك بالداخل، يفتح مصراعى النافذة المغلقة، ليتيح للهواء والضوء الدخول . كان المكان يغشاه العطن .

وضعت الدلو على شفتى المرأة، وحين جذبته إليها بقبضة متلهفة، كان مصراعا النافذة قد انفتحا، فغمر الضوء القوىّ وجهها . كانت مصابة بداء الجدرى .

عدت سريعا إلى الملك، وهمست فى أذنه:

" سيدىّ، اخرج من هذا البيت فى التو . فالمرأة تحتضر لإصابتها بذلك الـداء، الذى أباد كاميلوت عن آخرها قبل عامين ."

لم يتزحزح الملك من مكانه

" بقائى هنا لارجوع عنه ، فضلا عن تقديمى العون " .

همست مجددا :

" مليكى، هذا لايصح . يجدر بك الذهاب " .

" إن مقصدك الخير ، ولا تنطق بغير الصواب . لكن مـن الخـزى، أن يعـرف ملك معنى الخوف، ومن الخزى، أن ينسحب فارس همام، حيث يلح طلـب العـون . فاطمئن، إننى لن أغادر المكان . يجب أن تغادر أنت، فحظر الكنيسة لا يشملنى ، لكنه يمنعك من البقاء هنا، كما أن المرأة ستعاملك بجفـاء لأنـك تتـدخل فى شـئونها دون موجب " .

كان يشعرك بالانقباض وجود من فى منزلته هنا، وقد يكلفه ذلك حياته، لكن محاججته لم تكن مجدية. فإذا اعتبر أن ما له من شرف الفارس صـار فى مهـب الـريح ، انتهى النقاش عند هذا الحد، لأنه لن يغادر المكان، ولن يحول دون بقائه شيء، ولأننى أدرك ذلك، صرفت النظر عن مناشدته . قالتِ المرأة :

" هلا تكرمت أيها السيد الوقور ، فتصعد الدرج الذى هناك، وتخبرنى بما ترى ؟ لا تخش من إخبارى ، حيث يمر قلب الأم بأوقات يكون بعدها قد تجـاوز مرحلـة الانفطار ، حيث الفؤاد قد انكسر بالفعل ." قال الملك :

" انتظر، قدم للمرأة طعاما، فسأذهب أنا . " وضع الصرة على الأرض .

حين هممت بالصعود ، كان الملك قد بادر بالصعود إلى الطابق العلوى . توقف، ونظر إلى أسفل حيث يرقد رجل على الأرض، فى الضوء المعتم، لم يلحظ وجودنا بالمرة، ولم ينطق بكلمة .

سألها الملك :

" أهو زوجك ؟"

"أجل " .

" أنائم هو ؟ "

" شكرا لله على تلك النعمة، أجل، تلك النعمة التى من الله بها على كلينا منذ ثلاث ساعات فحسب . سأشكره عليها قدر ما يسعنى من شكر ! قلبى يجيش امتنانا بما فعله، بسبب ما ينعم به هذا النائم من رقاد ."

قلت :

" يجب أن نتنبه حتى لا نوقظه " .

" هه، كلا، لن يحدث ذلك، لأنه ميت " .

" ميت ؟ "

" أجل، وأى سكينة تلك التى تغشاك وأنت تدرك ذلك ! إن أحدا بعد الآن لن يناله بأذى، ولن يتعرض لمزيد من المهانة . هو الآن سعيد فى الفردوس، فإن لم يكن هناك، فإنه فى الجحيم، وهو قانع به، لأنه فى ذلك المكان لن يلتقى برئيس دير أو مطران . كنا معا صبيا وصبية، وطوال تلك السنوات الخمسة والعشرين كنا زوجا وزوجة، لم نفترق حتى هذا اليوم . تأمل حبنا وعذابنا طوال تلك المدة . لقد فقد عقله

هذا الصباح، فتخيل أننا عدنا صبية وصبيا، نتجول بين المزارع النضرة ، وتجاوز ماهو أبعد من خيال مفعم بالبراءة، فظل يغمغم بصوت خفيض، حيث دخل إلى تلك العوالم الأخرى التى لانعلم بها، والتى غابت عن بصيرة أى مخلوق . ورغم ذلك لم نكن لنفترق عن بعضنا البعض، لأننى فى خياله قد مضيت معه، يدى فى يده، يدى الناعمة ، الرقيقة ، وليست المخلبية الهشة هذه . أجل، تمضى إلى هناك وأنت تجهل ذلك، وتفارق وأنت تجهل ذلك، فكيف يمكن أن يرحل المرء بسكينة أفضل من تلك؟ تلك مكافأته عن طول صبره على حياة ملؤها الوحشة ".

أتى صوت جلبة خفيفة، من الركن المعتم ، حيث مكان السلم . كان ذلك صوت هبوط الملك . استطعت أن أتبين أنه يحمل شيئا بذراع ، ويتثبت بالأخرى تقدم فى الضوء، يحمل على صدره فتاة ناحلة، فى الخامسة عشر . كانت فى حال بين الإدراك والغياب، تعانى وطأة مرض الجدرى، إلى درجة الاحتضار . هاقد أظهر الملك شيم التضحية بالنفس والبطولة، فى أسمى صورهما وهذا التحدى السافر والأعزل للموت ، مع كل ما يواجه المتحدى من فوضى ، حيث لم تحدد للصراع جائزة، أو حضورنظارة يرفلون فى حلل من الحرير المذهب ، يتابعون بأنظارهم ويهدرون بالهتاف، كما أن خطوات الملك بدت على نحو من الثقة بالنفس ، لا يختلف أبدا عما ظهرت فى السابق فى ساحات النزال، وهى الأدنى منزلة، حيث ينازل فارس فارسا، فى مباراة متكافئة، وقد طوق بالفولاذ الواقى . بدا الملك عظيما الآن، عظيما بحق . إن تماثيل أجداده الفظة فى القصر، لجدير بأن يضاف إليها تمثال له ، وسوف أعمل لهذا الغرض، ولن يكون ذلك التمثال كبقية التماثيل التى تصور ملكا يقتل عملاقا أوتنينا ، بل سيكون للملك ، فى لباس قروى، يحمل بين ذراعيه الموت ، وذلك ليمكن الأم الفلاحة من إلقاء نظرتها الأخيرة على طفلتها ، كى يسكن فؤادها .

وضع الفتاة إلى جانب أمها، فربتت عليها وأمطرتها بالقبلات المفعمة بحب قلب الأم المعطاء، فيكشف ذلك عن وميض خافت مرتعش ، يغشى عينى الطفلة باستجابة لمشاعر الأم ، ولكن لا مزيد . ضمتها الأم إليها، تقبلها، وتربت عليها، وتناشدها النطق ، لكن الشفتين ظلتا على صمتهما، رغم ما نم عنهما من حراك . انتزعت من مخلاتى قنينة عقار معالج، لكن المرأة منعتنى من ذلك قائلة :

" كلا ، إنها لاتعانى شيئا، هذا أفضل . فذلك العقار قد يعيد النشاط إليها . لا أريد أن يكون رجلا بمثل رقتك وعطفك، سببا فى وقوع هذا المصاب الرهيب بها . تأمل، ماذا تبقى لها لتعيش من أجله ؟ لقد رحل إخوتها عن الحياة، ورحل أبوها ، وسترحل أمها، فتلاحقها من ثم لعنة الكنيسة، ولن يأويها أو يتقرب إليها إنسان، حتى لو تعرضت للهلاك على قارعة الطريق . لسوف تعيش حياة العزلة . لن أسألك، يا طيب القلب ، إن كانت أختها هناك بأعلى الدرج، لاتزال على قيد الحياة ، فلست بحاجة إلى أن أسالك العودة ، وإلا فإنك تترك هذه المسكينة تتعذب .. "

تدخل الملك بصوت حزين :

" إنها ترقد فى سلام "

" لن أغير من الأمر شيئا. يالبهجة هذا اليوم! آه يا آنيس، يا ابنتى، إنك بسبيل اللحاق بأختك، إنك على الطريق، ولن يعوق مسيرك هذان الطيبان " .

راحت من ثم تغمغم للطفلة، وتبثها عبارات الحب، وتمسد فى رقة وجهها وشعرها، وتقبلها، وتدعوها بألقاب محببة، وقد عز الآن ما يشير إلى محض استجابة، فى عينين صارتا من زجاج . رأيت عبرات الملك تتساقط غزيرة على وجهه . لاحظت المرأة ذلك أيضا ، فقالت :

" آه، أعـرف إلام يـشير ذلـك، يـشير إلى امرأتـك ربـة البيـت، تلـك الـنفس الضعيفة، حين تمضيان إلى فراشـكما ، تعانيـان الطـوى، فى حـين يقـيم أود صـغاركما كسرات من الخبز طوال الوقت، إنك تعرف معنى الفاقة، وإهانات الأسياد اليوميـة، وبطش يد الكنيسة والملك " .

جفل الملك من وطأة تلك الرمية الصائبة والمباغتة، لكنه احتفظ بهدوئـه، فقـد كان يتدرب على أداء دوره، وكان يؤديه جيدا أيضا، قياسـا بمبتـدئ يجهـل الكثـير . حاولت إحداث بعض التسرية . قدمت طعاما وشرابا للمرأة، لكنها رفضتهما . لم تكن ترغب أن يحول شيء بينها وبين الموت . تركتهما بغتة، وجئت بالطفلة الميتة مـن أعـلى، فوسدتها إلى جانب أمها . أثار ذلك فيها لواعج الأسـى مجـددا، وأعـاد مـشهدا آخـر تنفطر له القلوب . سرعان ما لجأت مجددا إلى شيء من التسرية، وألهيتها بأن تحكى لنـا قصتها:

" إنكما تعرفانها جيدا ، لأنكما بدوركما تعايـشان مـا تحملـه تلـك القـصة مـن معاناة، لأن أحدا فى إنجلترا، فى مثل حالك لن يفلت من تلك المعاناة أبدا . إنها قصة طويلة، مملوءة بالعذاب . لقد كافحنا وقاومنا، ونجحنا، بمعنى النجـاح فى التمـسك بالحياة و البعد عن العزلة ، نتمسك بها بصورة أكبر من كونها تستحق ذلك . لم نواجه بمشاق إلا تغلبنا عليها، حتى حلت بنا المصائب هذا العام، حلت هكذا جميعـا فى آن، وتغلبت علينا . كان مالك الأرض قد زرع فى أرضنا نوعـا مـن الفاكهـة منـذ عـدة سنوات، فى أفضل جزء فيها، وذلك ظلم بين، يدعو إلى الأسف .. "

قاطعها الملك :

" لكن ذلك حق من حقوقه " .

" لا أحد ينكر ذلك، وينص القانون على أن ما يملكه فهو له، وأن ما أملكه لـه هوأيضا له . فمزرعتنا كانت لنا بالإجارة، وهى أيضا له ، يفعل فيها ما يحلو له . منـذ فترة قصيرة، وجدنا ثلاث أشجار مقطوعة . هرول ثلاثة مـن أبنائنـا الكبـار للإبـلاغ بالجرم . الآن يقبع الثلاثة فى سجن سيادته، ويقـول إنهـم سـيبقون فى الـسجن حتـى يهلكوا ، ما لم يعترفوا . لم يكن لديهم ما يعترفون به، لأنهم أبرياء، لذا فـإنهم سـيبقون هناك حتى يقضوا نحبهم . أظنك تعلم ذلك جيدا . تأمل قدر ما صرنا عليـه، رجـلا وامرأة ، وابنتين، نجمع الحصاد بجهد جهيد، أجل، ونحول ليلا أو نهارا بـين الحـمام وبينه ، ونمنع عنه الحيوانات الضالة، تلك التى يجب أن تقدس فى نظـره ولا تـصاب بضر ممن على شـاكلتنا . حـين صـار محـصول سـيدنا ، قريبـا مـن الحـصاد، وكـذلك محصولنا، وحين يدق ناقوسه، ليدعونا للذهاب إلى حقوله، لحصاد محـصوله مجانـا، لم يكن يسمح لى أنا وابنتى بأن نؤدى العمل لديه بدلا من أسرانا الثلاثة .

بل بدلا من اثنين منهم فحسب، ولذلك كنا نغرم يوميا عن الثالث . كنـا نـرى حصادنا معرضا للتلف بسبب إهمالنا له. ولذا كان الـسيد والمطـران، يفرضـان علينـا غرامة ، لأن نصيبهما فيه، معرض أيضا للتلف. التهمـت الغرامـة قيمـة محـصولنا فى نهاية المطاف، بالكلية، التهمته كله ، وجعلت ما جمع منه مـن نـصيبهما ، يـذهب دون مقابل من مال أو غذاء ، فتعرضنا للفاقة . أتى من ثم ما هو أسـوأ، حـين فـاض بـى الكيل بسبب الجوع، وتألمت لرؤية زوجى وابنتى، يعـانون البـؤس واليـأس والفاقـة ،نطقت بكلمة تجديف مروعة ــ قلت له "أف" ! نطقت بألف منهـا ــ فى مواجهـة الكنيسة وأساليب الكنيسة . حدث ذلك منذ عشرة أيام . سقطت مريضة بهذا الـداء، وكان الراهب هو من وجهت إليه هذه الكلمات، فأتى لتأديبى، لأننى فى حاجة إلى أن أذعن للأوامر فورا، بيد الله التى سـتطهرنى مـن الإثـم . حمـل مظلمتـه إلى أسـياده، فأصررت على موقفى، فما الذى يجعلنى الآن أتحمل وأمثالى، لعنة روما .

" تم منذ ذلك اليوم إقصاؤنا، فد بثوا الهلع فى الناس من الاقتراب منا. لم يقترب أحد من هذا الكوخ، ليعرف إن كنا أحياء أو موتى . تعرض بقيتنا للهوان . لملمت شتاتى من ثم، كما تفعل الزوجة والأم . فإنهم إن كانوا قد تمكنوا من التهام النزر اليسير مما تبقى لدينا ، فلديهم فى كل الأحوال الأقل منه والواجب التهامه ، حيث تتوافر المياه، فأعطيتهم إياه ، ويالقدر امتنانهم به ! ويالمباركتهم إياه ! لكن الأمس أتى بالنهاية، حيث خارت قوايّ . كان الأمس هو اللحظة الأخيرة التى أرى فيها زوجى وابنتى على قيد الحياة . ظللت قابعة هنا ،طوال هذه الساعات ..... الدهور ، إن شئت، أصغى ، وأصغى، لأى صوت قادم من هناك .. "

نظرت إلى ابنتها الكبرى، نظرة هلع سريعة، ثم هتفت ،" آه، حبيبتى !" ضمت هذا الشيء الساكن بين ذراعيها الحانيتين . لقد عرفت فى ابنتها حشرجة الموت .

الفصل الثلاثون

حادث مروع فى قصر الإقطاعى

انتهى كل شيء بحلول منتصف الليل، ووجدنا أننا نجلس وسط جثث أربع . سترناها بما استطعنا العثور عليه من أسمال بالية، وشرعنا فى مغادرة المكان، ورددنا الباب خلفنا . قدر لهم أن يكون بيتهم ذاته قبرا لهم، فقد تعذر دفنهم حسب الطقوس المسيحية، ولم يسمح بدفنهم فى جبانة للموتى. شابهوا فى ذلك الكلاب الضالة ، والضوارى ، فلا قبل لنفس طامحة فى حياة أبدية بأن تتخلى عن هذا الطموح ، بتدخلها فى أى شأن خاص بمن ابتلوا بالنبذ واللعنة .

لم نتجاوز خطوات أربع، إلا والتقطت صوتا أشبه بوقع أقدام تطأ الحصى . قفز قلبى إلى الحلقوم ، حيث كان يجدر ألا يرانا أحد، قادمين من جهة الكوخ . سحبت الملك من الثوب ، وعدنا أدراجنا، وتوارينا خلف أحد أركان الكوخ . قلت له :

" نحن فى أمان الآن ، أقصد أننا نجونا بأعجوبة . لو كان الليل أقل عتمة، ربما رآنا لامحالة ، فقد بدا جد قريب " .

" ربما كانت بهيمة، وليست إنسانا " .

" هذا صواب . ولكن أيا كان ذلك بشرا أو بهيمة، فمن الأصوب البقاء هنا لحظة، وتحرىّ طريقة للخروج " .

" اصغ، إنه قادم إلينا . "

" هذا صواب أيضا. فالخطى تتجه ناحيتنا قاصدة الكوخ. علينا التخلص من هلعنا فالخطى يقينا لبهيمة . أوشكت على الخروج ، لكن الملك، أمسك بذراعى، ومرت بيننا لحظة صمت، ثم سمعنا طرقا رقيقا على باب الكوخ، فسرت رعدة فى بدنى . تكرر الطرق، وسمعنا هذه العبارات فى نبرة مقتضبة :

" أمى ! أبى ! افتحا، لقد أطلق سراحنا، نحن نحمل أنباء تقشعر لها الأبدان، لكنها تسر قلبيكما، وعلينا ألا نتوانى، علينا الفرار فى التو . وبعد، إنهما لايردان . أمى !أبى ! "

سحبت يد الملك وذهبت به إلى الطرف الآخر من الكوخ، وهمست فى أذنه :

" هيا، لابد لنا الآن من الخروج إلى جادة الطريق " .

تردد الملك، وأظهر اعتراضه، لكننا فى اللحظة ذاتها سمعنا الباب يفتح، وأدركنا أن أولئك البؤساء، قد صاروا الآن أمام موتاهم وجها لوجه .

" هيا، سيدى ! إنهم سيشعلون الضوء فى التو، وسيتبع ذلك ما ينفطر القلب من سماعه ."

لم يبد هذه المرة ترددا . فى اللحظة التى صرنا فيها على جادة الطريق، بدأت أركض، وأعقب ذلك على الفور ، تخليه عن مسألة الكرامة، وهرول خلفى . لم أشأ التفكير فيما حدث داخل الكوخ، فلا طاقة لى بتحمله، وأردت أن أتناساه، لذلك خضت فى أول ما تلا ذلك من شواغل طرأت فى ذهنى ، وقلت له :

" لقد أصابنى فى السابق ، ذلك الداء الذى أصاب أولئك، لذا فإننى لاأخشى من شيء، ولكن إذا لم تكن بدورك قد أصبت به .. "

انفعل كثيرا من رميى إياه بالشعور بالقلق، فى وقت كان ضميره هو مصدر قلقه :

" قال هؤلاء إنهم مطلقو السراح، ولكن كيف ؟ لايرجح أن يكون سيدهم هو من أطلق سراحهم " .

" أوه ،كلا، لست أشك أبدا فى هروبهم " .

" ذلك مايقلقنى، لدى خشية من أن يكون ذلك هو ما حدث بالفعل ، ويؤكـد ذلك شكك، فلديك نفس الشعور بالخشية " .

" مع أنه لايجدر بى أن أدعوذلك خشية ، فإننى أشك فى فرارهم ، لكـنهم لـو هربوا بالفعل ، فلست آسفا على ذلك يقينا " .

" لست بدورى آسفا لما حدث ، وأظن ـــ بل .. "

" ماذا ؟ ماذا يقلقك فى هذا الشأن ؟ "

" لو فروا من سجنهم ، لكان جديرا بنا القبض عليهم وتسليمهم إلى سـيدهم مجددا، لأنه ليس من اللائق أن يواجه شخص فى مكانته ، تمردا كبيرا، وصلفا من قبـل أشخاص على هذه الشاكلة " .

هاقد عدنا مجددا . عاد يتناول الأمر من مَنظور واحد، حيث جُبل عـلى ذلـك، وتعلم هكذا ، وسرت فى عروقه دماء السلف، الملوثة بمثـل هـذه الوحـشية العميـاء، وورث إرثا، من سلسلة طويلة من أنفس ، كان لكل منها نصيب فى تسميم السلـسال كله. فاعتقال هؤلاء دون بينة، وتجويـع ذويهـم، لايـضر أحـدا فى شيء، لأنهـم مجـرد فلاحين، يخضعون لرغبة وإرادة سيدهم، ولا تهم صورة الترويع التـى تعقـب ذلـك، لكن فرار هؤلاء من أسر ظالم، يعتبر إهانة وتمردا، فضلا عن أنـه لايـرضى أصـحاب الضمائر ، والملتزمين بأداء واجباتهم الدينية نحو طائفتهم المقدسة .

ظللت أجادله لأكثر من نصف الساعة، قبل استمالته إلى موضوع آخر، بعـد أن طرأ ببالى ما أخرجه عن سياقه. لفت نظرينا ، ونحن على قمة هـضبة صـغيرة، ظهـور لهب أحمر ظاهر من بعيد . قلت :

"هناك شيء يحترق" .

كان اشتعال النيران يلقى اهتمامي بصفة خاصة ، لأنني كنت منشغلا فى ذلك الوقت بالتفكير فى وضع أسس للعمل فى مجالات التأمين . وكنت أيضا أقوم على تدريب بعض الجياد، وأنشئ بعض قاطرات لإطفاء الحريق تعمل بالبخار، على أن يعقب ذلك مباشرة إقامة قسم للحريق يدار بالأجر. اعترض الرهبان على كلا النوعين، التأمين ضد الحرائق، والتأمين على الحياة، لأنهم يرون فى ذلك استكبارا، يعترض فى الأساس على أحكام الله ، وقد أقمت لهم من الحجج ما يوضح أنها لاتمس شيئا من أحكام الله ، لكنها تخفف من سوء العواقب ، بمجرد إصدارك البوالص، مع تمنيات بحسن الطالع ، لحاجوك بأن ذلك لايعدو أن يكون مقامرة ضد ما شرع الله ، وأن ذلك من السوء وحسب . لذا خططوا لإزالة تلك المؤسسات بطريقة أو بأخرى ، فبدأت من جانبى بمشروع التأمين ضد الحوادث . عادة ما يكون الفارس، منغلقا على نفسه ، فيصبح بذلك مؤهلا لتصديق أبسط ما يسوق المتاجر بالخوارق من حجج مرتجلة ، ولكنه يكون متفتحا أحيانا و لمرة واحدة على فترات متباعدة ، إذا قدر له رؤية الشيء من الجانب العملى ، ما يجعل المرء عاجزا بعد فوات الأوان عن ترتيب مبارزة بالرمح وجنى الثمار فى آن ، دون أن أضع بوليصة تأمين ضد الحوادث فى كل خوذة .

وقفنا هناك فترة قصيرة، وسط ظلام دامس ، وسكون . ننظر من بعيد إلى اللهب الأحمر، ونحاول تفسير همهمة آتية من بعيد، تزداد حدتها، وتنشط فى الليل بين آونة وأخرى . ترتفع أحيانا، ثم ما تلبث أن تبدو أقل بعدا، ولكن حين نتطلع إلى أن نكتشف سببها ، تخفت وتغيب مجددا، حاملة سرها معها . شرعنا فى هبوط الهضبة، باتجاه هذا الصوت ، ألقى بنا الطريق المتعرج فى الحال إلى داخل ما يقارب الظلمة الحالكة، ظلمة مدمجة ومكثفة، بين جدارين عاليين من الأحراش . قطعنا بالسير وئيدا، مسافة نصف الميل، فازدادت الهمهمة بصورة واضحة طوال الوقت، وزاد نذير

أكثر وأكثر بالعاصفة ، أعقبه على استحياء ريح عاصف يهب على فترات ، وبوادر برق يومض، وهزيم رعد خافت، آت من بعيد . سرت فى المقدمة. ركضت فى مواجهة شيء، شيء ثقيل رقيق ، أسلمنى دون وعى إلى الإحساس بتثاقل ، ومض البرق فى نفس اللحظة ، وبدا على بعد قدم من محياى ، وجه لرجل يتلوى من الألم، قد علق فى فرع شجرة سميك ! بدا هكذا يتلوى من الألم ولم يكن كذلك فى الحقيقة . كان المشهد مرعبا . أعقب ذلك مباشرة دوى هزيم رعد يصم الأذن، وانطلقت السماء الحبلى، تسقط وابلا من المطر . لم نتأثر بذلك كله ، فقد كان علينا أن نخلص الرجل، أليس كذلك ؟ وبأمل أن يكون فيه عرق ينبض بالحياة . ازدادت الآن حدة البرق وتسارع وطؤه ، وصار المكان وكأنه يراوح ما بين منتصف الليل والظهيرة فى لحظة يظهر الرجل معلقا فوق الشجرة ، وفى أخرى تواريه الظلمة . قلت للملك. إن علينا أن نخلصه من الحبل . اعترض الملك على الفور .

" لو أنه هو الذى شنق نفسه، لصار عليه أن يمنح ممتلكاته لسيده، فدعه فى مكانه . وإذا كان قد شنق بيد آخرين، فأغلب الظن أنهم محقون فى شنقه، فنتركه أيضا فى مكانه " .

" لكن .."

" لاقبل لى بـ "لكن " هذه ، اتركه تماما، حيث هو . هناك سبب غير هذين . ستعرفه حين يظهر البرق مجددا ، هناك، انظر هناك " .

كان هناك آخران معلقان، على مسافة خمسين ياردة منا !

" لاتواجه الملمات، بمجاملات لاطائل من ورائها من أجل الموتى . فقد فات أوان تقديم وافر شكرهم لك . هيا، لا جدوى من البقاء هنا " .

كان فيما قاله بينة ، وكان علينا مواصلة السير . أحصينا عبر الميل التالى ، ستة أجساد أخرى معلقة، رأيناها فى ومض البرق، ذلك كله فى رحلة حافلة بالرعب . لم تعد الهمهمة كالسابق، بل تحولت إلى زئير، زئير بصوت البشر . أتى فى هذه اللحظة رجل يهرول، بدا قاتما فى الظلام، يطارده آخر ، ثم اختفيا، ثم أتى آخر على نفس الهيئة، تبعه آخرون. أوصلنا منعطف آخر على الطريق إلى مكان النار، فظهر قصر الإقطاعى الكبير، لم يبق منه إلا القليل، وأناس يهرولون فى كل مكان وآخرون يطاردونهم .

نبهت الملك إلى أن هذا ليس بمكان آمن لغرباء مثلنا، وأفضل لنا أن نبعد عن دائرة الضوء حتى تنصلح الأمور .

تراجعنا قليلا، وتوارينا فى جانب من الأحراش . رأينا من مخبأنا، جماعة من الدهماء ، يطاردون رجالا ونساء . استمر هذا الأمر المروع حتى قرب الفجر . حين خمدت النيران ، وهدأت العاصفة توقفت الأصوات والخطى المتلاحقة فى الحال، وران السكون، والظلمة مجددا .

خاطرنا بالخروج من المكان، وأسرعنا إلى الابتعاد بحذر، ورغم شعورنا بالإنهاك والحاجة إلى النعاس، واصلنا السير، حتى بعدنا عن هذا المكان بعدة أميال . طلبنا الوفادة فى كوخ فحام، فأجيب طلبنا . كانت ربة البيت منشغلة بأمور البيت ، لكن الرجل كان لايزال نائما على فراش مرتجل من العهن، وسد فوق أرضية موحلة . بدا على المرأة القلق، حتى أخبرتها بأننا جوالان ضللنا الطريق، وأننا ظللنا نجوب الأحراش ، طوال الليل ، عندئذ زال القلق عن المرأة، وسألت عما لو كنا قد سمعنا بما وقع فى الليلة الماضية، فى قصر سيد مقاطعة أبلاسور . أجل، سمعنا بذلك، لكن ما نبغيه الآن الراحة والرقاد . تدخل الملك :

" بيعينا البيت، وارحلى عنه، فرفقتنا محفوفة بالمخاطر، لأننا قادمان للتو من مكان موبوء بالجدرى " .

فعل بذلك خيرا، لكن الأمر لم يكن يستدعى ذلك . كانت أفضل وسائل التجمل لدى أناس هذا البلد، سطح أداة كعكة الدقيق والحليب . لاحظت فى البداية، أن الرجل والمرأة معا قد تزينا بأبهى صورة. أبدت المرأة حفاوة بنا ، وزال عنها الخوف، وبدا أنها قد تأثرت كثيرا بعرض الملك، لأنها حين يتصادف مرة فى حياتها، أن يعرض شخص بدا متواضعا كما بدا على الملك ، شراء بيت ، ليبيت فيه ليلة واحدة، فذلك حدث لافت بالنسبة لها ، دفعها إلى إبداء مزيد من الاحترام نحونا، حيث سخرت كل ما ملكت فى الكوخ، على تواضعه، لراحتنا .

ظللنا راقدين فى الفراش، إلى ما بعد الظهيرة، واستيقظنا وقد استبد بنا الجوع، ما جعل طعام الكوخ حلو المذاق، رغم شحه، ومكوناته، البادية فى قليل من الملح، والخبز المقدد، المصنوع من الشعير. حكت لنا المرأة ما حدث ليلة أمس، فى العاشرة أو الحادية عشرة، أثناء رقاد الأهالى، حيث اشتعل قصر الإقطاعى بألسنة اللهب . احتشد أهل القرية لإنقاذه، ونجت العائلة كلها، عدا سيدالقصر، الذى لم يظهر له أثر.

اهتاج الجميع لهذا المصاب الجلل ، وضحى اثنان من الفلاحين الأبطال بروحيهما، أثناء البحث داخل القصر المحترق، فى محاولة للعثور على صاحب المقام الرفيع . غير أنه بعد فترة عثر عليه ـ أو بالأحرى على ما تبقى منه ـ وهو الجثمان ، ملقى بها على بعد ثلاثمائة ياردة، مكبلا بالقيود، ومكمما، وبه طعنات فى أماكن عدة .

من فعل هذا ؟ اتجه الشك إلى أفراد العائلة المعدمة بالجوار ، أولئك الذين عوملوا فى السابق بقسوة شديدة فى الفترة الأخيرة من قبل البارون ، وامتد الشك تلقائيا من هؤلاء إلى ذويهم وأصدقائهم . بلغ الشك مداه، فانبرى من حيا من أتباع سيدى، يطالبون بحملة تطويق سريعة تشمل كل هؤلاء، وسرعان ماانضم إليهم الجميع . كان زوج هذه المرأة منحازا إلى الدهماء، ولم يكن قد عاد إلى البيت حتى قرب الفجر ،حيث ذهب لاستطلاع ما ستسفر عنه الأحداث . عاد أثناء حديثنا معها بعد

تقصيه الأنباء، وقد حمل الكثير . تم شنق أو ذبح ثمانية عشر شخصا، وفُقد فلاحان وثلاثة عشر شخصا عاديا فى الحريق .

" وكم كان عدد السجناء الكلى الذين كانوا فى السجن ؟ "

" ثلاثة عشر " .

" فقد الجميع إذن ؟"

"أجل، الجميع " .

" لكن من وصلوا فى الوقت المناسب لإنقاذ الأسرة، كيف تسنى لهم ألا ينقذوا الآخرين ؟"

" بدا الرجل محيرا ، ثم قال :

" وهل يقدم أحد على فتح باب السجن فى وقت كهذا ؟ ياإلهى ، قد يفر بعضهم ."

" تقول إذن إن أحدا لم يجرؤ على إطلاق سراحهم ؟ "

" لم يقترب منهم أحد البتة سواء لتحريرهم من القيود أو إحكامها . يبدو أن هناك ما دعا إلى إحكام المزلاج زيادة فى تشديد الرقابة فحسب ، حتى إذا نجح أحد فى فك وثاقه، فإنه لايستطيع رغم ذلك الهرب، فيتم القبض عليه، إلا أن ذلك لم يحدث لم يحدث " .

قال الملك:

" ورغم ذلك هرب ثلاثة منهم، و تفعل خيرا لو أنك أعلمتهم بذلك ، وجعلت العدالة تتقفاهم ، فهؤلاء قتلة البارون ومحرقو قصره ."

كنت متوقعا أن يصدر ذلك عن الملك، ففى اللحظة التى أبدى فيها الرجل والمرأة ، اهتماما واضحا بهذه الأخبار ، ورغبة ملحة فى الخروج فى التو لإعلانها على الملأ، بدا أمر مباغت ينكشف على وجهيهما، فبادرا بتوجيه أسئلة واستفسارات ، أجبتها بنفسى، وتابعت عن كثب، ما أحدثته من أثر . تأكدت الآن من أن أخبار السجناء قد غيرت من الجو المحيط، شيئا ما ، إلى الحد الذى جعل إلحاح مضيفينا على الخروج وإعلان الخبر ، مجرد تصرف شكلى ملتبس . لم يلحظ الملك هذا التغير، وقد سررت بذلك . وصلت فى حديثى إلى ما سبق تلك الأحداث بليلة، فلاحظت ارتياحهما لاتخاذها هذا المسار .

كان ما يبعث على الألم والأسى فى كل هذه الأحداث، تلك السرعة التى حول بها هذا المجتمع المقهور، قواه الباطشة، ضد أفراد طبقته ذاتهم ، لحساب من يقهر الجميع. بدا أن هذا الرجل وهذه المرأة، يحسان ذلك ، من خلال نزاع جرى بين شخص ينتسب إلى طبقتهم الاجتماعية، وسيده، حيث كان من الطبيعى واللائق والأصوب، أن تقف تلك الطبقة البائسة الملعونة إلى جانب هذا السيد، وأن تدافع نيابة عنه، دون أدنى مراجعة لما فى هذا الأمر من مظالم وإهدار للحقوق. كان الرجل يساعد فى تقديم جيرانه إلى المشنقة، وكان يفعل ذلك بحماس منقطع النظير، ولا أشك أنه كان متيقنا من براءتهم ، ودون أن يجشم نفسه عناء التحقق منها بأى دليل أو برهان ، وقد بدا أنه لاهو ،ولازوجته، يريان فى ذلك ما يثير الرعب.

كان هذا محبطا لكل من يطمح إلى إقامة جمهورية . ذكرنى ذلك بما تقدم حدوثه علينا ثلاثة عشر قرنا، حين كان يتم فى جنوب بلادنا التحقير من فقراء البيض، وإهانتهم دوما من قبل المحيطين بهم من السادة تجار الرقيق، وممن يتقبلون بأريحية نظم الاسترقاق البغيضة بين ظهرانيهم، حيث وقفوا دوما فى صف تجار الرقيق، فى كل الحركات السياسية المنادية بالتوقف عن ممارسة تلك التجارة ،

وإلغائها. حملوا آخر الأمر بنادقهم، وقدموا أرواحهم، للحيلولة دون إزالة أو القضاء على ذلك النظام، الذى يحقر من شأنهم. كان هناك ملمح مشجع واكب تلك المحنة التاريخية، وهو أن تلك الفئة المظلومة من البيض، قد عبرت عن استيائها من تاجر الرقيق سرا، بعد أن أحست بما يحيط بذلك من خزى. لم تظهر تلك المشاعر فى العلن، لكن ذلك كان سيحدث حتما، وكان وشيك الظهور فى العلن فى ظروف مواتية، وكان فى هذا ما يكفى ليثبت أن الإنسان فى داخله إنسان بمعنى الكلمة، حتى لو أبى أن يظهر ذلك للعيان.

تبين حقيقة أن هذا الفحام توأم لأهل الجنوب من فقراء البيض فى بلادنا، فى المستقبل البعيد. أظهر الملك بعض الاستياء، وقال :

" آه، العدالة توشك أن تنتهك، وأنت تثرثر هنا طوال النهار. ألا تفكر فى المجرمين وقد هرعوا إلى بيت أبيهم ؟ إنهم حتما سيفرون بلا انتظار. يجب أن تفكر فى إطلاق جماعة من الفرسان فى أثرهم ".

بدا الشحوب يتسلل إلى وجه المرأة، بصورة ملحوظة، وبدت على الرجل حيرة وارتباك. قلت :

" هيا ياصديقى، سأقطع فى صحبتك مسافة قصيرة، وأبين الاتجاه الذى أعتقد بأنهم سيسعون فيه. لو كانوا مجرد ثوار على ضريبة الملح أو ممن يتصرفون بطيش، فسوف أحميهم من الوقوع فى الأسر، ولكن أن يقتل أحد أفراد الطبقة العلية فضلا عن إحراق بيته، فسيكون لى معهم شأن مختلف ".

كانت العبارة الأخيرة موجهة للملك، لتهدئته. استجمع الرجل شتاته ونحن على جادة الطريق، وبدأ السير بخطى ثابتة، لكنها خلت من الحماس. فبادرته بقولى :

" ما صلة قرابة هؤلاء بك، أبناء عمومتك ؟ "

شحب الرجل بقدر ما سمحت به بشرته المتفحمة، وتوقف مرتجا .

" مه، كيف تسنى أن تعرف هذا ؟"

" لاعلم لى به ، ولكنه مجرد تحزير " .

" ياللفتية البؤساء، لقد ضلوا السبيل، إلا أنهم فتية طيبون " .

" أتذهب بالفعل إلى هناك للإبلاغ عنهم ؟ "

لم يعرف البتة كيف يرد ، لكنه قال فى تردد :

" أجـل . "

" أظنك إذن، وغد زنيم " .

بدا عليه شيء من السرور، كأننى دعوته بالملاك .

" ردد هذه الكلمات مجددا ، أيها الأخ ! فإن ذلك يؤكد أنك لن تفشى سرىّ وأننى عجزت عن أداء واجبىّ " .

" واجبك ؟ لاواجب هنا، سوى أن تدعهم هناك، تتركهم للفرار . لقد أدوا عملا عظيما " .

بدا منشرحا تماما، و اعتراه بعض التردد . تفحص بعينيه الطريق، ليتأكد من خلوها، وقال بنبرة حذرة :

" من أى بلد أنت يا أخى، حتى تنطق تلك العبارات الخطيرة، ثم لا تخشى فى ذلك شيئا ؟"

" أظنها خطيرة حين توجه إلى أحد أبناء الطبقة التى أنتمى إليها . وأفهم أنك لن تبلغ أحدا عن قائلها ، أليس كذلك ؟ "

" أنا ؟ فلتقطعنى الخيول البرية إربا قبل أن أفعل ذلك "

" لابأس إذن دِعنى أوضح الأمر . إننى لاأخشى إبلاغك بأمرى . أظننى قد شهدت فى الليلة الماضية، عملا شيطانيا ، قد ارتكب بحق أولئك الأبرياء . لقد نال البارون ما يستحق . ولو كنت حر التصرف، لقطعت شأفة أمثاله من الوجود " .

زال الحزن والخشية من الرجل، وحل بدلا منهما الامتنان، والنشاط .

" حتى إذا كنت جاسوسا، وكانت كلماتك مجرد فخ تنصبه للإيقاع بى، فإن معاودة سماعها وما شابهها ، يجدد فى النفس النشاط، سأذهب سعيدا إلى المقصلة، وكأنى على الأقل أحتفل ، بمناسبة سعيدة فى تلك الحياة البائسة . والآن على أن أفصح لك بما أكنه فى صدرى، وعليك أن تبلغ به لو شئت . لقد ساعدت فى شنق جيرانى، لأن حياتى كانت معرضة للخطر حال أظهرت أمام الإقطاعى عدم تأييدى له، فى حين فعل الآخرون ذلك بدون علة تذكر . اليوم يسعد الجميع بموته، لكنهم رغم ذلك يظهرون أسفهم، ويذرفون دموع الرياء، لأنها تحقق لهم الأمان. هاقد أفصحت لك بكل شيء ، أفصحت بكل شئ ! إنها مجرد كلمات يلتذ بها لسانى ، و يكفينى لذة مذاقها. فاذهب الآن، وقدنى لو شئت إلى حبل المشنقة، فإننى مهيأ لذلك" .

ها أنت ترى الآن أن الإنسان فى أعماقه إنسان . لاقبل لعصور من المهانة والذل، بأن تمحو عنه إنسانيته . ومن يزعم بأن هذا مجرد خطأ ، يكونِ مخطئافى زعمه . أجل، فهناك فيمن هم أكثر تهميشا، من العناصر ما يبشر كثيرا بإقامة جمهورية، حتى أننا نجد من سمات الإنسانية الكثير سواء فى الروس أو الألمان، لو أطلقها إنسان من إسارها الضيق الوهمى، لتمرغ فى الوحل وتطأ ، أى عرش مستقر، وأى نبلاء يظاهرونه . يجب الآن أن نكون على يقين من أشياء بعينها ، فلنتطلع إليها، ونعتنقها . أولها نظام ملكى قابل للإصلاح، حتى يزول عهد آرثر، يلى ذلك سقوط العرش، وزوال النبلاء، حيث يتجه كل منهم لمزاولة حرفة نافعة، وأن يكفل للأمة حق الاقتراع، وأن تتكون الحكومة كلها من أفراد الأمة رجالا ونساء، حتى تستقر . أجل، فلم يعد هناك ما يحول دون تحقيق حلمى لحظة واحدة .

الفصل الحادى والثلاثون

مـــاركـــــــو

سرنا على الطريق بأسلوب أدعى إلى البطء الشديد ، نتبادل أطراف الحديث. كان علينا الجنوح إلى الحديث عن الزمن الذى علينا أن نقطعه لبلوغ قرية أبلاسور الصغيرة ، حتى نضع العدالة فى نصابها ، فيما يتعلق بقتلة البارون ثم نعود أدراجنا مجددا. كان لدى فى ذات الوقت، شغف كبير لم يتراجع البتة، ولم أفقد ما يحمل من رونق، منذ أن وطأت قدماى مملكة آرثر، حيث كنت شغوفا بمتابعة مسلك عابرى الطريق تجاه بعضهم البعض، ذلك المسلك بين أفراد الطبقة الواحدة على أسس متكافئة. أظهر الفحام لراهب حليق الرأس يتسكع على الطريق، وقد أمال قلنسوته قليلا إلى الخلف، والعرق يتصبب على لغده السمين، أظهر له عظيم الإجلال، وأبدى كل آيات التواضع للسيد، ثم أظهر الود إزاء الفلاح البسيط، والحرفى الحر، ولكنه إذا مر بعبد خفيض الرأس ، وجدت أنف الفحام شامخة فى الهواء، وكأنه لم يره البتة . حقا، يتمنى المرء أحيانا أن يعلق كل بنى البشر على المشانق ، وأن ينهى هذه الملهاة .

استوقفنا للتو حادث مباغت . اندفع جماعة من صغار الدهماء من الفتية والفتيات ، أنصاف عراة، قادمين هرولة من الأحراش، يصرخون فى هلع . لم يتجاوز كبارهم الثانية أو الثالثة عشرة من العمر . كانوا يطلبون العون، لكنك لاتستطيع أن تتبين منهم الأمر، فقد فقدوا صوابهم. لذلك أسرعنا بالانطلاق داخل الأحراش ،

فسبقونا ركضا، وسرعان ما انكشف الأمر، فقد شنقوا قزما بحبل من لحاء الشجر، فظل يقاوم، حتى أشرف على الموت . أنقذناه، فأفاق من إغمائه . هناك سمة أخرى فى البشر، تتمثل فى إعجاب الأقزام بسادتهم، ومحاكاة الدهماء، إلى أن ينالوا مالا يشتهون.

لم أشعر فى هذه الجولة بملل. قررت الاستفادة منها قدر المستطاع ، فاقمت خلالها علاقات متعددة، واستطعت لكونى غريبا، توجيه ما شئت من استفسارات . كانت مسألة الأجور بالطبع، ضمن شواغلى بصفتى مسئولا .

استطعت فى ظل هذا الزعم، استخلاص الكثير فى هذا الشأن خلال الظهيرة . ينحو عديم الخبرة ومن لايعمل عقله، إلى قياس ازدهار أمة من الأمم أو حاجتها إلى الازدهار ، بما يتقاضاه الناس من أجور ، من منظور واحد فحسب ، يتلخص فى أن ارتفاع الأجر يعنى رخاء الأمة، والعكس صحيح . وذلك خطأ فى ذاته . فالمسألة ليست ما تتقاضاه من أجر، بل الأهم قدر ما يمكن شراؤه من سلع بهذا الأجر، فضلا عن النظر فيما إذا كان ارتفاع هذا الأجر حقيقيا ، أم شكليا فحسب . يمكن أن أذكر فى هذا الشأن أنه أثناء حربنا الأهلية الأمريكية، فى القرن التاسع عشر، كان العامل المهنى فى شمال البلاد، يتقاضى ثلاثة دولارات فى اليوم ، مقومة بسعر الذهب، ويتقاضى فى الجنوب خمسين دولارا، مدفوعة بعملات فيدرالية ورقية متدنية القيمة يقدر فيها الدولار ببوشل(*)، و تكلفك حلة العمل فى الشمال ثلاثة دولارات أى أجر يوم واحد، وتكلفك الحلة نفسها فى الجنوب خمسة وسبعين دولارا، أى أجر يومين. وقس عليه ما عدا ذلك من أشياء . نرى نتيجة لذلك أن الأجور تبلغ الضعف فى الشمال عنها فى الجنوب، لأن القدرة الشرائية للأجر الأول ، أعلى منها فى الثانى .

(*) البوشل : مكيال للحبوب يعادل ٨ جالونات .

أجل، فقد أقمت علاقات متعددة فى القرية، و سرنى كثيرا أن أجد عملاتنا المعدنية الجديدة متداولة فى الأسواق، بوفرة و منها الميلريسات، والميلسات، والنيكلات، وبعض العملات الفضية، يتداولها الحرفيون بعد شيوعها بين الجميع، أجل، كان ذلك ينطبق أيضا على بعض العملات الذهبية، لكن تداولها كان إما عن طريق البنك، أو لدى الصاغة . حضرت مساومة تجرى بين ماركو ابن ماركو، وصاحب حانوت، حول سعر ربع رطل من الملح . طلبت منهما أن يفكا لى عملة ذهبية فئة العشرين دولارا. قلباها فى أيديهما ، حتى إنهما بعد عضها بالفك، وسماع رنينها على الطاولة، وتجربتها بالحمض، سألا عن هويتى ، ومكان إقامتى، ووجهتى، والوقت المتوقع لوصولى إليها ، وربما ما يزيد على مائة استفسار، وحين فرغوا من ذلك كله ، زودتهم طواعية بمزيد من المعلومات، وأخبرتهم أننى أمتلك كلبا، إسمه "ووتش "، وأن زوجتى الأولى بروتستانتية حرة، وأن جدها كان عضوا فى جماعة تحريم المنكرات، وإننى قد تعرفت منذ مدة على رجل، لديه فى كل كف إبهامان ، وثؤلل فى باطن شفته العليا، وأنه مات وهو يرتجى رضاء ربه، ودواليك دواليك، ثم دواليك، حتى بدا الرضا على وجه السائل الساذج النهم، فضلا عما حمل من بعض الشك ، لكنه كان مجبرا على احترام ثرائى ، لذا فإنه لم يبد نحوى، أى جهم أو اقتضاب، بل لاحظته يصدر أوامره إلى مرؤوسيه ، كى يتخذ الأمر مساره الطبيعى . استبدلوا العشرين التى قدمتها بالفعل، لكننى ظننت أن ذلك إلى حد ما كان فوق طاقة البنك ، وذلك ماتوقعته، وكان أشبه بمن يرتاد متجرا ريفيا يبيع الدجاج وذلك فى القرن التاسع عشر، ثم يطلب من المسئول أن يبدل له ما قيمته ألفى دولار دون سابق إنذار. ربما يقدم المرء على شيء كهذا ، لكنه سيرتاب فى طاقة مزارع بسيط بأن يحمل فى جيبه هذا القدر من المال، وهو نفس ما ورد بذهن الصائغ، لأنه تبعنى إلى الباب، ووقف خلفى محدقا بإعجاب وقور .

لم تكن عملتنا النقدية الجديدة، جميلة الشكل ، ومتداولة فحسب، بل كان أسلوب تداولها من السلاسة أيضا، بمعنى أن الناس قد نسوا ما سبقها من عملات ، وبدأوا الآن يتحدثون فيما يعادل قدرا كبيرا من الدولارات، أو السنتات، أو الميلسات، أو الميلريسات. كان ذلك مشجعا، وأكد أننا أحرزنا تقدما كبيرا.

كان على أن أتعرف إلى عدد من كبار الحرفيين. لكن أكثر هؤلاء شأنا، كان ذلك الحداد ، الذى يدعى داولى . كان رجلا يتسم بالحيوية واللباقة. وكان لديه اثنان من العمال المهرة، وثلاثة من الصبية، وكانوا جميعا يتقنون الحرفة. الحقيقة أنه حقق الثراء فى وقت قصير، ونال بذلك احترام الجميع . كان ماركو فخورا بأن يتخذ من الرجل صديقا له . اصطحبنى إليه، بداعى اطلاعى على حجم تلك المنشأة الكبيرة، التى اشترت كمية كبيرة مما ينتجه من فحم، لكنه فى حقيقة الأمر كان يريد اطلاعى على سهولة وبساطة شروط التعامل مع هذا الرجل العظيم . سرعان ما سرت روح الود بينى وبين داولى، شأن من انتقيتهم من أفاضل الرجال للعمل فى مصنع الأسلحة الذى أنشأته . كنت شغوفا بأن أعرف الكثير عنه ، لذلك دعوته، لزيارة ماركو يوم الأحد، وتناول الغداء معنا . جفل ماركو من هذا الأمر، واحتبست أنفاسه، وحين قبل الكبير الدعوة، أبدى بالغ امتنانه، وكاد ينسى دهشته، من هذا التواضع.

كانت فرحة ماركو لاتوصف لكن ذلك استمر لوقت قصير فحسب، أعقبه انشغال ذهنه بالأمر ، تلاه شعور بالأسى، وحين سمعنى أبلغ، داولى، بأننى سأصحب معى ديكون كبير البنائين، وسماج، رئيس صناع العربات فى البلدة، تحول غبار الفحم على وجهه إلى طبشور، وأسقط فى يده . لكننى أدركت ما به ، حيث كان شاغله قدر ما سيتحمل من تكاليف لإقامة الدعوة . رأى أن الإفلاس يوشك أن يقترب، وظن أن أيام ثرائه باتت معدودة . قلت له بطريقتنا المعهودة فى دعوة الآخرين :

" عليك أن تترك لى دعوة هؤلاء الأصدقاء، وسأتحمل كل تكاليفها ."

صفا وجهه وقال بمرح :

"لكن ليس الجميع ، فلن يسعك أن تتحمل بمفردك أعباء كهذه ."

قاطعته :

" دع كل منا الآن أيها الصديق، يضع النقاط على الحروف . حقيقة أنا لست إلامشرفا فى مزرعة ، لكننى مع ذلك لست فقيرا . لقد صادفت هذا العام حظا وافرا، وستدهش حين تعرف قدر ما كابدت فى هذا السبيل. أكون صادقا لو أخبرتك بأنه يمكننى الإسراف فى النفقة على عشرات المآدب من هذا النوع ، ولا آبه بالتكلفة ! وطقطقت إصبعى ، فوجدتنى فى كل مرة أزداد قدر قدم فى نظر ماركو، وحين نطقت بتلك الكلمات الأخيرة، رأيتنى قد صرت برجا ، من حيث الشكل والارتفاع أكملت "وبناء عليه، دعنى أتصرف بطريقتى . قضى الأمر و لن تسهم بسنت واحد، فى هذه الوليمة الحافلة " .

" هذا كثير، ورائع منك "

" كلا، ليس الأمر كذلك، لقد استقبلتنى وجونز فى بيتك كأحسن مايكون، وظل جونز طوال اليوم يطريك لهذا السبب، قبل عودتك من القرية بلحظات، لأنه كان ينوى أن يكتم ذلك عنك ، فجونز ليس بالمتحدث اللبق ، فضلا عن ميله إلى الانطواء. إنه طيب القلب ومقر بالجميل، ويعرف كيف يقدر الأمور على النحو السليم ، وذلك حين يحتفى به، أجل، فأنت وزوجك قدمتها لنا خير وفادة " .

" آه ياأخى، ذلك شيء جد بسيط " .

" بل كانت وفادة متميزة، فالرجل الفاضل الكريم بطبعه، إنسان مميز، يفعل من الخير ما يستطيع أن يقدمه أمير، ويبقى دؤوبا على فعله، فالأمير لايقدم سوى

أفضل ما لديه. لذا فإننا ياصديقى نجول للتسوق، لنعد ما يليق بنا في هذا الشأن ، فلا تقلق بشأن التكاليف . إننى أحد أسوأ المسرفين قاطبة . عجبا، لك أن تعرف أننى أنفق فى أسبوع واحد، ولكن لاعليك من ذلك ، حيث لن تصدق ما سأقوله " .

بذا مضينا نتسكع فى الطرقات، نتوقف فى هذا المكان أو ذاك ، ونساوم على الأشياء، ونثرثر مع أصحاب الحوانيت حول ما حدث من انفلات فى البلدة ، ونعاود من وقت لآخر ذكر أحداثه المؤسفة، وعمن بقوا أحياء ممن شردت عائلاتهم وصاروا بلامأوى، وأثاروا ألما فى النفس، بعد مصادرة ممتلكاتهم، وذبح آبائهم أو شنقهم . كان ثوبا ماركو وزوجته كالتالى ، الأول من كتان خشن أوصوف، مرقع بما يشبه خرائط المدن، أضيف إليه فى أماكن أو أخرى كلف محوكة من القماش، على مدار خمسة أو ستة أعوام، حتى تعذر ظهور قطعة واحدة فى الثوب الأصلى. أردت أن أزود هذين بثوبين جديدين ، بمناسبة زيارة تلك الصحبة الفخيمة، ولم أكن أعرف كيف أحقق تلك الرغبة بطريقة لبقة ، حتى طرأ ببالى فى النهاية، أنه وأنا المنوط ، بابتكار الكلمات التى يعبر بها الملك عن امتنانه، يمكننى فعل الشيء ذاته مدعوما ببرهان عملى، ووجدتنى أقول :

" ثم هناك شيء آخر ياماركو، وهو ضرورة أن تلتمس العذر لجونز على عجزه عن التعبير لكما عن خالص امتنانه، لأنك إن لم تفعل ، فإنك تتسبب فى إحراجه . إنه شغوف بإبداء امتنانه بطريقة ما، لكنه شخص منطو على نفسه، ولا يستطيع أن يقدم بنفسه على هذا الشيء ، لذا فقد ناشدنى، أن أشترى بضعة أشياء بسيطة، وأقدمها لك، ولزوجتك ديم فيليس، وأن يتحمل هو ثمنها، دون حتى أن أخبر أحدكما بذلك، وتعرفان بالطبع قدر ما يشعر به المرء تجاه هذه الأمور الحساسة، قلت له إننى سأفعل، وأننا سنكتم الأمر . حسنا، كانت فكرته ، أن أشترى لكما، طاقمى ملابس جديدة لكل ـــــ "

" أوه، هذا سرف ! حرى بذلك ياأخى، ألا يحدث ، ألا يحدث . تأمل ضخامة القيمة "

" لاعليك من القيمة ! حاول أن تهدأ للحظة، وتتدبر كيف تسير الأمور، فليس للمرء أن يتحدث وحده ويصمت الآخرون، إنك تسرف فى الحديث ياصديقى حرى بك يا ماركو، أن تراعى هذا ، وليس هذا كما تعرف، بالأمر الحسن، وستظل تدأب عليه إن لم تتراجع عنه . سنقوم بزيارة لهذا المكان ، وستتقبل من الرجل هديته ، وتذكر ألا تبوح لجونز بأن له أى علاقة بالأمر . إنك لاتستطيع أن تقدر ما لديه من حساسية ، واعتزاز بالنفس. إنه مزارع، ومزارع بكل ما تعنى الكلمة، وأنا ناظر مزرعته، إلا أننى معجب بخيال الرجل ! من الغريب أنه حين ينسى نفسه أحيانا ، ويقدم على المباهاة ، تعتقد أنه أحد البارزين، وأنه يجدر بك أن تظل مائة عام تصغى إلى مايقول، ثم لا ترتاب فى أنه مزارع قح ، خاصة، إذا خاض فى الحديث عن الزراعة، هو يعتقد أنه مزارع محنك، ويظن أيضا أنه شيخ متمرس فى هذه المهنة، لكنه، وهذا سر بيننا، لايعرف حقيقة من الزراعة أكثر مما يعرف بشأن إدارة مملكة . فتشعر برغبة فى أن تصغى إلى كل ما يتحدث بشأنه ، فاغرا فاك، وكأنك لم تصغ فى حياتك إلى حكمة مطلقة كتلك، وأنك تخشى أن يقضى نحبك قبل أن تستلهم منها كل ماحوت ، فذلك يسر جونز".

تأثر ماركو، بما سمع عن تلك الشخصية الفريدة، أيما تأثر، لكن ذلك أيضا جعله يحتاط، ومن خلال تجربتى، ترى أنك حين ترحل بصحبة ملك ، يتخفى فى شخصية أخرى، ولا يستطيع أن يتذكر تنكره إلا نصف الوقت، فإنك لن تكون قادرا بالكلية على أخذ جميع الاحتياطات .

كان ذلك أفضل ما صادفنا من متاجر، يضم كل شيء، بكميات محدودة، بدءا من سندان الحداد حتى الملبوسات الجاهزة، مرورا بالأسماك والحلى الرخيصة . قررت

إنهاء قائمة مشترواتى فى هذا المتجر، وعدم التجول فى أماكن أخرى، لذلك صرفت ماركو، بإيفاده لدعوة البناء، وصانع العربات، ما أفسح لى المجال للحركة. ذلك لأننى لم أكن آبه بوضع كل شيء فى نصابه ، بل بجعله يسير بطريقة استعراضية، وإلا ما لحظت فيه إثارة البتة. أخرجت بعفوية كثيرا من المال، كى أجد حظوة لدى صاحب المتجر، ثم كتبت قائمة بالمطلوب ، وسلمتها له لأتبين قدرته على قراءتها، تمكن من ذلك وكان فخورا بقدرته . ذكر أنه تعلم على يد أحد الرهبان، وأنه يمكنه القراءة والكتابة . ألقى نظرة شاملة على القائمة ، وأظهر قناعة بضخامتها . كانت كذلك بالفعل قياسا بما أبداه من اهتمام نحوها . إننى لم أكن أعد لعشاء ضخم فحسب، بل لبعض المفارقات ، وبعض ما يصاحبها. أمرت بأن توضع هذه الأشياء على عربة، وتسلم فى بيت ماركو ابن ماركو ، مساء السبت، وإيفائى بالقائمة مساء الأحد . قال إن بإمكانى أن أراهن على سرعته ودقته، فتلك شيمة هذا المتجر . لاحظ أيضا أن عليه أن يضيف إلى القائمة مسدسين لحفظ العملات النقدية لآل ماركو على سبيل الهدية، يستخدمها الجميع الآن ، وكان رأيه رائعا ، فى تلك الأداة البارعة . قلت:

"املأهما لو تفضلت حتى المنتصف، وأضف ذلك على قائمة الحساب . "

سيفعل ذلك بكل سرور . ملأهما واحتفظت بهما لدىّ . لم أستطع إخباره، بأن المسدس، هو أحد مبتكراتى البسيطة، وأننى قد أمرت بصفتى الرسمية، بأن يكون متوفرا لدى كل تاجر، وأن يباع بالسعر الرسمى الزهيد، وأن يدخل ذلك إيرادا للتاجر وليس الحكومة .

كان من الصعب أن يفتقدنا الملك ، حين عدنا بحلول الظلام . فقد راح منذ وقت مبكر فى سبات عميق، يحلم بخطة لقهر غريمه جول، تظاهره قوى المملكة عن بكرة أبيها، وقد مرت فترة مابعد الظهيرة، دون أن يعود إلى اليقظة من سباته .

الفصل الثانى والثلاثون

إذلال داولـــى

حين وصلت الحمولة، بحلول الغروب، لجأت لكلتى يدى، لأحول بين ماركو والسقوط مغشيا عليه . أيقنا أننى وجونز، على وشك الإفلاس ، فلاما نفسيهما لأنهما بشكل غير مباشرسيكونا ن سببا فى حدوثه. تصور أنه فضلا عن الأدوات الخاصة بالمائدة، التى أنفقت فيها مبلغا ضخما، اشتريت قدرا كبيرا من النثريات، وذلك لدعم العائلة فى المستقبل، تتمثل على سبيل المثال فى قدر من الحنطة، من صنف يندرعلى موائد من فى منزلتهما ندرة الآيس كريم على مائدة ناسك، فضلا عن مائدة طعام تسع وليمة ضخمة، ورطلين كاملين من ملح الطعام، ما يعد مظهرا آخر للإسراف فى عين هؤلاء ، وأوان فخارية، ومقاعد مسطوحة، ومفارش للمائدة ، وبرميل صغير من الجعة، ودواليك . نبهت آل ماركو إلى التزام الهدوء إزاء ما يرونه من إسراف كى يمنحونى فرصة مباغتة المدعوين، والظهور بعض الشيء . أما بالنسبة للثياب، فقد سلك الزوجان مسلك الصغار، ولم يهدأ لهما بال طوال الليل، وهما يستطلعان اقتراب حلول النهار، ليتمكنا من ارتدائها، ثم لبساها فى النهاية قبل ساعة من حلول الفجر . ولن أبالغ ، لو قلت إن فرحهما بها شابته الحيوية، والغرابة، والإثارة، حتى أننى وأنا أرى تلك المشاعر وقعت فى كثير من نوبات القلق أثناء رقادى. دخل الملك كعادته فى رقاد أشبه بالموتى . لم يستطع آل ماركو أن يقدما الشكر له على الثياب، فقد منعا من ذلك، لكن الزوجين بذلا أقصى ما وسعهما من جهد لإظهار امتنانهما له ، ومضى ذلك كله سدى، لأنه لم يلحظ أى تبدل فى الأمور البتة .

خلص ذلك كله إلى قضاء يوم من أيام الخريف النضرة و النادرة ، يشبه يوما من يونيو، يدفع بالمرء إلى الخروج فى الهواء الطلق. وصل الضيوف مع اقتراب الظهيرة، والتئم شمل الجميع تحت شجرة كبيرة، وسرعان ما تآلف الجميع مع بعضهم البعض، وكأننا معارف قدامى، حتى إن الملك قل تحفظه بعض الشيء، مع أنه بدا أول الأمريواجه صعوبة فى اعتياده اسم جونز . طلبت منه السعى إلى ألا ينسى أنه صاحب مزرعة، لكننى أيضا اعتبرت من الحكمة أن يدع الأمور تتوقف فى حدود ما رسمت له ، وألا يصل إلى بالأمور إلى التعقيد ، لأنه صنف من البشر، يمكنك الاعتماد عليه ، فى إفساد أمور كتلك، إن لم تنبهه إلى ذلك، كما أن لسانه منفلت، ورغباته تلقائية، وأغلب معلوماته مشكوك فى صحتها.

كان داولى فى حالة مزاجية ممتازة، فبادرته بالحديث، وبرعت فى إقناعه بسرد ملخص لقصته ، والإلماح إلى دوره باعتباره بطلا مرموقا . وكان من الروعة أن أجلس هناك وأسمعه يهمهم . لقد دأب على أن أمثاله من العصاميين ، بارعون فى الحديث، وجديرون بالانتباه إليهم بما يربوعلى أى صنف عادى من البشر، وهذا صحيح، حيث يمكن التعرف على هؤلاء أيضا من الوهلة الأولى . ذكر أنه بدأ حياته صبيا يتيما، لامال له ، ولا أصدقاء يطيقون إعانته ، وأنه عاش حياة العبيد عند أدنى السادة شأنا، وأن دوامه فى العمل كان يبدأ من ست عشرة ساعة حتى ثمانى عشرة ساعة، لم يقدم له خلال ذلك سوى القديد لمجرد أن يقيم أوده، وأن تفانيه فى العمل ، قد لفت آخر الأمر نظر رجل طيب يعمل بالحدادة، حول مسار حياته بالكلية، حيث تقدم بأدب وعلى نحو لم يكن يتوقعه بعرض يقضى بأن يتخذه للعمل صبيا مبتدئا ، وأن يقدم له الغذاء والملبس، ويعلمه الحرفة، أو "سر المهنة" كما يسميه داولى . كانت تلك بداية النجاح ، وضربة الحظ الكبيرة له، ويمكنك ملاحظة أنه لم يخض فى هذا الأمر ، دون أن يبدى شيئا من الدهشة الواضحة، والبهجة، حتى يتوفر للسامعين هذا

النوع من التشويق المنمق ، ليحدث أثره بالضرورة على كثير من العوام . لم يكن لديـه ثياب جديدة أثناء فترة عمله صبيا مبتدئا، ولكنه بتوارد الأيام، قد ألبـسه سـيده حلـة جديدة من الكتان، وجعله يشعر بالرونق والأبهة .

ترنم صانع العربات قائلا بحماس :

" أذكر ذلك اليوم ! "

وهتف البناء :

" وأنا أيضا ! لم أصدق حينئذ أنها لك، لم أصدق ذلك حقيقة " .

هتف داولى ،وعيناه تبرقان :

" وآخرون أيضا. كنت على وشك أن أفقد هويتى، فقد مـال الجـيران إلى أننـى ربما أدبر أمرا فى الخفاء. كان يوما عظيما، عظيما بحق، ولا ينسى المرء أياما مثله " .

بلى، فقد كان سيده رجلا طيبا، وثريا، وكان يقـيم دومـا مـآدب كبـيرة حافلـة باللحوم، التى كان يقدمها مرتين فى العام، فضلا عن الخبز الأبـيض، والأحـرى أنـه عاش فى الحقيقة حياة السادة. سرعان ما حقق داولى نجاحا فى العمل، وتزوج بالابنة .

قال بحرارة :

" تأملوا الآن كيف تسير الأمور، الآن أقدم على طاولتى لحما طازجا ، مرتين فى الشهر " توقف فى هذه اللحظة ليسمح لتلك المعلومة بأن تحـدث أثرهـا ، ثـم أردف بقوله :" وثمانى مرات، أقدم لحما مجففا " .

قال صانع العربات بنبرة وئيدة :

" هذا بدوره صحيح " .

قال البناء، بنفس نبرة الوقار :

" أعرف ذلك بدورى حق المعرفة "

" يظهر الخبز الأبيض على مائدتى كل أحد خلال العام " .وأضاف أسطى الحدادة ، بصوت مهيب، " سأترك ذلك لضمائركم أيها الأصدقاء، إن لم يكن ذلك بدوره حقيقيا " .

هتف البناء :

" صحيح وأيم الحق " .

قال صانع العربات :

" يمكننى الشهادة بذلك، بل أشهد بصحته " .

" أما بالنسبة للأثاث، فستحكمون بأنفسكم، على ما أمتلكه من أثاث . " لوح بيده بإشارة رائعة تنم عن الصراحة فى الحديث والطلاقة ، وأضاف:" تحدثوا كما يحلو لكم، تحدثوا وكأنى لست موجودا " .

قال صانع العربات باحترام جم :

"لديك خمسة مقاعد مسطحة، من أروع ما أنتجته الحرفة، و أفراد أسرتك لايزيدون على ثلاثة " .

وقال رئيس البنائين بحماس بالغ :" وستة أقداح خشبية، وستة صحون كبيرة، من نفس الخامة . وآنيتان معدنيتان للطعام والشراب أيضا . وأشهد الله على قولى هذا، وإننا لانعرج على المكان بصفة دائمة ، ولكن علينا فى يوم الحساب أن نؤكد صحة ماذكر من أشياء أو العكس " .

قال الحداد بتلطف جم وبود: " تعرف الآن أيها الأخ جونز، أى نوع من الرجال أنا، ولاشك أنه يمكنك أن ترى حرصى على تقديم واجب الاحترام، وأننى لا أدخر فى ذلك جهدا نحو الغرباء، حتى أحقق لهم الأوفر والأحسن، فلا تحمل هما، من هذه الناحية، واعلم جيدا أنك ستجدنى رجلا لايهمه سوى الترحيب بوفادة أى شخص بصحبة رفيقه، وذلك بالمساواة مع كل من يحمل فى صدره قلبا سليما، ومن على قيد الحياة مهما تواضع قدره . ولإثبات ذلك ، فإننى أمد يدى، وأقول بملء فمى: إننا جميعا متساوون، بل كلنا سواسية . " ووزع ابتسامته من ثم، على أفراد الصحبة، بقناعة إله، يصنع الخير والجمال، ويدرك صنيعه على وجه اليقين .

تناول الملك اليد وهو يظهر بعض التأفف، ثم أفلتها كما تفلت سيدة سمكة، ما أحدث أثرا طيبا، لأن من الخطأ أن يكون الارتباك والتردد أمرا طبيعيا إزاء شخص على هذا القدر من رفعة المقام.

أحضرت السيدة الطاولة على الفور ، ووضعتها تحت الشجرة . أثار ذلك شعور واضح بالدهشة ، كونها جديدة على هذا النحو من السرف . لكن الدهشة ظلت تتصاعد، وجسد السيدة ينضح عفويا بلا مبالاة تامة، بل عينيها ترنوان إلى بعيد و قد اتقدتا بكبرياء مطلق، ظلت الدهشة تتصاعد وهى تفض بتؤدة، مفرش مائدة جديدا وتبسطه على الطاولة . تجاوز ذلك بالفعل ما يضمه بيت حداد من رفاهية، كما ستلاحظ أنه قد بوغت بالأمر . لكن ماركو كان يسبح فى الفردوس، ويمكنك أن تلحظ ذلك أيضا. ثم جاءت السيدة بمقعدين مستويين، وياالهول ! ما بدا بالفعل فى عيون الضيوف. وجاءت بآخرين والسمت أكثر هدوءا . زاد ذلك من مشاعر الإثارة، التى بدأت تظهر فى تهامس ظاهر. أتت بآخرين، وهى تسير بخيلاء ، وتمعن فى الكبرياء . تجمد الحاضرون فى مقاعدهم، وغمغم رئيس البنائين :

" هكذا تكون مظاهر الأبهة الدنيوية، التى تنحى دوما بالوقار " .

حين غادرت السيدة المكان، لم يستطع مـاركو ، والأمـر فى عنفوانـه، مقاومـة الشعور بأنه بات على القمـة، لـذلك قـال بطريقـة أدعـى إلى التعبـير عـن شيء مـن التماسك، إلا أنه لم يحاكه كلية:

" هذا يكفى، ولا حاجة إلى مزيد " .

هناك مزيد إذن ! كان لذلك أثر طيـب ، ولم أسـتطع بـدورى أداء دور أفـضل من هذا .

بادرت المرأة من تلك اللحظة بمزيد من المفاجآت ، أثارت الدهشة الواضـحة على وجوه الجميع ، حتى انحصرت كلمات التعبير فى الوقت ذاته ، فـيما بـين " أوه "، "آه" وإشارات صامتة بالأيدى والعينين . أحضرت أدوات المائدة الفخارية والأقداح الخشبية الجديدة، وبعض أدوات المائدة الأخرى، ثـم الجعـة، والـسمك، والـدجاج، والأوز، والبيض، ولحم الشواء، وقطعا من الضأن المشوى، وفخذ الخنزير ، وشرائـح صغيرة من لحم الخنزير المشوى ، ووفرة من خبز الحنطة البيضاء الأصلى. وتأمل بعامة أن كل ما بسط أمامنا، فاق فى الدرجة كل مـا رآه هـذا الحـشد مـن قبـل. وبيـنما هـم جلوس، تحت تأثير الرهبة والدهشة ، أشرت بيدى، وكأننى أفعل ذلك عفويا، فأسرع ابن صاحب المتجر بالظهور ، وقال إنه قد أتى لتقديم قائمة الحساب .

قلت فى سكينة :" هذا صحيح . كم القيمة ؟ قدم المفردات ."

قام من ثم بقراءة القائمة، فى حين أصغى أولئك الثلاثة بانبهار . بدت إمارات الهدوء واضحة على وجهى، تعبر عن شعور بالرضا، وإمـارات الرعـب والحـيرة قـد بدأت تكسو وجه ماركو :

القيمة

٢رطلان من ملح .٢٠٠

٨ دزينات من الجعة فى براميل خشبية سعة الباينت . ٨٠٠

٣ بوشل من الحنطة . . .٢،٧

٢ رطلا سمك . .١٠

٣ بطات . .٤٠

١ أوزة. .٤٠

٣ دزينات بيض .١٥

١ لحم مشوى.٥٤

١ لحم ضأن " ". .٤٠

١ فخذ خنزير . .٨٠

١ خنزير لبانى . . ٥

٢ مجموعتا أوان فخارية للمائدة. . . ٦،

٢ حلة رجالى وملابس تحتية . .٨، ٢

١ عباءة حريمى، وثوب من الكتان وملابس نسوية تحتية . . ٦، ١

٨ أقداح خشبية. . ٨

مجموعة مفارش للمائدة . . . ،١٠

١ لوح صنوبرى للمائدة. . . ، ٣

٨ مقاعد مستوية. . . ، ٤

٢ مسدسا حفظ عملة معبآن. . . ، ٣

توقف ابن صاحب المتجر . ران صمت موهن رهيب . لم يتحرك ساكن خلاله. ولم يسمح منخر بمرور زفرة هواء واحدة عبره .

سألته بنبرة أكثر رزانة :" أهذا كل مالديك ؟"

" أجل، ياحضرة المحترم، عدا نثارا بعينه ، أدرج تحت بنود بأعلاه . يمكنني لو شئت فصل " .

قلت مردفا عبارتي بإشارة تشي بلامبالاة تامة :

" لا عليك . اعطني المجمل الكلي لو سمحت " .

مال الشاب نحو الشجرة ليحفظ توازنه، وقال :

" تسعة وثلاثون ألفا ومائة وخمسون مليريسا ! "

تراجع صانع العربات بمقعده إلى الخلف، وأمسك البقية بالطاولة تحاشيا للسقوط، ودار لغط كبير بين الجميع حول ..

" فليعيننا الله يوم النازلة !"

بادر الموظف قائلا:

" طلب منى أبى أن أخبركم أنه بكل صدق لن يطالبكم بسداد قيمة هذا كله دفعة واحدة، لذلك فإنكم لن تسددوا سوى .."

لم أعر الأمر انتباها سوى اعتباره نسمة هواءعابرة، بل بلامبالاة تكاد تصيب بسأم ، وأخرجت النقود، ورننت أربعة دولارات على الطاولة . وى ، كان حرى بك أن تراهم محدقى الأبصار !

أصاب الدهش والانبهار الموظف . طلب منى استرداد دولار ، على سبيل الضمان، حتى يمكنه الذهاب إلى المدينة ثم .. قاطعته :

" ماذا، كى ترد السنتات التسعة ؟ لاعليك . خذ المبلغ كله واحتفظ بالباقى."

سرت همهمة غريبة، تشى بهذا المعنى :

" حقا، لهذا جعل المال ! إنه يتخلص منه ،كأنه نفاية " .

بلغ الأمر حد الانهيار .

أخذ الموظف النقود، ومضى منتشيا بالغنيمة . قلت لماركو وزوجه :

" هذا شيء بسيط لكما، أيها الكريمان." قدمت لهما مسدسى العملة، وكأنها هدية بالغة التواضع ، مع أن كلا منهما قد احتوى على خمسة عشر سنتا من العملات المعدنية، ورغم أنه قد أسقط فى يد هذين البائسين، من فرط الدهشة، وشعرا بالامتنان، التفت إلى الآخرين، وقلت ببرود شديد، كمن يسأل عن الوقت :

" حسنا، لو أذن الجميع، فالغداء جاهز .هيا، تقدموا " .

أجل، كان ذلك حدثا عظيما مبهرا حقيقة . لاأدرك كيف أصور الموقف بصورة أفضل، أو ألم بمشاعر أكثر حضوره سعادة بما توفر للمائدة من أشياء. لقد تم لى التفوق بسهولة على الحداد ، فرفع راية الاستسلام ! لم أكن لأشعر بما كان يعتمل فى نفس الرجل من مشاعر تجاه أى شيء فى هذا العالم . لقد كان يباهى ويفاخر، بمأدبة تقدم فى العام مرتين، وبلحمها الطازج الذى يقدم فى الشهر أيضا مرتين ، ولحمها المحفوظ المقدم فى الأسبوع مرتين ، وبخبزه الأبيض المقدم كل يوم أحد، على مدار العام يقدم ذلك كله لعائلة من ثلاثة أفراد، ولا تزيد تكلفته الكلية عن ٦، ٢ ، ٦٩ فى العام . أى تسعة وستين سنتا وميلسين وستة ميلريسات، فيفد إنسان بغتة ، ويخرج من جيبه أربعة دولارات دفعة واحدة ، ليس ذلك فحسب، بل يسلك فى هذا مسلك من يشعر بسأم وهو يسلم مبلغا تافها كهذا. أجل، لقد أصيب داولى بالذبول، والدونية، والانهيار، وبدا أشبه ببالون منتفخ، وطأته بقرة .

الفصل الثالث والثلاثون

الاقتصاد السياسى فى القرن السادس

رغم مبادرتى إياه بالهجوم ، فإننى وقبل أن تبلغ مائدة العشاء ثلثها الأول ، أعدت إليه البهجة مجددا . يسهل تحقيق ذلك فى بلد الطوائف و الطبقات الاجتماعية. تعلم أن الإنسان فى بلد الطوائف والطبقات الاجتماعية، لايتوفر له كامل إنسانيته، بل جزء منها فحسب، حيث لا يكتمل له فيها نموه الطبيعى. يمكنك سريعا فرض تفوقك عليه فى الموقف، أوالمنزلة الاجتماعية ، أو الثراء ، و ينتهى الأمر بهزيمته، ما يجعلك تتراجع من ثم عن احتقاره. كلا، إننى لا أعنى ذلك بالتحديد ، فإنك تستطيع امتهانه بالطبع، بل أعنى أن ذلك يواجه صعوبة، فمالم يكن لديك من الوقت ما تضيعه فى هذا الأمر سدى، فالأمر لايستحق منك مجرد التفاتة. صار لدى الآن ما يشيعنى الحداد به من وقار ، فأنا رجل سخى معطاء واسع الثراء، وكان يمكننى الاستحواذ على ما ينعم به من إعجاب ، لو كنت أحمل من زخرف الدنيا مجرد لقب نبيل ، و ليس ذلك فحسب، بل يتسنى هذا لأى فلاح يكدح فى الأرض، رغم أنه السلالة الأعظم فى كل العصور ، من حيث الذكاء، والثروة، والملكة، أما أنا فأفتقر إلى الثلاثة . يبقى هذا الأمر راسخا، دون أن يطرأ أى تحول يذكر، ما دام لإنجلترا وجود على وجه البسيطة. أما وقد تلبستنى روح النبوءة، فإننى أستطيع استقراء المستقبل، وأرى تماثيلها القائمة ، وشواهدها التاريخية، المنسوبة لمن لايمكن حصرهم من آل جورج ، ومن سواهم من حبال الغسيل من الملوك والنبلاء، وأغض الطرف عمن

لايحملون ألقاب الشرف من المبتكرين بعد الله ، أمثال جوتنبرج، وات، آركرايت، هويتنى، مورس، ستيفنسون ، بيل .

كان الملك متأهبا لمغادرة المكان ، خاصة أن الحوار لم يتناول المعارك ومبارزات الفرسان ، ولابسى درع الزرد ، وذلك بعد أن شعر بتثاقل، مؤداه الميل إلى النعاس، فمضى إلى الفراش. أخلت السيدة ماركو المائدة، وأعدت الجعة، ثم رحلت لتتناول ما بقى لغدائها فى عزلة تامة، وسرعان ما مال بقيتنا إلى تبادل الحديث فى أمور يهوى الخوض فيها أمثالنا ، كالأجور، وشئون التجارة . بدت الأمور من الوهلة الأولى تتجه إلى ما ينتظر هذه المملكة الصغيرة التابعة للمملكة الأم، والتى يحكمها الملك باجدياجوس، من رخاء مطرد، مقارنة بما يحدث فى إقليمى ذاته . حيث تتمتع هذه المملكة الصغيرة بنظام صارم للحماية الجمركية، فى حين كنا نحن قد بدأنا العمل بنظام التجارة الحرة، على مراحل يسيرة، وقطعنا فيه الآن نصف الطريق . أدرت وداولى الحوار لوقت طويل ، فى حين أصغى إلينا الآخرون باهتمام . كان داولى متحمسا لمهنته، يباهى بها أيما مباهاة، فبدأ يتقدم باستفسارات، ظنا منه أنها تسبب الحرج لأمثالى، متخذة هذا السياق :

"أخى، كم أجر وكيل الزراعة فى بلدك ، وأجر رئيس الأنفار، وسائق عربة النقل، وراعى الغنم، وراعى الخنازير ؟"

" خمسة وعشرون ميلاريسا فى اليوم . أى ربع السنت " .

أشرق وجه الحداد بهجة، ثم قال :

" يحصلون لدينا ضعف هذا المبلغ، أجرا فى اليوم ! وما أجر الحرفى، كالنجار ، والمبيض، والبناء، والنقاش، والحداد وصانع عربات الكارو، ومن شابههم ؟"

"خمسون ميلاريسا فى المتوسط، أى نصف سنت فى اليوم " .

" ها ــ ها ! يحصلون لدينا المائة ! الحرفى الجيد يحصل على سنت فى اليوم ! أستثنى حائك الثياب ممن يحصلون على سنت فى اليوم، ويزيدون عليه أوقات الرواج، أجل، أى مائة وعشرة أو خمسة عشر ميلاريسا فى اليوم الواحد. وأنا بدورى قمت بسداد مائة وخمسة عشر طيلة أسبوع . فمرحى بالحماية الجمركية، وتعسا للتجارة الحرة " .

أشرق وجهه على الصحبة كنور الشمس . لكننى لم أهتز من ذلك أو أرعوىّ منه قط . أعددت له خازوقا كبيرا، وبذلت فى دقه خمس عشرة دقيقة، دققته إلى الحد الذى أخفيت الجزء المنحنى فى الأرض . وبادرت على هذا النحو بسؤاله:

" كم تدفع لشراء رطل من الملح ؟ "

"مائة ميلاريسا ".

" ندفع نحن أربعين . ما ذا تدفع مقابل لحم الضأن، ولحم البقر ؟ " كانت ضربة قوية ، ردها كالتالى :

" فارق السعر بينهما بسيط، وليس كبيرا، ولنقل خمسة وسبعين للرطل " .

" لنقل ثلاثة وثلاثين عندنا. ماذا تدفع فى البيض ؟ "

" الدزينة بـ خمسين ميلاريسا " .

" وندفع عشرين لها . ماذا تدفعون فى الجعة ؟"

" يكلفنا البرميل الصغير ثمانية ونصف ميلاريسا ."

" نبتاعه بأربعة، والخمسة والعشرين زجاجة بسنت . بماذا تشترون الحنطة؟"

" تسعمائة للبوشل، فى المتوسط " .

" نبتاعه بـ أربعمائة، ماسعر بدلة الكتان لديكم ؟"

" ثلاثة عشر سنتا " .

" ندفع ستة ثمنا لها . ما ثمن ثوب زوجة العامل أو الحرفى ؟"

" ندفع ٤ ، ٨ "

" حسنا، لاحظ الفرق، تدفعون ثمانية سنتات وأربع ميلسات، وندفع أربعة سنتات فحسب ثمنا لها " تأهبت فى تلك اللحظة لتوجيه ضربة موجعة له . قلت : " تأمل أيها الصديق، ماذا ينتج عن أجوركم العالية التى تتغنى بها منذ دقائق ؟" ونظرت إلى من حولى من الحضور ، بثقة بالغة ، ثم اندفعت نحوه وئيدا، وقيدت قدميه ورجليه، وتخيل كيف يحدث ذلك كله، دون أن يلحظ أنه مكبل القدمين واليدين . " ما فائدة أجوركم العالية تلك ؟ تبدو وكأنها لاوزن لها عندى ."

لكننى أصدقك القول ، لو قلت إنه بدا مستغربا الأمر فحسب، هذا كل ما هنالك ! إنه لايدرك الأمر مطلقا، ولم يعرف أبدا أنه قد استدرج للوقوع فى فخ، ولم يكتشف أنه وقع فيه بالفعل . كان يمكننى القضاء عليه من شدة الكمد . رد ذلك بعين كاسفة، وذهن مجهد :

" عفوا، لا أظن أننى فهمت شيئا . لقد تأكد أن أجورنا تبلغ الضعف، فكيف رميتها بالتفاهة على هذا النحو ؟ إننى لم أفهم هذه العبارة الغريبة، و لاأخطئ معرفة هذه العبارة الغريبة، وهذه هى المرة الأولى التى يفترض أنى سمعتها، بحول الله ورحمته. "

بوغت حقيقة، من جهة بسبب غبائه غير المتوقع ، ولأن أصحابه من جهة أخرى، كانوا يقفون فى صفه ويفكرون مثله، لو سمى هذا تفكيرا . كان موقفى من

البساطة والوضوح بمكان، فكيف يمكن تبسيطه وتوضيحه أكثر من هذا ؟ رغم ذلك كان على أن أحاول إفهامه :

" لم لاتتمعن المسألة أيها الصديق داولى ؟ إن أجوركم أعلى من أجورنا فى الظاهر فحسب وليس فى الحقيقة " .

" تأملوا ما يقول ! إنها الضعف . لقد أقررت ذلك بنفسك " .

" أجل ـ أجل، لا أنكر ذلك مطلقا . لكن ذلك لايجدى فى شيء، فقيمة الأجور مقومة بالعملة فحسب، لاتجدى شيئا فى ظل مسميات بلا معنى، تعرف العملة من خلالها . الأهم هنا قدر مايمكن لأجوركم أن تشترى من سلع ؟ ذلك بيت القصيد . فى حين تهتم أنت بأن يصل أجر الحرفى إلى ثلاثة دولارات ونصف الدولار فى العام ، وأنه لدينا يتقاضى دولارا واحدا وخمسة وسبعين سنتا ــــــ "

" هاأنت تقر بالأمر مجددا، تعترف مجددا !"

" هذا صحيح، لم أنكر أننى قلت ذلك ! هذا ماقلته بالفعل . إن النصف دولار لدينا يشترى ما يزيد على ما يمكنكم شراؤه بدولار، لذلك فإن الأمر يتوقف على منطق وطبيعة الحكم على أن أجورنا أعلى من أجوركم ." بدا مشوشا ثم قال فى يأس :

" لاأستطيع أن أتبين الأمر حقيقة . لقد قلت للتو إن أجورنا هى الأعلى، ثم سحبت ماقلت فى الوقت ذاته " .

" أوه، ياللإسكتلندى العظيم، ألا يمكن أن تستوعب هذا الشيء البسيط بعقلك ؟ التفت إلى الآن، ودعنى أضرب لك مثالا . إننا نشترى ثوب المرأة بأربعة سنتات . وأنتم تشترونه بـ ٤ ، ٨ أى بما يزيد على الضعف بأربعة ميلسات . فكم تتقاضى منكم عاملة المزرعة ؟"

" ميلسان فى اليوم ."

" "ممتاز، إننا نعطيها نصف ذلك على الأكثر، أى تتقاضى منا عشر السنت فى اليوم الواحد، ومن ثم.. "

" هاأنت مجددا تعتر .. "

" حسبك ! تأمل، الأمر بسيط الآن، وستفهمه هذه المرة . يستغرق الأمر لدى العاملة لديكم كى تشترى ثوبا، عمل اثنين وأربعين يوما . بأجر ميلسين فى اليوم الواحد، و سبعة أسابيع عمل ، أما عندنا فالمرأة تتقاضى منا الأجر تفسه ، فى أربعين يوما أى أقل يومين فى الأسابيع السبعة . فامرأتكم اشترت الثوب بأجر الأسابيع السبعة كله ولم يبق منه شيء، فى حين تبقى لدى امرأتنا بعد شراء الثوب، أجر يومين، يمكنها به شراء شيء آخر، هاأنت قد فهمت الآن ! "

بد ا، وأقصى ما يمكننى قوله إنه بدا وقد التبس عليه الأمر ، وكذلك كان حال الآخرين . ترقبت كى يأتى هذا أثره . أخيرا تحدث داولى، وكشف عن أنه لم يتخلص بعد مما ترسخ لديه من إيمان راسخ بالخرافات . قال فى شيء من التردد: "لكن ــ لكن ــ لايمكنك أن تنكر حقيقة أن ميلسين فى اليوم أفضل من ميلس واحد"

أى هراء هذا ! لم أشأ بالطبع ترك هذا الأمر . قررت خوض مغامرة أخرى :

" دعنا نضرب مثلا على ذلك . افترض أن أحد عمالك قد ذهب، وابتاع الأصناف التالية :

عدد

١ــ رطلا من الملح .

١ــ دزينة من البيض .

١ــ دزينة باينتات من الجعة .

١ــ بوشل من الحنطة .

١ــ بدلة كتانية .

٥ــ خمسة أرطال من لحم البقر .

٥ــ خمسة أرطال من لحم الضأن .

وإجماليها يعادل ٣٢ سنتا . كان يستغرق ذلك منه عمل ٣٢ يوما أى خمسة أسابيع ويومين . لنفترض مجيئه ليعمل لدينا ، فعمل ٣٢ يوما، بنصف الأجر السابق، فإنه يستطيع شراء الأشياء بعاليه، بمبلغ يقل قليلا عن ١٤ سنتا ونصف السنت، تستغرق أن يعمل ٢٩ يوما ، ويتبقى معه ما يعادل عمل نصف أسبوع على وجه التقريب . احتسب هذا على مدار العام، ستجد أنه يوفر، ما يقارب أجر أسبوع كامل كل شهرين، ولا يوفر رجلك شيئا ، فى حين يوفر رجلنا أجر خمسة أو ستة أسابيع فى العام، ولا يوفر رجلك سنتا واحدا . أظنك الآن قد استوعبت، أن "الأجر المرتفع " و"الأجر المنخفض " مجرد مصطلحات ، بلا مضمون، إلى أن تتحقق من قدرة أيهما الشرائية " .

تلك كانت ضربة ساحقة ماحقة . لكنها مع الأسف لم تؤت أكلها . كان على التسليم بالأمر . فأولئك البشر يقدرون الأجور المرتفعة، ولا تعنيهم قدرة الأجر الشرائية فى شيء . لقد اتبعوا تطبيق نظام الحماية الجمركية، وتعهدوه بالرعاية، ولهذا ما يبرره، فأصحاب المصالح، قد احتالوا عليهم بفكرة أن نظام الحماية فحسب، هو الذى يرفع أجورهم، أكدت لهم ، أنه خلال ربع قرن، لن ترتفع أجورهم إلا بقدر ثلاثين فى المائة فحسب، فى حين سترتفع تكاليف المعيشة إلى مائة فى المائة، وأننا فى فترة أقصر من تلك، سترتفع الأجور لدينا إلى أربعين فى المائة، فى حين تنخفض تكاليف المعيشة انخفاضا مطردا . لكن ذلك لم يأت معهم بنتيجة تذكر ، حيث لاقبل لشيء، بخلخلة تفكيرهم الغريب .

كنت فى الحقيقة أعانى مرارة الهزيمة . هزيمة غير مستحقة، ولكن ما أهمية ذلك؟ إنه لن يقلل من الشعور بالمرارة، حين يفكر المرء فيما حدث من ملابسات ! حيث يجلس الآن فى هذا المكان، الرجل الأكفأ فى هذا العصر ، والأفضل ثقافة فى هذا العالم قاطبة، وصاحب أشمخ رأس غير متوجة تحركت عبر سحابات أى قبة سياسية على مدار القرون، يجلس هنا مكللا بالهزيمة، فى مساجلة مع حداد قروى جاهل !

استطعت الكشف عن مشاعر الشفقة التى أبداها الآخرون نحوىّ . ما جعلنى أحمر خجلا، حتى شممت رائحة فودى يحترقان . ضع نفسك مكانى، وستشعر بنفس ما شعرت من تدن، وخزىّ، ألا يشبه هذا أن تتلقى ضربة تحت الحزام ؟ أجل، ستحس ذلك، تلك ببساطة طبيعة البشر ، وذلك بالضبط ما حدث معى . لست أسعى إلى تبرير الأمر، ولم أقل أبدًا إننى فقدت عقلى ، حيث يعن لأى شخص أن يفعل ذلك .

الحقيقة أننى حين أقرر ضرب أحد ، فإننى لاأعتزم ضربه بحنان ، كلا، ليس ذلك ديدنى بالمطلق، فما دمت قد قررت ضربه، فإننى أضربه الضربة الساحقة الماحقة. كما أننى لن أباغته بهجوم، وأخاطر بارتكاب عمل أخرق، كلا، بل أقف منه على مسافة فى جانب، ثم أبدأ الاقتراب على نحو تدريجى، حتى لايشك فى ضربه على الإطلاق، فتراه فى لمح البصر ممددا على ظهره، بحيث لايقوى على إدراك ما حدث له البتة . ذلك ما سلكته مع الأخ داولى . بادرته بالحديث بهدوء وتراخ، وكأننى أفعل ذلك تزجية للوقت، بحيث لا يستطيع أكثر رجال العالم حنكة، رصد ما بادرت به من مفردات لفظية ، أو تخمين ما كنت بسبيلى إلى التوقف عنده :

" أيها الشباب ، هناك أمور كثيرة جيدة فى القانون والعرف وطرق أخرى فى التعامل بين البشر، باعثة على الاستغراب ، وأشياء أخرى من هذا القبيل ، وكذا فى تحول الآراء والحركات الإنسانية وتطورها . هناك قوانين مدونة، تتعرض للزوال،

وهناك أيضا قوانين غير مدونة، يكتب لها البقاء . خذ مثلا قانون الأجور غير المدون، والذى يقول بوجوب ارتفاعها بقيم ثابتة شيئا فشيئا عبر القرون . ولحظ كيف يتم ذلك . إننا نعرف الآن ما سارت إليه الأجور، هنا أو هناك أو ما وراء البحار، ونحدد لذلك نسبة، ذلك فضلا عن مقدرتنا على الخوض فى شأن أجور هذه الأيام . كذلك يمكننا أن نعرف ما كانت عليه الأجور منذ مائة عام، وهو أقصى ما يمكننا تقديره ، لكن ذلك يكفى، لتعريفنا بقانون التطور، وقياس نسبة الزيادة الدورية فى الأجور، ودواليك، ودون مستند نرجع إليه ، حيث يمكننا التوصل على نحو تقريبى ، إلى تحديد ماهية الأجور منذ ثلاثمائة أو أربعمائة عام . لابأس، وبعد . أن نتوقف عند هذا الحد ؟ كلا، بل نتوقف عن النظر إلى الوراء ، ونتطلع حولنا ، ونضع قانونا للمستقبل . يمكننى أيها الأصدقاء، إخباركم بما ستصير عليه الأجور فى أى تاريخ تحددونه ، لمئات ومئات من السنين القادمة " .

" حسبك يامحترم ، ماذا تقول ؟ "

" سترتفع قيمة الأجور فى سبعة أعوام ستة أضعاف ماهى عليه الآن، هنا فى هذه البقعة، وسيرتفع أجر المزارعين إلى ثلاثة بنسات فى اليوم، والحرفيين إلى ستة ."

تدخل صانع العربات، ووميض نهم واضح فى عينيه :

" لعلى أموت الآن ، وأعيش آنئذ "

" ليس هذا فحسب، بل ستصرف لهم فضلا عن ذلك وجبات غذائية، وتلك فى الواقع لن تسد نهمهم . أقول لكم: إن أجر الحرفى فى المائتى عام القادمة ، مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا سيحدث بالفعل ، وليس تخزيرا ، سيبلغ أجر الحرفى حينئذ، عشرين سنتا فى اليوم !"

احتبست أنفاس الجميع من هول الدهشة . ودمدم ديكون البناء، وهو يرفع يديه وعينيه إلى أعلى :

" أكثر من أجر ثلاثة أسابيع، مقابل عمل يوم واحد " .

غمغم ماركو وقد تسارعت أنفاسه، من فرط الإثارة .

" أغنياء ، أى وأيم الحق، أغنياء "

" ستواصل الأجور الارتفاع، شيئا فشيئا، بنماء شجرة مطرد، وفى نهاية الثلاثمائة والأربعين عاما القادمة، سيتقاضى الحرفى مائتى سنت يوميا، فى بلدة واحدة على الأقل !"

أصابهم ذلك بالخرس التام ! ظلت أنفاس كل منهم محتبسة لدقيقتين . أعقبها قول الفحام فى وقار :

" ليتنى أعيش لأشهد هذا " .

قال سمج :

" ذلك دخل أمير ! "

قال داولى:" أتقول أميرا؟ يمكنك قول المزيد، ولا حجة عليك فليس هناك أمير فى إقليم باجدياجوس يصل دخله إلى هذا الحد. دخل أمير ... مه. قل دخل ملاك !"

" هذا إذن ما سوف يطرأ على الأجور . فى ذلك التاريخ البعيد، سيتقاضى ذلك الرجل أجرا يعادل قيمة هذه القائمة من السلع فى أسبوع، تلك التى تحتاج منكم إلى ما يربو على ما تتقاضونه الآن فى خمسة أسابيع . ستحدث أشياء بالغة الغرابة، أيضا . أيها الأخ داولى، من ذلك الذى يحدد كل ربيع ما سيكون عليه الأجر الخاص بكل من الحرفى، والعامل العادى، والخادم ، فى تلك السنة ؟"

"الهيئة التشريعية أحيانا، ومجلس المدينة فى أحيان أخرى، ولكن القاضى هو الذى يحدده فى الغالب. ويمكنك القول إنه فى الظروف العادية، يكون القاضى هو الذى يحدد الأجور " .

"ألا يطلب عونا من أى من أولئك البؤساء عند تحديده أجورهم لهم؟"

" هم م! لقد كانت مجرد فكرة !ستلاحظ أن السيد المنوط بدفع أجره، هو صاحب المصلحة الحيقيقية فى هذا الأمر " .

"أجل، لكننى ظننت أن الآخر كان يمكنه الحصول على النزر اليسير إعانة له ولزوجه وأطفاله الفقراء. فالسادة هم : النبلاء، والأغنياء، ومن يعيشون عامة فى بحبوحة. تلك القلة التى لاتعمل، هى التى تحدد أجر الغالبية العاملة . أترى ؟ أولئك يمثلون اتحادا، أو بعبارة أخرى ، نقابة عمالية، أولئك هم الذين يتحدون معا، لإجبار أخيهم الضعيف على قبول ما يعطونه إياه من أجر . بعد ثلاثة عشر قرنا من الآن، وهذا ما يشير إليه القانون غير المدون، سيتخذ الاتحاد مسارا آخر، حين يلجأ هؤلاء الطيبون فى قادم الأيام إلى الغضب، والتكشير عن أنيابهم، ضد طغيان النقابات العمالية السافر !أجل سيحدث ذلك بالفعل ! ومن الآن فصاعدا حتى القرن التاسع عشر، سيقوم القاضى، بتحديد الأجور بكل بساطة، وسيعتبر العامل بالأجر فجأة أن فترة الألفى عام، تعد كافية لتطبيق هذا الأسلوب المتحيز إلى جانب واحد، وسينهض العامل من رقاده، ويشارك فى تحديد أجره بنفسه . أجل، وسوف يخوض فى سبيل ذلك معركة ضد ما تعرض له طويلا من ظلم بين وإذلال ، حتى يسترد حقوقه " .

" أتعتقد أن .."

"أنه سيشارك فى تحديد أجره ؟ أجل، سيحدث هذا بالفعل . وسيكون حيئنذ من القوة والأهلية ليحقق ذلك " .

قال الحداد الموسر بسخرية:

"يالها من أزمنة رائعة، رائعة بحق " .

" آه ، وهناك أمر آخر، وفى تلك الأيام يستطيع السيد، أن يستأجر رجلا ليوم واحد فحسب، أو لأسبوع واحد، أو شهر، لو شاء :"

"ماذا ؟ "

"هذا صحيح . وفضلا عن ذلك فإن القاضى ، لن يكون من حقه إجبار مستخدم على العمل لدى أحد السادة لعام دون انقطاع، سواء رغب الرجل فى ذلك أو لم يرغب " .

" ألن يكون هناك قانون معمول به فى تلك الأيام أو عقل يفكر ؟ "

" كلاهما، داولى . سيكون الإنسان فى تلك الأيام ملك إرادته، وليس إرادة القاضى أو السيد ، فيمكنه الرحيل عن البلدة وقتما شاء، إذا لم يناسبه الأجر ! ولن يوضع جراء ذلك فى آلة التعذيب " .

هتف داولى ناقما :

" سحقا لذلك العصر . ذلك عصر الكلاب، عصر الخروج عن طاعة سادة القوم وتوقيرهم، أواحترام السلطة ! العقوبة.. "

" أوه، رويدك أخى، لاتعل من شأن تلك المؤسسة . أظن أنه سيتم إلغاء العقاب على أداة التعذيب ."

"تلك أكثر الأفكار غرابة . وما السبب ؟"

"حسنا، سأوضحه لك. هل سبق أن وضع محكوم بالإعدام فى أداة للتعذيب؟"

"كلا"

" وهل من الصواب الحكم على رجل بعقوبة متواضعة جراء ارتكابه جرما بسيطا ثم إعدامه ؟"

لم يحر أحد جوابا. أحرزت بذلك أول نقطة ! فتلك هى المرة الأولى التى لم يكن فيها الحداد متأهبا لى . لاحظ الجميع ذلك . وكان له أثره الطيب .

" لم تجب ياأخى. كنت تعظم من شأن أداة التعذيب منذ وهلة، وتبدىّ بعض الأسى عن عصرآت يبطل فيه استخدامها، ماذا يحدث عادة.حين يوضع مسكين على أداة التعذيب، لجرم تافه، لم يضار به أحد ؟ سيشيعه الدهماء بالسخرية، أليس كذلك؟"

"أجل " .

"أيستهلون ذلك برشقه بقطع الوحل، ويستغرقون فى الضحك وهم يرونه، يسعى للروغ من قطعة الوحل . ثم يتلقى أخرى ؟"

"أجل " .

"ويرمونه من ثم بالهررة الميتة، أليس كذلك ؟"

"أجل ."

"حسنا، إذن، هب أن لديه أعداء بين أولئك الرعاع، فيتهكم به رجل أو امرأة بصوت غير مسموع من هذه الجهة أو تلك، وهب أنه لايحمل صيتا بين الناس، يرتبط بثرائه أو بمنزلته الاجتماعية ، أوبسواهما ، فإن الحجارة والقرميد، سيحلان محل الوحل والقطط الميتة على الفور، أليس كذلك ؟"

" لاشك فى هذا " .

" فيصبح معاقا فى سن مبكرة من حياته ، أليس كذلك ؟ بكسر فكيه أوضياع أسنانه، أو تشويه ساقيه ، أو مصابا بغرغرينة تستلزم قطعهما فى الحال ؟ أو قد تأته كدمة فى إحدى عينيه أو فى العينين معا ؟ "

" يعلم الله ، أن هذا كله صحيح " .

" فإن كان غير ذى صيت، فإنه ميت لامحالة، فى قبـضة أداة التعـذيب، ألـيس كذلك ؟ "

" يحدث ذلك بالتأكيد ! لايستطيع أحد أن ينكره " .

" أفهم أنه ليس بين ظهرانيكم من حـرم ذيـوع الـصيت ، افتقـارا إلى مكانـة رفيعة، أو مهابة ، أو ثراء فاحش، أو إلى أى مما يثير الـضغائن، والأحقـاد، بـين أهـل المنزلة الأدنى فى قرية من القـرى ؟ ألا تفكـرون أن مجـرد الوضـع فى المـشهرة (أداة التعذيب) يحمل من الخطورة الكثير ؟"

بدا داولى مجفلا . ظننته قد هزم . لكنه لم يكشف عن هذا ببنت شـفة . فى حـين تحدث الآخرون بصراحة، وبإحساس قوى . ذكروا أنهم قد خبروا المـشهرة، إلى الحـد الذى يجعلهم يدركون مشاعر من تعرض لها، وأنهم لن يرضـوا بتجربـة الوقـوع بـين براثنها، لو كان باستطاعتهم استبدال ذلك بميتة سريعة على حبل المشنقة .

" حسنا، فلنغير هذا الموضوع، لأننى أعتقد أننى قد أكدت على وجهة نظرى فى المطالبة بإلغاء المشهرة . وأظن أن كثيرا من قوانينا غير منصف . إننى مثلا إذا فعلت ما يوجب وضعى فى المشهرة، وكنتم تعرفون أننـى مرتكـب جرمـا ، ولم تبلغـوا عنـى، فإنكم ستتعرضون للعقاب بها ، إن أبلغ أحد عنكم ."

قال داولى :

"لكنك ستكون المستفيد الوحيد من ذلك، حيـث كـان يجـب أن يبلـغ عنـك، حسب نص القانون " .

وافقه الآخرون .

" حسنا، فليكن الأمر كذلك، مادمتم لاتتفقون وإياىّ . لكن هناك شيئا واحدا يحمل ظلما بينا، وذلك فى شأن تحديد القاضى أجر الحرفى بسنت فى اليـوم عـلى سـبيل المثال . ينص القانون على أنه ما إن يغامر أحد السادة حتى فى ظل ظروف غير مواتيـة بالكلية، بسداد بعض ما يربو على سنت فى اليوم للعامل، حتى لو كان ذلك لقاء عمل يوم واحد، فإنه يغرم أو يوضع فى المشهرة عقابا على ذلك، ومن يعرف أنه فعل ذلـك ولم يبلغ عنـه، سـيغرم أيـضا أو يوضـع فى المـشهرة. هـذا ، داولى أعتـبره ظلـما بينـا ويعرضنا جميعا لخطر عظيم، لأنكم قد أقررتم طواعية منذ وهلة، بأنكم فى أسبوع قد سددتم سنتا وخمسة عشر ميلا .."

أوه، قلت إنها ضربة ساحقة ماحقـة ! وكـان رائعـا أن تـراهم و قدأسـقط فى أيديهم، أقصد فى أيدى العصابة كلها . تحاشيت التعثر فى داولى، العبوس والواثق من نفسه، وقد فعلت ذلك بحنكة وبراعة شديدين وبأريحية بالغة، حتى إنه لم يعـد يتوقـع ما سيحدث له، إلى أن يباغت بالضربة القاضية التى تطيح به أرضا .

حققت بذلك نتيجة طيبة . فاقت كل ما أحرزته فى السابق، باعتبار أنها تحققت فى زمن قصير . لكننى رأيت لوهلة أننى قد تجاوزت فى ذلك بعـض الـشيء . وكنـت أتوقع أن يفزعوا من ذلك ، لكننى لم أكن أتوقع بلوغهم أقصى درجات الهلع .

رغم أنهم بلغوا أقصاه. تراهم وقد ظلوا طـوال حيـاتهم يلقنـون التعظـيم مـن شأن المشهرة ، وأن ما أثار فيهم الهلع أن يجعلها غريب مـثلى ماثلـة أمـامهم ، بعـد أن جعلت كلا منهم ملك إرادتى ، حال قررت الذهاب و الإبلاغ عنه، الحقيقة أنـه أمـر يبعث على الرهبة ولايبدو أنهم استطاعوا أن يفيقوا من هول الصدمة، أو تمكنوا مـن جمع شتاتهم بعد . فيم كل هذا الشحوب ، والهلع ، والتبلد والهوان ؟ الغريب أنهـم لم يكونـوا بأفـضل حـال مـن المـوتى . سـادت حالـة مـن القلـق . ظننـتهم بـالطبع ، سيناشدوننى الكتمان ، يعقبه التصافح بالأيدى، وتبادل الأنخاب والضحك، وينتهـى

الأمر من ثم . ولكن كلا، لأنك تعرف أننى شخص غريب عـن البلـدة ، بـين أنـاس مريبين ، يتصرفون بوحشية، أناس اعتادوا دوما اهتبال فرص عجزهم ، ولا يتوقعون البتة أن يتعامل معهم أحد بشيء من العدل والرأفة من آخرين، إلا ذويهم أو أقاربهم . أيلجأون إلى استرحامى، وإبداء الرأفة بهم واللين ؟ لقد رغبـوا فى ذلـك بالفعـل ، إلا أنهم لن يتجاسروا على فعله .

الفصل الرابع والثلاثون

بيع الشمالى والملك فى سوق الرقيق

حسنا، فماذا كان علىّ أن أفعل ؟ ألا أكون فى عجلة من أمرى، هذا مؤكد . علىّ أن أتحول إلى شأن آخر أستعيد به القدرة على التفكير ، وتتاح لهؤلاء البؤساء الفرصة لاسترداد وعيهم مجددا . جلس ماركو هناك، فى حيرة من أمره، قد جمد فى محاولته الإمساك، بدلاة مسدس العملة ، وتحول إلى حجر، فى الوضع الذى كان عليه حين سقط من يدى مدق الخوازيق، لاتزال اللعبة ساكنة بين أصابعه المتخدرة . لذلك تناولتها من يده، وبادرت بشرح لغزها . ويا له من لغز! شيء بسيط كهذا صار الآن لغزا حقيقيا لهذا الجنس من البشر ، وفى عصر كهذا. لم أر فى حياتى أناسا على هذا النحو من الجبن، فى مواجهة أداة أو آلة ، تصور أنهم لم يتقبلوا التعاطى وإياها قط . كان المسدس ، عبارة عن أنبوب صغير مزدوج، صنع من زجاج متين، ملحق به لسان دقيق يتحرك بزنبرك، يخرج طلقة لدى الضغط عليه . لكن تلك الطلقة لاتصيب أحدا بأذى، بل إنها تسقط فى يدك فحسب . هناك حجمان للمسدس، أولهما ذو الطلقة الصغيرة بحجم حبة خردل، وطلقة الثانى أكبر منها عدة مرات. الطلقات هى عملات نقدية، تمثل طلقة حبة الخردل الميلاريسات، أما الأكبر فتمثل الميلزات . لذلك كان المسدس، أشبه بحافظة نقود، يسهل استخدامها، ويمكنك من خلاله إنفاق النقود حتى فى الظلام بكل دقة، ويمكنك حمله فى فمك، أو فى جيبك، لو أنك تملك واحدا . صممتها جميعا بأحجام مختلفة، منها كبير الحجم الذى يتسع للدولار . كان استخدام النقود بالطلقات، أمرا طيبا لدى الحكومة، حيث المعدن لايكلفها شيئا،

فضلا عن أنه يستحيل تزييف النقود، لأننى الشخص الوحيد فى المملكة الذى يعرف، كيفية إعداد مسار الطلقة . سرعان ما شاعت بين الناس عبارة " سدد بطلقة " . أجل، أدركت أن هذه العبارة ستظل متداولة على الألسنة، إلى ما بعد القرن التاسع عشر، ولن يرتاب أحد فى كيفية أو زمن نشأتها.

انضم الملك إلينا، وقد استعاد بعد رقاده حيويته تماما، وصار على مايرام . الآن يمكن استثارتى لأى سبب، انتابنى قلق بالغ، لأن حياتينا باتتا مهددتين ، كما أقلقنى أن ألحظ فى عينى الملك ، ما ينبئ بشعوره بنرجسية، بدت تتجه إلى أنه كان يعد نفسه للظهور بشكل أو بآخر، فسحقا لهذا ، وما الذى يدفعه إلى هذا التصرف فى وقت كهذا؟

كنت محقا . بادرمباشرة بسذاجة جمة ، وحماقة وتلقائية، للخوض فى شئون الزراعة . أحسست بعرق بارد يتصبب منى، وشئت أن أهمس فى أذنه : " بأننا معرضون لخطر داهم، يارجل! وأن كل لحظة تمر الآن تصير بحجم إمارة، حتى نستعيد ثقة هؤلاء ، فلا تبدد لحظة من هذا الوقت الثمين " لكننى بالطبع لم أتمكن من ذلك . أأشير إليه ؟ قد يبدو الأمر حينئذ كما لو أننا نخطط لأمر ما . لذا كان على أن ألتزم مكانى، وأتصنع الهدوء والرضا، فى حين وقف الملك فوق لغم من الديناميت، يزجى وقته وئيدا فى شئون البصل اللعين ، وما سواه . لملم شتات أفكارى فى البداية، واصل ماستدعته شارة الخطر من أفكار مضطربة لدىّ، محتشدة من كل أركان رأسى، واصل الفوران والاضطراب والصفير والدمدمة ، حتى صرت لا أقوى على النطق بكلمة، ولكن بمجرد أن بدأ تبلور خططى الحاشدة ، واتخاذ مواقعها وتشكيل خط للهجوم ، أتى ذلك بشيء من الطمأنينة والاستقرار، أمسكت بذراع المدفع الملكى، وكأن ذلك فى منطقة عزلاء :

" ..أظنها ليست بالطريقة المثلى، ولكن لايمكن إنكار أن السلطات تبحث ما يدور بهذا الشأن ، حيث يرى البعض أن البصل ليس سوى سلعة رديئة، إذا تم قطافه مبكرا.. "

أبدى الحضور شيئا من الانتباه، ونظروا إلى بعضهم البعض بقلق ودهشة .

" بينما يبين آخرون مع إبداء الأسباب ، بأن ذلك ليس من الضرورة بمكان، فثمار البرقوق وبعض الحبوب تقتطف قبل أن تنضج و.. "

أبدى الحاضرون شعورا بخيبة أمل ، أجل، فضلا عن خشية .

" وهى أيضا جد مفيدة، خاصة حين يخفف المرء مرارة مذاقها، بإضافة بعض عصير الكرنب المخفف للحيلولة دون الإحساس بالمرارة " .

بدأ وميض الرعب الرهيب ، يظهر فى عيون هؤلاء، ودمدم أحدهم : " لكون هذه أخطاء، وكل ما ورد بها ، فمن المؤكد أن الله قد أصاب عقل هذا المزارع بالخلل ." وقعت فى حيص بيص، وكأننى جالس فوق الشوك .

" كما أنهم يدللون على ذلك بحقيقة شائعة، تؤكد أن صغار الحيوانات ، أو ما يطلق عليها فاكهة الكائنات الخضراء هى الأفضل ويقر الجميع بأنه حين تكبر الشاة ، يسخن فراءها ويكتنز لحمها ما يكشف عن ارتباط ذلك بعادات سيئة كثيرة ، وشهية باعثة على الغثيان، وحالات عقلية سيئة، ومزاج سوداوى فى المسلك "، نهضوا من أماكنهم، واتجهوا نحوه ! هتفوا بقوة " أحدهما سيكشف أمرنا، والآخر مختل ! اقتلوهما ! اقتلوهما " . انقضوا علينا . أى سعادة تلك التى التمعت فى عين الملك ! إنه قد لايفهم فى شئون الزراعة، لكن ذلك لايعوقه فى شيء، فقد صام لفترة طويلة، ويشعر الآن بنهم للشجار . وجه للحداد لكمة أسفل فكه رفعته من القدمين إلى أعلى، وسطحته على ظهره . "أى سانت جورج، منقذ بريطانيا ! " ثم طرح صانع

العجلات أرضا، كان البناء ضخم الجثة، لكننى أسقطته بالضربة القاضية . تجمع الثلاثة ثم تقدموا مجددا، أخذوا يسقطون ، ثم يعودون ، وتكرر هذا بعزم بريطانى أصيل حتى صاروا هلاما ، يترنحون من الإعياء ، وقد عميت أبصارهم حتى لم يعد أحدهم يميز الآخر، وظلوا يكررون المسلك نفسه بما تبقى لديهم من قوة . كل يتخبط فى صاحبه، بعد أن انتحينا جانبا، لنشاهدهم بين الترنح والمقاومة والتشبث والتثاقل ، نشاهد ذلك باهتمام بالغ غير وجل من أى هجوم مضاد . وقفنا نتفرج دون خشية ، لأنهم سرعان ما خارت قواهم، عن الذهاب حتى لطلب مدد لمواجهتنا ، حيث المنطقة بعيدة تماما عن العمران، و آمنة من أى تدخل خارجى .

حسنا، فبينما كانوا يترنحون من الإعياء، طرأ لى سؤال مباغت عما صار إليه أمر ماركو . نظرت حولى فلم أجده . أوه، هذا ينذر بوبال ! شددت كم الملك، وتسللنا من المكان ، واتجهنا إلى الكوخ فوجدناه قد خلا من ماركو أو زوجته فيليس ! مؤكد أنهما قد خرجا على الطريق طلبا للعون . طلبت من الملك أن يهب كاحليه جناحين، وقلت إننى سأشرح له الأمر فيما بعد . قضينا وقتا طويلا نسير فى الخلاء، وحين توارينا داخل الأحراش، نظرت خلفى فرأيت جماعة من دهماء الفلاحين الثائرين على مرمى البصر، تجمعوا و فى مقدمتهم ماركو وزوجته .أثاروا جلبة كبيرة، لكنها لم تكن لتضر أحدًا ، فالأحراش كثيفة، وإذا خضنا فى أعماقها، فسنأوى إلى شجرة ، ونتركهم يصفرون .

لكن أعقب ذلك صوت آخر . الكلاب ! أجل، ذلك شأن مختلف . زاد حصارنا، وحرىّ بنا العثور على مياه جارية .

حثثنا الخطى على الطريق، وسرعان ما خلفنا تلك الأصوات بمسافة كبيرة فتحولت إلى حفيف . صادفنا نهرا صغيرا، فخضنا فيه . جرفتنا مياهه سريعا، فى ظلام الغابة، لحوالى ثلاثمائة ياردة، ثم أتينا إلى شجرة بلوط مدت فرعها الضخم فوق المياه .

تسلقنا هذا الفرع ، وبدأنا نحث السير فوقه حتى جذع الشجرة، وبدأنا على الفور الإصغاء إلى تلك الأصوات التى صارت أكثر وضوحا، هكذا كان الدهماء يقفون أثرنا . فتارة يتزايد وقع الأصوات ، ويبتعد تارة أخرى. لاشك فى أن الكلاب قد تعرفت إلى المكان، الذى بدأنا منه خوض النهر ، وهى الآن تنطلق على الشاطئ ، فى محاولة لتقفى الأثر مجددا .

حين أوينا إلى الشجرة، وتوارينا بالخضرة ، اطمأن الملك ، لكن الشك كان يساورنى. لقد ظننت بأننا نستطيع تتبع أحد الفروع ، والانتقال إلى الشجرة التى تليها، ورأيت أن هذا يستحق المحاولة . حاولنا ذلك ونجحنا، مع أن الملك قد انزلق على مفصل يصل بين الأفرع، وكان أقرب إلى الفشل فى اللحاق بى . لجأنا إلى مأوى مريح، وملاذ رائع بين الخضرة ، ولم يكن أمامنا سوى الإصغاء إلى أصوات المطاردين.

سمعناهم فى التو قادمين، يهرولون ، على جانبى النهر . علت الأصوات أكثر فأكثر، وتضخمت فى اللحظة التالية ، حتى تحولت سريعا إلى خليط من صياح، ونباح، ووقع خطى، وتناهت إلى ما يشبه زوبعة . قلت :

" كنت أخشى أن يوحى فرع الشجرة إليهم بشيء، لكننى لا أمانع أن يخيب أملى. هلم سيدى، لقد حان أوان استغلال الوقت . لقد تنكبناهم، وسرعان ما سيحل الظلام، فإذا تمكنا من الوصول إلى النهر، وخضناه، واستعرنا جوادين من أحد المراعى، لبضع ساعات، نكون بذلك قد نجونا تماما . "

بدأنا الهبوط، واقتربنا من الفرع السفلى، حتى بدا وكأننا نصغى إلى تقهقر المطاردين فتابعنا الإصغاء . قلت :

" أجل، لقد ارتدوا على أعقابهم، واستسلموا للأمر الواقع، وهاهم يعودون إلى ديارهم . سنعاود الصعود إلى مأوانا مجددا، حتى يقطعوا شوطا على الطريق ."

هكذا عدنا أدراجنا . أرهف الملك سمعه لحظة ، ثم قال :

"ما زالوا يفتشون فى المكان، أدرك مغزى ذلك. لقد فعلنا الصواب بعودتنا هنا"

كان محقا. لقد تفوق علىّ فى إدراكه شئون المطاردات. زاد صوت الجلبة وئيدا. قال الملك :

" إنهم يعتقدون بتقدمنا دون أن نتحسب لخطر من قبلهم ، وآن كوننا نقطع الطريق سيرا، فإننا لن نبعد كثيرا عن المكان الذى خضنا منه النهر ."

" أجل سيدىّ، أخشى أن يكون الأمر على هذا النحو، إلا أننى آمل فى الأفضل".

تزايدت الجلبة أكثر من السابق، وسرعان ما صار جيش العرمرم أسفلنا ، على جانبى النهر . دعا صوت آت من الضفة الأخرى، إلى التوقف، وقال :

" وهكذا طرأ ببالها ، أنه يمكنها بلوغ تلك الشجرة بواسطة ذلك الفرع الممتد ، حتى لا يطآن الأرض بأقدامها . تفعلون الصواب، لو بعثتم بأحدكم أعلاها . "

" أجل، ذلك ما سوف نفعله " .

كان على أن أعهد بغبط براعتى فى التنبؤ بهذا الأمر ، والتنقل بين الأشجار لإفساده .ولكن ألا تعلم أن هناك من الأشياء ما يمكنه تجاوز الذكاء والتنبؤ؟ إنه الحمق والغباء. إن أفضل مبارز بالسيف فى هذا العالم، ليس بحاجة إلى أن يخشى المبارز الذى يليه حنكة، كلا ، بل يجب أن يخشى الجاهل المتغطرس، والذى لم يضع طوال حياته سيفا بيده، إنه لايفعل ما هو جدير بفعله، وبذلك لايأبه المحترف بالإعداد له، وإنما يمارس المبارزة على الوجه الصحيح ، ما يعرضه للهزيمة فى الغالب، فتكون نهايته فى ساحة النزال . أما والأمر على هذا النحو، فكيف يمكننى مع كل ما

أوتيت من مواهب، الإعداد بطريقة سليمة، لمواجهة مهرج غبى أحول البصر، سيتجه إلى الشجرة الخطأ، فيتصادف أن تكون الشجرة الصحيحة، فيتسلقها .

أصبح الأمر خطرا الآن . بقينا فى مكاننا، وترقبنا ما سيحدث. شق الجاهل طريقه بصعوبة . اعتدل الملك فى مكانه ثم وقف على قدميه، قدم ساقا على الأخرى، وحين أوشك القادم على الاقتراب منه، سمع صوت ارتطام مكتوم، وهوى الرجل على الأرض متخبطا . أتى من أسفل صوت يعبر عن غضبة عارمة، وتجمع الرعاع من كل الجهات، أما نحن فكنا عالقين بأعلى الشجرة، أسيرين بها .

تأهب آخر، واكتشف الفرع الموصل بين الشجرتين، فتطوع أحدهم بتسلق الشجرة التى تدعم الفرع الموصل . أمرنى الملك بلعب دور هوراشيوس فى الدفاع عن الجسر. تقدم العدو على الفور سريعا، لكن ذلك لايهم فى شيء، فكل من تقدم للصعود كان يتلقى فى كل مرة ضربة قوية على رأسه تعيده إلى أسفل بمجرد اقترابه . ارتفعت معنويات الملك، وصارت سعادته بلا حدود . فقال إنه إذا لم يحدث ما يعكر رجاءنا المنشود، فإننا سنقضى ليلة جميلة، لأنه وطبقا لأسلوبه فى المناورة، يمكننا التشبث بالشجرة، فى مواجهة القرية برمتها .

ورغم ذلك، أسرع الرعاع تلقائيا بالتوصل إلى تلك النتيجة، فقد دعوا إلى التوقف عن الصعود، وبدء التشاور حول خطط بديلة . كانوا مجردين من الأسلحة، لكن الحجارة كانت وفيرة، ويمكنهم الاستفادة بها، ولم يكن لدينا بأس من ذلك . لأن الحجر فى كل مرة كان يحتمل نفاذه إلينا، ثم يرجح ألا يبلغنا، حيث كنا نحتمى بفروع الأشجار، وأوراق النبات، ولم نكن مكشوفين من أى جهة، لأى هدف . فإن قضوا فى رشقنا بالحجارة نصف ساعة، سيكون حلول الظلام فى صالحنا، لذلك كنا نشعر تماما بالأمان، بل كنا قادرين على الابتسام، وحتى الضحك .

لكننا لم نفعل ذلك أيضا، لأننا كنا نجبر على المقاطعة. لاحظنا انتشار رائحة قبل انطلاق الحجارة بين أوراق الشجر وارتطامها بالفروع بخمس عشرة دقيقة، تبين من زفرتين أنها رائحة دخان ! أدركت أن خطتنا قد فشلت، أخيرا . فحين يدعوك الدخان ،عليك تلبية الدعوة . قاموا بتعلية كومة من أغصان الشجر الجافة، والأعشاب الرطبة، وحين أدركوا كثافة سحابة الدخان، وبدء تصاعدها، وتغلغلها وسط الشجرة، انطلقوا فى عاصفة من الصخب، معبرين عن غبطتهم، وكان لدىّ من الهواء النقى ما أعاننى على النطق بـ :

" تقدم سيدىّ، فتلك نهاية مناورتك " .

قال الملك لاهثا :

" اتبعنى إلى أسفل، واسند ظهرك إلى جانب من جذع الشجرة، واترك الجانب الآخر لى، ولندخل المعركة من ثم . ولنجعل كلا يجمع موتاه، بحسب ذائقته وأسلوبه الخاص " .

بدأ الملك الهبوط من ثم وهو يسعل ويجأر بنباح ، فلحقت به . بلغت الأرض بعده بوهلة، وانطلقنا إلى مواقع تأهبنا ، وشرعنا فى الاشتباك أخذا وردا بكل ما أوتينا من قوة. اشتد الهرج والمرج، وثارت عاصفة هوجاء وفوضى، وسمع وقع ضربات غليظة، شق جماعة من الفرسان، طريقهم بغتة وسط الحشد، وصاح أحدهم :

" توقفوا وإلا تعرضتم للموت !"

ياللأثر الطيب الذى أحدثه هذا الصوت ! تمتع صاحب الصوت بكل ما يحمل "السيد" من سمات ، فى جمال الصورة وحسن الهندام ، و سمت الآمر، وصرامة المحيا، وإسراف على النفس أفسد لون البشرة والملامح . تراجع الحشد طوعا، كما يفعل البؤساء. تفرسنا السيد بعينيه، وخاطب الفلاحين محتدا :

" ماشأنكم وهذين ؟ "

" لقد فقدا صوابهما، سيدنا الموقر، كانا هائمين فى المكان ولا نعرف لهما وجهة، و.. "

" لاتعرفوا من أين ؟ أتتظاهرون بأنكم لاتعرفوهما ؟"

"نحن ياصاحب العزة، لانذكر غير الحقيقة . فهما غريبان ، لايعرفهما أحد فى هذه المنطقة، ولكونهما إرهابيين ،ومتعطشين للدماء، إلى حد كبير يص .."

" حسبك ! أنت لاتدرك كنه ما تقول . فهما ليسا بمختلين ، من أنتما ؟ ومن أين أتيتما ؟ تكلما ." قلت :

" لسنا سوى غريبين مسالمين ، سيدى، وإننا نتجول على غير هدى . إننا من بلدة نائية، ولاعلاقة لنا بأحد فى هذا المكان . إننا لانعتزم الإساءة إلى أحد، وكان هؤلاء يزمعون قتلنا لولا تدخلك الجسور . وكما أسلفت سيدى، فإننا لسنا بمختلين، ولا إرهابيين أو متعطشين للدماء " .

التفت السيد إلى تابعه ، وقال ببرود :

" سق هذه الحيوانات حتى وجارها " .

اختفى الرعاع فى الحال، يطاردهم الفرسان بالسياط، وانطلقوا قدما دون توقف، وكانوا من الحماقة بحيث سلكوا جادة الطريق بدلا من اللجوء إلى الآجام ، وتلاشى صوت العويل والصراخ، وصار بعيدا، وسرعان ما عاد ممتطو الجياد مجددا، فى اللحظة التى كان السيد يستجوبنا ، لكنه لم يستطع أن يخرج منا بشيء . قدمنا له وافر الامتنان على صنيعه، لكننا لم نفصح عن شيء سوى كوننا غريبين بلا معارف أو أصدقاء ، قدمنا من أرض بعيدة . حين عاد المرافقون، قال السيد لأحد خدمه :

" احضر جوادى المقدمة، وضع عليهما هذين ."

" سمعا وطاعة، سيدى . "

دفع بنا إلى المؤخرة بين العبيد . أسرعنا جميعا بالرحيل ، ووصلنا نهاية المطاف بعد حلول الظلام بقليل، إلى خان يقع على الطريق، بعد مسيرة عشرة أو اثنى عشر ميلا، بدءا من المكان الذى شهد ماشهدناه من اضطرابات. مضى سيدى فى الحال إلى غرفته، بعد أن تناول عشاءه، ولم نر له أثرا بعد ذلك. أفطرنا بحلول الصباح، وتأهبنا للرحيل . فى تلك الأثناء كان رئيس خدم سيدى يسير وئيدا فى المقدمة، برشاقة ملحوظة، ثم قال :

" قلت إنكما ستواصلان السير فى هذا الطريق، وتلك وجهتنا أيضا، ماجعل سيدى صاحب العزة ، يأمر لكما بجوادين، ما يؤكد لنا مرافقتكما إيانا، لمسافة عشرين ميلا، حتى نصل إلى بلدة جميلة ، تقع بأعلى كامبنيت، لتكونا بمنأى عن المخاطر " .

لم يكن أمامنا سوى أن نتقدم بالشكر ونقبل العرض. سرنا وئيدا على الطريق ، كل ستة فى مجموعة، سيرا معتدلا ومريحا، وعلمنا من خلال الحوار، أن صاحب السيادة سيدى، شخصية مهمة جدا فى بلدته التى تبعد عن كامبنيت مسيرة يوم. تباطأنا فى السير ، إلى قرب حلول منتصف الظهيرة، حتى دخلنا ساحة سوق المدينة. ترجلنا وعاودنا تقديم آيات الشكر لسيدنا، واقتربنا من حشد تجمع فى منتصف الساحة، لمتابعة ما بدا لنا شيئا مثيرا . أولئك كانوا بقية من لقيناهم من قبل من العبيد ! كانوا يجرجرون أغلالهم طوال هذا الوقت دون توقف . لقد رحل عنهم ذلك الزوج المسكين، وكثيرون سواه، وقد أضيف إليهم بعض من تم شراؤه حديثا . لم يظهر الملك اهتماما بالأمر، فقد رغب فى مواصلة السير، لكننى تأثرت بالمشهد وامتلأت أسى . لم أقو على تحويل بصرىّ عن ذلك الحطام من البشر المكدودين، وقد جلسوا على الأرض ، فى حشد يغشاه الصمت، فى غير ما تذمر أو شكاية، مطأطئى الرؤوس ، فى هيئة تثير الرثاء. وفى تباين رهيب، كان خطيب مفوه يلقى خطبة أمام

جمع غفير، على مسافة لاتزيد على ثلاثين خطوة من حشد العبيد ، استهلها بعبارة التمجيد المقيتة "حرياتنا البريطانية العظيمة " !

كنت أغلى فى داخلى ، نسيت أننى من عامة القوم، وتذكرت أننى إنسان . فلأعتلى هذا المنبر، وليكن ما يكون ومن ثم ..

صدر صوت صلصلة مباغت ! وجدنا أنا والملك معا أننا مقيدان فى الأغلال ، فعل ذلك من رافقونا من الخدم ، ووقف صاحب السيادة يطالع المشهد . انفجر الملك غاضبا ، وقال :

" ماذا تعنى هذه الدعابة السخيفة ؟"

قال سيدنا صاحب السيادة لتابعه رأس اللئام، بكل برود :

" أعد العبدين للعرض، ثم بعهما !"

عبدان ! لكلمة الملك صدى غريب، ورهبة يعز وصفها ! رفع الملك قيوده، وهوى بها على الأرض بكل ما أوتى من قوة ، لكن سيدى كان قد ابتعد لدى قدومهم. هرول عدد من العبيد الأوغاد إلى الأمام، وأصبحنا فى لحظة ، بلا حول ولا قوة، أيدينا مكبلة خلف ظهرينا . أعلنا بصوت عال، وبعزم أننا مواطنان حران، حتى لفتنا نظر الخطيب المتشدق بالحرية، وحشده المتيم به، فتجمعوا حولنا، واتخذوا تجاهنا موقفا باتا حيث قال المفوه :

"لو أنكم أحرار حقا، فلا تخشوا من شيء، فالحريات التى من بها الرب على بريطانيا، خير وقاء لكما ونجاء ! (وقفة) وسوف تتيقنان من ذلك الآن . أظهرا أدلتكما على ذلك " .

"أية أدلة ؟"

" ما يثبت أنكما مواطنان حران " .

آه ـــ تذكرت !فعلت الصواب ، ولم أنطق بشيء .لكن الملك قال مزمجرا :

" إنك لست بإنسان، أيها الرجل . و من الخير ، والمنطق، أن يثبت هـذا اللـص الوغد، أننا لسنا حرين ."

انظر إلى الملك ، وقد ألم بقوانين بلده ، كما يلم بها الآخرون فى الغالب، بالأقوال فحسب ، وليس بالأفعال. إنها تحمل مضمونا ، وتفعل حقـا حـال اسـتلزم الأمـر أن تطبق عليك .

أظهر الجميع تحفظهـم ويـدوا محبطـين، وغـادر الـبعض المكـان، وقـل اهـتمام البعض. قال المفوه بنبرة جادة هذه المرة، خلت من العاطفة :

" ثم إنكما غير ملمين بقوانين بلدكما، وكانت لديكما فرصـة الإلمـام بهـا . أنـتما لدينا غريبان، ولا سبيل لإنكار ذلك . ربما كنتما حرين، لاننكـر ذلـك علـيكما، وربـما كنتما أيضا عبدين . القانون صريح : حيث لاينص على إثبات عبوديتكما، بل نص على أن تثبتا أنكما لستما عبدين ".

قلت :

" سيدى العزيز، أمهلنا بعـض الوقـت كـى نبعـث برسـالة إلى آسـتلوت، أو نرسلها إلى وادى القداسة " .

"اهدأ أيها الصالح، تلك مطالب غير عادية، ولا يمكنك التطلـع إلى تلبيتهـا . فقد تستغرق وقتا طويلا، ولا نضمن أن تلقى لدى سيدك قبولا .. "

انفجر الملك :

" سيد يا أحمق، أنا لاسيد لى ، أنا هنا السى.. "

" صه، بربك ."

تدخلت فى الوقت المناسب لإسكات الملك . لأننا نواجه الآن مأزقا حقيقيا، ولن يساعدنا فى شيء دفع هؤلاء إلى الظن بأننا مجنونان . لافائدة إذن من الإدلاء بأية تفاصيل . لقد أسرنا الإيرل وعرضنا للبيع فى المزاد . طبق هذا القانون الجهنمى فى الجنوب ، بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا ، فى أيامى هناك، وتم فى ظله بيع من لم يثبتوا أنهم أحرار طوال زمن العبودية، دون أن يطرأ ما يحرك فىّ أية مشاعر، عدا هذه اللحظة التى زج فيها كل من القانون ومنصة دلال المزاد بنفسيهما فى تجربتى هذه، و هذا الشيء الذى لم يكن يلقى من قبل قبولا فحسب ، صار الآن جحيما لايطاق .

أجل، لقد باعونا فى المزاد كما تباع الخنازير . كان لابد ونحن فى بلدة كبيرة وسوق رائج، أن نقدر بثمن كبير، لكن الركود ساد المكان بالكلية، وما يشعرنى بالخزى ، حين أفكر فى هذا الأمر، أن نباع بثمن بخس . بيع ملك إنجلترا بسبعة دولارات، ورئيس وزرائه بتسع، فى حين كان يمكن الملك بأريحية تامة يساوى اثنى عشر دولارا ، وكان يمكن بيعى بنفس الأريحية بخمسة عشر دولارا . لكن الأمور دوما تسير على هذا النحو، فلو أننى عرضت للبيع فى سوق راكدة ، فلن ألتفت إلى القيمة ، لأنك ستعرض القيمة بسعر السوق ، وعليك أن تقرر أمر البيع من عدمه . ولوأن الإيرل، يعلم جيدا بـــــــــــ

ومع ذلك فإنه لايجدر بى أن أتعاطف والبائع . فليمض الآن إلى حال سبيله ، أو بالأحرى أننى قد سجلت رقمه .

اشترى كلينا تاجر العبيد، ووضعنا فى أغلاله الطويلة، وألزمنا مؤخرة ركبه. التزمنا بالسير فى صف واحد، ومررنا نحو الظهيرة ببلدة كامبنيت، وقد بدا لى أنه من المفارقات الغريبة، أن يساق ملك إنجلترا ورئيس وزرائه، فى ذل، مكبلين بالأغلال

ضمن قافلة للعبيد، ويتحركان ويجلبان كما يتحرك ويجلب كل المكدودين من رجال ونساء، تحت نوافذ حافلة بالفتنة والجمال ، ولا يلتفت إليهما أحد، ولا يحظيان حتى بإشارة عابرة . ويحى ، فإن هذا لايوضح سوى أنه ليس ثمة فارق بين ملك وشريد البتة . إنه مجرد صورة منتحلة من الدونية والتشرد ، حين لاتعرف أنه ملك . لكن ويحى فبالكشف عن شخصيته، تجد أن مجرد النظر إليه يفقدك الوعى . أظننا جميعا حمقى . لا ريب فى أنا قد ولدنا هكذا .

الفصل الخامس والثلاثون

حادث مأساوى

ياله من عالم مملوء بالغرائب . اغتم الملك، وهذا أمر طبيعى . ولكن عليك أن تسأل عن السبب ؟ عجبت لطبيعة سقوطه الهائلة، من أعلى مرتبة إلى الأدنى ، ومن أكثر المواقع وزنا فى هذا العالم إلى أحقرها، ومن أرفع ما يحمل البشر من ألقاب ، إلى أحطها. لاأقول إن ذلك هو أكثر ما سبب الاكتئاب للملك، بل كان سبب همه وغمه، ما حققه من ثمن بخس ! بدا أنه لن يحقق أكثر من تلك الدولارات السبعة. صدمت بالفعل، حين عرفت السبب، ولم أستطع تصديقه، فالأمر هكذا ينحرف عن المسار الطبيعى للأشياء. ولكن بمجرد أن قلبت فى الأمر انجلت الغشاوة، أدركت أننى كنت مخطئا ، وأن الأمر هكذا لايخرج عن أن يكون طبيعيا. وسبب ذلك أنه ملك مجرد منتحل ، وأن مشاعره الأشبه بردود فعل دمية تتحرك آليا، منتحلة أيضا ، ولكنه بوصفه إنسانا، حقيقة لامرية فيها، يمتلك مشاعر إنسان، هذه حقيقة وليست خيالا . إن ما يخجل الشخص العادى، أن يقدر بأقل من قيمته الحقيقية، ومؤكد أن الملك لم يكن سوى شخص عادى، لو ارتقى إلى تلك المنزلة .

تأمله ، وقد أمضنى بالحجج، ليؤكد أنه فى أى سوق حرة أخرى ، كان ثمنه سيتجاوز الخمسة والعشرين دولارا، ومؤكد أن هذا هراء، ووهم صريح، فأنا نفسى لا أساوى تلك القيمة . لكننى كنت أعتبر النقاش معه حول هذا الأمر من باب الشفقة به. وكان علىّ فى الحقيقة أن أحول مجرى النقاش، وأتوخى الدبلوماسية فى المقابل. كان علىّ أيضا أن أنأى عن أى تذمر، وأن أوافقه على مضض، على أنه كان

ولابد وحتما أن يباع بالخمسة والعشرين دولارا، فى حين أنى كنت مدركا للأمر تمام الإدراك، أن العالم كله لم يشهد ملكا يعادل نصف تلك القيمة، ولن يشهد عبر الثلاثة عشر قرنا القادمة من يعادل ربعها . بلى، قد أمضنى بالفعل . لو بدأ الحديث فى شأن المحصولات الزراعية، أو حالة الطقس، أو الحالة السياسية، أو الهررة والكلاب ، أو السلوكيات، أو تحدث حول اللاهوت، فالأمر لايهم، فإننى أتنفس الصعداء، لأننى عارف بتبعة ذلك، مدركا أنه سيتخلى بعض الشيء عن أمر بيعه الممض، بسبعة دولارات .

أينما توقفنا، وحيث وجد حشد من البشر ، كان يرمقنى بنظرة تفصح بالآتى : " لو عاودنا المرور بهذه التجربة الآن، مع هؤلاء، سترى نتيجة مغايرة" . حقيقة أنه حين بيع فى المرة الأولى، شعرت فى داخلى ببعض الرضا جراء بيعه بالدولارات السبعة، لكنه حتى لا يتكدر، تمنيت لو يحقق المائة. لم تحن فرصة لإنهاء الأمر ، فكل يوم فى مكان أو آخر ، كان المشترون يتفحصوننا وصار المعتاد أن تكون تعليقاتهم على الملك شيئا من قبيل :

" أبله يساوى دولارين ونصف الدولار مع هيئة تساوى ثلاثين دولارا، غير أن الهيئة للأسف هى الرائجة ."

كان لهذا التعليق فى آخر الأمر مردود سيئ . فمالكنا وهو شخص عملى، قد أدرك وجوب الاستفادة من هذا الأمر لو كان يتطلع إلى مشتر للملك . هكذا مضى يعمل على فصل "الهيئة عن ملكيته الموقرة ". كنت أستطيع إسداء ما تيسر من نصح للرجل، ولكننى لم أفعل ، حيث ليس حريا بك أن تنصح تاجرا للعبيد، مالم تكن ترغب فى إفساد القضية المطروحة لنقاش. اكتشفت مدى صعوبة أن تحول ملكا إلى فلاح، حتى لو كان هذا الملك تلميذا مجدا مطيعا، أما الآن فالاضطلاع بالهبوط بهيئة الملك إلى هيئة فلاح وبالقوة الجبرية فهذا لايختلف عن سابقه ! إنها مهمة جليلة، لاتلق

بالا إلى التفاصيل ، فتخيلك لها سوف يعفينى من الإشكال . إننى أشير فحسب إلى أنه فى آخر الأسبوع، كان هناك ما يؤكد أن السوط والقبضة والهراوة، كان لها فعل السحر، حيث صار جسد الملك عبرة لمن يعتبر، أما للنحيب عليه فاسأل عن معنوياته ؟ الغريب أنها لم تتأثر بشيء قط. حتى إن تاجرا للعبيد بغبائه الواضح، استطاع أن يدرك أن الإنسان سيظل إنسانا رغم ما يوصم به من عبودية ، فيمكنك تحطيم عظامه، لكنك تعجزعن محو إنسانيته. لاحظ الرجل عجزه عن النيل من الملك منذ بداية سعيه فى هذا الأمر حتى النهاية ، بل كان الملك على استعداد للتفوق فى ذلك على تاجر العبيد، وقد فعل . لذلك استسلم الرجل للأمر فى نهاية المطاف، وترك الملك على هيئته دون أن يمسها التلف. الحقيقة أن الملك فى ذلك قد تفوق على نزعاته بوصفه ملكا، فكان بشرا عاديا، وحين يكون الإنسان إنسانا، فإنك لن تستطيع النيل منه . وستعجز عن محو إنسانيته .

أمضينا شهرا عصيبا، نهيم فى الأرض جيئة ورواحا، ونعانى الأمرين . فما سبب ولع المواطن الإنجليزى بتجارة الرقيق ، وفى ذلك العهد بالتحديد ؟

سبب ذلك مليكه ولى النعم! أجل، فلكونه الأكثر لامبالاة ، صار هذا أكثر ولعا به. أصبح أكثر كراهية فى المؤسسة كلها للخوض فى شأن الرق. وهكذا جازفت بسؤال، كنت قد سألته إياه قبل سنوات وتلقيت منه إجابة قاطعة، حتى اعتقدت أنه ليس من الصواب، إثارة هذا الأمر دون موجب والسؤال هو: هل يقدم على إلغاء الرق؟

كانت إجابته قاطعة كالسابق، لكنها كانت هذه المرة رقيقة ، لم يكن لى أن أتطلع لسماع الأرق ، مع أن ماصاحبها من لعان كان من السوء، بسبب ماشابه من بشاعة ، ومع ما حوى أوسطه من ألفاظ مخلة ، كان الأفضل أن تتذيله، حيث مكانها الطبيعى.

صرت الآن مستعدا للفرار ومتأهبا له ، ولم يكن قد سبق أن واتتنى الرغبة فى الفرار فى أى وقت . كلا فإننى لاأستطيع التصريح بذلك . صحيح أننى كنت راغبا فى ذلك ، ولكننى لم أكن مهيأ لاغتنام الفرص النادرة ، و كنت دوما أنصح الملك بالعدول عنها . لكنها الآن، وياللغرابة، تحمل زخما مغايرا ! ربما تعادل الحرية أى ثمن يدفع فى سبيلها الآن . فكرت فى خطة، وتمسكت بها على الفور . صحيح أن الأمر كان يتطلب منا الأناة والصبر، بل الكثير منهما . كان يمكن للمرء التوصل إلى أساليب أسرع من هذه ، تتوفر فيها كل الشروط، لكنها ليست بأفضل منها، أو بالأكثر حيوية وإثارة، ولذلك قررت الاضطلاع بتنفيذ هذه . ربما نتأخر شهورا ، ولكن لايهم، فإما أن أنفذها، أو أدمر شيئا .

كنا نتعرض للمخاطر من آن لآخر . باغتتنا فى إحدى الليالى عاصفة ثلجية، وكان أمامنا ميل يجب أن نقطعه للوصول إلى القرية المزمع بلوغها. سرعان ما وجدنا أنفسنا نخوض فى السديم، فى ثلوج متحركة كثيفة . ولأننا لم نكن نتبين أمامنا شيئا أبدا، سرعان ما ضللنا الطريق. ساقنا تاجر العبيد بقوة السياط ، لأنه أدرك أن خطر الإفلاس يلاحقه، لكن ضربات سوطه لم تأته بغير الأسوأ، فقد ساقتنا بمنأى عن جادة الطريق، وعن أى مأوى نلجأ إليه. وكان علينا التوقف آخر الأمر، والسقوط تلقائيا فى مكاننا وسط الجليد . استمرت العاصفة حتى قرب منتصف الليل ، ثم توقفت . قضى اثنان من الضعفاء من الرجال وثلاث نساء، نحبهم خلال تلك الفترة، أما الآخرون فكانوا مهددين إما بالتحرك أومواجهة الموت. كان مالكنا لايفكر إلا فى نفسه. استنفر الأحياء، ودفعنا بغتة إلى النهوض ، وقام كل بلطم الآخر كى نستعيد النشاط ، وأعانت على ذلك كثيرا ضربات من سوطه .

طرأ الآن أمر جديد .سمعنا صراخا وعويلا، أعقبهما قدوم امرأة تهرول وتصرخ، وحين رأت الجماعة ، ألقت بنفسها بيننا، وناشدتنا الحماية . أتى جماعة من

الرعاع، يهرعون خلفها، يحمل بعضهم المشاعل، و ذكروا أنها ساحرة، تسببت فى موت عديد من الأبقار بآفة غريبة، وأنها مارست سحرها ، بعون من شيطان يتشكل فى هيئة هرة سوداء . تجمدت هذه المسكينة فى مكانها حتى بدا كأنها لاتمت للبشر بصلة، و قد تعرضت لضرب مبرح ، وسالت منها دماء غزيرة . أراد الدهماء حرقها .

فماذا تظن أن يفعل سيدنا التاجر الآن ؟ حين اقتربنا من هذه المسكينة لحمايتها، أدرك أن تلك هى فرصته . قال: احرقوها هنا، وإلا فلن تنالوا منها أبدا . تصور هذا ! كانوا راغبين فى ذلك . ربطوها إلى دعامة كبيرة، وأحضروا حطبا وكوموه حولها، وجاءوا بالمشعل، وسط صراخها ، وتوسلاتها، وهى تضم إلى صدرها فتاتين صغيرتين . ساطنا سيدنا المتوحش الجشع بسوطه، للتحلق حول العمود، كى نستدفئ ونستعيد حيويتنا، ونستعيد بالتالى قيمتنا السوقية، بنفس هذه النار التى ستزهق روح إنسانة، بل أم بريئة لم تلحق ضررا بأحد . كان هذا هو النوع الذى ينتمى إليه سيدنا وقد احتفظت برقم هاتفه ، لقد كلفته العاصفة الثلجية، تسعة من قطيعه، فصار أكثر وحشية من ذى قبل ، وظل يندب حظه لعدة أيام بعد ذلك .

لم ننقطع طوال الطريق عن التعرض للأخطار . سرنا فى أحد الأيام فى موكب، وأى موكب ! بدا أنه يضم كل رعاع المملكة، وقد أدمن الجميع ذلك. وضع نعش على عربة يد صغيرة داخل عربة كبيرة ، وقد جلست فوقه فتاة مليحة، تقارب الثمانية عشر من العمر، ترضع طفلا، وتضمه إلى صدرها بين وهلة وأخرى بلهفة شديدة، وتجفف من وقت لآخر ما تساقط على وجهه من عبراتها ، فيبسم لها هذا الشيء الصغير البريء، فى سعادة ورضا ، مجبلا بيده البضة صدرها، فتربته وتضمه إلى قلبها الكسير .

سار رجال ونساء وصبية وفتيات، بجوار العربة أو خلفها، يشيعونها بصيحات الاستهجان ، أو يرمونها باللعان، ويغمزونها بألفاظ بذيئة، وينشدون مقاطع من أغنية بذيئة، ويصخبون ويطفرون، بأفعال شيطانية، فى مشهد مغث . بلغنا

حيا من أحياء لندن، يقع خارج الأسوار، وهو أحد شرائح المجتمع اللندنى ، ثم وفر لنا سيدنا مكانا طيبا قريبا من المشنقة .

كان الراهب حاضرا، حيث أعان الفتاة على الصعود، وتلا لها عبارات مطمئنة، ثم طلب من نائب العمدة إعداد كرسى مستو لها . وقف بجوارها فوق سارية الشنق، ونظر لوهلة إلى الحشد الذى لم يحول أنظاره عن قدميه، ثم نظر إلى إفريز كثيف من الرؤوس المتلاحمة، امتد على كل جانب، و شغل كل الأماكن ، القريب منها والبعيد، وبدأ الرجل تلاوة حيثيات القضية . حمل صوته نبرة إشفاق قل أن تجدها فى تلك الأرض الغاصة بالجهالة والوحشية ! أتذكر كل ما ورد فيها قرأه من تفاصيل، عدا كلمات قالها ، سأغيرها بكلمات من عندى :

" وضع القانون ليحكم بالقسطاس . إنه يفشل فى ذلك أحيانا ، ولا حيلة فى ذلك . وليس لنا سوى أن نأسى، ونسلم بالواقع ، ونصلى من أجل تلك المخلوقة ، التى وقعت ظلما تحت طائلة القانون ، و لعل هؤلاء قلة . صحيح أن القانون سيزهق روح هذه الشابة المسكينة. لكن قانونا آخر قد اختارها تحديدا لارتكاب الجرم، وإلا تعرضت للفاقة مع الرضيع، وهذا القانون مسئول أمام الله عن الحالتين، ارتكابها الجرم وموتها المأساوى ".

" منذ فترة قصيرة، كانت هذه الشابة، ابنة الثمانية عشر ربيعا، كانت زوجة سعيدة، وأما شأن أى أم فى إنجلترا، تترنم شفتاها بألحان، هى الحوار الأصيل لأصحاب الأفئدة السعيدة والبريئة. كان زوجها الشاب ينعم بما تنعم به من سعادة، لأنه كان يؤدى واجبه كاملا، فيعمل فى حرفته صباح مساء، ليكسب قوته بشرف وإباء، ولينعم بعيش رغد، ويوفر المأوى ومستلزمات الحياة لأسرته، ويساهم بنصيبه فى دخل الأمة . سرعان ماحل الدمار ببيته، وأصابه الخراب، تحت سمع وبصر قانون غادر! تعرض هذا الزوج الشاب لهجوم وأكره على الذهاب للخدمة فى الجيش . لم

تعرف الزوجة بما حدث له .بحثت عنه فى كل مكان، وحركت أقسى القلوب مناشدة إياها بالعبرات، وهى الخطاب البليغ المعبر عن يأسها . مرت أسابيع، وهى تنتظر ، وتترقب، وتأمل، وبدأ عقلها يطيش رويدا، فى ظل ما تعانيه من بؤس . ضاعت ممتلكاتها تدريجيا فى سبيل الاقتيات . حين بلغ الأمر حد العجزعن سداد الإيجار، طردت من مسكنها ، وتسولت الآخرين، وكانت بكامل عافيتها وهى تواجه الفاقة، ثم جف لبن الرضاعة آخر الأمر، فسرقت قطعة قماش من الكتان تعادل ربع السنت، لتبيعها، إنقاذا للطفل، لكن بائع القماش ضبطها .

وضعت فى السجن، وقدمت للمحاكمة . شهد الرجل بالوقائع، وقدم عنها التماسا بالعفو، ورويت الحادثة نيابة عنها . تحدُثت بدورها بعد أن سمح لها بالحديث ، فأقرت بسرقة القماش، غير أنها أرجعت ذلك كله إلى أن ما لفها من اضطراب فى الأيام الأخيرة ،نتيجة ما تعرضت له، وما عانته من جوع لفترة طويلة ، قد سيطر على عقلها دون إدراك منها لدافع إجرامى أو سواه، بحيث لم تعد تميز الخطأ من الصواب، عدا أن الطوى قد استحوذ عليها ! تأثر الجميع فى البداية لحالها، ومالوا إلى طلب الرأفة بها، آخذين فى الاعتبار ما تعانيه من عزلة و قلة حيلة، وحال يستحق الرثاء، وأن القانون الذى استلب منها معينها، هو الملوم فى المقام الأول، وهو المتسبب فيما حاق بها من ظلم، لكن ممثل الادعاء رد بأنه رغم صحة هذه الأشياء، فضلاعن إثارتها للرثاء، فإنه ما زال هناك كثير من صغار اللصوص فى هذه الأيام، وأن استعمال الرأفة هنا قد يعرض الممتلكات للخطر ... أوه ، ياإلهى، أليس هناك ممتلكات فى البيوت التى خربت، وأطفال تيتموا، وقلوب تحطمت ، يجب أن يحافظ عليها القانون البريطانى ! ــ ولذلك كان حتما عليه أن يطالب بالإعدام.

" حين يعتمر القاضى قلنسوته السوداء، ينهض بائع الأثواب من مكانه مرتجا، ترتعد شفتاه، ويصير وجهه من الشحوب كالرماد، وحين ينطق بالكلمات الرهيبة، تراه وقد صرخ، "أوه ، ياللطفل المسكين، لم أكن أعرف أن الأمر يصل إلى حد

الشنق!" ثم يهوى على الأرض كما تهوى الشجرة . وحين يعينوه على النهوض، تكون مراجعته نفسه، قد ذهبت أدراج الرياح ، فيقدم على الانتحار قبل أن تغرب شمس النهار. رجل شفوق، سليم الطوية ، يضم مقتله إلى ما يقع فى هذا المكان، و يشير بأصابع الاتهام إلى الاثنين- حكام هذا البلد، والقوانين البريطانية المستبدة . لقد حان الوقت ياابنتى ، فدعينى أصلى عليك، وليس لك، يا ذات القلب الآثم البريء والمحطم، ولكن من أثموا بدمارك وقتلك، هم بحاجة إليها أكثر منك " .

بعد أداء صلاته، وضعوا أنشوطة حول عنق الفتاة، وواجهوا صعوبة كبيرة فى تثبيت العقدة تحت أذنيها، لأنها كانت متشبثة بالطفل طوال الوقت، تقبله بحرارة، وتضمه إلى وجهها وصدرها، وتغرقه بعبراتها، وتنطلق مابين عويل وصراخ، فيصيح الطفل ويضحك، ويضرب بقدمه فى ابتهاج ما يظنه لهوا. حتى الجلاد لم يطق المشهد، فأشاح عنه ببصره. حين صار كل شيء معدا، جذب الراهب الطفل برقة ، وانتزعه من بين ذراعى أمه، وخطا مبتعدا عنها ، لكنها مدت ذراعيها، وجمحت نحوه صارخة، إلا أن الحبل ، ونائب العمدة.،حالا بينها وبين ذلك، فجثت على ركبتيها، تمد ذراعيها وتصيح :

" قبلة أخرى، أوه ، قبلة واحدة ، واحدة فحسب، يلتمسها المقبل على الموت ".

نالت مطلبها، وكادت تخنق الرضيع . هتفت ،حين انتزعوه منها مجددا :

" آه يا صغيرى ، يا حبيبى، لسوف يلقى حتفه، حيث لامأوى له ولا أب، أو أم أو خل.. "

قال الراهب الصالح :

" بل له كل هذه ! سأوفرها كلها له حتى أقضى نحبى ".

كان حريًا أن ترى تعبيرات وجهها فى تلك اللحظة ! إنها مشاعر الامتنان ! ياإلهى، كيف لبشر أن يعبر عن هذا بالكلمات ؟ فما الكلمات إلا نيران مطبوعة، إن نظرة واحدة لهى النيران ذاتها. ها قد ألقت بهذه النظرة ، وحملتها إلى خزائن السماء، حيث تؤوب كل الأشياء .

الفصل السادس والثلاثون

صـــدام فى الظـــلام

إن لندن فى نظر العبيد، مكان خلا تماما من البهجة. فهـى عنـدهم مجـرد قريـة ضخمة ، غارقة فى الوحل ، غاصة بالأكواخ . شوارعها موحلة، متعرجة وغير معبدة. آهلوها حشود من الرائحين والغادين ، من لابسى الأسمال أو الرافلين فى النعيم، من أصحاب الدروع البراقة والريش المائـل. للملـك قـصر فيهـا ألقـى عليـه نظـرة مـن الخارج، ما تسبب فى تحسره، أجل تحسره وإطلاقه بعـض اللعنـات، بطريقـة صـبيانية ساذجة، شاعت فى القرن السادس . رأينا من عرفناهم مـن الفرسـان، والنـبلاء، ولم يعرفوننا هم بسبب ما كان علينا من أسمال، وما يغشانا من وضر، ومـا لم ينـدمل فينـا من كدمات وجروح أحدثتها ضربات السوط ، وما كانوا ليعرفوننا ، حتى لو هتفنـا بهم، أو يتوقفوا للرد على علينا، حيث يحظر القـانون التحـدث إلى عبيـد يرسـفون فى الأغلال . كانت ساندى منى على بعد عشر ياردات، تركب حمارا، تخيلت أنها تبحـث عنى . لكن ما أصاب قلبى فى الصميم، هو ما كـان يجـرى أمـام مـسكننا القـديم فى إحدى الساحات، فقد تألمنا لرؤية رجل يغلى فى الزيت حتـى المـوت، بـسبب تزييفـه بنسات نقدية. وهناك على مرمى البصر بائع الجرائد ، الذى لم أستطع لفـت انتباهـه ! شيء واحد بعث فى نفسى الطمأنينة، وهو وجود ما دل على أن كلارنس، ما زال عـلى قيـد الحيـاة، مـستمتعا بكامـل عافيتـه . رغبـت أن أكـون معـه الآن، وكـان خـاطرا مفعما بالبشر .

كنت ذات يوم قد لمحت شيئا أسعدنى ، إنه السلك الممتد من أسقف البيوت. من المؤكد أنه سلك البرق أو الهاتف . تمنيت كثيرا لو أن لدىّ قطعة منه . ذلك ما كنت تحديدا بحاجة إليه ، ليعيننى على تنفيذ خطة الهرب . كانت فكرتى هى أنه للإفلات مع الملك فى إحدى الليالى ، علينا أن نكمم سيدنا ، ونشل حركته، ونبدل ثيابنا بثيابه، ونجعله فى هيئة أحد الغرباء، ونحكم قيده فى الأغلال مع العبيد، ونزعم امتلاكه ، ونتجه إلى كاميلوت، و..

وحين تتأمل خطتى ستدرك ما أعددت من مفاجأة مأساوية صادمة داخل القصر. كان يمكن لذلك أن يتحقق بسهولة ، لو أن لدىّ مجرد قطعة رفيعة من الحديد، يمكن تشكيلها لتكون أداة لفتح الأقفال، يمكننى حينئذ أن أعالج بها تلك الأقفال التى أحكمت بها أغلالنا ، فى الوقت الذى أختار .

لكن التوفيق لم يحالفنى البتة، ولم يحدث أن صادفت فى طريق مثل هذا الشيء. ورغم ذلك واتتنى الفرصة أخيرا. هناك أحد السادة،.كان قد ساوم من قبل على شرائى مرتين وفشل، ولم يقترب من الثمن المعروض، وهذا السيد قد عاد مجددا. لم أكن أتوقع أبدا أن أكون ملكا له ، لأن الثمن المعروض ، منذ لحظة دخولى فى العبودية، كان مغاليا فيه، وكان دوما يثير الغضب أو السخرية ، فقد كان سيدى متمسكا بالثمن المعروض، وهو اثنان وعشرون دولارا. لم يتراجع عن سنت واحد من الثمن. تعجب الملك من ذلك كثيرا، حيث كانت هيئته الضخمة، وشكله الملكى، لايعملان لصالحه، فيصعب بذلك بيعه، لأن أحدا لايرغب فى هذا النوع من العبيد . اعتبرت نفسى بمأمن من الافتراق عنه، لأن ثمنى كان مغاليا فيه. فلم أتوقع اللحاق بهذا السيد، الذى تحدثت عنه، لكنه كان لديه ما يجعلنى أتوقع أن ينضم هو إلىّ، قريبا لو أكثر من زيارتنا فحسب. كان لديه شيء من الفولاذ، ملحق به مشبك طويل، مثبت

فى قطعة من ثوبه بارزة على السطح. كان هناك ثلاثة منها. أفلتنى مرتين، ولم يقترب منى إلى الحد الذى يجعلنى أحقق هدفى دون مخاطر، لكننى نجحت هذه المرة، حيث استوليت على أحد المشابك الثلاثة، و حين يكتشف ذلك سيظن أنه فقدها فى الطريق.

أتانى شعور بالفرح لوهلة، تلاه شعور بالأسى مجددا . لأن شرائى حين صادفه الفشل كالعادة ، تحدث سيدنا بغتة، وقال بإنجليزية حديثة :

" سأقول لك ما قررته بهذا الخصوص . لقد سئمت من إعالة هذين دون انقطاع . هات الاثنين والعشرين دولارا مقابل هذا، وسأتخلص من الآخر " .

احتبست أنفاس الملك ، وانتابه غضب شديد . بدأ يشعر باختناق وكبت، فى اللحظة التى مضى فيها التاجر والسيد، يتحاوران .

" وستبقى العرض متاحا .. "

" متاحا حتى الغد وفى نفس هذه الساعة " .

قال السيد بعد أن توارى عن المكان ، والتاجر يتبعه :

"سأرد عليك إذن فى تلك الساعة ."

أتيحت لى فرصة تهدئة الملك، و اغتنمتها . .

همست بهذا فى أذنه :

" ستمضى جلالتك دون مقابل وكذلك أنا ، ولكن بطريقة أخرى . سوف ننال حريتنا الليلة "

" آه ! كيف ؟ "

" بهذا الذى اقتنصته منه. سأفتح به هذه الأقفال وأتخلص من الأغلال الليلـة. حين يأتى فى التاسعة والنصف، ليتفقدنا بالليل، سنمسك به، ونكـتم صوته،ونـضربه بقسوة، وفى الصباح الباكر نغادر هذه البلدة، بوصفنا مالكين لقافلة العبيد هذه. "

كان ذلك أقضى ما استطعت عمله، بل إن الملـك أحـب الفكـرة واقتنـع بهـا . ترقبنا فى تلك الليلة فى أناة ذهاب العبيد فى النعاس، ووضوح ذلك بالإشارة المعتـادة، حيث يجب ألا يراهن المرء كثيرا على أولئك البؤساء، حـين يمكنـه تجنـب ذلـك . إن أفضل ما تفعله الاحتفاظ بأسرارك فى داخلك . لاشك أنهـم ربـما تقلبـوا فى نـومهم كالعادة ، لكن الأمر لم يبد لى عـلى هـذا النحـو . فقـد تـراءى لى أنهـم سـيظلون عـلى شخيرهم المنتظم هذا إلى الأبد. كنت كلما تقدم الوقت، أخشى كثيرا ألا يتبقى منه مـا يسعفنا، لذلك قمت بمحاولات سريعة عدة ، وأرجأت بـذلك أشـياء أخـرى، لأنـه يبدو أننى لاأستطيع أن أمس قفلا واحدا هنـاك فى الظلمـة، دون أن أحـدث جلبـة، تقطع على النائم سباته، فيتقلب فى مكانه ويوقظ أحدهم.

لكننى كنت فى النهاية قد تخلصت من آخر قيـودى الحديديـة ، وصرت مجـددا بكامل حريتى. تنفست الصعداء، واقتربت من قيود الملك ، لكن بعد فـوات الأوان ! فقد دخل التاجر فى تلك اللحظة، يحمل شمعة فى يده ، وهراوته الغليظة التى يتكـئ عليها فى يده الأخرى . زججت بنفسى وسط الناعمين بالغطيط ، لأوارى تخلصى من الأغلال ، وظللت أتطلع إليه بقوة وأعد للانقضاض على الرجل لحظة انحنائه نحوى.

لكنه لم يقترب. توقف، وحدق دون مبالاة فى كتلتنـا البـشرية الداكنـة لوهلـة، وبدا منشغلا بأمر آخر ، ثم وضع الشمعة ، وتحرك نحو الباب منـشغلا بهـذا الأمـر ، وقبل أن يتخيل إنسان ، ما هو مقدم على فعله ، كان قدخرج من الباب وأغلقه خلفه . قال الملك :

" ناده بسرعة . أحضره ثانية "

كان هذا بالطبع ما يجدر فعله، نهضت فى التو وأسرعت بالخروج . ولكن للأسف، كانت هناك ندرة فى المصابيح تلك الأيام، وكانت الليلة ظلماء . لكننى لمحت جسما معتما على بعد خطوات منى. فسعيت نحوه، وانقضضت عليه، ووقعت أمور جد مثيرة ! التحمنا فى عراك ، وتدافع بالأرجل، ومقاومة، فانتبه إلينا على الفور حشد العبيد. تركز انتباههم فى متابعة فى العراك،

نلنا تشجيعهم، ولم يكن لشيء أن يبث فيهم بهجة أو حماسا أكثر من ذلك، لوكانوا أطرافا فى الشجار. انطلق خلفنا فاصل من الزجر الشديد ، وتركنا سريعا أكثر من نصف جمهورنا تجاوبا وهذا الزجر. بدا اهتزاز مشاعل المناوبين من الحراس فى كل اتجاه، وجاءوا مهرولين من كل حدب وصوب . هوت على الفور هراوة غليظة فوق ظهرى، على سبيل الإنذار ، ففهمت مدلولها، واحتجزت لديهم، وكذلك خصمى، واقتدنا إلى السجن، كل إلى جانب حارسه . هكذا وقعت الكارثة، وذهبت خطتى بغتة أدراج الرياح ! حاولت تخيل ما سيحدث، حين يكتشف التاجر أننى الطرف الذى تعارك معه، وتخيل ما سيعقب ذلك، إذا ما زجوا بنا فى سجن واحد، يضم من المجرمين من احترف خرق القانون، وما عسانا ..

التفت خصمى فى اتجاهى، فأضاء وجهه بصيص من ضوء مشعل الحارس الذابل، وأقسم بجورج أنه لم يكن هو تاجر العبيد !

الفصل السابع والثلاثون

مـــــأزق رهيـــــــب

أيغشانى نعاس؟ كلا، مستحيل ! استحال ذلك بالطبع في وجار سجن مزعج، يفوح فيه عطن المخمورين ، ومن جُبل من الأوغاد على التشاجر، والصخب . لكن ما جعل الرقاد بعيدا عن تصوريّ ، لهفتى الشديدة، إلى مغادرة هذا المكان، ومعرفـة مـا وصلت إليه الأمور هناك، فى سكنى العبيد، بعد كل ما واجهته من فشل ذريع .

كانت الليلة طويلة، وكان لابد فى النهاية من انبلاج الصبح. قدمت للمحكمـة شرحا وافيا شافيا بالواقعة . ذكرت أننى أحد العبيد ، وأننى مملوك لسيد عظيم الشأن، كان قد وصل بعد حلول المساء مباشرة إلى نزل تابارد، فى القرية الواقعة عـلى الجانـب الآخر من النهر، وتوقف هناك فى تلـك الليلـة مجبرا، لأنـه أصـيب بمـرض مفـاجئ وغريب . أمرت بالذهاب إلى المدينة على عجل، وإحضار أفضل طبيب ، وكان علىّ أن أبذل ما وسعنى من جهد، فانطلقت طبعا بكل قواى ، وكان الظلام حالكا، فكان أن اصطدمت بهذا الشخص غير المهذب ، الذى أمسك بعنقى، وشرع فى لكمى، مع أننى أخبرته عن وجهتى، ورجوته، بأن حياة سيدى الإيرل الكبير معرضة للخطر ..

تدخل الحقير، ورمانى بالكذب، ومضى يشرح كيف انقضضت عليه، وهاجمته على حين غرة ..

قال القاضى :

" صه، ياسيد ! خذه من هنا، واضربه بالسوط، كى يتعلم فى المرة القادمة كيف يتعامل مع عبد لأحد السادة ، بطريقة مغايرة . هيا ! "

اعتذرت المحكمة، ورجتنى ألا أنسى ، إبلاغ صاحب السيادة ، بأن ما حدث من أمر رهيب لم يكن للمحكمة يد فيه. فذكرت أننى سأعالج المسألة ، وهممت بمغادرة المكان، وكان ذلك فى الوقت المناسب ، إذ بدأ القاضى يسألنى عن سبب عدم الإفصاح بذلك لحظة اعتقالى. فذكرت أننى كنت سأفعل لو أن ذلك قد طرأ ببالى ، وهذا جد صحيح، لكننى بوغت بضربات هذا الرجل، و طاش صوابى آنئذ، ودواليك، دواليك ، وهكذا انسحبت مسرعا وأنا لا أزال أغمغم .

أطلقت لساقى العنان ، ولم أنتظر لتناول الإفطار. وصلت سريعا إلى سكنى العبيد . لم أجد أحدا هناك ، فقد رحل الجميع ! رحلوا جميعا عدا جثمان تاجر العبيد فحسب. تبين أنه عانى آلام ضرب مبرح. كان هناك مايؤكد حدوث شجار عنيف. وضع نعش عريض ضخم على عربة، عند الباب ، وكان عمال بمساعدة الشرطة، يفسحون طريقا وسط الحشد المحيط ، حتى يتمكنوا من إدخال النعش .

التقطت أحد الأسافل كى يتعطف على مثلى بالحديث، فأستقى منه ما حدث .

" تجمع ستة عشر عبدا. ثاروا على سيدهم، فى الليل، وهاأنت ترى نتيجة ما حدث ".

"أجل ، ومتى بدأ ذلك ؟"

" لم يكن هناك شهود غير العبيد . قالوا إن العبد الأغلى ثمنا ، قد فك قيوده، ولاذ بالفرار، بطريقة مريبة، يعتقد أنه استخدم فى ذلك نوعا من السحر، لأنه لايملك مفتاحا، و الأقفال لم تكن محطمة، أو لم تمس بضرر على أى نحو. حين اكتشف السيد خسارته، فقد صوابه من اليأس، وانقض على رجاله ضربا بهراوة غليظة، فتصدوا له، وكسروا عنقه، وأوقعوا به بطريقة أو بأخرى أذى كبيرا ، سرعان ماأودى إلى هلاكه ".

" هذا فظيع . لاشك أن ذلك سيلحق بالعبيد ضررا بالغا، أمام القضاء " .

" عفوا، لقد انتهت المحاكمة " .

" حسمت ؟"

" أ تظنها تستغرق أسبوعا ؟ كلا فالأمر جد بسيط . لقد استغرق الأمر من المحكمة نصف ربع الساعة فحسب " .

" عجبا ، إننى لا أدرك كيف استطاعوا حسمه فى هذا الوقت القصير " .

" تقصد من ؟ إنهم لايستندون فى حقيقة الأمر ، إلى تلك الحيثيات . ألا تعرف القانون ؟ ذلك الذى يقول عنه الناس، إن الرومان قد رحلوا وخلفوه هنا بعد رحيلهم ، حتى إنه إذا قام عبد بقتل سيده، فلابد من قتل كل عبيد هذا السيد ."

" صحيح . لقد نسيت هذا، ومتى يشنق هؤلاء إذن ؟"

" خلال أربع وعشرين ساعة على ما أظن، لكن البعض يقولون، إنهم سيبقونهم ليومين قادمين، لو حدث أن عثروا على العبد المفقود " .

العبد المفقود ! أصبت بقلق شديد .

"أمرجح عثورهم عليه ؟"

"أجل قبل انقضاء النهار . إنهم يبحثون عنه فى كل مكان . يقفون على بوابات المدينة، بصحبة بعض العبيد ، الذين سيتعرفون عليه حال قدومه، ولا قبل لأحد بالمرور دون التحقق منه أولا " .

" هل يستطيع أحد معرفة المكان المحتجز فيه الباقون " .

"أجل، من الخارج.. لأن الداخل.. لكنك لن ترغب فى رؤيته ."

حصلت على عنوان ذلك السجن، للاستدلال به، ثم سرت وئيدا. دخلت فى بادئ الأمر، حانوتا يبيع الثياب المستعملة، يقع بأول شارع فرعى، وحصلت منه على ثوب قديم خشن، يناسب نوتيا حقيرا ، يزمع السفر فى رحلة بحرية باردة ، وعصبت وجهى بعصابة كبيرة، زاعما أننى مصاب بألم فى الأسنان ، فأخفت العصابة ما بى من خدوش سابقة . أحدث هذا تحولا، ولم أعد على هيئتى السابقة . بدأت أبحث عن ذلك السلك، وعثرت عليه، وتتبعته حتى مكمنه. كان غرفة صغيرة ، تقع فوق حانوت جزار، ما أشار إلى أن العمل لا يسير بنشاط فى خط التلغراف. كان الشاب الصغير القائم على الخدمة، يغط فى نعاسه فوق طاولة. أغلقت الباب، ووضعت مفتاحه الكبير فى صدرى. تقلقل الشاب جراء ذلك، وبدأ يثير جلبة ، لكننى قلت له :

" حسبك، لو أنك فتحت فمك فإنك هالك لامحالة . أعد آلتك الآن للعمل . والآن هيا ! استدع كاميلوت ."

" إننى منك فى حيرة ، كيف يتسنى لمثلك أن يعرف بمثل هذه الأمور .. "

"استدع كاميلوت ! فأنا شخص متهور . استدع كاميلوت، أو ابتعد عن هذه الآلة ، سأفعل ذلك بنفسى " .

" ماذا ـــ أنت ؟"

" أجل يقينا . توقف عن الثرثرة .استدع القصر " .

أجرى المكالمة .

" استدع كلارنس الآن " .

" كلارنس، من ؟ "

" لايهم من . قل إنك تريد كلارنس . وستتلقى ردا " .

فعل ما أمر به . انتظرنا خمس دقائق مثيرة للقلق، عشر دقائق، كم بدت طويلة، ثم صدرت رنة ، مألوفة لدىّ كأصوات البشر ، كان كلارنس تلميذا نجيبا كما عهدته،

" أخل مكانك يافتاى! فربما كانوا لايعرفون إشارتى ، ولكن استدعاءك لهم كان صحيحا . إلا أننى الآن بخير " .

قام من مكانه، وأرهف سمعه، لكنه لم يفلح ، لأننى استخدمت شفرة معينة . لم أضيع وقتا فى المجاملات، مع كلارنس، لكننى شرعت فى العمل مباشرة، هكذا :

" الملك هنا، يواجه خطرا محدقا . لقد أسرنا، وجلبنا إلى هنا على أننا عبدان . لم نستطع بالطبع الكشف عن هويتينا، والحقيقة أننى فى موقف يحول بينى وبين ذلك . أرسل برقية من عندك إلى القصر هنا، تتضمن حقيقة ذلك " .

جاء رده المباشر كما يلى :

" إنهم لايعرفون شيئا بشأن الرسائل البرقية ، حيث لم يكتسبوا خبرة التعامل بها بعد، وخط لندن جد جديد . الأفضل ألا نخاطر بذلك . فربما يعمدون إلى شنقك، فكر فى وسيلة أخرى " .

ربما شنقوا كلينا أنا والملك ! إنه يجهل خلطه للأمور . لا أستطع التفكير فى شيء الآن . واتتنى فكرة، وشرعت على الفور فى تنفيذها:

" ابعث بخمسمائة من خيرة فرساننا، وعلى رأسهم لونسيلوت، وذلك على وجه السرعة " .

" واطلب منهم الدخول من البوابة الواقعة فى غرب الجنوب، وابحث عن رجل يلف ذراعه الأيمن بقماشة بيضاء " .

جاء الرد سريعا :

" سيبدأون فى التحرك خلال نصف ساعة من الآن " .

" أحسنت ، كلارنس، قل للشاب الذى يعمل هنا الآن ، إننى صديق فضولى، وأن عليه ألا ينطق بكلمة، بشأن زيارتى هذه ."

بدأت الآلة تتحدث إلى الشاب، وأسرعت أنا بالرحيل . بدأت حساب الوقت. فبعد نصف ساعة من الآن تكون التاسعة. لن يتمكن الفرسان ذوو الدروع الثقيلة والجياد السفر بالسرعة المطلوبة. يمكن لهؤلاء تحقيق الزمن الأفضل بقدر استطاعتهم، والأرض الآن فى حالة طيبة، بخلوها من الجليد أو الوحل، ويحتمل أن يقطعوا مسيرة تسعة أميال، وعليهم أن يبدلوا الجياد مرتين، وقد يصلون فى السادسة أو بعدها بقليل، ولا يزال فى النهار بقية، وسوف يتعرفون على قطعة القماش البيضاء التى سألفها حول ذراعى الأيمن، وبعدها أتسلم أنا قيادهم .

سوف نحاصر ذلك السجن، ونخرج الملك فى أسرع وقت . كانت كل الأمور تشير إلى أن يتم كل شيء بشكل استعراضى لافت، إلا أننى كنت أفضل حدوثه وقت الظهيرة، لأنه كلما كان المشهد استعراضيا ، ازدادت أهميته.

رأيت أننى كى أكثر من البدائل المتاحة لى ، على البحث عمن عرفتهم فى السابق ، ثم أكشف عن هويتى. فذلك سيعين كلينا على الخروج من المأزق، بدون حضور الفرسان . لكنه حرىّ بى فى هذا توخى الحرص، فتلك مهمة محفوفة بالمخاطر. لذلك كان على التأنق فى ثياب لائقة ، إلا أن الوقت لن يسعفنى فى سرعة إحضارها وارتدائها. كلا، بل على أن أفعل ذلك بالتدريج، بشراء قطعة بعد أخرى، من الحوانيت البعيدة، وأن يفضل كل صنف منها سابقه حال التبديل ، إلى أن أرفل آخر الأمر فى الحرير والمخمل، وأكون متأهبا لتحقيق هذا الهدف البديل. هكذا بدأت التنفيذ .

لكن الخطة صادفت الفشل سريعا !تعثرت بغتة فى أحد زملائنا العبيد، عند أول منعطف مررت به، كان يتفقد المكان مع الضابط الذى يحرسه. سعلت على الفور، فباغتنى بنظرة ، آلمتنى حتى النخاع، أراه قد ظن بسماعه تلك السعلة من قبل، تحولت سريعا إلى حانوت وتوجهت رأسا إلى نضد البيع ، أساوم فى الأسعار، و أرنو إلى الخارج بطرف عينى . توقف هذان، وتبادلا الحديث، وعيونهما على الباب . فكرت فى الخروج من الباب الخلفى، لو تيسر ممر خلفى، فاستفسرت من البائعة عما إذا كان باستطاعتى الخروج من هناك، والبحث عن عبد هارب، يعتقد لجوؤه إلى مكان ما فى تلك الناحية ، وذكرت لها أننى أحد ضباط الشرطة السرية، وأن رفيقى واقف بالباب، مع متهم بالقتل، وأنها ستفعل خيرا لو ذهبت إليه وقالت له إنه ليس بحاجة إلى الانتظار، بل الأفضل أن يتجه فى الحال إلى نهاية الزقاق الخلفى، وينتظر هناك حتى ألحق به .

كانت متلهفة لرؤية قاتل شهير ، فبدأت مهمتها على الفور . تسللت إلى الممر الخلفى، وأوصدت الباب خلفى، ووضعت مفتاحه فى جيبى، وغادرت المكان، وأنا أضحك فى نفسى، وأشعر بالارتياح .

الحقيقة أننى قد غادرت المكان ، بعد أن أفسدت بنفسى تلك الخطة مجددا، مرتكبا خطأ آخر. كانا خطأين فى الحقيقة . لقد سنحت لى أساليب عديدة للتخلص من هذا الضابط، بأبسط الحيل وأنجعها ، لكن ذلك لم يحدث، فقد وقع اختيارى بالضرورة على أكثر السبل استعراضا ، إنه خلل فظيع فى تركيبتى الشخصية. رتبت أمورى على ما كان سيفعله الضابط تلقائيا، كونه بشرا، فى حين أنك حين تبنى توقعاتك على ذلك على أقل تقدير، فإن هناك شخصا سيمضى من لحظة لأخرى ، ويفعل تلقائيا ما لم تكن تتوقعه البتة. حيث إن ما كان سيفعله الضابط تلقائيا، وفى حالتنا هذه، هو الاندفاع فى أثرى مباشرة ، فيجد بابا بلوطيا سميكا، مغلقا بإحكام،

يحول بينه وبينى، وقبل أن يقدم على تحطيمه، أكون قد لـذت بـالفرار، و الـدخول فى سلسلة تنكرية كاملة، أسرع خلالها بارتداء ما يجعلنى من الثيـاب فى مـأمن تـام مـن مطاردة المتطفلين من رجال القانون فى بريطانيا ، وذلك لا علاقـة لـه بـأى قـدر مـن السذاجة والبراءة فى الشخصية . ولكن بدلا من أن يسير الأمر مساره الطبيعى، التزم الضابط بما قلته للبائعة ، ونفذ تعليماتى حرفيا . وهكذا فـإننى حـين لـذت بـالفرار ، مغبطا حنكتى، دار هو بـالمنعطف، ووقعـت مبـاشرة فى قبـضته . ولـو كنـت أعـرف بالمأزق، ما كنت وقعت فى خطأ فادح هكذا، فدع الأمر يمر مـرور الكـرام، ودعـه فى ميزان الربح والخسارة .

حنقت لما حدث بالطبع، وذكرت له أننى وصلت للتو إلى الشاطئ مـن رحلـة بحرية طويلة، وأشياء من هذا القبيل، وذلك كما ترى لكى أتحقق من أن ما ذكرت قـد ينطلى على العبد المرافق. لكن ذلك لم يتحقق لى ، إذ عرفنـى عـلى الفـور . فلمتـه عـلى فضحه أمرى . فغلبت الحيرة لديه الندم . مد بصره بعيدا، وقال :

" ماذا، أتريدنى أفلتك ، دون بقية الرجال، فتفر ولا تشنق معنا، فى حـين أنـك كنت السبب الوحيد فى تقديمنا إلى حبل المشنقة ! هيا "

"هيا" تلك طريقتهم فى الحديث، "يجـدر أن أبتـسم " أم " أميـل إلى ذلـك !" ويالأولئك الناطقين بالغرائب .

حسنا، كان يتخذ مبررا نفعيا فى تقديره للمسألة، لذلك صرفت النظر . إنك إذا لم تتمكن من معالجة مأزق بالحجة، فما فائدة الجدل ؟ لـيس هـذا أسـلوبى . ولم أجـد سوى أن أقول له :

"إنك لن تشنق، ولن يشنق أى منا " .

ضحك الرجلان ، وقال العبد :

" لم يعهد عنك حماقة من قبل . الأفضل أن تبقى على ما عهد منك ، وأن تدرك أن التوتر لن يطول أمده " .

" إننى أعتقد فى وفائى بما وعدت . سنكون محررين قبل الغد، فضلا عن أننا ستتوجه إلى حيث نشاء ".

رفع الضابط الساخر أذنه اليسرى بإبهامه، مخرجا من حلقه صوت حشرجة، وقال :

" محررون، أجل، حقا ما تقول . فضلا عن توجهكم إلى حيث تشاؤون، ولن تتخطوا حدود جهنم الخاصة بصاحب العزة الشيطان ".

احتفظت بهدوئى وقلت غير مبال :

" أظنك الآن تعتقد بأننا سنشنق خلال يوم أو اثنين " .

" اعتقدته منذ دقائق ، لكن القرار قد اتخذ، وأعلن عنه ."

" آه، ها قدغيرت رأيك ، أليس كذلك ؟"

" ذلك صحيح . كان الأمر حينئذ موضع ظنى، وأنا على يقين منه الآن ."

شعرت بميل إلى السخرية ،وقلت له :

" أوه، أيها الحصيف، عبد القانون، تعطف علينا وأخبرنا بما تعرف ."

"إنكم ستشنقون اليوم، فى منتصف ما بعد الظهيرة . أوهو ــ هو !ذلك بيت القصيد ! وثق بما أقول ! "

الحقيقة أننى كنت فى حاجة إلى من أتكئ عليه ! حيث لن يتمكن فرسانى من الوصول فى الوقت المحدد . فقد يتأخرون عن ذلك، بأكثرمن ثلاث ساعات . ولن يكون لشيء فى هذا العالم إنقاذ ملك إنجلترا، أو إنقاذى، وذلك هو الأهم . ليس

الأهم بالنسبة لى ، ولكن للأمة ، الأمة الوحيدة فى العالم التى تقف على مشارف الحضارة . شعرت بسأم . ولم أنبس بالمزيد، فليس هناك ما يمكن قوله . إننى أدرك ما يعنيه الرجل، ومفاده أنه إذا عثر على العبد المفقود، سيلغى التأجيل، وينفذ حكم الإعدام اليوم . مرحى، هاقد عثر على العبد المفقود .

الفصل الثامن والثلاثون

السير لونسلوت والفرسان قادمون للإنقاذ

بالقرب من الرابعة بعد الظهيرة ، كان المشهد خارج أسوار لندن تحديدا . كان ذلك اليوم من الأيام المفعمة بالهدوء والصفاء ، والشمس الساطعة، مايبعث فى المرء الرغبة فى الحياة، وليس الموت . ظهر حشد ضخم ، من مسافة بعيدة، ولم يكن لنا ، نحن الأشقياء الستة عشر صديقا واحدا بين هذا الحشد . كان مجرد التفكير فى هذا الأمر يؤلم النفس، وتصور هذا الوضع كما يحلو لك. كنا جلوسا هناك فوق منصة طويلة، وكنا موضع هذا الكم من الكراهية والتهكم من كل أولئك الأعداء ،وقد جعلوا منا أحد العروض الاحتفالية فى أيام الإجازات. خصصوا مكانا فخما للنبلاء وعلية القوم، وكان هؤلاء حضورا فى المشهد على قدم وساق ، وبصحبتهم نساؤهم . عرفنا الكثيرين منهم . انصرفت أنظار الجميع عن الملك بصورة غريبة وغير متوقعة . نهض مسرعا من مكانه ، بمجرد أن فكت أغلالنا، بما يرتدى من أسمال عجيبة، ووجه متورم، يحول دون معرفة شخصيته ، وأعلن بأنه آرثر ملك بريطانيا، وأن أقصى عقوبة ستوقع بكل الحاضرين لو مست شعرة واحدة فى رأسه . أجفله وأثار استغرابه، سماعه إياهم ، ينطلقون فى ضحك مدوٍ ، مما جرح كرامته، وجعله يلتزم الصمت، مع أن الحشد ناشده أن يواصل خطابه، كما سعى إلى إثارته بصيحات الاستهجان ، والسخرية والضحك، وهتافات الـ ...

"دعوه يتكلم ! الملك ! الملك ! إن البؤساء من رعاياه ، جياع وعطشى لعبارات الحكمة التى ينطق بها فيما سيدهم صاحب الجلالة الأشعث العظيم ."

لكن ذلك كله لم يغير من مسلكه. فقد ظل محتفظا بعظمته البادية ، وجلس ساكنا وسط سيل من التحقير والمهانة . كان عظيما بحق، فى سمته . أخرجت لفاعى الأبيض دون تردد، وربطته حول ذراعى اليمنى . حين لاحظ الحشد ذلك، التفتوا إلى وقالوا :

" لاغرو فى أن يكون هذا النوتى، وزيره، انظروا إلى الشارة الحاملة للرتبة السامية ".

تركتهم يواصلون ذلك حتى ملوا، وقلت :

" أجل أنا الزعيم، وزيره، وستسمعون ذلك من كاميلوت فى الغد حيث .."

لم أزد شيئا على ما قلت، حيث أمطرونى بعبارات التهكم المرير. لكن سرعان ما ساد صمت رهيب، لأن عمد لندن بملابسهم الرسمية وبرفقتهم مساعدوهم، قد بدأوا إحداث ما يشير إلى أن العمل على وشك البدء. تلى نص الدعوى خلال فترة الصمت التى أعقبت ذلك، وقرئ نص الحكم بالإعدام ، رفع الجميع قبعاتهم عندئذ، وتمتم راهب بصلاة .

عصبت عينا أحد العبيد، وأرخى الجلاد حبله. ترامى الطريق من أسفلنا، ونحن على جانب منه، واكتظت الحشود على الجانب الآخر . الطريق خال تماما، بعد أن قامت الشرطة بإخلائه، ولكم هو رائع أن أرى رجالى، أولئك الفرسان الخمسمائة، وهم يتقدمون عبره ! ولكن ذلك لم يحدث، فهو أبعد من كل الاحتمالات . تتبعت شريطه المترامى إلى بعيد، و لاوجود لفارس واحد فوقه، أو ما يشير إلى ذلك .

حدثت رجة عنيفة، وتدلى أحد العبيد من الحبل، أخذ يتلوى بشدة، لأن أطرافه لم تكن مقيدة .

تدلى حبل آخر، وتدلى معه فى لحظة عبد آخر .

ظل الثالث يقاوم فى الهواء، بصورة مروعة . أشحت بوجهى للحظة، وحين التفت لم أجد الملك، فقد كانوا يعصبون عينيه ! شلت أطراف ولم أقو على الحركة ، وتجمد لسانى، وكدت أختنق. انتهوا من ذلك، واقتادوه أسفل حبل المشنقة. لم أستطع تحريك هذا الشلل المتواصل. لكننى حين رأيتهم يضعون العقدة حول رقبته، تحركت كل جوارحى، وانطلقت لنجدته، وأثناء ذلك لمحتهم ـ وأقسم بجورج ـ قادمين من بعيد . يتقدمون إلى الأمام للهجوم ! خمسمائة فارس، بالدروع والأحزمة قادمون ، على دراجات !

مشهد عظيم لم يحدث من قبل . يا إلهى، يالتموج الريش، وضوء الشمس وانعكاسه ، من موكب لا آخر له من العجلات المعدنية !

لوحت بذراعى اليمنى ، حين أسرع لونسلوت بالدخول، عرفنى من شارتى البيضاء، حللت العقدة والرباط ، وصحت :

" فليبحث كل نذل فيكم على ركبتيه، ويحيى الملك ! ومن لايفعل، فسوف يتناول عشاءه الليلة فى الجحيم ! "

أستخدم دوما هذا الأسلوب الراقى ، حين أصل إلى ذروة انفعالى . كان رائعا بحق أن ترى لونسلوت والشباب وقد تجمعوا فوق تلك المنصة، و نحوا عنها أولئك العمد ومن على شاكلتهم.

ومن الرائع أن ترى أفراد ذلك الحشد المنبهر ، و قد خروا جثيا، وطلبوا العفو من ملك كانوا يهينونه للتو ويحقرونه . حيث وقف جانبا يتلقى بأسماله تلك، عبارات الإجلال والسمو، فطرأ ببالى فى الحقيقة، ما يظهرفى وقفة الملك خاصة من شموخ وفى طريقة سيره، بعد كل ما حدث . ارتحت كثيرا، وأنا أرى ما أسفر عنه الموقف الآن، وكان ذلك أروع ما حرك مشاعرى من مشاهد .

سرعان ما ظهر كلارنس بشحمه ولحمه ! يغمز بطرف عينه ، ويقول بأسلوب متحضر :

" مفاجأة كبرى ، أليس كذلك ؟ أدركت أنك ستحبها . كان الشباب يتدربون طوال الوقت فى السر ، وكانوا يتلهفون إلى فرصة لإثبات جدارتهم " .

الفصل التاسع والثلاثون

الشمالى ينازل الفرسان

عدنا ثانية إلى القصر فى كاميلوت . عثرت فى صباح ذلك اليوم ، أو الذى تلاه على الصحيفة، رطبة من ماكينة الطباعة، وجدتها على مائدة الإفطار بجوار صحن الطعام . بدأت بمراجعة الإعلانات، وأنا أدرك أننى سأعثر فيها على أمور خاصة بى. وكانت كالتالى :

دى بارلى روى

نعلم أن السيد الكبير، والفارس المعروف

السير ساجرامور الشهير بالتواق ،

سيتنازل وينازل وزير الملك، هانك مورجان،

الملقب بالزعيم ،بسبب ما لحق به من إهانة

من قبل، وسوف تجرى المنازلة ،على

الساحة المجاورة لحصن كاميلوت، صباح

السادس من الشهر القادم .

وسينتهى النزال بالضربة

القاضية، لأن الإهانة كانت

من النـــوع القاسى .

والصلح مرفـــوض.

دى بارلى لـ روى

كانت إشارة كلارنس إلى هذا الشأن الذى افتتح به العدد،

كالتالى "

انسحاب

وحيث أنن سيلاحظ ذلك بلمحة سريعة من خيبة أملنا جراء

العمل المذكور أن أعمدة الدعاية، وأن الناس لذلك ،وعلى الف

سيستمتعون متعة من نوع فريدور، ليس اثنان م

فى ساحة المبارزة .تضمن أسماء أتباعهما وقال آخ المتبارزين التسلية المطلوبة

يحظى بقدر الر

والعناية لايت

لهذا كان مالتسلية المطلوبة . سيفتح شـــباك رون، إنك ستزو

إزاء هذاالحجز فى ظهيرة اليوم الثالث عشر ود بها يستخ م في

ولكن ذلكوسعر الدخول ٣ سنتات، والم ويعمل و

لايمنع من إلتزقاعد المحجوزة ٥ سنتات، تقد م النـوع

الحيطة والحذإلى إيرادات المستشفى . سيـــكون الرسائل

لكل من الطر الملك والملكة وأفراد الحاشية منالمقدمـ

برعاية ثم بين الحضور . يمنع الحضور المجا بإتصا

الإقدام ع نى باستثناء الصحفيين، ورجال الدهم تح

فإنه يلين .بموجب هذا فإنه غير مسمـــوحأيضا أصدقاءلنا

الحيا.لهؤلاء بشراء تذاكر العامة ، ولن يق ويتـــــرك ال

للحكومة الح فيسمح بذلك عند البوابة . يعرف العبارات، كتـــلك و

ومنع كل ما من جميع الزعيم ويحبونه، كما يعرفونالذى كنت به تبتهـ

لو تسبب فى إلا السير ساجر،ويحبونه، فهلموا، وهـمنه، وذلك شأن داخ

وحاول قبل النا نمنح الشباب بشرى طيبة، تذكروا لى خاص بما تلى من

التراجع عن أن العمل لإقامة المستشفى المجـــانى توجـــيههم إلـــــــى

باحتمالينالكبير،يجرى على قدم وساق، وإن الالآن تحـــــت الإ

أولا : بار الكريم ،يمد يد العون، مدفوعا بالمجـــــالات كـــ

لكل طرف مشاعر القلبية، تجاه كل البؤساء، بصهؤلاء الشباب

مما له من حقوق رف النظر عن اللون أو الفصيلة، أو ال ذوى طوية نـ

خلال ثلاثين ساع العقيدة، أو الجنس ،فما وجد على الأرفى مناطق

وأن يبعث ممثض من خير ،لايوجه من معتنق سياسيى ليس لبناء

عن طلب الإط. بل يحض على أن يتدفق نهر الخيــــــريت ،وال

قبل هذا بأريفتعالوا وانهلوا منه ! مدوا الأيـــــــدى احت توج

وعلى الطر هلمو إلينا بالكعك المحلى، والأقراص الإليــــــــا

قبل طلومسكرة واقضوا وقتا ممتعا . الكعك متوفربمر شخص
باثنين اكز البيع ،والكراميل لقرمشته ،والليمونادة الم تونها
إلى أ المحلاة ــ ثلاث نقاط من عصير الليمون عليجتمع الذى
برميل من الماء .
ملحوظة :تعد هذه المبارزة الأولى ،والمقامةذهبوا تح
فى ظل القانون الجديد ،الذى يسمح لكل خصم يقول ذلك
باستخدام السلاح الذى يفضله . خذ فى اعتبارإرساليـا
يذكرإرس

لم يكن لبريطانيا كلها حديث منذ تلك الوقت ، إلا عن المبارزة القادمة . تراجعت أهمية ما عدا ذلك من شئون ، وتلاشت من عقول البشر واهتماماتهم، لا لأن المبارزة كانت على هذا القدر من الأهمية، ولم يكن ذلك أيضا بمناسبة عثور السير ساجرامور على الكأس المقدسة، أو فشله فى العثور عليها، وليس لأن الشخصية الرسمية الثانية فى المملكة أحد أطراف هذه المبارزة ، كلا ، فهذه كلها أسباب لاتثير هذا القدر من الاهتمام . بل كان هناك سبب كبير لما أثارته المبارزة القادمة من اهتمام غيرعادى ، سبب ذلك الحقيقى أن الأمة كانت على يقين من أنها لن تكون بين طرفين هكذا فحسب، بل هى فى الواقع ستقع بين شخصين يمارسان فنون السحر، ولم يكن الأمر صراعا بين العقل والقوة، أو أنه يتطلب إظهار مهارة ، بل سيكون صراعا يمارس فيه الطرفان أقصى القدرات فى فنون السحر وحرفيته ، وهو صراع مرير هدفه تحقيق التفوق، بين أبرع ساحرين فى هذا العصر . بدا الأمر فى صورة أن أعظم ما حققه مشاهير الفرسان من إنجازات، لايمكن مقارنته، بعرض كهذا، فذلك عبث صغار ، لو قورن بمنازلة رهيبة وغامضة بين هذين القطبين . أجل، فقد عرف

الجميع، أن النزال فى واقع الأمر سيكون، بين ميرلين، وبينى، لأنه سيستخدم ضدى ما يمتلك من قدرات . عرف الجميع أن ميرلين، قد انشغل ليلا ونهارا ، فى تزويد أسلحة السير ساجرامور وحربته، بقوى سحرية خارقة ، وذلك فى حالى الدفاع والهجوم، وقد ابتكر له بقوى من الفضاء حجابا من الصوف، سيخفى لابسه عن أنظار خصمه و يبقيه ظاهرا لبقية الناس . لاقبل لألف فارس مدجج بالسلاح والوقاء، بالتصدى للسير ساجرامور البتة، ولا قبل لمشاهير السحرة بهزيمته . تلك حقائق مؤكدة، لايعتريها شك، أو ما يثير الشك . هناك سؤال يطرح نفسه : أيحتمل وجود قوىً سحرية أخرى، يجهلها ميرلين، تستطيع رفع حجاب سير ساجرامور أمامى، وجعل درعه المسحور، معرضا لأسلحتى ؟ هذا هو ما سوف تحدده ساحة النزال. سيظل الناس فى حيرة حتى ذلك التاريخ .

هكذا اعتقد الناس أن أمرا جللا ، بسبيله إلى الحدوث، وكانوا فى ذلك على صواب، لكن هذا الأمر لم يكن شاغلهم الأول. كلا، بل تركز الشاغل الأكبر، فى أن ينتج عن هذه المبارزة توقف ممارسة رحلات الفرسان فى مهام خاصة . صحيح أننى بطل، لكننى لست ببطل فنون السحر الأسود الشيطانية ، بل المنطق السليم والحجة الدامغة . أدخل ساحة الوغى ، إما للقضاء على رحلات الفرسان فى مهام خاصة ، أو الموت دون ذلك .

خلت أماكن العرض على سعتها من أى أماكن شاغرة خارج ساحات النزال وذلك فى الساعة العاشرة من اليوم السادس عشر. زينت المنصة الهائلة بالأعلام ، والرايات مثلثة الشكل، والسرادقات المزخرفة بالرسوم، التى احتشدت بأعداد كبيرة من ملوك البلاد التابعة لإنجلترا، وبطاناتهم، و الأرستقراطيين البريطانيين، فى صحبة عصابتنا الملكية المتصدرة للمنصة، وكل يأتلق ببهرج من الحرير والمخمل ، ولابأس فى ذلك إلا أننى لم أر ما أستهل به المشهد ، سوى شجار مرتقب بين غروب شمس

أعالى المسيسيبى، وشفق القطب الشمالى . كان معسكر الخيام المزينة بالألوان الزاهية والرايات الخفاقة، المقامة فى طرف من ساحة المبارزة ، يقف على باب كل منها حارس فى وضع الثبات، وقد علق ترسا لامعا بجنبه، يستخدمه فى الدعوة للمبارز، كان يشكل مشهدا رائعا آخر . تعلم أن كل الفرسان هنا، ممن لديهم طموح ومشاعر طبقية، حيث إن مشاعرى تجاه نظامهم ليست خافية على أحد، قد رأوا أن فرصتهم قد حانت الآن. فإن ربحت معركتى، مع السير ساجرامور، سيكون لآخرين الحق فى طلب نزالى، حال وجدوا أننى قبلت نزالهم.

كان هناك خارج الطرف الخاص بنا خيمتان، واحدة لى ، وأخرى لأتباعى من الخدم . أصدر الملك إشارة فى الوقت المحدد، فظهر الحكام فى أردية فضفاضة لبسوها فوق الدروع، وقرأوا بيانا، بأسماء المتبارزين، وحددوا سبب المبارزة . توقفوا بعد ذلك، ودوى صوت النفير، وتلك إشارة لنا بالتقدم . احتبست أنفاس الحشد، وبدا الفضول الشديد ،مرتسما على كل وجه .

خرج السير ساجرامور العظيم من خيمته، برجا هائلا من الحديد، تبدو عليه الصرامة والثبات، استقام رمحه عاليا فى جرابه، وقد أحاطه بقبضته القوية، وطوق وجه جواده الضخم وصدره بالفولاذ، واكتسى جسد جواده بجل مزركش، كاد يلامس الأرض، ياللهول ! ياله من منظر شديد الروعة ! جلجل هتاف مدوٍ، يحمل الترحيب به ، والإعجاب .

خرجت بدورى . ولم أتلق هتافا يذكر . ساد صمت تام ولافت للحظة، أعقبته موجة من الضحك، بدأ ينداح عبر الطوفان البشرى، قطع دابره دوى نفير محذر . لبست أبسط الملابس الرياضية ، وأكثرها مرونة، ثوبا بلون البشرة من الرقبة حتى الكاحلين ، بطيات بارزة من الحرير أزرق اللون حول الخاصرة، وكنت حاسر الرأس. لم يزد جوادى عن الحجم المعتاد، لكنه كان يتمتع بالقوة واليقظة والرشاقة،

ويشبه فى الانطلاق كلب الصيد . كان له من الجمال لمعة الديباج، ومن التجرد كيوم ولدته أمه، إلا أن يوضع عليه لجام أو يجهز بسرج لمعركة.

تقدم البرج الفولاذى ممتطيا لحافه الوثير، وقد بدا رشيقا ، مع أنه ينوء بثقله، وخطونا بخفة لملاقاتها .توقفنا، قدم البرج التحية، فرددتها، ثم ركضنا معا، كتفا بكتف، حتى المنصة الهائلة ، وواجهنا مليكنا وملكتنا، و قدمنا لهما شارات التبجيل . هتفت الملكة :

" عجيب منك، أيها الزعيم، أن تبارز وأنت مجرد من أى سلاح، دون رمح أو حتى سيف أو .."

لكن الملك قطع عليها الحديث ، وأفهمها الأمر، بعبارة مهذبة أوسواها، تفيد بأن هذا ليس من شأنها . دوى النفير مجددا، فالتفنا كل إلى نقطة انطلاقه على جانبى الساحة، وتأهبنا لبدء الهجوم . ظهر ميرلين فى تلك اللحظة، وألقى بشبكة جميلة من خيوط النسيج ، على السير ساجرامور، حولته إلى شبح هاملت . أعطى الملك إشارة البدء، فانطلق صوت النفير، جعل السير ساجرامور ، رمحه الضخم فى وضع الهجوم، وتقدم فى اللحظة التالية بسرعة البرق على مضمار الحلبة، وحجابه يرفرف خلفه، وانطلقت بدورى كسهم يشق الفضاء، لملاقاته، مطرقا بأذنى ، وكأنى أصغى إلى حركة وتقدم الفارس الذى لاأراه بعينى . انطلقت هتافات التشجيع له، وانطلق صوت جرىء بعبارة حماسية موجهة لى :

" انطلق، ياسيئ الطالع " .

أراهن أن تلك مجرد دعابة ابتكرها كلارنس لتحفيزى، وفيها تحديث للغة أيضا . حين صار ذلك الرمح العتيد من صدرى بقرب ياردة ونصف الياردة، تنكبت بفرسى جانبا، دون جهد يذكر، فاندفع الفارس إلى الأمام نحو الفراغ . حظيت هذه

المرة بقدر وافر من الهتاف . درنا بالجياد، للمواجهة، وعدنا مجـددا إلى التقـدم . أفلـت الفارس مجددا، وانطلقت عاصفة من الهتاف لصالحى . تكرر هذا مـرة أخـرى وأتـى بعاصفة مدوية من التصفيق والهتاف لى، حتى فقد السير ساجرامور أعصابه، وسرعان ما غير من أسلوبه فى المناورة، وجعل همه مطـاردتى . العجيـب أنـه لم يظهـر فى ذلـك تحسنا أبدا، وكانت لعبـة للمطـاردة والتقـدم كـان مـن نـصيبى ، فقـد أسرعـت إلى الإفلات منه بسهولة وقتما شئت ، وجهت إليه لطمة على ظهـره فى إحـدى المـرات، وأنا فى الطريق إلى نقطة البداية . صارت المبـادرة بمطاردتـه فى يـدى الآن ، وأعقبـت ذلك بالالتفاف حوله والدوران ، حتى إنه لم يعد قادرا على الركض خلفى مجددا، بل وجد نفسه دوما أمامى، فى نهاية روغه . لذا تخلى عن هـذه الخطـة، وعـاد أدراجـه إلى نقطة البداية الخاصة به . وضح الآن أنه فقد صوابه، وطاش عقله ورمـانى بإهانـات، تحقر من شأنى . حللت حبل الوهق مـن أعـلى الـسرج، وأمـسكت بالعقـدة فى يـدى اليمنى . كان حريا بك أن تراه وهو يتقدم هذه المرة ! مؤكد أنه بدا مـن طريقـة سـيره، يدبر عملا ما وبدأ الشرر يخرج من عينيه . جعلت فرسى فى وضع التأهب، وظللـت أدير عقدة حبل الوهق فوق رأسى فى دوائر متسعة، وتأهبت للحظـة اقترابـه، وحـين ضاقت المسافة بيننا إلى أربعين قدما، أطلقت العنان للولبة مـن الحبـل الإفعـوانى ليشق طريقه فى الهواء، وانطلقت فى حركة سريعـة مباغتـة إلى الأمـام ، ثـم انتحيـت جانبـا ، مواجها إياه، ودفعت جوادى الخبـير إلى التوقـف وقـدما الـسير سـاجرامور مطوقتـان بالحبل تحته، كى يسقط على الأرض. أحكمت وثاق الحبل فى اللحظة التالية، وأخرجت السير ساجرامور عن سرجه ! ياللإسكتلندى العظيم، كان مشهدا مثيرا بحق !

لامراء فى أن الشيء الطريف ، كان يحظى بشعبية كبيرة فى هذا المجتمـع . لم يـر هؤلاء عرضا لرعاة البقر من قبل، ما جعلهم وقوفا على أقدامهم مـن فـرط البهجـة . انطلق الهتاف من كل الأرجاء، "أعد ، أعد " .

تحيرت فى أمر دأبهم على ترديد هذه الكلمة، ولكن لم يكن هناك وقت لبحث هذه الأمور الفلسفية، لأن طنينا للتو قد انبعث من قفير فريق رحلات الفرسان فى مهام خاصة ، وأن تطلعى لممارسة المهنة صار فى خبر كان . حين خلصت السير ساجرامور من حبل الوهق، قدمت له العون كى يبلغ خيمته، وعدت أدراجى ، وبدأت أدير عقدتى حول رأسى مجددا . كنت على يقين من أننى سألجأ لاستخدامها مجددا ، حال اختاروا من بينهم من يخلف السير ساجرامور فى نزالى، ولم يستغرق الأمر طويلا، حيث تلهف المرشحون، واختاروا أحدهم على الفور، وهو السير هيرفيس دى ريفيل .

حدث أزيز ! هاهو قادم، كبيت يحترق، أفلته، فمر كما البرق، وخصلات شعر حصانى تلتف حول رقبته، وبعد ثانية أو نحو ذلك ..." فس ! " أصبح سرجه خاليا.

طلبوا أن أكرر الحركة مرة تلو الأخرى ، ودواليك . بدت الأمور بعد قهر خمسة رجال تصل إلى نذير بالخطر فى نظر لابسى الدروع ، فتوقفوا ودار نقاش بينهم . قرروا آخر الأمر، أنه قد حان طرح الأصول المرعية جانبا، والدفع بأقواهم وأفضلهم لنزالى . وكانت المفاجأة فى موعد مع المهزومين ، بعد أن طوقت بحبل الوهق، السير لاموراك دى جاليس، ومن بعده السير جالاهاد . هكذا ترى أنه لم يعد هناك ما يمكن عمله الآن سوى أن يعبثوا بكوم عريشهم ، ويخرجوا منه مغوار المغاوير ، وأقوى الأقوياء، السير لونسلوت نفسه !

هل هى لحظة فخار لى ؟ كان يفترض بى اعتبارها كذلك . هاقد جلس آرثر الملك هناك، وكذلك جينيفر، وحشود من ملوك المقاطعات الصغيرة قاطبة، وفى الخيام التى ضربت هناك، فرسان مشاهير من كل البلدان ، فضلا عن طاقم الصفوة المعروف لدى الفرسان، وهم فرسان المائدة المستديرة، الأشهر فى العالم المسيحى،

ويؤكد ذلك كله شمس هذا النظام الوضيئة، الذى كان يعدل اتجاه حربته هناك، وهو محط أنظار أربعين ألفا من المعجبين ، وأنا بدورى هنا أتربص به الدوائر . طـاف ببالى طيف عزيز لدى، هى إحدى الفتيات المشجعات ، من ويست هارتفورد . تمنيت لو أنها ترانى الآن . تقدم القاهر فى تلك اللحظة، منطلقـا كـالريح العاصـف، وقـف المداهنون من أهل البلاط على أقدامهم، وانحنـوا إلى الأمـام، ورسـمت نـذر الـشؤم حلقاتها فى الهواء، وقبل أن تطرف عينـك، كنـت اجتـذب الـسير لونـسلوت بالحبـل على أرض الساحة، وأقبل يدى، ردا على عاصفة المناديل الملوحـة والهتـاف المـدوى، تحية لى !

قلت فى نفسى، وأنا ألف الوهق وأعلقه بأعلى السرج، وأجلس مخمورا بنـشوة النصر " أما وقد تحقق النصر، ولن يجرؤ أحد بعد الآن على التصدى لى ، فإننى بـذلك أكون قد قضيت على "رحلات الفرسان ". تخيل الآن قدردهـشتى، ودهـشة البـاقين أيضا، عند سماع البوق يدوى معلنا، أن متحديا آخر فى طريقه إلى الحلبـة! كـان ذلـك يحمل لغزا ما، حيث لم أكن أنتظر أن يحدث هذا أبدا . أعقـب ذلـك رؤيتـى ميزلـين يتسلل مبتعدا ، ثم لاحظت اختفاء الوهق ! مؤكد أن العجوز المحنك قـد أقـدم عـلى سرقته، ثم إخفائه تحت ردائه .

انطلق البوق مجددا. نظرت بعينى فإذا بالسير ساجرامور، قد عاود تقدمه راكبا، بعد أن نفض عن نفسه الغبار، وأعاد وضع لفاعه .

تقدمت لملاقاته ، وتظاهرت بأننى أتحقق منه، من خلال سـماع صـوت حـوافر فرسه، قال:

"إنك بارع فى استخدام أذنيك، ولكنه لن يفلتك من هذا ! "ثـم مـس مقـبض سيفه الضخم. " ولن تقدر على رؤيته، بسبب ما فى هذا اللفاع من قوى سـحرية، إنـه ليس برمح ثقيل، بل سيف، وأدرك أنك لن تقدر على الإفلات منه " .

ارتفع مقدم الخوذة وكان الموت مرتسما على شفتيه. وضح أنى لن أقدرعلى الروغ من سيفه البتة. هذه المرة كان لابد لأحدنا أن يموت ، وأستطيع معرفة الضحية، بمجرد انقضاضه . تقدمنا معا، وحيينا أصحاب الجلالة والسمو، بدا القلق على الملك هذه المرة . قال :

"أين سلاحك الفاتك ؟"

" لقد سرق يامولاى " ؟

" ألديك آخر سواه ؟"

" كلا سيدى، لم يكن لدى سواه " .

تدخل ميرلين فى هذه اللحظة قائلا :

" إنه لم يأت بغيره، لأنه لم يكن هناك ما يأتى به . ولا يوجد بالمطلق سواه . حيث يمتلكه ملك شياطين البحار . إن هذا الرجل جاهل ومدع، وإلا عرف أن ذلك السلاح، يستمر مفعوله، لثمانى مبارزات فحسب، ثم يعود مجددا إلى مستقره تحت البحر " .

قال الملك :

" إنه إذن مجرد من السلاح . يمكنك السماح باستعارته سلاحا " .

قال السير لونسلوت ، وهو يعرج :

"وسوف أعيره له، فهو أبرع فى استخدام يديه من أى فارس عرفته، وإنه سيحصل على سلاحى " .

وضع يده على سيفه ليسحبه، لكن السير ساجرامور قال :

" حسبك، هذا لايصح . إنه سيبارز بنفس سلاحه، فمن حقه أن يختار أسلحته وأن يأتى بها . فإن كان قد أخطأ ، فإنه مسئول عن خطئه ."

قال الملك :

" أيها الفارس، يقلقنى فرط انفعالك، أتقتل رجلامجردا من السلاح ؟"

قال السير لونسلوت :

" وإنه لقمين بالإجابة عن ذلك "، قال السير ساجرامور، محاججا بانفعال :

" سأجيب كل من يشاء ."

تدخل ميرلين بقوة، وهو يفرك يديه، ويرسم ابتسامته الوضيعة والمعبرة عن امتنان حقود :

" قول حسن، قول حسن ! حسبكم جميعا، ولندع مولاى الملك، يعطى إشارة البدء ".

كان على الملك أن يسلم بالواقع . دوى النفير معلنا التأهب ، وتفرق كلانا إلى مكانه، فى مواجهة الآخر، ملتزما الثبات والسكون، كتمثال بلا حراك ، تفصل بيننا مائة ياردة . بقينا على هذه الحال لوهلة، حيث ران صمت رهيب، لم يزد عن دقيقة، والكل بلا حراك يحدقون بأنظارهم . بدا أن الملك كان مترددا فى إعطاء الإشارة . لكنه رفع يده فى النهاية، تبعه البوق بإشارة واضحة، رسم سيف السير ساجرامور ، قوسا لامعا فى الهواء، وكان من الروعة رؤية انطلاقته، التزمت الثبات . ولم أتحرك لدى اقترابه ، اهتاج الناس، حتى إنهم هتفوا بى :

" اهرب ! اهرب ! انج بنفسك . هذا قاتل ! "

لم أتحرك قيد بوصة، حتى لم يعد يفصل بينى وبين هذا الزاحف إلى ، سوى خمس عشرة خطوة، فانتزعت مسدس سلاح الفرسان من قرابه، فصدر دوى وبريق، وعاد المسدس إلى قرابه مجددا ، قبل أن يتمكن أحد من معرفة حقيقة ماحدث .

هنا فرس يتهاوى على الأرض، وهناك فارس يرقد صريعا .

أصيب من هرع إليه من الناس بصدمة كبيرة، حين اكتشفوا أن الرجل فقد حياته، وليس هناك ما يدل على ذلك، فلا ضرر ظاهر فى جسده، أو جرح . ظهرت فتحة نافذة فى صدره، شقت طريقها صدار الدرع ، لكنهم لم يلقوا بالا لشيء تافه كهذا، ولأن الجرح الناتج عن الرصاصة، كان ينزف قليلا من الدماء، لم يكن يظهر منه شيء، بسبب ما تحت الدرع من ثياب وأربطة . سحبت الجثة، لكى يلقى الملك والصفوة نظرة عليها . كان من الطبيعى أن تصيبهم المفاجأة بالذهول . طلب منى القدوم لشرح وقوع المعجزة . لكننى ظللت ملتزما موقعى ، كتمثال، وقلت :

" لو أن هذا أمر صادر من الملك، فسوف أنفذه، لكن مولاى الملك يعرف، أننى ألتزم قواعد المبارزة، حيث يجدر أن يتقدم من يرغب فى التحدى ."

انتظرت كى يخرج أحد ، ولم يظهر مبارز فقلت من ثم :

" لو أن هناك من يساوره شك فى أن هذه الساحة قد شهدت تحقيق نصر مظفر واضح، فإننى لن أنتظر من يتحدانى، بل أنا الذى أعلن التحدى الآن" .

قال الملك :

ذلك عرض نبيل، يليق بأمثالك . فمن تبادر بتحديه ؟"

" لن أبادر أحدا، بل أتحدى الجميع . ها أنذا أطالب فرسان إنجلترا بالتقدم لمواجهتى، ليس فرادى، بل جماعات . "

هتف عشرة فرسان :

" ماذا ؟"

" لقد سمعتم طلب التحدى . فتقبلوه ، وإلا أعلنتكم جميعا ، دون استثناء، جبناء مهزومين !"

ترى أنها كانت خدعة . كان من الحكمة فى لحظة كتلك أن تتظاهر بالشجاعة، وأن تطلق ليدك العنان فى أن تلعب مائة مرة بالورقة الرابحة، حيث لن يجرؤ أحد خلال تسعة وأربعين مرة من خمسين على التحدى، فتكون بذلك قد حققت كسبا كبيرا. لكن هذه هى المرة الوحيدة ، التى بدت على نحو مغاير ! فسرعان ما هرول خمسمائة فارس إلى سروجهم، وتقدموا فى لمح البصر منتشرين فى مساحة كبيرة، يقعقعون بأسلحتهم فى اتجاهى . سحبت مسدسين من القراب، وبدأت فى تقدير الأبعاد ، وتحين الفرص .

بوم! خلا سرج من صاحبه . بوم، خلا آخر، بوم بوم، أسقطت اثنين . حسنا أدركت أن الأمر قد صار بيننا كر وفر ! إذا استنفدت الإحدى عشرة طلقة، دون أن أفحم هؤلاء، فسوف يقتلنى الثانى عشر لامحالة .

لذلك لم أشعر بسعادة ، إلا حين أسقطت طلقتى التاسعة ضحيتها، واكتشفت ما يشير إلى أن الحشد يعانى أزمة كبيرة . يمكن بمرور لحظة من الآن أن تضيع فرصتى الأخيرة ! لكننى لم أضيعها، رفعت المسدسين ، وسددتهما، فأوقف الحشد المتردد، تقدمه فى لحظة فارقة، ثم لاذوا بالفرار .

كان هذا اليوم لى . وقد لقى تقليد "رحلة الفارس " مصيره المحتوم . بدأ التقدم نحو إرساء الحضارة . بماذا أشعر ؟ آه لايمكنك تصور ما أحس به .

وماذا عن برير ميرلين ؟ لقد بارت بضاعته مجددا . كان سحر الأفنية يواجه الأمرين، فبصورة أو بأخرى ، فى كل مرة يحاول فيها سحر الأفنية أن يواجه سحر العلم، يتنحى الأول جانبا.

الفصل الأربعون

بعد ثلاثة أعوام

بعد أن قصمت ظهر "رحلات الفارس فى مهام خاصة"، لم أعد أشعر بأننى مضطر إلى العمل فى الخفاء. لذلك كشفت فى اليوم التالى عن المدارس التى أقمتها سرا ، وعن مناجمى، ونظامى الصناعى الشامل الذى أنشأته أيضا فى الخفاء ، وعن الورش الصناعية . أمطت اللثام عن ذلك كله أمام من بهروا به . أو على الأصح كشفت القرن التاسع عشر أمام القرن السادس .

فى الحقيقة لابد دوما من وضع خطة جيدة، حتى يعقبها تقدم سريع . عانى الفرسان حالة وقتية من الشعور بالإحباط ، ولكن كان على ببساطة أن أعوقهم عن الحركة فحسب ، حال رغبت فى إبقائهم على حالهم هذه، ومسلك غير هذا لن يفيد فى شيء . فأنت ترى أننى كنت فى المرة الأخيرة فى ساحة النزال أمارس الخداع، وسيكون أمرا طبيعيا بالنسبة لهم ، ترتيب أمورهم بحسب تلك النتيجة ، لو منحتهم الفرصة لذلك. وهكذا فإنه كان يجدر بى ألا أترك لهم مساحة من الوقت ، وحسنا فعلت .

جددت إعلان التحدى، وحفرته على النحاس، وعلقته حيث يمكن لأى راهب قراءته، وتركته منشورا على أعمدة الدعاية فى الجرائد . لم أبدله أبدا، بل زدت فى حجمه ومفرداته . قلت، حددوا اليوم، وسأختار خمسين معاونا لى وأقف فى مواجهة فرسان الأرض قاطبة، ثم أقطع شأفتهم .

لم أكن أخادع هذه المرة . فقد عنيت ما قلت، ويمكنني الوفـاء بـذلك . لم يكـن هناك مخرج للروغ من فهم لغـة التحـدى . حتـى إن أغبـى الفرسـان أدرك أن الأمـر واضح كل الوضوح، فإما "القبول" به، وإما "النكوص" عنه . كانوا مـن الحكمـة أن يختاروا النكوص عنه . ولم يحدث طوال الأعـوام الثلاثـة التاليـة أن أثـاروا حفيظتـى بشيء يستحق الذكر .

تأمل كيف مرت الأعوام سراعا . وتأمل الآن ما حدث فى إنجلترا . أصبحت بلدا ينعم بالرخاء والرفاهية ، وتغيرت إلى حد كبـير . كانـت المـدارس والعديـد مـن الكليات منتشرة فى كل الأنحاء ، فضلا عن عدد لابأس بـه مـن الـصحف . وكانـت حرفة الكتابة والتأليف على بداية الطريق، وكان الرائد فى مجال الكتابـة الـساخرة هـو السير دينادان، بكتابه الذى يضم النكات القديمة ، تلك التى ألفتها طوال ثلاثة عشر قرنا من الزمان . ولو أنه تخلى عن هذه النكتة العطنة المعتقة التى تتناول أساتذة الجامعة بالسخرية لما اعترضت عـلى شيء ، لكننـى لم أطـق هـذه النكتـة، فـصادرت الكتـاب وأعدمت المؤلف .

لقد زالت واندحرت تجارة العبيـد ، وأصـبح البـشر سواسـية أمـام القـانون، وتـساوى الجميـع فى سـداد الـضرائب . وصـار متاحـا للاسـتخدام العـام كـل مـن التلغراف، والهاتف، والفونـوغراف، والآلـة الكاتبـة، وماكينـة الحياكـة، وآلاف مـن الآلات اليدوية التى تعمل بالبخار، والكهرباء. أصبح لدينا باخرة أو اثنتـين تعمـلان على نهر التيمس، وبوارج حربية تعمل بالبخار، وبدأ العمـل بأسـطول تجـارى يعمـل بالآلات البخارية وصرت على أهبة الاستعداد لإرسال بعثة لاكتشاف أمريكا .

بدأنا فى إقامة عدد من خطوط السكك الحديديـة، و انتهينـا مـن إقامـة الخـط الخاص بنا من كاميلوت حتى لندن، و بدأنا العمل به . كنت جد حريص على ربط كل الوظائف بأماكن خدمة الركاب الخاصة بأصحاب المقام الرفيع وعلية القوم . وكنـت

أرى فى ذلك جذبا للفرسان والنبلاء، والاستفادة بهم، ووقايتهم من اللجوء إلى ارتكاب أعمال شريرة . تمت الخطة بنجاح، وكانت المنافسة على شغل تلك الوظائف كبيرة. كان ملاحظ قطار الساعة ٣.٤٤ دوقا، ولم يكن هناك ملاحظ على خط الركوب، أقل مرتبة من إيرل . كانوا رجالا بحق، ولكن كان يعيبهم خصلتان، لم أستطع تقويمهما، ألمح إليهما فى هذا السياق، أولهما أنهم لم يشاءوا التخلى عن الدروع بالكلية، والثانى حدوث عجز فى إيراد الخدمة، أى أنهم كانوا يسرقون الشركة .

لم يكن هناك فارس فى البلد كله ، لايشغل وظيفة نافعة . كانوا يقطعون البلد من أقصاه إلى أقصاه، بما يقدمونه من قدرات تبشيرية ناجعة، يدفعهم ولع شديد بالتجول فى الأنحاء، وخبرة به، جعلت منهم جميعا، الأكثر قدرة على نشر حضارتنا. مضوا فى دروعهم الفولاذية، وزودوا بالحربة والسيف، والبلطة، وكانوا إذا لم يستطيعوا إقناع شخص بشراء ماكينة للحياكة، مع نموذج تفصيلى، أو الترويج لأورغون صغير يعمل بالنفخ، أو سياج من الأسلاك الشائكة، أو جريدة محظورة، أو أى من تلك الأشياء الكثيرة التى يروجون لها، تراهم وقد تحولوا عنه، وواصلوا حملتهم .

أحسست بسعادة غامرة . فالأمور تتجه بثبات نحو ما خططت لها فى الخفاء . ترى أننى كنت أضع نصب عينى إنجاز مشروعين، هما الأضخم بين ما لدى من مشروعات . الأول كان التخلص من الكنيسة الكاثوليكية، وإقامة مذهب بروتستانتى على أنقاضها، يختلف عن كنيسة الدولة الرسمية، تدار بأسلوب متحرر، أما المشروع الآخر، فهو إصدار مرسوم فى القريب العاجل ، يوصى بالعمل بالتصويت الحر حال مات آرثر ، يساوى بين الرجال والنساء، فى كل شيء، للمثقفين وغير المثقفين، وللأمهات اللائى يجدر أن يكن حاصلات فى منتصف أعمارهن على معارف تقارب ما حصل أبناؤهن فى سن الحادية والعشرين . كان آرثر قادرا على البقاء ثلاثين عاما

أخرى، فهو يقاربنى فى السن، لنقل إنه فى الأربعين، وقد ظننت أنى فى تلـك الفـترة ، أستطيع بسهولة ، أن أجعل ذلك القطاع الفاعل من مـواطنى تلـك الأيـام ، فى حالـة تأهب وشغف ، لاستقبال حدث هو الأول من نوعه، فى تاريخ العـالم ألا وهـو قيـام ثورة بيضاء شاملة تحكم البلاد . تخرج نظاما جمهوريا . حـسنا، وعـلىّ أيـضا أن أقـر، رغم شعورى بالخجل حيث يـرد بـذهنى أنـه قـد بـدأ يتـشكل لـدى شـغف ذاتـى، بأن أصبح رئيسا لهذه الجمهورية . أجل، فقد اكتشفت أن تلك هى طبيعة البشر عـلى نحو أو آخر .

كان كلارنس يتفق معى فى أمر القيام بثورة، ولكن بأسلوب جديد . كان مـن رأيه إقامة جمهورية، دون تمايز طبقى، بل أن يكون على رأسها عائلـة مالكـة بـالإرث، بدلا من حاكم واحد يختاره الشعب . اعتقد كلارنس أنه ما من أمـة قـد ذاقـت لـذة الانصياع لأسرة مالكة و تسلب منها هذه اللذة، دون أن تتعرض للزوال والهلاك مـن الحزن الشديد. بينت له أن الملوك كانوا خطرين. قال لنلجأ إلى الهررة إذن . كـان عـلى يقين من أن عائلة مالكة من الهررة، يمكن أن تلبى كل المطالب ويمكن أن تحقـق مـن النفع ما تحققه عائلة مالكـة أخـرى، مـن حيـث الخـبرة ، والـتحلى بـنفس الفـضائل والعادات الذميمة ونفس سمات الأمانة والخيانة ، كما تتمتع بنفس الميـول فى اصـطناع أسباب الشجار مع القطط المالكة الأخرى، ويمكن أن تكون من العبث والحمق وهى تجهل ذلك ، ويمكن أيضا أن تكون قليلة الشأن، ويمكن أخيرا أن تحكم بالحق الإلهى كأى أسرة مالكة أخرى، فينادى كل من توم السابع ، توم الحادى عشر، توم السادس عشر ، بصاحب الجلالة المعظم، ذلك حين يصبح الهر ملكا ويلبس رداء الملوك . وقال بإنجليزيته المتقنة الحديثة إنه " من حيث المبدأ"، فإن شخصية الملوك الهررة ، سـتفوق كثيرا، شخصية ملك عادى، وستحقق الأمة بذلك تقدما أدبيـا كبـيرا ، فالأمـة دومـا تحذو حذو مليكها فى الآداب والسلوك . وحيث إن توقير الملوك ، قد نشأ دون علة أو

سبب، فإن تلك الهررة الوديعة الآمنة ، ستحمل بسهولة من سمات القداسة والوقار ما تحمله الملكيات الأخرى، بل تحمل من سمات النبل والوقار ما يفوقها، لأنه سيلاحظ في التو ، أنها لا تشنق أحدا ، أو تأسره، ولا ترتكب أعمالا وحشية أو فظائع من أي نوع، وستجد لقاء ذلك حبا وتبجيلا يفوقان بلاشك ما يحظى به ملك عادى من بنى البشر. سرعان ما تتركز أنظار ذلك العالم المنهك برمته على هذا النظام الوديع الهادئ، وسيختفى من الساحة فى الحال سفاكو الدماء الملوك ، وسيشغل رعاياهم، الوظائف الشاغرة، بالمشاركة مع سلالات من الهررة، من أسرتنا الملكية ذاتها، وسنصبح منتجين للهررة ، ونمد بها عروش العالم . وستحكم الهررة أوربا خلال أربعين عاما، فحرى بنا من الآن، القيام بإعدادها . سيبدأ عهد من السلام العالمى، ولن ينقطع من ثم المياو مياو مياو مياو ... فست !واعجباه !"

تبا له ، فقد ظننته جادا فيما يقول، وكنت على وشك الاقتناع به إلى أن انطلق فى ذلك المواء ، فأجفلنى حتى كدت أخرج من ثوبى . ولكن يستحيل أن يكون جادا البتة، لأنه ليس على دراية بالأمر، لقد رسم صورة واضحة وواقعية تماما، ونظر لتطور محتمل قادم فى ملكية دستورية، لكنه كان أجهل من أن يلم به، أو يهتم به على أى نحو. كنت بسبيلى إلى تلقينه درسا قاسيا، لكن ساندى أتت مهرولة فى تلك اللحظة، وقد لفها الرعب، واحتبست أنفاسها لوهلة، حتى تمكنت من أن تستعيد قدرتها على الكلام . هرعت إليها ، وضممتها بين ذراعى، وأكثرت من تهدئتها وملاطفتها، وقلت مناشدا إياها :

" تكلمى ، ياعزيزتى ، تكلمى ! ماالخطب ؟"

أرخت رأسها على صدرى، وهى تلهث، وتقول بصوت خفيض :

" مرحبا ــ سنترال ! " هتفت بكلارنس :

" أسرع، اتصل بمعالج الملك هاتفيا، واسأله الحضور ."

كنت فى لحظات أركع إلى جانب مهد الطفلة، وكانت ساندى تجمع الخدم ، من هنا وهناك ومن كل أرجاء القصر . استطعت تشخيص الحالة بمجرد نظرة، هذا التهاب سحائى فى الحلق والحنجرة ! أومأت برأسى إليها، وقلت هامسا :

"استيقظى ياحبيبة القلب ! يا مرحبا .. سنترال ! "

فتحت عينيها الناعستين وئيدا ، ونطقت بكلمة :

"بابا "

هدأ روعى، إنها الآن لاتحتضر. طلبت إعداد مستحضر كبريتى، وقمت بغلى عقارمرض الخناق، لأننى لا يجدر أن أقعد مترقبا قدوم الأطباء، حال مرضت ساندى أو الطفلة . فقد ألممت بأسلوب تطبيبهما، لما لى من خبرة مسبقة قضت الصغيرة قدرا لابأس به من عمرها الصغير فى كنفى، كنت الأقدر دوما على تهنينها، وبعثها على الضحك وسط الدموع العالقة برموشها، حين كانت أمها تفشل فى ذلك . أتى الآن السير لونسلوت فى آنق دروعه، يحث الخطى، عبر القاعة الكبيرة ، فى طريقه إلى حضور لجنة المضاربات بالأسهم والسندات، حيث يشغل رئاستها، وقد تولى فيها شئون التعرض للمخاطر الكبيرة ، حيث اشترى حصة السير جالاهاد من الأسهم ، لصالح لجنة المضاربات التى كانت مكونة من فرسان المائدة المستديرة، وهم يستخدمون المائدة الآن ، لممارسة أعمال المضاربة . كان الجلوس حولها يساوى، حسنا ... لاداعى، لأنك لن تصدق الرقم ، لذا فلا جدوى من تحديده . كان السير لونسيلوت مضاربا قويا على الأسهم الهابطة ، وكان يخطط لاحتكار أحد الأنشطة الجديدة، وكان متأهبا دوما لحيازة كل أسهم اليوم الهابطة، ولكن ماذا فى ذلك ؟

إنه السير لونسلوت القديم نفسه، الذى حين نظر أثناء مروره بالباب، ووجد حبيبته مريضة، فهذا حسبه. ربما ترك المضاربين والمحتكرين يتقاتلون لحسابه، ليأتى على الفور ويقف بجانب الصغيرة " مرحبا ــ سنترال "، بكل ماأوتى من طاقة، وهذا حسبه . ألقى بخوذته فى أحد الأركان، وفى ثوان وضع فتيلا رقيقا، فى مصباح كحولى، وأشعل النار تحت الغلاية. أقامت ساندى فى تلك اللحظة ناموسية رقيقة فوق المهد، فصار كل شيء معدا .

رفع السير لونسيلوت الغطاء، فزودت الغلاية، بالليمون المخفف، وحمض الكاربوليك، مع قليل من حمض لبنى، ثم ملأت الغلاية بالماء، وأدخلت أنبوب البخار تحت الناموسية . صار كل شيء فى وضعه الصحيح الآن، وجلسنا على جانبى المهد، لمتابعة ما يحدث. أبدت ساندى امتنانا كبيرا ورضا، حتى إنها قايضت بزوج من حراس الكنيسة، مقابل أوراق سماق وتبغ معد ، وطلبت منا أن ندخن كما يحلو لنا، فلن ينفذ الدخان تحت الناموسية، وأنها قد اعتادت بدورها رؤية الدخان، لأنها أول سيدة فى البلاد على الاطلاق تشهد سحابا ينفجر. الحقيقة أنه لم يكن هناك ما يبعث على الراحة والسكينة سوى مرأى السير لونسيلوت، جالسا فى درعه الفخيم، فى سكينة تامة على بعد ياردة واحدة ، من حارس كنيسة غطاه الجليد . كان حلو الصورة، محبوبا، وكان همه الوحيد أن يكون أسرة من زوجة وأطفال سعداء، إلا أن وجود جينيفر بالطبع حال دون ذلك، رغم أنه لافائدة من البكاء على ما حدث .

ساندنى ولم يتوقف عن السهر على الطفلة ومتابعتها وإياى ، ثلاثة أيام ولياليها، حتى زال الخطر عنها، فرفعها بين ذراعيه المفتولتين وقبلها، والريش منه يتساقط على جبهتها المشرقة، ثم أعادها إلى حجر ساندى مجددا، و اتجه فى مهابة إلى القاعة الكبرى، وسط صفوف من الحرس الموقرين إياه والخدم، ثم توارى عن الأنظار . خذلنى حدسى ، فلم أدرك وقتها أن هذا كان آخر عهدى به فى هذه الحياة !

ياإلهى ، أى مشاعر قلبية حارة هذه !

أمر الأطباء بوجوب سفر الطفلة، حال رغبنا فى استعادة عافيتها ، وأن عليها أن تستنشق هواء البحر. لذلك جئنا بسفينة حربية وفرقة عسكرية، مكونة من مائتين وستين رجلا، وذهبنا فى رحلة للتنزه ، بين الأرجاء، وبعد أربع ليال من تلك الليلة، نزلنا إلى البر بالساحل الفرنسى، ورأى الأطباء أن الأفضل بقاؤنا هناك لبعض الوقت. عرض علينا ملك تلك المنطقة الشاب ضيافته، ورحبنا بذلك . فإذا كان ما لديه من وسائل للراحة مثل الذى افتقده منها ، فإن ما نمتلكه منها يزيد بالضرورة عن ذلك كثيرا، على حاله هذا ، وقد قضينا وقتا طيبا فى قلعته القديمة المتواضعة، بدعم مما أتينا به من زاد وزواد على ظهر السفينة .

أرسلت السفينة إلى البلد ة بنهاية الشهر، لتزويدنا بإمدادات جديدة، وتقصى الأخبار . توقعنا عودتها خلال أيام ثلاثة أو أربعة . كانت أيضا ستوافينى فضلا عما جد من أنباء، بنتيجة ما تم فى تجربة خاصة كنت قد شرعت فيها. كانت خاصة بمشروع قد بدأت الخوض فيه، لاستبدال المبارزة بين الفرسان ، بما قد يزود الفرسان بقوة جذب كبيرة، ليتيح لأولئك فرصة الترويح عن أنفسهم، ويبعدهم عن ارتكاب أفعال السوء، والاحتفاظ فى الوقت ذاته، بما لديهم من مقومات تتمثل فى روح الإصرار، والقدرة على التحدى . قمت بتدريب مجموعة مختارة منهم لبعض الوقت، وحان الوقت الآن لمعرفة أول إنجازاتهم العملية .

كانت التجربة هى لعبة البيسبول أى كرة المضرب. ولكى نشد الانتباه إليها منذ البداية، ونخرج بها عن دائرة النقد، اخترت فريقا يمثلنى من تسعة أفراد بحسب المرتبة الاجتماعية، وليس الكفاءة. لم يكن بين الفريقين فارس ليس من أصحاب السيادة أو السمو. كان مجال اختيار هذا الصنف، متسعا دوما، فى المحيطين بآرثر، ويستحيل عليك أن تلقى قرميدة فى أى اتجاه، دون أن تصيب ملكا بريطانيا. لم أستطع بالطبع إقناع هؤلاء بالتخلى عن دروعهم، لأنهم لن يفعلوا ذلك حتى وهم يغتسلون .

لقد رضى الجميع بالتفرقة بين الدروع، حتى يمكن للمرء تمييز فريق عن آخر ، لكن ذلك أقصى ما يمكنهم عمله. لذلك ارتدى أحد الفريقين، سترات فضفاضة فوق الدرع المزرودة، واكتسى الفريق الآخر دروعا مصفحة رقيقة، صنعت من فولاذ بيسمر الحديث. كان تدريبهم فى ساحة اللعب ، من أعجب ما رأيت فى حياتى. لكونه تدريبا بالكرة ، فإنهم لم يتخطوا مضمار اللعب، بل ثبتوا فى أماكنهم يترقبون النتيجة، فإذا كان لاعب من فريق دروع بيسمر فى موضع قذف الكرة للاعب من فريق بيسمر، واصطدمت به الكرة ، فإنها ترتد أحيانا لمسافة مائة وخمسين ياردة. وحين يواصل أحدهم العدو ، ثم ينبطح على وجهه، زحفا نقطة الانطلاق، يكون ذلك أشبه بدخول سفينة حربية مدرعة الميناء . اخترت فى البداية رجالا من العامة، للعمل محكمين، لكن كان على التراجع عن ذلك. فهؤلاء التسعة لم يكن ركضهم يزيد على أولئك. كان أول قرار لحكم المباراة هو آخرها، حيث قاموا بضربه ضربا مبرحا بمضرب اللعب، فحمله أصدقاؤه إلى بيته على محفة . وحين وجدوا أن أى حكم لايكمل مباراة واحدة إلى النهاية ، صار إلغاء التحكيم هو البديل. لذلك قمت من جانبى بتعيين شخص من بين من يشغلون وظيفة مرموقة فى الحكومة ، لحماية الحكم .

فيما يلى أسماء التسعة :

فريق دروع بيسيمرفريق دروع ألسترز

الملك آرثر الإمبراطور لوشيوس

الملك لوث حاكم لوثيان الملك لوجريس

ملك نورثجاليس الملك مارهولت حاكم أيرلندة

الملك مارسيلاالملك مونجانور

ملك بريطانيا الصغرى الملك مارك حاكم كورنوول

ملك لابور الملك نيتريس حاكم جارلوت

الملك بيلام حاكم ليستنجيسالملك ميلودياس حاكم لاينز

الملك باجداماجوس ملك البحيرة

الملك تولليم لافينتسالساودان حاكم سوريا

حكم المباراة : كلارنس

كان مؤكدا أن المباراة الجماهيرية الأولى، ستجذب خمسين ألـف متفـرج، وربـما كان الأمر يستحق أن تقطع كـل أرجـاء الأرض لتـستمتع بحـق . فكـل شيء ملائـم للجميع، والطقس الآن معتدل وربيعى جميل، والطبيعة ترفل فى حللها الجديدة .

الفصل الحادى والأربعون

التحريم بأوامر من الكنيسة

ورغم ذلك تحول اهتمامى فجأة عن تلك الأمور ، فحالة الطفلة المرضية بدأت مجددا فى التراجع ، وكان علينا ملازمتها طوال الوقت ، إذ بلغ الأمر حد الخطورة. لم يكن فى طاقتنا السماح لأحد بمعاونتنا، حيث تبادلنا السهر عليها كل يوم معا. آه ، ساندى، أى قلب طيب هذا الذى تحمله ، وأى إنسانة بسيطة أصيلة حانية هى ! إنها الزوجة الطيبة والأم ، و قد تزوجتها، دون سبب بعينه، خلا أنها صارت فى عرف الفرسان تابعة لى، حتى ينتزعها فارس آخر فى ساحة النزال. قطعت المسافات عبر بريطانيا من أجلى، ووجدتنى مرتبطا بأمور خارج لندن، فعادت حيث كانت ، تسندنى برباطة جأش غير معهودة ، من أجل نصرة الحق . ولأننى نيوإنجلانديا، فقد رأيت أن رفقة طويلة كهذه ، ستعرضها إن آجلا أو عاجلا للقيل والقال. أما هى، فلم تكن ترى فى تلك الصحبة شيئا معيبا ، لكننى قطعت الشك باليقين، واقترنت بها .

لم أكن أعرف وقتها أننى أشبه فى ذلك من يدخل سحبا لنيل جائزة، وتلك هى الجائزة التى ربحتها الآن . أصبحت خلال اثنى عشر شهرا، معبودها الأوحد، وكانت رفقتنا لامثيل لها، فى الألفة والكمال. يتحدث الناس عن صداقات رائعة بين اثنين من نفس الجنس . فما هذا النوع من الصداقات إذا ما قورن بصداقة بين زوج وزوجة، لهما نفس المشاعر والانطباعات والأفكار السامية ؟ لاوجه للمقارنة بين هذين النوعين من الصداقة، فالأول مادى بحت ، والثانى روحى .

ظللت فى بادئ الأمر ، أجول فى أحلامى كلها، عبر ثلاثة عشر قرنا، وقد مضت روحى القلقة دوما، تصيح وتستدعى فى غدو ورواح، فضاءات لاتستجيب فى عالم زال وانمحى. سمعت ساندى فى مرات كثيرة صرخة استغاثة تنطلق من شفتى أثناء رقادى . وبكرم منقطع النظير تحملت تبعات صرخاتى تلك على طفلتنا، مدركة أنها تحمل لقبا لعزيز علىّ كنت قد فقدته. أثر ذلك فى حتى البكاء، كما شعرت أن قدمىّ توقفتا عن الحركة حين تبسمت فى وجهى تعبيرا عن جزاء مستحق ، وداعبتنى بمفاجأة طريفة رائعة :

" حفظ هنا الاسم العزيز لديك ، ووقر هنا، وسيبقى لحنه يتردد دوما، فى آذاننا. قبلنى الآن وقد عرفت الاسم الذى سميت الطفلة به " .

لكننى لم أكن أعرفه، فالكل سواء. لم تكن لدى البتة أدنى فكرة ، ولكن سيكون من غير اللائق الإقرار بذلك، فأفسد عليها مفاجأتها السارة، لذلك لم أنطق به، بل قلت :

" أجل، أعرفه ،ياحبيبة القلب، كم أنت وفية وعزيزة لدى ! لكننى أرغب فى سماع شفتيك اللتين هما شفتاى، تبادران بنطقه، فيكتمل وقعه اللحنى على أذنى ".

سرها ذلك كثيرا، وهمهمت :

"مرحبا ــ سنترال "

لم أضحك، لأننى ممتن دوما لهذا الأمر ، لكن النبرة فجرت كل عرق فى، وظللت لأسابيع، أسمع طق عظامى أثناء سيرى فى الطريق. لن تكتشف خطأها البتة. لقد فوجئت هى حين سمعت للمرة الأولى صيغة التحية تلك، تتردد عبر الهاتف ولم تعجبها، لكننى قلت لها إننى كنت قد أصدرت أمرا بأن، من الآن فصاعدا، وإلى الأبد، يجب استخدام تلك الصيغة المهذبة عبر الهاتف، إجلالا وتخليدا

لذكرى صديقتى الراحلة، ولاسمها القصير، الذى لم يكن اسمها الحقيقى . ولكن ذلك حقق المطلوب.

الحقيقة أننا طوال أسبوعين ونصف الأسبوع، لم نكن نفارق مهد الطفلة سهرا عليها، وبسبب عزلتنا التامة تلك، لم نكن نولى اهتماما بما يحدث خارج غرفة المريضة . عندئذ نلنا جائزتنا ، حيث غيرت الدنيا من اعوجاجها ، وبدأت تستقيم لنا. أنشعربالامتنان؟ كلمة امتنان، إنها ليست بالكلمة المناسبة ، بل ليس من بين الكلمات ما يعبر عن ذلك، فأنت تعلم يقينا، إن كنت قد رأيت طفلك والموت يحفه ، ثم تراه يعود إلى الحياة و يمحو عن الأرض ظلمتها، بابتسامة مشرقة وضيئة، يمكنك قياسها بملء يدك .

الغريب أننا عدنا إلى هذا العالم بغتة ! ثم رأى كل فى عين الآخر نفس الحقيقة المروعة، فى اللحظة ذاتها، حيث السفينة لم تعد منذ أسبوعين !

كنت فى اللحظة التالية وسط أعوانى، الذين بدا فى وجوههم ترقبهم طوال الوقت لنذر شر وشيك. استد عيت أحدهم ، وقطعنا معا مسافة خمسة أميال، وبلغنا أعلى أحد التلال المطلة على البحر .

أين الأنشطة التجارية التى أقمتها والتى شهدت فى الأوقات الأخيرة توسعات بحرية مبشرة، تزخر بالروعة و بأسرابها ذات الحلل البيضاء ؟ اختفت ! فلا شراع ظاهر من الأفق إلى الأفق، أو كتلة من دخان، بل مجرد خلاء بلقع، حيث يهب نسيم عليل، باعث على النشاط.

سرعان ما عدت أدراجى، غير مبادر أحدا ببنت شفة . أخبرت ساندى تلك الأخبار المؤسفة . لم نتخيل لهذا تفسيرا يمكن طرحه . أغزو هو ؟أم زلزال ؟ طاعون ؟ أم أن الأمة ذاتها قد زالت من الوجود ؟ لكن التحزير لايفيد . علىّ أن أرحل الآن.

استعرت أسطول الملك، وهو سفينة لاتزيد على لنش بخاري، وسرعان ما تأهبت للرحيل .

أما بشأن الفراق، فآه منه، كان صعبا بالطبع . ثغت الطفلة وغمغمت بثغاء طفولى ، حين أمطرتها بقبلات الوداع ! فتلك هى المرة الأولى خلال أسبوعين كاملين، ماجعلنا نشتاق إلى الإحساس بالبهجة . ذلك الثغاء الطفولى المحبب ! ويحى، لاقبل للحن بأن يبزه، وكم يحزن المرء افتقاده ، وحرمانه منه عند ما يستقيم نطق الطفل، مدركا أنه لن يعود يشنف به أذنه التى عاودت الحرمان منه. حقا، ولا غرو فى أنك تستطيع اصطحاب تلك الذكريات العزيزة معك، وأنت مقبل على السفر .

اقتربت من بلوغ إنجلترا ،صباح اليوم التالى، وحيدا أشق طريقا طويلا غاصا بمياه البحر. انتشرت السفن بالميناء، فى دوفر، لكنها كانت مجردة من الأشرعة، ولم يكن هناك ما ينم حولها عن حركة أو نشاط. كان اليوم الأحد، كما كانت الشوارع خالية فى كانتربرى، والأدهى من ذلك، أن راهبا واحدا لايظهر للعيان، أو ناقوسا تصل دقاته إلى أذنى . كان حداد الموت يرين على كل الأماكن، و لم أجد لذلك تفسيرا. رأيت أخيرا فى الجانب الأقصى من المدينة، موكبا جنائزيا صغيرا، يسير خلف النعش المحمول بعض أفراد عائلة المتوفى، وبعض الأصدقاء، ولكن لاوجود لراهب، أو لناقوس يدق عند مرور جنازة، أو كتاب أو شمعة، والحاصل أنه كانت هناك كنيسة على الطريق ، لكنهم تخطوها، وهم مجللون بالسواد ولم يدخلوها ، رفعت بصرى إلى برج الكنيسة، فوجدت الناقوس معلقا، مجللا بالسواد، ولسانه مقيد إلى الخلف . هاقد أدركت الأمر ! أدركت ما حاق بإنجلترا من حادث جلل . أهو غزو ؟ بل الغزو أهون منه وأرحم. ذلك هو التحريم الذى أصدرته الكنيسة !

لم أتقدم باستفسارات، فلست بحاجة إليها. لقد ضربت الكنيسة ضربتها، وليس أمامى سوى إخفاء شخصيتى والتنكر فى أخرى ، ثم أمضى حذرا بعد ذلك.

كان واحدا من أتباعى قد أعطانى بزة له، لبستها حين أصبحنا بمأمن خارج المدينة، وقد نأيت بنفسى عن ذلك بالرحيل ، ولم أخاطر بإحراج معيتى .

كانت رحلة بائسة، يخيم فيها الصمت على الأرجاء، وحتى لندن ذاتها . توقفت حركة السير، وليس بين الناس ضاحك أو باك، ولاهم ساروا زرافات أو أزواجا، بل ساروا فرادى على غير هدى، كل على حدة، مطأطئى الرؤوس، يلفه الرعب والفزع . بدت نذر الحرب فى الأفق . والعجيب، أن العمل من أجل ذلك كان يجرى على قدم وساق .

توجهت لاستقلال القطار بالطبع صوب كاميلوت . القطار؟ غريب هذا ، كانت محطة القطار أشبه فى خلوها بكهف . واصلت السير. كانت الرحلة إلى كاميلوت صورة متكررة لما سبق أن رأيت من مشاهد . اختلف خلالها يوما الاثنين والثلاثاء كثيرا عن الأحد . وصلت فى وقت متأخر من الليل . تحولت البلدة ببساطة من أفضل مدينة تضاء بالكهرباء، وأفضل ما رأيت طوال حياتى فيها يشبه شمسا ساطعة ، إلى بقعة من السواد فحسب ، بقعة من السواد وسط ظلام حالك ، ويمكن القول بأنه كان أكثر ظلمة وقتامة من أى حلكة أخرى ، حيث يمكنك تمييزه بعض الشيء عما سواه، ما جعلنى أشعر بأن ما أراه ربما يكون أقرب إلى الرمزية، أو نوعا من الإيحاء بأن الكنيسة الآن بسبيلها إلى أن تفرض اليد الطولى، و تمحو كل ما أقمته من صور حضارية ، بتلك الطريقة . لم أجد ما يشير إلى حركة نشطة فى الشوارع الحزينة. مضيت فى طريقى كاسف الفؤاد . بدا الحصن الكبير حالكا فوق قمة التل، ولا إشارة لضوء حوله . بدا أسفله الجسر المتحرك، والبوابة الكبيرة مشرعة، فدخلت دون ممانعة، صدر عن كاحلى الصوت الوحيد الذى أسمعه، وفيه من الإيحاء بكآبة القبور ما يكفى ، عبر تلك القاعات الضخمة الشاغرة .

الفصل الثانى والأربعون

حـــالـــة حـــرب

وجدت كلارنس جالسا وحده فى مسكنه ، غارقا فى أحزانه، وقد استخدم للإضاءة مصباحا قديما باليا، بدلا من المصباح الكهربى، جلس فى العتمة، وقد أسدل كل الستائر . قفز من مكانه واندفع نحوىّ فى لهفة، وقال :

" أوه، حين تعاود لقاء شخص على قيد الحياة، فذلك يعادل بليون ميلاريسا!"

عرفنى بسهولة كما لوأننى لست متنكرا البتة، وما أفزعنى، أنه يمكن لأحد أن يصدق ذلك بهذه السهولة". قلت :

" هيا ، أخبرنى سريعا بمغزى تلك الكارثة المروعة، كيف بدأت ؟"

" حسنا، إن لم تكن جينيفر ضالعة فى هذا الأمر، ما كان لهذا أن يحدث على أى وجه . كان يمكن أن يحدث بسببك ، ولكن، كانت الملكة لحسن الحظ هى المتسببة فيما حدث بالكلية " .

" أهو السير لونسلوت ؟ "

" بالضبط ؟ "

" احك بالتفصيل ."

" أظنك ستصدق أن هناك عينين فى المملكة كلها طوال السنوات القليلة الماضية ، لم تغضا الطرف عن النظر بازدراء إلى كل من السير لونسلوت والملكة .. "

" أجل، عينا الملك آرثر " .

" وقلبا واحدا فحسب ، كان بلا ريب.. "

" أجل.. قلب الملك، ذلك القلب الذى لايملك القدرة على مجرد التفكير فى إيذاء صديق " .

" حسنا، كان يمكن للملك أن يواصل حياته، سعيدا لايساوره شك، حتى آخر يوم فى عمره، لكن المسألة كانت تتعلق بأحد مبتكراتك الحديثة، إنها لجنة المضاربة بالأسهم . حين رحلت وأصبحت على مسافة ثلاثة أميال من لندن، كانت (كانتربرى و دوفر) جاهزتين لتشغيل خطوط القطارات ، وجاهزتين كذلك للمضاربة على أسهمهما فى سوق التداول، كانت المنافسة شرسة ، وعلم الجميع بذلك، فبدأوا فى التخلص من الأسهم بالبيع عند أدنى مستوى . فما كان من السير لونسلوت إلا أن.."

" أجل، أعرف، اشتراها عن آخرها فى هدوء ، بثمن زهيد، ثم اشترى ضعفها المعروض فى السوق للتداول، وكان على وشك طرحها لدى سفرى ".

" عظيم، دعا إلى طرح الأسهم للتداول، لم يتمكن الشباب من طرح ما لديهم. وهنا أوقع بهم ، حيث لوح لهم بقبضته وابتزهم ابتزازا. ضحك الشباب سرا فيما بينهم، لبراعتهم فى بيعهم إياه أسهما بسعر ١٥ أو ١٦ للسهم، فى حين كان السعر الحقيقى للسهم لايربو على ١٠ . وبعد أن شبعوا من الضحك فى الخفاء، ما لبثوا أن تحولوا إلى النقيض، وذلك حين أجروا مع "الجبار " تسوية عند ٢٨٣ ! "

" عجبا!"

" قام بسلخهم أحياء، وقد استحقوا ذلك، و ابتهجت الملكة لدى علمها بالأمر. الحقيقة أن من بين من تعرضوا للسلخ السير، موردرد، والسير أجرافين، أبناء

أخت الملك . تلك نهاية الفصل الأول . الفصل الثانى، المشهد الأول، غرفة فى حصن كارليزل، حيث رحلت الحاشية للصيد لبضعة أيام. أشخاص حضور، قبيلة أبناء أخت الملك عن بكرة أبيها. يقترح موردرد وآجرافين لفت أنظار الغافل آرثر، إلى سلوك جينيفر والسير لونسيلوت . لم يكن هناك مفر إلا أن يقوم بإبلاغه كل من السير جاوينى، والسير جاريث، والسير جاهريس . يحدث شجار بصوت مرتفع، يدخل الملك أثناء الشجار . يلقى كل من موردرد وآجرافين بالتهمة الشنيعة أمامه . فترة صمت . يدبر فخ للسير لونسيلوت بأمر صادر من الملك، ويقع السير لونسيلوت فى الفخ . أثار السير لونسيلوت قلقا بالغا فى نفوس شهود الزور، أعنى كلا من موردرد، وآجرافين واثنى عشر فارسا من المرتبة الأدنى، وقتلهم جميعا إلا موردرد، لكن ذلك بالطبع، لم يكن ليسوى الأمور ما بين السير لونسيلوت والملك، وما كان لذلك أن يتحقق البتة " .

" رباه، أرى أن عاقبة ذلك شيء واحد فحسب . الحرب، وانقسام فرسان المملكة إلى فريقين، الأول مع الملك والثانى مع السير لونسلوت " .

أجل، ذلك هو السبيل الوحيد وليس غيره . أمر الملك بإعدام الملكة حرقا، كى تتطهر بالنار هنا . أنقذها لونسيلوت ورجاله، ولكى يحسم أمره دفع بخيرة أصدقائك وأصدقائى، وهم فى الحقيقة من خيرة الرجال ، أمثال السير بيلياس لى أورجولوس، السير سيجواريدس، والسير جريفلت لى فيلس دى ديو، والسير براندليس، والسير آجروفيل " .

" أوه، شققت نياط قلبى " .

" رويدك فلم أفرغ بعد، السير تور ، والسير جوتر، والسير جيليمر .."

" ذلك أفضل رجل فى احتياطى فريقى. وأفضل صّاد راد للكرة، بيمناه" .

" أخوة السير ريموند الثلاثة، السير داموس، والسير برياموس، والسير كاى الغريب .. "

" ذلك لانظير له فى فريقى، فى التوقف قبل خط النهاية ! رأيته ممسكا بقاطعة زهور بين أسنانه . هيا، أكمل، فقد زدت اشتياقى " .

" السير درايانت، والسير لامبيجوس، والسير هيرميند، والسير بيرتيلوب، والسير بيريمونيس، ثم، من تعتقد ؟"

" هيا ! قل " .

" السير جاهريس، والسير جاريث ــ معا " .

" أوه، رهيب ! إن حبهم للسير لونسلوت لايقاوم " .

" حسنا، حدث ذلك مصادفة . أولئك مجرد مراقبين، مجردون من السلاح، وقد حضروا هناك للشهادة على تنفيذ الحكم فى الملكة. كان السير لونسلوت يسقط كل من اعترض غضبته العمياء، وقد صرع هؤلاء دون أن يعبأ بشأنهم . هذه صورة فورية، التقطها أحد شبابنا من موقع الحدث، تباع فى مراكز بيع الصحف . هناك الحضور من الشخصيات الأقرب إلى الملكة، السير لونسلوت، بسيفه المشرع، والسير جاريث وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . يمكنك رؤية الألم على وجه الملكة، عبر ما تصاعد من دخان . هذه صورة حية للمعركة " .

" هذا صحيح . يجب أن نحتفظ بها ، فقيمتها التاريخية، لاتقدر بمال، أكمل ".

" الحقيقة أن بقية القصة حرب، حرب فحسب . انسحب لونسلوت إلى مدينته، وحصن جويوس جارد، وحشد هناك عددا هائلا من فرسانه . اتجه الملك إلى هناك على رأس جيش عرمرم، ودارت حرب ضروس، استمرت بضعة أيام، والنتيجة امتلاء أرض السهل بالجثث، والعتاد . ثم قامت الكنيسة بعقد هدنة بين آرثر

ولونسلوت، والملكة والجميع، الجميع عدا السير جاوينى، فقد ظل يشعر بغصة لمصرع إخوته، جاريس وجاهريس، ولم يقبل بالصلح . أعلن لونسيلوت عن منازلته هناك، فتأهب سريعا ، وترقب سرعة الهجوم عليه . على ذلك أبحر السيز لونسيلوت إلى دوقيته فى جوينى برفقة رجاله، فأسرع السير جووايني إلى اللحاق به على رأس جيشه، واحتال على آرثر للتحرك معه ، ترك آرثر إدارة شئون المملكة للسير موردرد، حتى يعود .. "

" آه، ذلك ما عهد به من ملك ."

" أجل، بدأ السير موردرد العمل على الفور ليبقى ملكا أبديا على البلاد . فشرع فى إجراءات الزواج من جينيفر، باعتبارها خطوة أولى ، ولكنها لاذت بالفرار منه ، وأوت بنفسها إلى برج لندن . تأهب موردرد للهجوم، ففوجئ بمطران كانتربرى يتخلى عنه بدعوى التحريم والحظر . عاد الملك، وحارب موردرد فى دوفر ، بمقاطعة كانتربرى، دار هناك حديث بشأن الصلح، وعقد اتفاق . وكانت الشروط أن تكون "كورنويل" و"كنت" من نصيب موردرد، خلال حياة آرثر، ثم تؤول المملكة كلها إليه بعد موته " .

" حسنا، مازلت على وعدىّ ! هذا حلمى الذى كان مجرد حلم بقيام الجمهورية، لايزال قابلا للتحقيق " .

" أجل، التقى الجيشان بالقرب من سالزبرى، وتوجه جاوينى إلى حصن دوفر، وسقط صريعا فى معركة هناك . ظهر جووايني لآرثر فى حلم، أو رأى طيفه على الأقل، يحذره بالكف عن القتال، ويصبر على هذا التوقف أيا كان الثمن. لكن القتال عاد إلى الاشتعال جراء حادثة . حيث كان آرثر قد أعطى جنوده أمرا، بأنه إذا رفع سيف أثناء المفاوضات بشأن التفاوض للاتفاق مع موردرد ، فلينفخ فى البوق ، ويبدأوا بالهجوم ! ذلك لأنه لايثق فى موردرد . وأعطى موردرد أمرا مشابها، لرجاله .

لابأس، فقد أعقب أن عضت حية كاحل أحد الفرسان، فنسى الفارس الأمر الصادر، وقطع رأس الحية بسيفه . اصطدم الجمعان فى معركة بعد نصف دقيقة من تلك الحادثة ! استمر القتال طوال اليوم . لقد حصل الملك على صحيفتنا، رغم أننا أدخلنا عليها منذ رحيلك تطورا جديدا " .

" ماذا ؟ماهو ؟"

" المراسل الحربى " .

" رائع، رائع " .

" أجل، حققت الصحيفة رواجا كبيرا، لأنها لم تخضع للتحريم أو المصادرة ، وقت اشتعال الحرب . كان لدى مراسلون فى كل من الجيشين . سأختم تلك المعركة بقراءة ما قاله أحد تلامذتك :

تطلع الملك حوله عندئذ، وتأكد أنه لم يبق من جيشه، وكل فرسانه الأشداء، سوى اثنين على قيد الحياة، هما السير لوكان دى بتليرى وأخوه السير بيديفير :

وقد أصيبوا جميعا بجراح قاتلة . قال الملك، يارب ارحم ، أين صار فرسانى الصناديد ؟ واأسفاه لأنى عشت حتى أرى هذا اليوم الكئيب . إننى الآن مشرف على النهاية، لكن يعلم الله أن ملاحقتى ذلك الخائن، السير موردرد، قد سببت كل هذه الفوضى . ثم انتبه الملك آرثر، فوجد السير موردرد، ملقى على الأرض فوق سيفه، وسط عدد كبيرمن القتلى . قال الملك للسير لوكان، هاتنى رمحى، فقد لمحت الخائن سبب هذه الكارثة راقدا هناك . قال السير لوكان، دعه يامولاى، فإنه يعانى الهوان ، فإنك إن تجاوزت هذا اليوم الحزين، ستكون بذلك قد نلت ثأرك منه . رباه، أذكرك بما رأيت فى حلمك، وما قاله طيف السير جاوينى لك فى تلك الليلة، وها قد حفظك الله بقدرته العظيمة . لذا فإنى أناشدك يا مولاى بحق الله، أن ترجع عن هذا . فقد

باركك الله بنصر مبين، وثلاثتنا الآن على قيد الحياة، ولم يبق إلى جانب موردرد أحـد . فإن تركت هذا الأمر الآن، فسينقضى هذا اليوم بما يحمل من شؤم . أعنى على المـوت، وهبنى حياة . قال الملك ، إننى أراه الآن وحيدا، ولا سبيل له للإفلات منا، ولن أجد فرصة أفضل من هذه للنيل منه . قال السير بيديفير: ليوفقك الله . ثم تناول الملك رمحه بيده، واتجه سريعا نحو السير موردرد وهو يهتف: أيها الخائن، لقد حان أجلك الآن، وحين سمع السير موردرد السير آرثر، أسرع نحوه وسيفه فى يده . ضرب الملك آرثـر السير موردرد ، ضربة عنيفة أسفل ترسه بمغول رمحه ، ضربة تجاوزت الجسد بـأكثر من قامة . وحين أدرك السير موردرد أنه قد أصيب فى مقتـل، دفـع بنفسه، قـدر مـا استطاع، باتجاه مقدم رمح الملك آرثر المدبب، وسدد إلى راعيه آرثر ضربـة مبـاشرة ، من سيفه بكلتى يديه، فى جانب من وجهه، فاخترق السيف الخوذة، وقحف الـدماغ، وبعدها سقط السير موردرد صريعا على الأرض . وسقط الشجاع آرثر فاقد الـوعى، وظل فى غيبوبته بعد ذلك " .

" كلارنس ، تلك رواية جيدة لمراسل حربى، إنك صحفى من الطـراز الأول . حسنا، هل الملك بخير، هل تعافى ؟ "

"كلا للأسف . لقد لقى حتفه " .

أصبت بذهول تام ، فلم أكن أفكر أبدا أن جرحا قد يتسبب فى منيته .

"وماذا عن الملكة ، ياكلارنس ؟ "

" أصبحت راهبة فى آلمسبيرى " .

" يالها من أحداث ! وقعت كلها فى وقت قصير . ذلك أمر محال . غريب ذلك، وماذا بعد ؟"

" يمكننى إخبارك بما هو آت ."

"حسنا؟"

" إعدامنا حرقا، والوقوف منا موقف المتفرج ."

" أجاد أنت فيما تقول ؟"

" الكنيسة هى السيد الآن . الحظر يشملك ومورردرد، ولا يمكن إسقاطه عنك ما حييت . الآن تجيش الجيوش . لقد حشدت الكنيسة من بقى حيا من الفرسان، وبمجرد انكشاف أمرك، سيكون أمامنا الكثير ما يلزم عمله."

"هراء ! أذلك مع كل ما نملك من وسائل للحرب العلمية الحديثة ، وما يتوفر لدينا من حشود مدربة .. "

" هون عليك، فلم يبق لدينا ستين من المخلصين ."

" ماذا تقول ؟ ومدارسنا، وكلياتنا ، وورشنا الضخمة .."

"حين يصل أولئك الفرسان، ستكون تلك المنشآت خالية ، وتصير بالطبع فى يد الخصوم . أتعتقد أنك ستمحو الإيمان بالخرافة من أذهان أولئك ؟ "

" ظننت ذلك بالفعل ."

" حسنا، لابد إذن أن تتخلى عن هذا الظن . لقد وقفوا ببساطة موقف المتفرج ، حتى بلغ الأمر حد التحريم . ومنذ ذلك الحين وهم يتظاهرون بالوقاحة والجرأة ، وقلوبهم ترتجف هلعا . تدبر الأمر، فعند قدوم أولئك الخصوم، ستسقط كل الأقنعة"

" هذه أنباء غاية فى السوء، لقد هلكنا. سيستخدمون علومنا للعمل ضدنا . "

" كلا لن يتمكنوا من ذلك " .

" لم؟"

" لأننى وحفنة من الأوفياء، قد وضعنا حدا لتلك اللعبة . سأخبرك بما فعلته، وما دفعنى إلى ذلك. إن كنت داهية ، فالكنيسة أكثر دهاء . تلك الكنيسة هى التى أرسلتك فى رحلة بحرية، من خلال خدمها من الأطباء ."

" كلارنس !"

"تلك هى الحقيقة، وأنا أعنى ما أقول . إن كل عامل على سفينتك، كان خادما مخلصا للكنيسة، وكذلك كل من كان يعمل من أفراد الطاقم ."

"أوه، ويحك! "

" الأمر كما أقول، لم أستطع كشف هذا كله دفعة واحدة ، بل اكتشفتها فى النهاية . ألم تبعث إلى شفاهة مع قبطان السفينة ما يفيد بأنك ستترك كاديز، لدى عودته إليك بالإمدادات.. "

"كاديز، إننى لم أطرق كاديز بالكلية ."

" وأنك ستغادر كاديز، وتقوم برحلة فى البحار البعيدة، لفترة غير محددة، لاستشفاء أسرتك ؟ أأرسلت لى هذه العبارة ؟"

" كلا، كنت سأبعثها إليك كتابة بالطبع، أليس كذلك ؟"

" بالطبع . ارتبت فى الأمر. حين أبحر القبطان مجددا للعودة، دبرت أمر إرسال جاسوس معه على السفينة. لم أسمع شيئا عن السفينة أو الجاسوس من وقتها . ترقبت لأسبوعين لتصلنى أخبار منك . وقررت بعد ذلك أن أبعث بسفينة إلى كاديز، وكان هناك ما حال بينى وبين ذلك " .

" ماهو ؟ "

" اختفى أسطولنا بغتة على نحو غـامض ! وبوغـت بتوقـف كـل مـن الـسكة الحديدية والتلغراف والهاتف عن العمل بصورة غامضة، وغادرها الجميع، وأسقطت أعمدة الهاتف والتلغراف، وفرضت الكنيسة حظرا على الإضـاءة بالكهربـاء ! وكـان حريا بى تدبر الأمر والعمل على وجه السرعة . كنـت بمـأمن مـن الخطـر، ولم يكـن لأحد فى المملكة كلها قبل بالاجتراء على المساس بساحر مثلك خلا ميرلين، يظـاهره عشرة آلاف رجل، ولم أفكر سوى فى كيفية تدبر منعـك مـن العـودة بطريقـة آمنـة . شعرت بدورى أننى آمن ، ولن تتوفر الرغبة لأحـد فى إيـذاء أحـد رجالـك . لـذلك فعلت الآتى. اخترت من بين كل منشآتنا المختلفة رجالا، مجموعة من الشباب، أعنى من أقسم يقينا على ولائهم فى ظل أى ضـغوط كانـت ، ودعـوتهم كلهـم فى الخفـاء ، وأصدرت إليهم التعليمات . لم يكن من بينهم من هو أقل سنا مـن الرابعـة عـشر ، أو يزيد على السابعة عشرة " .

" لماذا اخترتهم من الشباب ؟"

" لأن الآخرين، نشأوا على الإيمان بالخرافة ، وشبوا عليها، وهى تجرى فـيهم مجرى الدم فى الوريد . لقد تصورنا زوالها، وظنوا بدورهم ذلك، لكن التحريم أيقظها فيهم، كقصف الرعد ! الأمر يختلف مع الشباب فى هذه السن . حيث ظل أولئك تحت رعايتنا، فلم يكونوا يعرفون شيئا عن فظائع الكنيسة من سن السابعة حتـى العـاشرة، ومن بين هؤلاء اخترت اثنين وخمسين فردا . أعقب ذلك أننى قمت بزيارة خاصة، إلى كهف ميرلين القديم، ليس الكهف الصغير، بل الكبير .."

"أجل، الكهف الذى أقمنا فيه سرا تلك الوحدة الكهربية الكبيرة، حين كنـت أخطط لإحداث أعجوبة " .

" بالضبط. وبما أن تلك الأعجوبة لم تعد ضرورية فى ذلك الحين ، رأيـت أنهـا فكرة طيبة، لو استفدنا منها الآن، لقد جهزت الكهف ليكون ملاذا للإيواء .. "

" فكرة صائبة، ممتازة ."

" أعتقد هذا . وضعت هناك أربعة من الفتية، للحراسة فى داخله، بعيدا عن العيان . لن يتعرض أحدهم للإيذاء، إلا لو خرج منه، بينما لو حاول أحد دخوله ... فليجربوا ذلك فحسب ! خرجت من ثم إلى التلال، وتخفيت، وقطعت سلك الكهرباء السرى، والذى يوصل غرفة نومك بالأسلاك الممتدة إلى مخابئ الديناميت، الواقعة أسفل مصانعنا الضخمة ، وطواحيننا، وورشنا، ومستودعاتنا ، إلخ ، وخرجت مع الفتيان حين انتصف الليل، ووصلنا ذلك السلك بالكهف، ولن يساور أحد سواىّ وإياك ريبة حول الطرف الآخر منه. مددناه تحت الأرض، بالطبع، وانتهينا من ذلك كله فى بحر ساعتين أو نحو ذلك فحسب . ولن يكون علينا أن نغادر حصننا ، إذا كان من الضرورى أن ندمر ما أقمناه من منشآت حضارية " .

" تلك خطوة صحيحة، سارت فى المسار الصحيح ، وضرورة تستدعيها الحرب حال تبدلت الأمور . حسنا، ذلك ما استجد من أحداث ! توقعنا من آن لآخر أن نحاصر فى القصر، ولكن، لاعليك، أكمل " .

" أقمنا بعد ذلك سياجا من السلك " .

"سياجا سلكيا ؟"

" أجل، لقد ألمحت إلى ذلك بنفسك منذ عامين أو ثلاثة " .

" أوه، أذكر، حين حاولت الكنيسة احتواءنا فى المرة الأولى، وفكرت فى التو، أن من الصواب الانتظار حتى تسنح الفرصة . حسنا، وكيف أعددت السياج ؟"

" بدأت باثنى عشر سلكا من الأسلاك الضخمة، العارية، غير المغطاة بعازل، جئت بها من مولد كبير فى الكهف، مولد خال من الفرجون ، عدا السالب والموجب منه ــــ "

" أجل، ذلك الصواب " .

" تخرج الأسلاك من الكهف، لتكمل دائرة كهربية، بمستوى الأرض لمسافة مائتى ياردة، فى قطر دائرة، يصنع اثنى عشر سياجا، ينفصل كل عن الآخر، بقدر عشرة أقدام، أو بمعنى أصح، اثنتا عشرة دائرة متداخلة، تصل أطرافها مجددا إلى الكهف " .

" عظيم، أكمل " .

" شدت الأسيجة إلى أعمدة بلوطية غليظة، تنفصل عن بعضها بقدر ثلاثة أقدام، وهذه الأعمدة غائرة فى الأرض لمسافة خمسة أقدام " .

" هذا يعكس ما فيها من قوة ومتانة " .

" أجل . فالأسلاك دون موصل أرضى خارج الكهف . وهى تخرج من قطب المحرك الموجب، وهناك موصل أرضى عبر القطب السالب، أما طرفا السلك، فيعودان إلى الكهف، وكل مستقل عن الآخر تحت الأرض " .

"كلا ،كلا، هذا ليس صوابا " .

"لم؟"

" هذا مكلف جدا، إنه يستنفد طاقة بلا موجب . فلست فى حاجة إلى موصل أرضى، عدا ذلك المار عبر الفرجون السالب . يجب أن يكون الطرف الآخر من كل سلك موصلا إلى الكهف ومثبتا كلا على حدة، دون أى موصل أرضى . لاحظ الآن ما تحقق من وفر فى الطاقة . فحال تقدم فرقة الفرسان نحو السلك، لن تستخدم طاقة تذكر، و فى ذلك وفر للتكلفة، لأنه سيكون هناك موصل أرضى واحد فحسب حتى قدوم تلك الجياد نحو السلك ، وبمجرد مس الجياد للسلك حيث تعد موصلا بالفرجون السالب عبر الأرض، تسقط صريعة . أتدرك ذلك ؟ إنك هنا لاتستنفد

طاقة، إلا إذا احتجت إليها، فمصدر الضوء المعد للاستخدام ، كالـذخيرة للبندقيـة، ولن يكلفك سنتا مالم تمسسه . أوه ،أجل، ففرد السلك من الموصل الأرضى .. "

" بالطبع . فأنا لاأعرف كيفيـة التعامـل وإيـاه . وإنـه لـيس تقليلا فى النفقـة فحسب، لكنه يتجاوز فى فاعليته الطريقة الأخرى، حال تعرضت الأسلاك للقطع أو التشابك، فلن يعوقها عن العمل شيء".

" أجل، خاصة إذا طرأ عطل فى الكهف، وانفصل السلك المقطـوع . حـسنا ، أكمل، وماذا بشأن البنادق ؟ "

" أجل، إنها معدة . وضعتها وسط الدائرة الداخلية، على لوحة كبيرة ارتفاعهـا ستة أقدام، حيث جمعت ثلاث عشرة بندقية، وجهزت كما كبيرا من الذخيرة " .

" أحسنت . وذلك لإيقاف أى تقدم، وحين يصل فرسان الكنيسة، تـستقبلهم ألحان البنادق . ذلك النتوء بأعلى الجرف.. "

" وضعت سياجا سلكيا هناك، ومدفعا صغيرا . إنهم لن يلقوننا بالحجارة مـن عل ."

" حسنا، وماذا عن الإسطوانات الزجاجية المزودة بأصابع الديناميت ؟ "

" تلك معدة أيضا . تلك أجمل ما زرع من بـساتين . تقـع فى حـزام يبلـغ مـن السعة أربعين قدما، يحيط بالسياج الخارجى، ويبعد كلاهما عن الآخر بقدر مائة ياردة، تلك المساحة تشكل أرضا محايدة .

لـيس هنـاك يـاردة واحـدة داخـل ذلـك الحـزام بـأسره ، إلا زودت بوحـدة ديناميتية. ثبتناها على سطح الأرض، وغطيناها بطبقـة مـن الرمـل . تبـدو للنـاظر بستانا مأمونا، ولكن دع شخصا يهرع إلى حرثه ، وسوف ترى " .

"هل اختبرت أصابع الديناميت " .

" الحقيقة أننى كنت بسبيل ذلك ، ولكن .."

"ولكن ماذا ؟ فيم ذلك ، إن من الخطأ ألا تجرى .. "

" اختبارا ؟ أجل أعرف ذلك، لكنها بخير، لقد وضعت بضعة منها على الطريق العام، خلف خطوطنا، وهذه قد اختبرت بالفعل " .

" أوه، هذا يختلف . فيم ؟"

" فى لجنة الكنيسة ."

" كيف؟"

" حقيقة ذلك أنهم كانوا قد أتوا ليأمرونا بالاستسلام . تعرف أنهم لم يأتوا حقيقة لتجربة الديناميت، فذلك قد حدث بالمصادفة البحتة ."

" هل كتبت اللجنة تقريرها ؟ "

" أجل، كتبوا تقريرا، كان يمكنك سماعه على مسافة ميل "

" بالإجماع ".

" تلك طبيعة اللجنة. أصدرت بعض الأوامر ، بغرض توفير الحماية للجان التالية، ولم يحضر دخلاء منذ ذلك الوقت " .

"كلارنس، لقد أنجزت الكثير، أديته على الوجه الصحيح " .

" لدينا من الوقت المزيد ، ولا داعى للعجلة " .

جلسنا نفكر لوهلة فى صمت، ثم وجدتنى أقول :

" أجل، فكل شيء معد، وكل شيء مرتب، ولا ينقصنا شيء، إننى أدرك ما أنا الآن بسبيله " .

" وكذلك أنا، فإننى أجلس وأترقب " .

" كلا ياسيد !بل انهض واشرع فى التقدم !"

" أجاد أنت فيما تقول ؟"

" كل الجدية ! فالدفاع ليس ديدنى، بل الهجوم . حين أكون مطلق اليد، فإننى أتفوق على الأعداء بقدر الثلثين. أجل، ستتحرك ، ونبدأ بالهجوم، فلنبادر الآن".

" أنت على صواب بنسبة مائة إلى واحد . متى يبدأ العرض ؟ "

" سنعلنها جمهورية ! الآن ".

" حسنا ، سيعجل ذلك لامحالة بتدافع الأحداث " .

"أؤكد لك أن ما نفعله، سيثير ضغينتهم ! ستصبح إنجلترا ظهيرة غد، عشا للدبابير، لو فقدت الكنيسة حنكتها ، وإننا نعلم أنها تفتقر إلى الحكمة .اكتب ما أمليه عليك الآن :

بيـان هـــام

" ليكن معلوما للجميع، أنه وبما أن الملك قد مات ، ولم يخلف وريثا، يصبح من واجبى الاضطلاع بالسلطة الفعلية فى البلاد، حتى تنتخب حكومة تتولاها . لقد انتهت الملكية ولم يعد لها وجود، وأعقب ذلك عودة السلطة السياسية إلى أفراد الأمة ، وهم المصدر الرئيس لها . ذهب مع الملكية أيضا كل ما ارتبط بها، ولم يعد هناك وجود للنبلاء، والطبقة العلية، والكنيسة الرسمية، صار أفراد الشعب، متساوين فى كل

شيء، ومتمتعين بحرية العقيدة . بموجب هذا يعلن الآن عن قيام جمهورية ، وكون السلطة الحقيقية بيد الشعب، فقد تراجعت ما عداها من سلطات . وعلى الشعب البريطانى أن يحشد أفراده فى الحال، ومن خلال أصواتهم، ينتخبون، ممثلين لهم، ويضطلعون بالشئون الحكومية .

وقعت البيان بكلمة " الزعيم " وصدرته من كهف ميرلين، قال كلارنس :

" عجبت لك، سيدلهم ذلك على مكاننا، ويدعوهم إلى القدوم إلينا مباشرة".

" ذلك ما قصدته بالفعل. أن نبادر بالبيان، ثم نترقب ما سيفعلونه . أعد الآن هذا البيان، واطبعه، وانشره على الملأ، فذلك يفى بالغرض، رتب الأمور من ثم، لو أن لديك دراجتين جاهزتين عند سفح التل، فهيا لكهف ميرلين !"

" سأكون جاهزا فى عشر دقائق . أى إعصار ذلك الذى سيهب فى الغد حين تأتى هذه القطعة من الورق ثمارها ! .... ياله من قصر عتيق يبعث فى النفس البهجة ، ترى هل سيكون لنا أن ...، ولكن لاعليك من ذلك " .

الفصل الثالث والأربعون

معـركـة الحـزام الـرملـى

اجتمعت وكلارنس فى كهف ميرلين، برفقة اثنـين وخمـسين مـن البريطـانيين الشباب ، الذين تميـزوا باليفاعـة، ورجاحـة العقـل والثقافـة، والحيويـة ، والنقـاء . أصدرت بيانا عند طلوع الفجر، إلى كل المصانع، وإلى كل مؤسساتنا العاملة، بالتوقف عن العمل ونقل كل ألوان النشاط إلى منطقة آمنة، حيث سيتعرض كل شيء للتفجير ، بألغام أرضية، "ورغم جهلنا بوقت حدوثه ، أخلوا المكان فى الحال". كـان أولئـك يعرفوننى حق المعرفة، وكانوا على ثقة فـيما أقـول. سـوف يخلـون المواقـع دون أدنـى تأخير، ويمكننى اغتنام الفرصة لتحديد وقت الانفجار . فلايمكنك استخدام أحدهم للعودة إلى العمل على مدار القرن، والانفجار وشيك الوقوع .

ترقبنا أسبوعا. لم أشعر خلاله بملل، فقد قضيته فى الكتابـة . انتهيـت خـلال الثلاثة أيام الأولى من تحويل يومياتى القديمة إلى سرد روائى، وتطلب الأمـر زيـادة فصل أو أكثر لمواكبة ماجد من أحداث. أما بقية أيام الأسـبوع، فاسـتغرقتها فى كتابـة الرسائل إلى زوجتى. اعتدت دوما، الكتابة إلى ساندى كل يـوم، حـين يكـون أحـدنا بعيدا عن الآخر، والآن أواظب على الكتابة، حبا فيها وفى الكتابة معا رغم أنى أقطـع صلتى بالرسائل بعد كتابتها . لكنها تستنفد الوقت كـما تـرى، وتكـاد فى ذاتهـا تـشبه الحوار، وكأننى أقول " ساندى، لو أنك و(مرحبا ــ سنترال) معى هنـا فى الكهـف، عوضا عن الصور الفوتوغرافية، لقضينا معا أوقاتا سعيدة ! " كما تعرف من ثـم أننـى أتخيل الطفلة، وهى تهمهم بشيء، وفى فمها أصابعها الرقيقة ، وقد تمددت على ظهرها

فى حجر أمها، والأم تستغرق فى الضحك، والإعجاب والوله بها، ومن آن لآخر، تدغدغها أسفل ذقنها، كى تواصل الطفلة الثغاء، فيتصادف أن ترمينى بكلمة تحاكى بها ما أقول، ودواليك ، دواليك، حسنا، وأصدقك القول، إن زعمت أننى كنت سأقدر على الجلوس هناك فى الكهف ولا أوقف قلمى عن الكتابة بالساعات بصحبتها. غريب هذا، وكأننا قد أوشك شملنا على الالتئام مجددا.

كنت أبعث بمن يتقصى الأخبار خارج الكوخ . كان كل خبر يصلنى، يجعلنى أزداد اهتماما .

كان حشد الجموع ،قائما على قدم وساق، وكان فرسان إنجلترا يرتحلون ، ويقطعون المجازات والطرقات، وبصحبتهم الرهبان، لمؤازرة الصليبيين الرواد ، كونها حرب الكنيسة . كل النبلاء، صغير الشأن منهم والكبير، كانوا على قلب رجل واحد وكذلك أصحاب المقام الرفيع . وكل ذلك كان موضوعا فى الحسبان . وكان علينا أن نحد من هذا النوع من البشر، إلى الحد الذى يجعل الناس لايجدون أمامهم سوى أن يخطوا إلى الأمام بجمهوريتهم و..

آه، يالى من غبى ! بدأت بقرب نهاية الأسبوع باستعادة تلك الحقيقة الكبرى والدامغة فى رأسى، والتى تؤكد أن جماهير الشعب، قد رفعوا قبعاتهم، وهتفوا للجمهورية، لما يقارب يوما واحدا فحسب ، ثم انتهى كل شيء ! لقد إستاء النبلاء والكنيسة والنخبة منهم جراء فعلتهم هذه، استياء كبيرا، ومسخوهم شياها ! ومنذ تلك اللحظة بدأت الشياه، تأوى إلى الحظيرة، أو بالأصح، إلى المعسكرات، وتقدم حياتها رخيصة، وصوفها الثمين، فداء " لحق القوامة " . ومن الغريب أن أولئك البشر أنفسهم قد صاروا فى الأيام الأخيرة عبيدا بحق القوامة ، يعلون من شأنه ويمجدونه، ويبتهلون له، ويفرطون فى الهيام به، شأنهم فى ذلك شأن كل الخانعين .

تخيل أن يسقط هؤلاء فى الحضيض ، وتأمل قدر ما فى ذلك من حماقة !

أجل، الهتاف يتردد الآن " الموت للجمهورية !"يتردد فى كل الأرجاء، وما من معارض . إنجلترا الآن كلها فى مواجهتنا ! كان هذا فى الحقيقة، يجاوز ما راهنت عليه.

تأملت رجالى من الشباب الاثنين والخمسين عن قرب، بدءا من سيماهم، ومشيتهم، وأوضاعهم التلقائية، ذلك فى ذاته أسلوب يبين لنا احتمال انكشاف وقت الشدة، حين تكون لدينا أسرار، وجب عليهم الاحتفاظ بها . أدركت أن هذا الخاطر سيجعلهم يرددون تلك المقولة تلقائيا مرات ومرات، "إنجلترا تتقدم فى مواجهتنا ". وأن يزدادوا فى كل مرة حماسا، وأن تتركز هذه العبارة تماما فى أخيلتهم، و لاتفارقهم حتى فى ساعات النوم، بل ليسمعوا فى أحلامهم كائنات غريبة غامضة تردد: " إنجلترا كلها، وكل إنجلترا تتقدم فى مواجهتنا ! " أدركت أن هذا كله سيحدث، وأعرف كلية بالضغط الذى سيصبح هائلا، إلى حد فقد القدرة على النطق ، وكان يجب رغم ذلك أن أكون متأهبا لتلك اللحظة بإجابة واحدة، إجابة شافية، مفحمة .

كنت محقا، فقد حان الوقت لينطق أولئك الفتية المساكين، فقد كان من المحزن أن ترى عليهم هذا القدر من الشحوب، والأسى والقلق . كان من الصعب أن ينطق المتحدث باسمهم بكلمات أو يجد فى تلك المناسبة ما يعبر به، بل عجز عن الإثنين . هذا ما ذكره بالفعل ، وصاغه بدقة فى عبارات إنجليزية حديثة تعلمها فى دورى التعليمية :

" لقد حاولنا أن ننسى هوياتنا، باعتبارنا مواطنين إنجليزيين ! وحاولنا أن نقدم العقل على العاطفة، والواجب على الحب ،عقولنا تتقبل، وتتأبى علينا قلوبنا . واضح أن أولئك هم أفضل النبلاء، وأفضل النخب، وأفضل خمسة وعشرين أو ثلاثين ألفا من الفرسان، ممن بقوا أحياء بعد الحروب الأخيرة، كنا معهم على قلب رجل واحد، لاتعترضنا أدنى ذرة من شك ، وإن كل من الفتية الاثنين والخمسين الواقفين أمامك هنا يردد " هذا خيارهم ، وهذا شأنهم " . ولكن قلب فى الأمر على كل أوجهه ! لقد

اختلف الحال الآن، لأن"إنجلترا تتقدم لمواجهتنا عن بكرة أبيها " ! أجل، تدبر الأمر، سيدى ! فكر مليا ! فهؤلاء أهلونا، إنهم لنا اللحمة والسداة، وإننا نحبهم، فلا تطلب منا القضاء على أهلنا " .

ذلك يبين أهمية تدبر الأمر مسبقا، والتأهب لما يرتقب حدوثه . فإذا لم أكن أضع لهذا الشيء حسابه وأعالجه فى حينه، فقد يفتك بى هذا الشاب ! لم أقو فى البداية على الرد بكلمة . لكننى كنت حاضر الذهن. قلت :

" أبنائى، إن قلوبكم فى الموضع الصواب ، وتفكيركم هو الأمثل ، وقد فعلتم ما ينبغى فعله. أنتم شباب إنجليز أصلاء ، وستظلون كذلك، وستحملون هذه الصفة خالصة، لايمسسها سوء. فلا تقلقوا من بعد، ولتستكن عقولكم . تأملوا أنه بينما تتقدم إنجلترا عن بكرة أبيها لمواجهتنا، فمن يكون دوما فى طليعة الجيش ؟ ومن بقواعد الحرب المعروفة، سيحتل المقدمة ؟ أجيبونى ؟"

" حشد فرسان الخيالة المدرع، لابسو الخوذات ؟ "

" هذا صواب . إنهم ثلاثون ألفا من الفرسان الأشداء، يتقدمون فى صفوف طويلة . اعلموا أنه من الآن لن يجرؤ أحدهم على التقدم نحو الحزام الرملى ! تلك حلقة واحدة من مسلسل الأحداث . سينسحب بعدها على الفور حشد المؤخرة من المدنيين، للاشتباك فى موضع آخر . لن يكون هناك سوى النبلاء والنخبة من الفرسان، لن يبقى سوى هؤلاء، للرقص على موسيقانا، بعد انتهاء تلك الحلقة . وأنه من جادة الصواب ، ألا نحارب سوى أولئك الثلاثين ألف فارس. تحدثوا الآن، فالأمر مردوده إليكم . أنتنكب القتال ، ونعود من ساحة الوغى ؟ "

"كلا !"

جاء الهتاف حماسيا، مدويا .

" أتخشون ..... أتخشون، هؤلاء الثلاثين ألفا من الفرسان ؟"

أثارت تلك الدعابة الكثير من الضحك، وسرت عن الفتيان، فمضوا إلى مواقعهم منشرحي الصدور . آه، كانوا اثنين وخمسين من الأحبة، وكانوا ملاحا أيضا كالفتيات .

أعددت الآن للخصوم . وليأت يوم الزحف الكبير، ليجدنا على أهبة الاستعداد .

أتى اليوم الكبير فى موعده . دخل الكهف الجندى القائم بالحراسة عند السياج، وأخبرنا بأن كتلة سوداء متحركة، تبدو تحت الأفق، يصاحبها صوت خفيض، يظنه لموسيقى عسكرية . كان الإفطار معدا، فجلسنا وتناولنا الطعام .

حين انتهينا، ألقيت فى الشباب خطبة قصيرة، ثم أصدرت أمرا بتأهب المدفعية، تحت قيادة كلارنس .

أشرقت الشمس سريعا، وأرسلت أشعتها النافذة إلى الأرض، ورأينا جيشا عرمرما، يتحرك وئيدا باتجاهنا، بخطى ثابتة كموج البحر ، وجبهة منتظمة . ازداد تقدمه، واتخذ صورة مهيبة شامخة، أجل، فقد وضح أنها إنجلترا عن بكرة أبيها . سرعان ما تمكنا من رؤية رايات بلا حصر، ترفرف، وألقت الشمس بأشعتها على بحر الدروع، فائتلق بالوميض . أجل ، إنه مشهد رائع، لم أر ما يفوقه روعة من قبل .

صرنا آخر الأمر نتبين كل التفاصيل . الصفوف الأمامية جميعًا، ولا نهاية لهذا الكم من الخيالة ، مفخرة الفرسان الدارعين . سمعنا بغتة دوى الأبواق، ثم تحول السير الوئيد إلى العدو، ثم، حسنا، ياله من مشهد عجيب ! انطلقت نحو حزام الرمال، موجة من حداء الخيل، ظلت أنفاسى محتبسة، كلما زادوا اقترابا، وازداد ضيقا ذلك الشريط المجرد من الخضرة خلف الحزام الرملى، وصار أمام الجياد مجرد شريط ،

ثم اختفى تحت حوافرها . يااللإسكتلندى العظيم ! ياللهول، هاقد تناثرت مقدمة الجيش فى الهواء ، جراء انفجار رهيب، وثارت عاصفة هوجاء من الأسمال والبقايا، وتكثف فوق الأرض حائط كثيف من الدخان، وارى ما تخلف من الجموع عن أعيننا.

حان وقت تنقيذ المرحلة الثانية من خطة الهجوم ! ضغطت زرا، فانفصلت عظام إنجلترا عن مفاصلها فى الهواء !

ذهبت بدورها أدراج الرياح جراء الانفجار ، كل مؤسساتنا الحضارية ، واختفت من فوق الأرض، وكان ذلك ضروريا بمكان رغم ما يحمل لنا من أحزان . فلم يكن فى وسعنا ترك الخصوم، يحولون أسلحتنا إلى صدورنا.

انتهى الآن أحد أكثر أرباع الساعة مللا ، لاطاقة لى أبدا بتحمله . ترقبنا فى قفر ران عليه الصمت ، أحاط بدوائرنا السلكية المكهربة، وبدائرة من الدخان الكثيف خارجها . لم نتمكن من رؤية شيء خارج جدار الدخان أو من خلاله . لكنه انقشع تدريجيا وبسرعة، وصارت الأرض فى ربع الساعة التالى، أكثر وضوحا، ولم يلبث أن تمكن فضولنا من التشبع. مامن كائن على وجه البسيطة كان ظاهرا للعيان ! أدركنا فى هذه اللحظة أن هناك ما أضيف إلى مواقعنا الدفاعية . لقد أحدث الديناميت، هوة عظيمة، تزيد فى السعة عن المائة قدم ،تحيط بنا من كل جانب، وتشكل سدا منيعا يبلغ ارتفاعه حوالى خمسة و عشرين قدما فى كل من طرفيه. كان ما حدث من دمار، مثيرا للذهول. يزيده ذهولا ، أنه قد تجاوز كل الاحتمالات. لم نستطع بالطبع ،إحصاء عدد القتلى، حيث لم يعودوا أشخاصا بعد، وسط قطع المعدن والأزرار .

لاحياة تبدو فى الأفق، لكن كان هناك بالضرورة بعض الجرحى فى صفوفهم الخلفية، قد أخلوا من الساحة تحت وقاء جدار الدخان . و هناك جرحى بين الآخرين، وذلك يحدث دوما بعد مرحلة من الصراع كتلك . ولكن لن تأتيهم من ثم

أى تعزيزات، فهذه هى الكتيبة الأخيرة من سلاح الفرسان الإنجليزى، وهذا كل ما بقى منها ، بعد الحروب المدمرة الأخيرة . لذلك شعرت براحة تامة وأنا أفكر بأن القوة الكبرى، التى يمكنهم استدعاؤها لمواجهتنا فيها بعد، لن تمثل سوى قلة من هؤلاء الفرسان . لذلك أصدرت بيانا محفزا، لجيشى، ضم هذه الكلمات:

أيها البواسل، طلائع حرية البشر ، والمساواة، قائدكم يحييكم ! لقد تقدم لملاقاتكم عدو أثيم بكل ما يحمل من قوة وخيلاء . إننا متأهبون لمواجهته . المعركة قد حسمت من جانبكم فى وقت قصير. وها قد تحقق لكم نصر مبين مؤزر ، دون خسائر تذكر، لايضارعه نصر آخر فى التاريخ .

وما دامت ظلت الكواكب دائرة فى أفلاكها، فلن تمحى من ذاكرة البشر معركة الحزام الرملى . الزعيم " .

تلوتها بتؤدة، وأسعدنى ما تلقيت من هتاف . ختمت الكلمة بهذه الملاحظات:

" لقد أوشكت المعركة مع الشعب الإنجليزى باعتباره أمة ، على النهاية، وتراجع أفراده من ساحة القتال . وقبل أن يستجمع قواه لمعاودة الكرة ، تكون الحرب قد توقفت، وتصبح هذه هى الحملة الوحيدة التى استحقت أن تخاض. لقد كانت المعركة من القصر ، بل هى الأقصر فى التاريخ . وهى أيضا الأكثر إفناء للبشر، إذا أخذ فى الحسبان عدد الإصابات قياسا بمن اشتركوا فيها . لقد انتهت معركتنا مع الشعب ، ويبقى من الآن فصاعدا أن تكون مع الفرسان فحسب. ربما يمكن قتل الفرسان الإنجليز لكن لايمكن هزيمتهم . إننا نعلم ما ينتظرنا. فمادام بقى أحدهم على قيد الحياة، فإن مهمتنا لم تنته بعد، وإن الحرب لم تشهد نهايتها " . (هتاف متواصل وحاد) .

أجريت على السدين المحيطين بنا، والذين صنعهما انفجار الديناميت ، حراسة من شابين فحسب، للتنبيه بقدوم العدو عند ظهوره مجددا .

أعقبت ذلك بإيفاد مهندس وأربعين رجلا إلى نقطة خلف خطوطنا مباشرة ، تقع فى الجنوب ، وذلك لتحويل مجرى غدير جبلى يقع هناك، والدفع بتياره إلى داخل خطوطنا، ووضعه تحت سيطرتنا، وإعداده بطريقة تمكننى من الاستفادة منه وقت الحاجة. قسم الرجال الأربعون إلى مجموعتين مناوبتين ، تضم كل منها عشرين فردا، وذلك للتناوب كل ساعتين مع بعضهم البعض بقصد الراحة.

عند حلول الليل، قمت بسحب الحارسين. أبلغ الحارس المعين على الجهة الشمالية، بوجود معسكر يبعد عنا، لكنه ظاهر لنا بالنظارات المكبرة . أبلغ أيضا بأن بضعة فرسان، يتحسسون طريقهم باتجاهنا، وأنهم دفعوا عبر خطوطنا ببعض الماشية، لكن الفرسان أنفسهم لم يتقدموا لمسافة قريبة . ذلك ما كنت أتوقعه. إنهم بالطبع يتحسسون سبلنا، ويريدون أن يستطلعوا ما إذا كنا سنكرر إحداث الرعب الرهيب مجددا . ربما تتزايد جرأتهم بحلول الليل. ظننت أننى أعرف ما يخططون له ، لأن ذلك صراحة، هو ماكنت لأفعله ، لو مررت بالظروف نفسها، وكنت جاهلا مثلهم. ذكرت ذلك لكلارنس.

فقال لى :

" أظنك على صواب، وهذا لامحالة ما سيسعون إليه ."

قلت :" لابأس إذن، لو فعلوا ذلك ، فسيلقون مصيرهم المحتوم ."

" لامحالة " .

" لن يكون لديهم أدنى فرصة للبقاء فى هذا العالم ".

" هذا بالطبع لن يكون ."

" فظيع، ياكلارنس، ذلك يدعو لمزيد من الأسى . "

أقلقنى كثيرا، افتقادى راحة البال ، لانشغالى بهذا الأمر وسهرى الدائم بشأنه . لذا ولكى أريحَ ضميرى، دبجت أخيرا هذه الرسالة للفرسان :

" إلى صاحب السمو، قائد سلاح الفرسان الإنجليزى : أنت تقاتل دون جدوى . إننا نعرف حجم قوتك، ذلك لو أنها لم تزل قوة يعتد بها. نعلم أنه لايمكنك استدعاء أكثر من خمسة وعشرين ألف فارس. لذلك فالفرص تنعدم أمامك بكل أشكالها . تأمل أن إعدادنا كان على أكمل وجه، ودفاعاتنا منيعة، وعددنا ٥٤ . أربعة وخمسون ماذا ؟ رجل ؟ كلا، وإنماعقول هى الأكفأ فى العالم قاطبة، قادرة على مواجهة قوى جسدية فحسب ، ليس لديها أمل فى النصر سوى ما يظفر به زبد البحر من سدود إنجلترا الجرانيتية. تقبل النصح. إننا نعرض عليكم الظفر بأرواحكم، من أجل عوائلكم ، فلا ترفضوا العرض الكريم . إننا نقدم لك هذه الفرصة، وهى الأخيرة، بالتخلى عن أسلحتكم، والتسليم بالجمهورية دون شروط، وسنعفو عما سلف " .

(توقيع). الزعيم . "

قرأت ذلك لكلارنس، وأخبرته بأننى أقترح ، إرساله مرفقا بعلم الهدنة . ضحك ساخرا، وهى الضحكة المألوفة لديه ، وقال :

" يبدو هذا مستحيلا بنحو أو آخر ، لعدم إدراكك البتة، طبيعة هؤلاء النبلاء . فلنوفر على أنفسنا الآن الوقت والانشغال الدائم . تخيل أننى قائد الفرسان فى الطرف الآخر، فتقدم أنت براية الهدنة، وسلمنى رسالتك، وسأقدم لك الجواب".

استملحت الفكرة . وتقدمت فى حراسة أحد جنود الأعداء، وقدمت الورقة، وقرأتها . وردا على ذلك، أسقط كلارنس الورقة من يدى بضربة منه، مشيعا إياى ببسمة ازدراء، وقال بغطرسة ظاهرة ..

" مزقوا هذا الحيوان، وأعيدوه فى سلة، إلى كنف سيده الوضيع بالنشأة، وليس عندى رد سواه ".

ياالخواء النظرية أمام الواقع اوهذا واقع مجرد ولا شيء سواه . وهوأيضا ما كان سيحدث بالتفصيل ، لامحالة. مزقت الورقة، ومنحت ما جاش من عاطفة طارئة، إجازة طويلة .

والآن إلى العمل . جربت الإشارات الكهربية، من منصة إطلاق النار، حتى الكهف، وتأكدت من جاهزيتها، ثم اختبرت وأعدت اختبار تلك الأسلاك المحيطة بالأسيجة، وهى الإشارات التى يمكننى عن طريقها وقف وإعادة تشغيل التيار الكهربى، فى كل سياج بمعزل عن الأسيجة الأخرى فى الوقت المناسب . أسندت مسئولية العمل على غدير المياه ، إلى الحارس، وتحت إدارة ثلاثة من خيرة الشباب، ممن سيقومون بتبديل المناوبة طوال الليل كل ساعتين ، والاستجابة الفورية لإشارتى، حين تسنح الفرصة لى، وهى ثلاث طلقات متتالية من المسدس . ألغيت مهمة خفارة الليلة، وتركت السياج الكبير خاليا من الحركة حوله، وأمرت بأن يستمر الهدوء فى الكهف، وأن يقل الضوء إلى حد الذبول .

بمجرد أن ران الهدوء والعتمة، فصلت التيار الكهربى عن كل الأسيجة، وتوجهت قاصدا، السد الرملى، الذى يحدنا حيث مكان الحفرة الكبيرة الملغومة بالديناميت . زحفت إلى قمته، ورقدت هناك على منحدرموحل، لمراقبة الموقف . لكن الظلمة كانت تحول دون رؤية شيء، كما خلت المنطقة من الأصوات . ران سكون أشبه بجمود الموت . صحيح أن المكان لم يكن يخلو من أصوات الليل المألوفة فى البلدة، والظاهرة فى هديل طيور الليل، وطنين الحشرات، ونباح الكلاب البعيد، وخفوت الحركة النائية، لكن يبدو أنها لاتخترق السكون، وإنما تكثفه، وتضيف إليه مزيدا من الكآبة الرهيبة .

توقفت فى الحال عن الاستطلاع، فقد دمس الظلام ، لكننى جعلت سمعى يقظا ، لالتقاط ما يثير الشك بحدوث أدنى صوت، حيث ارتأيت أنه ليس أمامى سوى الترقب فحسب، كما يجب ألا ينفد صبرى . ورغم ذلك فرضت الضرورة طول الترقب. التقطت فى النهاية ما يمكن أن يشير إلى أصوات غير مميزة . صوت رنين معدنى مكتوم. أرهفت سمعى، وحبست أنفاسى، فقد كنت أتحسب لهذا الشيء. تكثف الصوت واقترب من جهة الشمال . سرعان ما وصل إلى مستوى السمع ، من أعلى التلة المواجهة للسد، على مسافة مائة قدم أو يزيد . ثم تراءى لى أننى أشهد صفا من النقط السوداء، تظهر بطول تلك التلة ـ أرؤوس بشرية هى ؟ لم أستطع تمييزها، لعلها لاشيء البتة ،حيث لا يمكنك الوثوق بعينيك حين يكون خيالك معطلا .

حلت المعضلة رغم ذلك فى الحال . سمعت الضجيج المعدنى هابطا إلى الحفرة الكبيرة . ازداد وقعه سريعا وانتشر فى المكان، وزودنى بحقيقة لاتحتمل اللبس ، بأن جيشا مسلحا بالعتاد ، كان يتخذ مواقعه فى الحفرة الهائلة . أجل، لقد كان هؤلاء يعدون مفاجأة سعيدة رقيقة لنا . يمكننا الآن توقع القصف واللهو عند الفجر، أو قبله .

عدت أدراجى إلى السياج الكبير ، بعد قناعتى بما شاهدت . مضيت إلى المنصة وأشرت بمد السياجين الداخليين بالتيار الكهربى . دخلت الكهف، ووجدت كل شيء ساكنا، والكل رقودًا، إلا القائمين بالحراسة . أيقظت كلارنس، وأخبرته أن الحفرة الكبيرة، حافلة بالرجال، وأنى أتوقع تقدم الفرسان لملاقاتنا، على قلب رجل واحد، وأن من رأيى أنه بمجرد حلول الفجر، يمكننا توقع أن تأوى الهوة الضخمة الآلاف، حتى تصل الحشود إلى أعلى الساتر، يبادرون بالهجوم، ويلحق بهم بعد ذلك بقية الجيش.

قال كلارنس :

" سيحتاجون لإيفاد كشاف أو اثنين فى الظلام، للاستطلاع الأولى . لم لاتفصل التيار عن الأسيجة الخارجية، وتمنحهم سبقا ؟"

" لقد فعلت ذلك ياكلارنس، أتعرف عنى أننى لاأحسن استقبال الضيوف ؟"

"كلا، فأنت طيب القلب، إننى أرغب فى الذهاب ،و .. "

" تكون أحد المستقبلين ؟ سأصحبك بدورى " .

عبرنا منطقة الحزام، وكمنا معا، بين السياجين الداخليين . أفسد علينا الرؤية ضوء الكهف المعتم على نحو وآخر، لكن التركيز قد بدأ ينتظم تلقائيا على الفور ، ليتلاءم سريعا مع الظروف الحالية . كان علينا أن نتحسس طريقنا من قبل، لكننا تمكنا الآن من مشاهدة قضبان السياج . بدأنا الحديث همسا، فهتف كلارنس بى :

" ما هذا ؟"

" ماذا تقصد ؟"

"ذلك الذى هناك ؟"

" ماذا ؟ أين ؟"

" ذلك الذى يقع خلفك بقليل، شيء قاتم، يتخذ صورة سديمية ، أمام السياج الثانى " .

تفرس بعينه، وحدقت ببصرى فى هذا الشيء ، ثم قلت :

" هل هذا لرجل ياكلارنس ؟"

" كلا، لا أظن ذلك . لو لاحظت أن، يبدو هذا غريب، إنه لرجل ! رجل منحن فوق السياج " .

" إنه كذلك بالفعل ، فلنذهب لنتحقق منه " .

تقدمنا زحفا على اليدين والركبتين، حتى صرنا بمقربة منه، ثم رفعنا أبصارنا . أجل، كان رجلا، كتلة ضبابية كبيرة فى درع، يقف مشدودا، وكلتا يديه على السلك العلوى، وهناك بالطبع رائحة لجلد يحترق. ياللمسكين ، هوأشبه فى الموت بمسمار كبير الرأس، لا يدرى بما أصابه . وقف هناك كتمثال، بلا حراك، عدا تطاير ريشه فى هواء الليل . نهضنا واقفين، ونظرنا عبر فتحة الخوذة، لنتبين ما إذا كنا نعرفه أم لا، فملامحه شائهة، غير واضحة .

سمعنا أصواتا متداخلة تقترب منا، فرقدنا على الأرض حيث نقف . تبينا بصعوبة فارسا آخر، قادما يتسلل، ويتلمس طريقه . زاد اقترابا الآن، لأننا رأيناه وهو يرفع ذراعه، فيجد السلك العلوى، فينحنى ويخطو من تحته ويتخطى السلك السفلى . وصل الآن إلى الفارس الأول، ويبدأ فى العودة بمجرد اكتشافه إياه . توقف لحظة، لاشك أنه ارتاب فى أمر ذلك الذى لايحير حراكا، ثم قال بصوت خفيض، " لماذا أنت مضطر إلى أن تحلم فى هذا المكان، أيها السيدالمهذب مار ـــ " ثم وضع ذراعه على كتف الجثة، وصدر عنه للحظة قصيرة، أنينا خافتا، و سقط قتيلا . تصور أن الذى قتله كان قتيلا ، ولسان الحال يقول أن من قتله، صديق له لقى حتفه . وفى ذلك ما يبعث على الهلع .

كانت طيور البكور هذه تفد الواحد تلو الآخر، من كل حدب وصوب إلى موقعنا ، فى كل خمس دقائق عبر نصف الساعة. لم يكونوا يحملون سلاحا فتاكا ، بل حملوا كالعادة سيوفا، مشهرة فى الأيدى، دفعوا بها إلى الأمام فوجدوا فى مواجهتها أسلاكا كهربية. صار بإمكاننا الآن، ومن آن لآخر ، رؤية شرارة زرقاء أحدثها فارس، غير ظاهر لعياننا، لكننا كنا على علم بما يحدث له، وياله من مسكين يلقى نفس المصير، بصعقة كهربائية، بمجرد مس السلك المكهرب بسيفه. كان لدينا فواصل

قصيرة، نتجمد خلالها فى مكاننا، فيقطع الصمت علينا، ارتطام دورى مثير للأسى، نتيجة سقوط درع زردية على الأرض، وتواصل هذا النوع من الارتطام، ولم يتوقف هول مايحدث ، وسط الظلمة والوحشة .

قررنا التجول بين الأسيجة الداخلية. وسلكنا الاتجاه المباشر لسهولته ، ونحن على قناعة بأنه لو رآنا أحد لظن أننا أصدقاء لا أعداء، وأنه يجدر فى كل الأحوال أن نكون بمأمن من السيوف، ويبدو أن أفراد النخبة هؤلاء لايحملون رماحا مطلقا كانت جثث الموتى منتشرة فى كل مكان فوق الأرض، خارج السياج الثانى، ولم يسهل علينا تحديد هويات أصحابها ، ولكنها كانت حيث هى بادية للعيان، وقد أحصينا عدد خمسة عشر من تلك التماثيل المحزنة ، من القتلى الفرسان ، واقفين وأيديهم على السلك العلوى . .

بدا هناك شيء لافت، ذلك أن التيار كان من القوة ، بحيث تمكن من قتل الضحية قبل أن تطلق صرخة واحدة . سرعان ما هفا إلى سمعنا صوت متداخل غليظ، حزرنا فى اللحظة التالية ماهيته. كان ذلك إنذارا بقدوم القوات ! همست لكلارنس أن يذهب ويوقظ أفراد الجيش، ويبلغهم بأن يترقبوا صدور أوامر أخرى داخل الكهف . عاد سريعا، فتوقفنا عند السياج الداخلى، وراقبنا الشرر الصامت، يؤدى دوره المرعب فى مواجهة هذا الجيش الزاحف . لايستطيع المرء أن يتبين سوى قليل من التفاصيل، ولكن يستطيع تمييز تلك الكتلة السوداء وهى تتضخم بتلقائية خلف السياج التالى . كانت تلك الكومة المتضخمة، من القتلى ! أحيط معسكرنا بجدار صلب من القتلى ــ ويمكنك اعتباره متراسا، أو تلا مرتجلا، من الجثث . كان الشاغل الأوحد فى كل هذا، غياب صوت البشر عن المكان ، فلا أفراح بالنصر هناك ، أو دعوة للقتل ، حيث كان الهدف من المباغتة ، أن يتحرك هؤلاء فى صمت بقدر المستطاع ، والحاصل دوما أنه حين يوشك الصف الأمامى، على اجتياز مسافة تمكنه

من التأهب لتحقيق الهدف ، كان أفراده يرتطمون طبعا بخط النهاية ، فيتهاوون على الأرض دون أن تصدر عنهم صيحة هتاف واحدة.

قمت فى التو بمد السياج الثالث بالتيار الكهربى، و بعده الرابع ، والخامس، فشغلت الجثث سريعا كل المجازات . رأيت أن الوقت قد حان، لتحقيق الهدف، واعتقدت أن الجيش كله قد وقع فى الفخ الذى نصبناه له، أقصد أن الوقت قد حان لتصفية الحسابات . هكذا ضغطت الزر، وظهر ضوء خمسين شرارة كهربية، على قمة الجرف الذى وقفنا فوقه .

عجبا لمشهد كهذا ! لقد طوقنا بثلاثة جدران من القتلى ! احتشد الأحياء على الأسيجة الأخرى الثلاثة، أولئك الذين كانوا يتسللون، شاقين طريقهم إلى الأمام، عبر الأسلاك . شل حركة أفراد هذا الجيش ضوء مباغت، فتحجروا فى أمكنتهم، وقد بهر الضوء أعينهم ، و لم تبق لدى سوى لحظة قصيرة لوقف تحركهم، ولم أكن لأفوت فرصة كهذه.

ربما توقعت أن يستعيدوا قدرتهم على التفكير فى اللحظة التالية ،وبعد ها ينطلق هتافهم، ومبادرتهم بالهجوم، وأن الأسلاك ستنهار قبل ذلك ، لكن تلك اللحظة الضائعة قد ضيعت فرصتهم إلى الأبد، فبينما كان هذا القدر الضئيل من الوقت ما زال لم ينفد بعد، مددت الأسيجة كلها بالتيارالكهربى، وقضيت على الجيش كله فى المواقع التى وصل إليها ! يمكنك سماع أنين ! إنه صراخ أحد عشر ألفا من الرجال . تضخم الأنين فى ساعات الليل مصحوبا برثاء مروع .

تأكدت بلمحة سريعة، أن بقية الجيش ـ الذى ربما يصل عدده إلى عشرة آلاف من الرجال الأشداء ـ كانوا بيننا، وبين الحفرة الكبيرة، وكانوا يندفعون إلى الأمام بغرض الهجوم . نلنا منهم جميعا فى التو واللحظة ! وجعلناهم قاصرين عن طلب

العون . حان أوان الفصل الأخير من المأساة . أطلقت الإشارة المتفق عليها، ثلاث طلقات من المسدس، ما يعنى :

" ادفعوا بالمياه ! "

سمع صوت هدير الماء ، والهجوم المباغت، وكان الغدير الجبلى ينطلق فى لحظة هادرا عبر الفوهة الكبيرة، ويصنع نهرا اتساعه مائة قدم، وعمقه خمسة وعشرون .

" إلى أسلحتكم أيها الرجال ! أطلقوا النار " .

بدأت المدافع الصغيرة الثلاثة عشر تصب الهلاك، على عشرة آلاف رجل لقوا مصيرهم المحتوم . توقفوا، وأوقفوا هجومهم لحظة أمام ذلك الوابل من الطلقات، ثم انطلقوا إلى الأمام ، وزحفوا نحو الحفرة الكبيرة، كأكوام التبن يواجه عاصفة هوجاء . لم يبلغ الجزء الرابع من قوتهم قمة الساتر الرملى الشاهق، وأما الثلاثة أرباع الذين بلغوه، فقد غمروا بالمياه، ولقوا حتفهم غرقا .

توقفت المقاومة تماما، خلال دقائق معدودة، بعد أن فتحنا عليهم النيران، وانتهت التجريدة، وأصبحنا نحن الأربعة والخمسين فردا، سادة لإنجلترا، وقد أحاط بنا خمسة وعشرون ألف رجل، قد سقطوا صرعى .

ولكن ياخيانتك أيها الحظ ! خلال فترة قصيرة ، ولنقل ساعة، طرأ ما أرجعت سببه إلى خطأ منى، وهو .... ، لاتواتينى الشجاعة على تسجيله كتابة . ولنتوقف هنا .

الفصل الرابع والأربعون

تذييل بقلم كلارنس

أقر أنا كلارنس، بأنه يجدر بى كتابة هذا نيابة عنه. لقد اقترح علينا الخروج، لتقصى ما يمكن تقديمه من عون للجرحى . أصررت من جانبى على رفض الاقتراح . قلت بأنهم إذا كانوا من الكثرة ، فإننا لن نستطيع سوى إبلال القلة ، وليس من الصواب أن نأمن على أنفسنا بينهم على أى وجه . لكنه نادرا ما كان يحيد عن طرح تقدم به، لذلك فصلنا التيار الكهربى عن الأسيجة، واتخذنا مرافقا فى الطريق، وتسلقنا المناطق المحيطة بالفرسان القتلى، وخرجنا إلى الساحة . كان أول من طلب العون من الجرحى، جالسا وظهره مواجها لرفيقه القتيل. حين انحنى الزعيم إليه وتحدث معه، عرفه الرجل وطعنه بخنجر. كان هذا هوالسير ميلياجرونس، وقد عرفته بمجرد أن خلعت الخوذة عنه ، وتأكدت أنه لن يعود إلى طلب العون إلى الأبد.

حملنا الزعيم إلى الكهف، وتعاملنا و جرحه الذى لم يكن خطيرا، بقدر ما وسعنا . استعنا فى ذلك بميرلين، رغم عدم علمنا بشخصه. كان متنكرا ، فى هيئة فلاحة عجوز من ربات البيوت. بدا فى تنكره هذا، وقد ظهر فى تلك الهيئة بوجه حليق مشرب بالسمرة، بعد أيام ثلاثة من إصابة الزعيم، وعرض علينا أن يقوم بالطبخ، زاعما بوصفه امرأة أن أهلها رحلوا للالتحاق بمعسكرات جديدة خاصة ، أقامها العدو، وأنها تعانى الفاقة . تعامل الزعيم مع الأمر بكياسة، وانشغل بكتابة اليوميات .

سررنا بوجود هذه المرأة، لحاجتنا إليها . وكما ترى أننا قد وقعنا فى فخ، فخ صنعناه بأيدينا . وإننا لو بقينا مكاننا، فسيقضى علينا قتلانا، وإذا غادرنا ، فيجب ألا نعرض أنفسنا بعدها للهزيمة. لقد تغلبنا عليهم، وهزمونا فى المقابل. أدرك الزعيم ذلك، وأدركناه جميعا ـ لو تمكنا من الذهاب إلى أحد تلك المخيمات الجديدة، بلى، وأجرينا نوعا من التسوية على نحو أو آخر ، لكن الزعيم كان لايقوى على الذهاب، وكذلك الحال بالنسبة لى، لأننى كنت من أوائل من أصيبوا بالتسمم جراء الهواء الفاسد ، الناتج عن تلك الآلاف من جثث القتلى ، أما الآخرون فتم إخلاؤهم، ومازال هناك المزيد . الغد..

الغد . هاقد حان . وجاء معه بالنهاية المحتومة . استيقظت قرب منتصف الليل، ورأيت تلك الشمطاء، تشير فى الفضاء بإشارات غريبة ، حول رأس الزعيم ووجهه، وصعب على فهم مغزى تلك الإشارات . كان كل شيء يخلد إلى الرقاد عدا ذلك الحارس النشط، وساد السكون كل شىء . توقفت المرأة عن حركتها الحمقاء المريبة، وبادرت بالتسلل نحو الباب . هتفت بها:

" حسبك، ماذا تفعلين ؟"

توقفت وقالت بنبرة من يشفى غليله :

" كنتم المنتصرين، وها قد هزمتم ! وقد هلك الآخرون وأنتم أيضا . إنكم ستلقون حتفكم جميعا فى هذا المكان، جميعكم إلاه . إنه يروح الآن فى سبات عميق، وسيظل كذلك لثلاثة عشر قرنا قادمة من الزمان . أنا ميرلين " .

انتابته نوبة من الضحك الأبله، حتى صار يترنح كالمخمور، ووقع فى التو على سلك من أسلاكنا. فغر فاه ، مايشير إلى أنه باق على الضحك، و أعتقد أن الوجه سيظل محتفظا بهذه الضحكة المتحجرة، إلى أن تتحول الجثة إلى رماد .

لم يتحرك الزعيم البتة، كان راقدا كحجر، فإذا لم يستيقظ اليوم، فسندرك كنه رقاده، وسيحمل جسده آنئذ، إلى مكان فى أحد مداخل الكهف النائية، حيث لاقبل لأحد بالعثور عليه لتدنيسه. أما بشأن بقيتنا، فقد تم الاتفاق فيما بيننا على أنه إذا تمكن أحدنا من الفرار حيا من هذا المكان، فليكتب عن حقيقة ما وقع هنا من أحداث، وأن يخفى هذا المخطوط، وفاء للزعيم، قائدنا الموقر والحبيب، وتلك صفاته المميزة، حيا كان أو ميتا.

نهـــاية المخطــوط

خاتمة بقلم كاتب الرواية مارك توين

انبلج الصبح لحظة أن وضعت المخطوط جانبا . أوشكت الأمطار على التوقف، وخيمت على الدنيا غيوم وأحزان، وتثاءبت عاصفة هوجاء، إشارة إلى الخلود للراحة . مضيت إلى غرفة الغريب، ووقفت ببابه الموارب أتسمع، أستطيع الآن سماع صوته، لذا طرقت الباب . لم أتلق ردا لكنني ما زلت أصغى إلى صوته . تسللت إلى الداخل. كان الرجل راقدا على ظهره فى الفراش، يواصل حديثه بعبارات غير مفهومة ، ويوقف حديثه فى كل مرة بتلويح من ذراعيه، وإشاحة بهما هنا أو هناك، دون توقف، كما يفعل مرضى البطاح . سرت وئيدا وانحنيت نحوه . تواصل هياجه ودمدمته . نطقت بكلمة واحدة للفت انتباهه . سرعان ما أشرق وجهه المغبر، وعيناه الزجاجيتان، بالبهجة، والامتنان والرضا، والقبول:

" آه، ساندى ،ها قد أتيت أخيرا، كم طال شوقى إليك ! اجلسى بجوارى ساندى ، لا تتركينى، لا ترحلى عنى مجددا، لاترحلى البتة . أين يدك ؟ أعطنى إياها، ياحبيبتى، دعيها بين يدى ...... كل الأمور حسنة الآن، تنعم بالأمن، إننى أشعر بالسعادة مجددا ، نشعر معا بالسعادة مجددا، أليس كذلك ياساندى ؟ أراك محاطة بالحزن والغموض، أراك مجرد سديم ، سحابة، لكنك حاضرة هنا، وياله من عطاء جزل ، أمسك بيدك، فلا تجفلينها ، فالأمر مجرد لحظات قليلة، لن أطلب أن تطول ...... أتلك هى الطفلة ...... "مرحبا ــ سنترال" ؟ إنها لاترد .... أنائمة هى، ربما ؟

أعطنيها، حين تستيقظ من نومها، دعيني أتحسس كفيها، وجهها، شعرها، وأقول لها: وداعا .... ساندى ! .... أجل، ها أنت هنا . لقد غبت عن الوعى للحظات، وظننتك قد رحلت .... أبقيت طويلا فى الفراش ؟ لابد للأمر أن يكون كذلك، تبدو لى كأنها شهور . وأى أحلام تلك ! أحلام على نحو من الغرابة والرهبة، ساندى ! أحلام تطابق الواقع تماما، ذلك هذيان الحمى بالطبع، لكنه يحمل كثيرا من الواقع ! وكان غريبا أن أظن بموت الملك، وأظنك فى بلاد الغال ، ولا تقدرين على العودة إلى الديار، وظننت بقيام ثورة، فى زخم عجيب من هذه الأحلام، وظننت أننى وكلارنس، وحفنة من أبنائى الأبطال، قد حاربنا فرسان إنجلترا قاطبة، وأبدناهم عن آخرهم ! لكن ذلك لم يكن أغرب ما فى الأمر . لقد تراءى لى أننى كائن قادم من عصر لم يحن أوانه بعد، يبعد عنا قرونا، وحتى ذلك كان حقيقيا كالبقية ! أجل، تراءى لى أننى قد عدت إلى الوراء، إلى أزمنة تبعد كثيرا عن زماننا هذا، ثم عبرتها مجددا، وتركت هناك غريبا بائسا ، فى إنجلترا الغريبة، تفصلنى عنك هوة تقدر بثلاثة عشر قرنا من الزمان ! باعدت بينى، وبين موطنى، وأصدقائى ! وبينى وبين كل عزيز لدى، مايجعل الحياة تستحق بالكاد أن تعاش ! ساندى، كان الأمر باعثا على الرهبة بأكثر مما يمكن أن تتخيلى. آه، ابق معى ، ساندى ،ابق إلى جانبى فى كل لحظة، لاتتركينى أغرب عن نفسى مجددا، لاتجفلى من الموت ، دعيه يأتى إلى، ولكن دون أن تصاحبه تلك الأحلام، و عذابات الكوابيس المفزعة تلك ، حيث لا يمكننى تحمل ذلك مجددا، .... ساندى ؟ .... "

ظل يغمغم بعبارات غامضة لوقت قصير، ثم رقد صامتا لفترة أطول من التى سبقتها ، وبدا أنه يرحل بعيدا نحو الموات . بدأت أصابعه الآن، تحاول رفع غطاء الفراش وعلمت بتلك الإشارة أن أجله قد حان . ومع ظهور بوادر حشرجة الموت فى حلقه، نهض من رقاده بصعوبة، وبدا يصغى إلى شيء، ثم قال :

" انفخ فى البـوق ! ...... إنـه الملـك ! هـاهو الجـسر المتحـرك ! احتـشدوا فى شرفات الحصن ! وأديروا الــــ "

نهض من الفراش ، فى آخر حراك له ، إلا أنه لم يتمه قط .

المؤلف فى سطور:

مارك توين

- اسمه الحقيقى صامويل لانجورن كليمنز .
- ولد فى ٣٠ نوفمبر ١٨٣٥، لتاجر من ولاية فلوريدا، وتوفى فى ٢١/ ٤/ ١٩١٠.
- ابتكر أسلوب السّخرية فى الأدب الأمريكى، ويعدّ الرّائد الأول فى هذا المجال، وقد أطلق عليه السّاخر العالمى الأوّل.
- عمل بصحيفة "بافلو إكسبريس " محرّرا وكاتبا، ومالكا لأسهم فيها.
- منح الدكتوراه الفخريّة فى الأدب عام ١٩٠٧.

من أهم أعماله:

- رواية "ضفدع كالافارى الشّهير بالوثّاب " عام ١٨٧٦ .
- كتاب رحلة "الحجّاج إلى الأرض المقدّسة ".
- رواية " اخشوشن"، عام ١٨٧٢ .
- مجموعة قصص قصيرة، تحمل عنوان "القديم والحديث "، عن دار أمريكا للنّشر.
- كتاب " الحياة على نهر المسيسبى".
- رواية "شمالى من كونيتيكت فى بلاط الملك آرثر"، عام ١٨٨٨ .
- رواية "آدم وحوّاء"، ١٨٩٣ .
- له العديد من المقالات الأدبيّة المنشورة.

المترجم فى سطور:

عبد الباقى بركات

ــ حاصل على بكالوريوس العلوم المالية والتجارية ــ كلية التجارة الخارجية جامعة حلوان ــ عام ١٩٧٢ .

ــ حاصل على دبلومة فى اللغة الإنجليزية من The British Tuitorial College الكلية البريطانية للتعليم ــ لندن١٩٧٥ .

من ترجماته:

* الحرف القرمزى The scarlet letter للكاتب الأمريكى ناتانييل هووثورن.
* الحرف القرمزي مسرحية للكاتبة المسرحية الأمريكية ناجى فيلليس .
* "فى قلب أمريكا "، ناعومى والاسى .
* "الشاب من أطلنطا" للكاتب المسرحى الأمريكى هورتون فوت .
* "رحلة الحجاج إلى الأرض المقدسة" رواية للكاتب الأمريكى مارك توين .
* شهالى من كونيتيكت فى بلاط الملك آرثر ، مارك توين.
* "غدا"مسرحية للكاتب المسرحى الأمريكى هورتون فوت .

من مؤلفاته:

* طويل العمر ديوان شعر، ١٩٩٣ .
* الموت هدرا ، ١٩٩٤ .
* "سجن الغريب" مجموعة قصصية، ١٩٩٤.
* "أوهام معشوق "، ١٩٩٧ .

التصحيح اللغوى: محمود فتحى
الإشـــراف الفنــى: حســن كامل